العلاقات بين المغول و أوروبا
وأثرها على العالم الإسلامى

تأليف

دكتور عادل اسماعيل محمد هلال

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٩٩٧

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمي - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher:ËIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

إهداء

وتحية وتقدير إلى الصديق النبيل،

والزميل الكريم :

الدكتور / رشوان محمود جاب الله

وإلى كل الشرفاء الذين يتقون الله سراً وعلانية .

عادل هلال



المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله رب العالمين ، والصلاة و السلام علي أشرف المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلي آله و صحبه أجمعين ... اما بعد: فموضوع العلاقات بين المغول و أوروبا موضوع تناولته أقلام المؤرخين المحدثين في الشرق و الغرب علي حد سواء . ولكن تمت دراسته من بعض الجوانب دون البعض الآخر واعتماداً علي مصادر مُعينة شرقية أوغربية حسب موقع المورخ و رؤيته للأحداث واهتماماته . ويُحسب لهؤلاء المورخين شرف الريادة في طرق موضوعات بكر وفتح أبواب جديدة لمن أتي بعدهم من جيلي ومن هؤلاء J.B.Chabot في دراسته القيمة للعلاقات بين أرغون خان و الغرب التي نشرها عام ١٨٩٤ م ، و Paul Pel-liot في بحثه غير المسبوق عن البابوية و المغول الذي نشره في أعوام ١٩٣١،١٩٢٤،١٩٢٢ وA,G, Moule في مقالاته وكتابه عن المغول والمسيحية في وسط آسيا وفي الصين التي نشرها في الفترة من ١٩١٤حتي ١٩٣١وJ.J.Saunders في كتابيه عن تاريخ غزوات المغول والمسلمين والمغول. والجدير بالذكر أن الكتاب الأخير نشر عام ١٩٧٧ بعد وفاة مؤلفه وبالفصل الأخير منه خطة بحث لموضوع العلاقات المغولية الأوربية مات دون استكماله. و هذا ما استفدت منه فائدة كبيرة . وأنوه أيضًا برسالتي الدكتوراه لكل من .Charles W.Connell و Barbra Rose Phaire ١٩٧٢،١٩٦٤ علي التوالي في موضوعات تمس الفصل الاول من هذا الكتاب، وكذلك كتاب Igorde Rachewiltz عن سفراء البابوية لقادة المغول المنشور عام ١٩٧٠ وكان يمكن أن يكون دراسة طيبة لو اهتم الباحث بتوثيقه و الأخذ في الاعتبار تأثير هذه العلاقات علي العالم الإسلامي .

ويسعدني ان أنوه أيضًا بجهد أساتذتنا الدكاترة فؤادعبد المعطي الصياد- وهو رائد الدراسات المغولية بلا منازع ، وحافظ أحمد حمدي و فايد حماد عاشور ، وغيرهم ممن كتبوا بعمق و اعتماداً علي المصادر الشرقية عن المغول و علاقاتهم بالقوي الإسلامية في وسط آسيا وغربها .

ومن توفيق الله تعالي أن وفقني للعثور أو الاطلاع علي مجموعات المصادر الأولية الشرقية والغربية علي حد سواء عن طريق الاتصالات الشخصية بمكتبات الجا معات الأمريكية و بالاطلاع المباشر عليها في أرشيفات الجامعات الألمانية (الغربية) إبان دراستي لهذا الموضوع بجامعة كييل في الفترة من ١٩٨٥ حتي ١٩٨٧ م.

و يتكون هذا الكتاب من تمهيد تاريخي لموضوع الدراسة وأربعة فصول وخاتمة وأربعة ملاحق .

فالتمهيد التاريخي عبارة عن نبذة مختصرة للاتصالات بين آسيا وأوروبا في العصور الوسطي الباكرة ، و دراسة لأسطورة الكاهن يوحنا وتطورها وذلك لارتباط هذه الأسطورة في أذهان الأوربين بوجود مملكة مسيحية في اسيا خلف ظهر المسلمين على استعداد للتحالف مع الصليبيين لتطويق المسلمين ، وذلك لتطور نظرة الغربيين لهذه الاسطورة بظهور المغول وانتصاراتهم المتتالية علي المسلمين في وسط آسيا وغربها وتصوروا أن خلفاء جنكيز خان يمكن ان يقوموا بالدور المأمول من «الكاهن يوحنا» .

وتناول الدارس في الفصل الاول «الاتصالات بين المغول و أوروبا من عام ١٢٣٧ حتي عام ١٢٥٥ م. و درس الباحث بإيجاز غزو المغول لروسيا و بولندا و المجر و مورافيا في الفترة من ١٢٣٧-١٢٤٢ م ، و رد الفعل للغرب الكاثوليكي من اكتساح المغول لشرق أوروبا و ما نتج عن ذلك من تدمير مدنها وكنائسها و ذبح سكانها دون تفرقة بين عمر الضحايا أو نوعهم . وتعرض الكاتب للسفارات المتبادلة بين البابوية وقادة المغول وللاتصالات المتبادلة بين الأخيرين والملك الفرنسي لويس التاسع وكذلك لبعثات الرهبان الكاثوليك لقادة المغول في تلك الفترة .

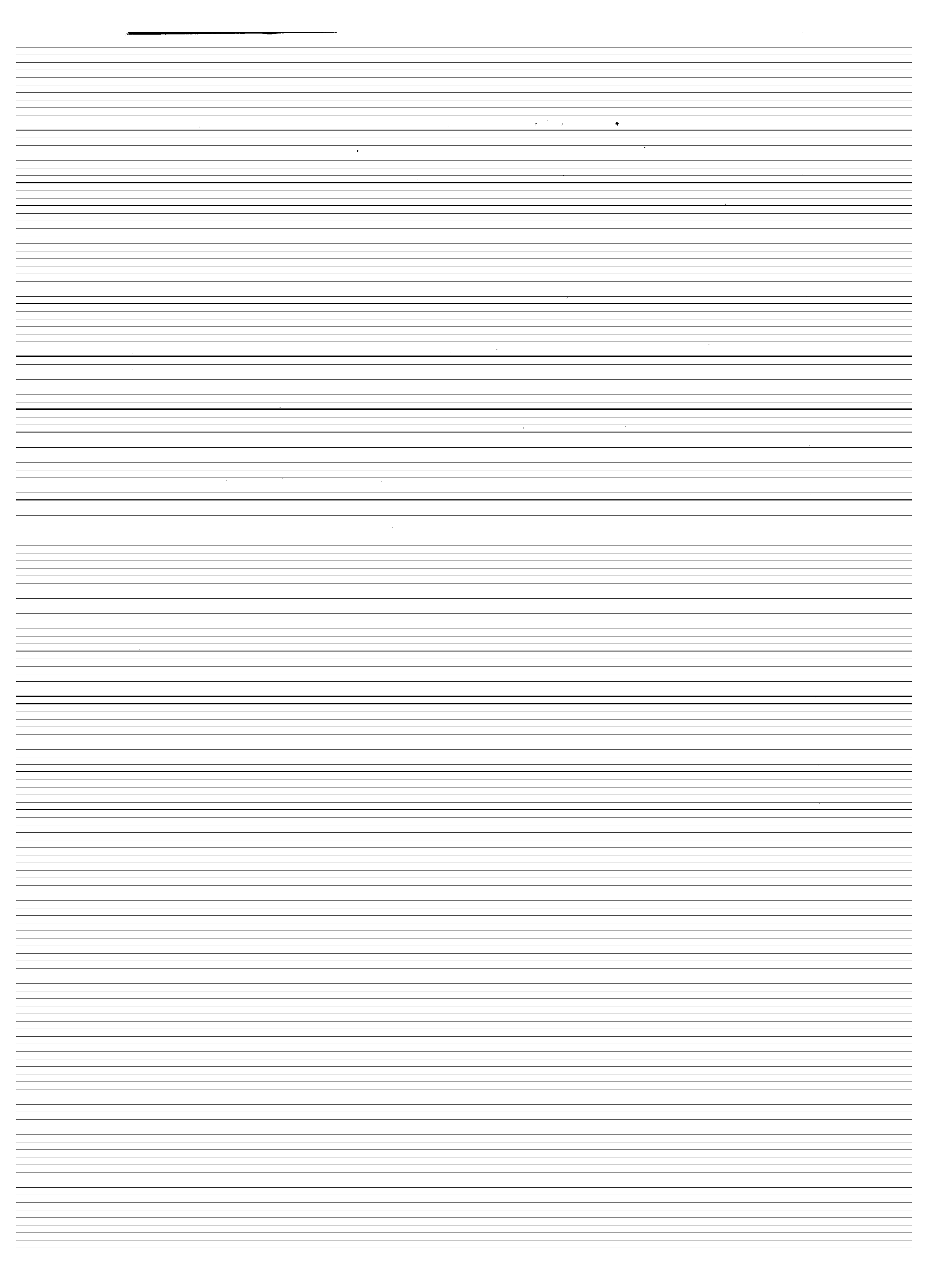
و استعرض الباحث «محاولات التحالف العسكري بين مغول فارس و الغرب الاوربي ضد المماليك » في الفصل الثاني ، فتمت دراسة موازين القوي السياسية في الشرق الادني في باكورة النصف الثاني للقرن الثالث عشر الميلادي ، و موقف الصليبيين من الغزو المغولي لبلاد الشام، والسفارات العديدة التي أرسلها إيلخانات المغول للبابوية وكل من ملكي انجلترا وفرنسا طلباً للتعاون المشترك ضد المماليك . و ربط الباحث جميع هذه السفارات وردود الغرب الأوربي عليها بالملابسات الإقليمية والمؤثرات السياسية الدولية لطرفي التحالف والطرف المتحالف ضده (أى المماليك) . وتناول المؤلف في نهاية هذا الفصل أسباب عدم خروج «مشروع» التحالف المغولي - اللاتينى ضد المسلمين إلي حيز التنفيذ بالصورة التي أرادها له الطرفان .

و عالج الفصل الثالث «السياسة الدينية للمغول وجهود البابوية لتنصيرهم». وفيه تم دراسة موقف قادة المغول - بوذين أو مسلمين - من أتباع الديانات المختلفة من رعاياهم والظروف المحيطة بتواجد الرهبان الكاثوليك في إيلخانية فارس و الهند والصين و إنجازاتهم والمشاكل التي اعترضتهم و أهدافهم من تنصيرالمغول . ونظراً لاعتناق قادة المغول فى ثلاثة

إيلخانيات (من أربعة للمغول في كل آسيا و شرق أوربا) للإسلام فكان من الأهمية بمكان – في نهاية هذا الفصل – تفسير أسباب فشل البعثات الكاثوليكية في تنصير المغول .

و خصص الفصل الرابع لدراسة «أوضاع التجار الإيطاليين في الأسواق المغولية» . وبدأ الباحث بدراسة سياسة المغول في فتح الطرق التجارية وتأمينها لجميع التجار ، والمزايا التي حصل عليها تجار المدن الإيطالية في أسواق المغول و السلع التي تاجروا فيها والمعاهدات التي عقدوها مع المغول . ولم يغفل الباحث دراسة تأثير الحصار الإقتصادي اللاتيني علي الموانئ المصرية والشامية علي تجارة اللاتين في أسواق المغول . وأتبع ذلك بدراسة أثر انهيار الاستقرار السياسي في دولة مغول فارس بوفاة الخان أبو سعيد عام ١٣٣٥ دون وريث شرعي علي أوضاع التجار الإيطاليين في أسواق آسيا الداخلية . وانتهي هذا الفصل بدراسة لأسباب توقف تجار المدن الإيطالية عن ارتياد أسواق المغول في وسط آسيا وشرقها منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي .

و قد عرضت «الخاتمة» مُلخصاً للنقاط الهامة في البحث و الجديد في الموضوع . وأرفق المؤلف بالكتاب أربعة ملاحق: الأول قائمة بأسماء حكام القوي السياسية في الشرق المغولي والعربي الإسلامي والغرب الأوربي في الفترة التاريخية التي يعالجها البحث. و الثاني ترجمة- غير مسبوقة – للتقرير الذي قرأه سفير أبغاخان في مجمع ليون الثاني عام ١٢٧٤، والثالث و الرابع ترجمة لخطابين لهما أهمية خاصة لموضوع البحث من حكام مغول فارس الي الملك الفرنسي فيليب الرابع في عامي ١٢٨٩، ١٣٠٥م.



تقديم

المغول فى التاريخ ، موضوع مثير ومحير ومربك. ذلك أنهم ومضوا فى تاريخ البشرية مثل شرارة خارقة مذهلة . وحين خرجوا من بلادهم تحت قيادة جنكيز خان على خيولهم القصيرة ليتجهوا غربًا صوب المنطقة العربية والبلقان نشروا الرعب والفزع والذهول بين الشعوب التى قهروها ودمروا بلادها. ولهذا السبب نُسجت حولهم أساطير كثيرة تجعل منهم قوة خارقة ، وتجعل من أفعالهم أفعالاً وراء تاريخية؛ أى تخرج عن نطاق قوانين التاريخ المعروفة. وشارك فى نسج خيوط هذه الأساطير المؤرخون العرب المسلمون ومؤرخوا أوربا على السواء . وربما كان اجتياحهم للخلافة العباسية فى منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وقضاؤهم على هذه الخلافة بقتل الخليفة وأهل بيته وتخريب عاصمته ، وراء الصدمة الكبيرة التى أصابت المسلمين وانعكست أصداؤها فى كتابات مؤرخيهم وأدبائهم ، وحالة الإحباط واليأس والقلق التى انتابت سكان المنطقة العربية بعد أن وجدوا أنفسهم بدون خليفة للمرة الأولى فى تاريخهم .

ومن ناحية أخرى ، كان العالم العربى مكشوفًا أمام الهجمة الأوربية الكاثوليكية تحت راية الصليب ، وبات القلق والخوف عنوانًا على الوجود العربى الإسلامى ذاته . لذا كانت معركة عين جالوت التى خاضها المسلمون بقيادة السلطان المملوكى سيف الدين قطز انعطافا إيجابيا حاداً فى تاريخ المنطقة العربية خاصة ، وفى تاريخ العالم الإسلامي كله بوجه عام . وتولت دولة سلاطين المماليك مهمتها التاريخية لتصفية الوجود الصليبى على الأرض العربية من ناحية ، والتصدى لأهوال الغزو المغولى وكسر موجته العاتية من ناحية أخرى . وكان هذا الوضع التاريخى إغراء للغرب الأوربى الكاثوليكى لمحاولة تكوين حلف مغولى / أوربى لتطويق العالم الإسلامى وإنهاء الوجود الحضارى والسياسى للأمة الإسلامية . وهذا هو موضوع هذه الدراسة الجادة التى يقدمها الدكتور عادل هلال فى صفحات هذا الكتاب . وهذه الدراسة تقدم للقارئ نموذجًا فى العلاقات الدولية العدوانية ؛ بين قوة شرقية وثنية صاعدة وقوة أوربية كاثوليكية طامعة لحصر الأمة العربية الإسلامية وتجريدها من أسباب قوتها وعناصر وجودها . وعلى الرغم من أن التنافس على المغول بين المسيحية والإسلام قد حسم بشكل نهائى لصالح الإسلام حين تحول المغول إلى الإسلام ولم يلبثوا أن صاروا قوة دفع إضافية فى بناء حضارته على نحو ما يشهد به تاريخهم فى فارس والهند . تقول إنه على

الرغم من ذلك فإن الدراسة تكتسب مشروعيتها من حقيقة أن العلاقات الدولية ، وهى تسعى إلى تحقيق مصالح أطرافها ، تتغاضى كثيرا عن الاختلافات الدينية واللغوية والبشرية والثقافية .

لقد كانت بابوية أوربا العصور الوسطى مثالاً لهذا النمط من الانتهازية السياسية ، وهو الأمر الذى يكشف عنه الباحث فى دأب وصبر يحسبان له . ولست أظن أن القارئ بحاجة لأن أكرر على مسامعه تفاصيل هذه الدراسة الجيدة والجادة ، فإن صفحات الكتاب تحمل الكثير مما يمكن أن يكتب أو يقال ، بيد أننى أود أن أشير إلى أن الدراسة التى بين أيدينا اعتمدت على كل ما أمكن الوصول إليه من المصادر التاريخية الأصلية فى عدد من لغات البشر ، كما استشارت الدراسات الحديثة التى نشرت حول جزئيات هذا الموضوع . ولاغرو أن جاءت هذه الدراسة متكاملة قوية تحمل بصمات منهجية واضحة . ولست أزكى هذا الكتاب لأنه يزكى نفسه بجهد صاحبه ، والله الموفق والمستعان.

دكتور قاسم عبده قاسم

شكر وتقدير

أحمد الله – أولاً وأخيراً –أن هيأ لي أسباب التوفيق في جميع مراحل هذه الدراسة التي كانت في الأصل موضوعًا لرسالتي لدرجة الدكتورة التي نوقشت بآداب الزقازيق عام١٩٨٧ . وأسجل شكري وتقديري للأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم الذي شرفت بأن تتلمذت علي يديه واشرف علي هذا البحث – كما أنوه بأسلوبه الديمقراطي في المناقشة و اعطاء التوجيهات وتشجيعه لي على ارتياد مناطق مجهولة في مجال البحث – و أشكر أيضاً الاستاذ الدكتور (المرحوم) صبحي لبيب الأستاذ السابق بجامعة كيل بألمانيا (الغربية) الذي أشرف علي دراستي بتلك الجامعة وساعدني وأسرتي في حل جميع مشاكلنا هناك والذي قدمني للعديد من المتخصصين في مجال المغول و الصليبيات بالجامعات الألمانية .

ويسعدني أن أشير بالتقدير لأستاذي الأمريكى البروفسير جون الدن وليامز John.A.Williams لتفضله عليّ بتصوير كثير من المصادرالأساسية و ثلاثة رسائل دكتوراه– غير مطبوعة – في موضوع البحث و هذا ساعدني كثيراً علي الاطلاع علي أهم ما كتب عن هذا الموضوع . و أشكر أيضًا البروفيسورFranz Qudlbauer- أستاذ اللغة اللاتينية بجامعة كيل و الدكتورة Viviana Amariبجامعة باليرمو بإيطاليا و صديقي الألماني– الإيطالي Helmut Weiser و الأب منصور مستريح بمعهد الآباء الفرنسسكان بالقاهرة علي تفضلهم بمساعدتي في ترجمة أهم الوثائق اللاتينية و الإيطالية .

و أسجل تقديري للصديق النبيل و الزميل الوفي الدكتور رشوان محمود جاب الله علي مساعداته القيمة التي قدمها لي إبان مراحل هذا البحث و بعدها .

و أشكر عشرات الشخصيات الذين قدموا لى مساعدات علمية وإدارية ساعدتني علي أداء مهمتي علي خير وجه بجامعات ومكتبات الزقازيق و الجامعة الامريكية بالقاهرة ومكتبة المعهد الفرنسي بالقاهرة ،ومكتبة معهد الآباء الفرنسسكان بالقاهرة أيضًا و في جامعتي كيل وهامبورج بألمانيا (الغربية) .

وأخيراً يسعدني أن أسجل بكل معاني العرفان بالجميل لوالدي الكريمين علي ما بذلاه من تضحيات وعرق في المراحل الأولي لدراستي وعلي دعواتهما لي بالتوفيق من قبل ومن بعد. وكذلك أسجل بالتقدير لزوجتي الفاضلة السيدة/فايزة أبو بكر صالح حميده أنه كان لها أكبر الأثر في منحي الاستقرار العائلي المنشود و الصفاء الذهني اللازمين للتفرغ الكامل للبحث والدراسة .

و بعد:

فلا أدعي أنني قد وفيت موضوع الكتاب حقه من البحث و الدراسة فهذا اكبر من إمكانياتي البشرية ،فالموضوع يحتاج الي جهد جماعي لكتابة كثير من التفاصيل التي أغفلتها ، فعنوان كل فصل من فصوله بلغاتها يصلح أن يكون كتابًا مُستقلاً بذاته ، وهناك عشرات الوثائق ما زالت مخطوطة الأصلية في انتظار باحثين يتحلون بالصبر واتقان اللغات القديمة لترجمتها ودراستها و نشرها . والكمال لله وحده. و يكفيني أنني اعتمدت علي المصادر الأصلية الشرقية و الغربية علي حد سواء و علي الدراسات التي كتبت فيه بعدة لغات أوربية ، و حسبى ارتياد موضوع صعب وطويل ، حاولت فيه كتابة بحث يغطي أهم جوانبه دون تطويل مُمل أو اختصار مُخل ، فإن أكن قد نجحت في مسعاي فهذا توفيق من الله سُبحانه و تعالي و بفضل الذين عاونوني إشرافًا ومُراجعة ، وإن كانت الأخري فحسبي أنها فتحت للباحثين -باللغة العربية -أبوابًا مغلقة يمكن أن يطرقوها لعلهم يوضحون بجهدهم غامضًا أو يفصلون مجملاً أو يُضيفون جديداً . وفوق كل ذي علم عليم .

عادل هلال

دمنهور في غرة محرم عام ١٤١٧هـ   الموافق ١٩مايو ١٩٩٦ ميلادية

تمهيد تاريخي

الصلات بين آسيا وأوروبا قبل العصر المغولي

إن الصلات بين وسط آسيا و جنوبها وأوروبا سواء علي المستوي الفردي او الرسمي موغلة في القدم . وقد ساعدت حملة الإسكندر الأكبر على الهند ٣٢٦- ٣٢٤ ق.م على الاحتكاك المباشر بين الإغريق وسكان وسط آسيا بما فى ذلك انتقال الثقافات والمؤثرات الإغريقية لهذه المناطق . وتصور مؤرخو الإسكندر وخلفاؤهم أمثال سترابو Strabo وبليني Pliny وآريان Arrian أن صحراء الهند هي أرض الذهب والمعادن النفيسة، وأن وديانها هي موطن التوابل. و الأعشاب الطبية، وأن أنهارها مصدر الحيوانات المفترسة والعجيبة . وقد انتقلت المنتجات الهندية والفارسية للجزر الإغريقية منذ ذلك الحين عن طريق الوسطاء و بالطرق البرية في وسط آسيا و الخليج العربي و البحر الأحمر(١)

و كان بين الساسانيين (٢٢٦ م - حتي منتصف القرن السابع الميلادي) و الإمبراطورية الرومانية حروب مريرة وطويلة ترجع أساسًا لرغبة الطرفين في السيطرة علي المناطق الغنية في القوقاز وآسيا الصغري . و بعد اعتراف الإمبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية كأحد الديانات المرخصة في إمبراطوريته في الربع الأول للقرن الرابع الميلادي ، فإن منافسة الفارسي شابور الثاني (٣٠٩-٣٧٩ م) و حلفاءه اضطهدوا النصاري في إمبراطوريتهم نكاية في الرومان والبيزنطيين ، وإن كانت معاملتهم لرعاياهم المسيحيين قد مالت للاعتدال بعد أن تحول الأخيرون للمسيحية النسطورية في نهاية القرن الخامس نظراً لاضطهاد البيزنطيين للنساطرة بعد مجمع إفسوس عام ٤٣١م الذي حكم علي نسطور بالهرطقة و الانشقاق .

و في ذلك الوقت كانت هناك أيضا معتقدات ظهرت في إقليم فارس مثل المانوية والمزدكية فضلاً عن الزرادشتية التي كان لها مؤيدين خارج فارس ، و من ثم تغيرت نظرة الأوربيين لفارس من اعتبارها مركزا لاضطهاد المسيحيين إلي اعتبارها «ملجأ للهراطقة» (٢).

و لما كان خسرو انوشروان مغرما بالفلسفة اليونانية ، فإنه عهد الي صفوته بترجمة بعض مؤلفات أرسطو وأفلاطون وغيرهما إلي اللغة البهلوية Pahlavi . وشاعت شهرته كإمبراطور فيلسوف يعمل علي تحقيق جمهورية افلاطون المثالية في مملكته حتي أنه عندما أغلق الامبراطور جستنيان مدرسة أثينا المشهورة حينئذ بدراسة القانون والفلسفة ، فإن أشهر فلاسفتها فروا إلي فارس و عوملوا معاملة كريمة من الإمبراطور الشرقي الذي طلب من غريمه البيزنطي -أثناء مفاوضات الصلح بينهما - حسن معاملة هؤلاء الفلاسفة في موطنه.(٣)

و من الناحية التجارية ، فقد كان الحرير الأسيوي يصل الي روما منذ عصر الجمهورية؛ فعندما رجع بومبي من رحلته في الشرق فإنه كان مرتدياً قلنسوة من الحرير الفاخر الذي كانت الصين المصدر الأساسي لمواده الخام . وكان يعاد تطريزه في مصر و سوريا ليناسب الذوق الروماني . و كان الفلفل و غيره من البهارات من جنوب آسيا يقدم علي موائد القادة الرومان كما أشار بليني المؤرخ الروماني .وفي العصر الامبراطوري المسيحي ازداد تدفق التوابل لروما بعدوصول النفوذ الروماني للبحر الأحمر و ظهور مملكة أكسيوم المسيحية في الحبشة و قيامها بدور هام في التجارةمن المحيط الهندي للبحر الأحمر حتي ظهور الإسلام .(٤)

و بعد انتقال مركز الثقل السياسي و الاقتصادى للقسطنطينية منذ النصف الأول للقرن الرابع فإن مركزالثقل والتجارة قد تركز في الطرق البرية في آسيا الصغري و الشام بجوار العاصمة الجديدة التي وصلتها تجارة الحرير و التوابل الواردة إليها من الشرق من خلال التجار الفرس والسريان والسوريين . و لكن تجارة الحرير واجهت ضربة قوية عندما اكتشف الأوربيون – بواسطة راهبين فارسيين – لغز صناعة الحرير وانتاجه. ولكن استمر ولع الطبقات العليا في روما والقسطنطينية– حتي قادة البرابرة الجرمان – بالبهارات و المنتجات الأسيوية كبيراً ، حتي أن آلريك القائد الجرماني طلب أن تدفع له روما عام ٤٠٨م التوابل كجزء من ضريبة التبعية. بل إن الأباطرة البيزنطيين كانوا يقدمون الحرير و التوابل لقادة القبائل الجرمانية في القرنين الخامس والسادس كنوع من الهدايا أو الرشوة كيلا يغيروا علي ممتلكاتهم .(٥)

و عندما كانت الحرب سجالاً بين الفرس والبيزنطيين ، فإن الأسري الأوربيين قد شاهدوا عن قرب الصناعات و الحرف الفارسية التي كانت منتجاتها تصل لأوربا عن طريق التجار البيزنطيين أو السريان أو الفرس ، ووصلت شهرة المنسوجات الفارسية حتي غالة .

و باختصار فإن نظرة أوروبا لفارس الساسانية كانت مزيجا من الاحترام لقواتها العسكرية التي حالت دون توسيع حدود الإمبراطوريتين الرومانية و البيزنطية في القوقاز و وسط اسيا ، ومزيجا من الفضول و الرهبة من معتقداتها الدينية و خشية انتقالها للحدود الرومانية ، وازدراءً لفلسفاتها الشرقية، و أخيرا إعجابًا بالمنتجات الآسيوية من حرير وتوابل بصفة عامة وبالمنسوجات الفارسية بصفة خاصة. (٦)

وفي القرن السابع الميلادي استطاعت الجيوش الإسلامية الزاحفة شرقاً و غرباً تغيير موازين القوي في العالم ، ففي غضون حوالي قرن من الزمان تم الفتح الإسلامي للمنطقة الواقعة بين

نهر سيحون شرقاً و المحيط الأطلنطي غرباً ، و أصبحت أقاليم وسط آسيا وغربها ومصر وكل شمال أفريقيا و الأندلس خاضعة لخليفة المسلمين في دمشق . و من ثم لم تعد هناك حدود أو صلات مشتركة بين أوروبا ووسط آسيا عامة وفارس خاصة ، و إنما هي علاقات عدائية بين الخلافة العباسية بعد ذلك والإمبراطورية البيزنطية للصراع علي منطقة آسيا الصغري ومحاولات مد الزحف الإسلامي إلى قلب بيزنطة . و قد بدأت اتصالات سلمية في عهد الخليفة هارون الرشيد مع شارلمان لبلورة مصالح الطرفين للتحالف ضد بيزنطة شرقًا و الأمويين في الأندلس غربًا . و لكن هذا التحالف لم يخرج عن تبادل الوفود و الهدايا بين العاهلين العباسي و الكارولنجي لأسباب كثيرة منها أن قوات البيزنطيين و الأمويين في الأندلس كانت في حالة تسمح لهما برد الاعتداء بل و أحيانا بنقل ميدان المعركة لأرض الخصوم . و يعنينا هنا أيضًا أن التجار المسلمين و اليهود حلوا محل التجار البيزنطيين والسريان والفرس والأقباط في نقل التجار ة بين الشرق الآسيوي والغرب الأوربي وظهرت الأهمية التجارية لمدن وموانى جديدة في بغداد والبصرة وسيراف .

ولاتعزل وسط آسيا و جنوبها عن أوربا فإن مؤلفات المؤرخين الإغريق والكتاب المقدس ظلت مصدراً جغرافيًا لفكرة أوروبا عن الشرق الآسيوي . فروايات سفر التكوين عن الجنة التي تقع في الناحية الشرقية من العالم ، و تقسيم الأرض بين أولاد نوح و وجود قبائل يأجوج و مأجوج المتوحشة [٧] في مناطق مغلقة كان لها تأثيره علي رؤية أوروبا العصور الوسطي الباكرة للمناطق الآسيوية شرقي نهر دجلة .[٨]

وفضلاً عن ذلك ، فإن الاعتقاد بوجود رفات القديس توما-كأحد الحواريين الذين ذهبوا الي الهند للتبشير بالمسيحية ومات ودفن بها- جعل الأنظار تتجه إلي الهند ليس فقط باعتبارها بلاداً للمعادن النفيسة والتوابل بل أيضًا باعتبارها أحد المزارات المقدسة التي تحدث فيها معجزات للقديس الشهيد كل عام في ذكري مولده.[٩]

وتروي حولية الأنجلو-ساكسون في أحداث عام ٨٨٣م أن الملك الفريد السكسوني قد اوفد بعثة من قبله للبحث عن رفات هذا القديس أو معجزاته . و لكن لم يعثر علي اثر مادي حتي الآن يدل علي وصول هذه البعثة الي الهند هذا إذا كانت قد خرجت من انجلترا من الأصل.[١٠]ولكن يهمنا ان تصور الغرب الأوربي حينئذ بوجود شعب مسيحي خلف جدران العالم الأسلامي كان مصدراً خصبا لروايات وأساطير عن إمكانية التحالف مع هذا الشعب ضد العالم الإسلامي ، أو علي الأقل البحث في إمكانية تكملة مهمة القديس توما في الهند

وما يجاورها . و قد ارتبطت أسطورة القديس توما بأسطورة أخري كان لها دويًا كبيراً فيما بعد. وهي أسطورة القس أو الكاهن يوحنا أو«البريسترجون» Prester Johnكما يسميه الأوربيون.

وتشير حوليات «أودو» Odo مقدم دير القديس ريمس (١١١٨-١١٥١م) بمدينة ريمس ST.Remi in Rheims انه في مايو عام ١١٢٢م قام اسقف شرقي يدعي حنا John بزيارة روما ، و ادعي أنه أتي من الهند من بلاد المالابار(المعبركما يسميها ابن بطوطه) و عدد للبابوية و لمن قابله في إيطاليا معجزات القديس توما ، و مدي اتساع مملكة المسيحيين بالهند وثرواتها[11] بصورة مبالغ فيها جعلت احد المؤرخين المحدثين يعتقدون انه إما أحد النساطرة أو أحد «الأدعياء المحتالين»، [12]و لكن مؤرخا آخرا يعتقد أن هذا الأسقف قدم من غرب آسيا وبالتحديد من الرها التي كان لها دور كبير في انتشار أسطورة القديس توما . [13]

و بعد عقدين من الزمان- وكانت السفارة الهندية السابقة ما تزال عالقة بالاذهان-انتشرت في الغرب الأوربي قصة مؤداها أن حاكما آسيويا كبيرا يحكم مملكة مسيحية مترامية الأطراف قد وجه هزيمة كبيرة للمسلمين في الشرق ويدعي الكاهن يوحنا Prester John[14]

وتحت أحداث عام ١١٤٦م كتب أوتو أسقف فريزيا في حوليته «تاريخ مدينتين» في الفصل الرابع من الكتاب السابع [15] ما هو ترجمته :

و انه (اي أسقف جبله) يروي أيضًا أنه منذ سنين كثيرة مضت ، فان ملكا و كاهنا يدعي يوحنا الذي يعيش فيما وراء فارس و أرمينيا في الشرق البعيد(الأقصي) مع كل شعبه يعتنقون المسيحية ، و لكنه نسطوري و انه (اي هذا الملك) قد شن حرباً ضد الأخوين ملكي فارس و ميديا الذي يدعي ساميرادي[16]Samiardi، ودمر اكباتاناEkbatana التي تم الاشارة اليها من قبل. وعندما تقابل معه الملكان المذكوران بجيش مكون من الفرس والميديين والآشوريين(؟) Assyrians فإن المعركة استمرت ثلاثة ايام، لأن كلا الفريقين فضل الموت على الهروب من الميدان.و اخيرا فإن يوحنا Presbyter Johannes-كما هم معتادون أن يلقبوه- أجبرالفرس علي الفرار بعد مذبحة بشعة توجت بانتصاره النهائي(عليهم).

وقال أيضًا (أي أسقف جبله) انه بعد هذا الانتصارفإن يوحنا السابق الذكرقد نقل جيشه لمساعدةكنيسة بيت المقدس ، ولكنه عندما وصل إلي نهر دجلة فإنه لم يستطع نقل جيشه عبر ذلك النهر بأية وسيلة ، ومن ثم فإنه تراجع ناحية الشمال حيث كان قد علم بأن هذا النهر متجمد بسبب برد الشتاء.و عندما مكث هناك عدة سنوات بدون أن تتحقق أمنيته القلبية، وفقد كثيراً من جنوده الذين لم يتعودواعلي هذا المناخ غير المألوف لهم،فإنه أجبر علي الرجوع من حيث أتي .

ويقال أنه (اي الكاهن يوحنا) منحدر من سلالة ماجي Magi الذي ورد ذكسره في الإنجيل، و انه يحكم نفس الشعب الذي كان يحكمه(ماجي) ويتمتع بالمجد و الرفاهية التي تجعل صولجانه من الزمردالنقي.و مقتفيا خطي أسلافه الذين اعتنقوا الدين المسيحي من المهد فإنه كان ينوي ان يذهب الي بيت المقدس ، و لكنه منع من ذلك لنفس السبب المشار إليه سابقاً ،و هذا ما يرويه الناس وكفى !

ويجمع من تناول أسطورة الكاهن يوحنا بالنقد والتحليل على أن النص السابق ترجمته هو اقدم نص في الحوليات اللاتينية يذكر «الكاهن يوحنا» بالاسم.(١٧) و هيو Heugh أسقف جبله قد تقابل مع أوتو الفريزي في مدينة Viterbo الإيطالية عام ١١٤٥م حيث كان-كما روي الأخير- في مهمة للغرب الأوربي لطلب نجدة الشرق اللاتيني بعد عام واحد من سقوط إمارة الرها(١٨) في يد عماد الدين زنكي ، و الذي ترتب علي سقوطها انفصال الصليبين عن المناطق المسيحية في وسط آسيا ، وعن المناطق الغنية خارج بلاد الشام، هذا من ناحية .

ومن الناحية الأخري فإن هناك اتفاقا عاما علي أنه وإن كانت هذه الرواية غير صحيحة تاريخيا إلا أنها إنعكاس لأحداث تاريخية وقعت بالفعل في وسط آسيا وشرقها في تلك الفترة وإن اختلف الأشخاص الذين قاموا بها ودوافعهم من وراء ذلك.

فإذ اصح نسبة هذه الرواية لأسقف جبلة الصليبي فإن الذي قام بدور مايسمي بالكاهن يوحناهو في الواقع يي لوتاشي-Yeh Lu Tashihحاكم القره خطاي، وأن المهزوم Samairdi أو Saniardes أي Sanjar سنجر السلجوقي الذي هزم هو وأخوه مسعود عام ١١٤١م وتلا ذلك هزيمة الخوارزميين علي يد خلفاء يي لوتاشي في العام التالي مباشرة.(١٩)

وليس صحيحًا أن يي لوتاشي كان مسيحيا نسطوريا ، إذ أنه اتخذ الديانة البوذية ديانة رسمية لدولته . و بالرغم من ذلك فقد وجدت المسيحية مجالاً للانتشار بفضل المبشرين النساطرة .(٢٠) فقد كتب مصدر صيني معاصر عنه انه «في العام التالي(١١٢١) وفي الشهر الثاني و في يوم كي يو Kia wu فإن تي شي بعد أن ذبح ثور أسوداً و حصانًا أبيضًا للسماء والأرض ولأسلافه فإنه رتب قواته وانطلق بها إلي الشرق» (٢١) و هذه المعتقدات البوذية المحضة لهذا الحاكم تنفي اعتناقه للمسيحية .

ومسألة أن تجمد نهر دجلة كانت حاجزاً لعبور قوات ما يسمي بالكاهن يوحنا تناقضها الأدلة الجغرافية و التاريخية التي تؤكد اعتدال مناخ هذه البقعة و ندرة تجمد هذا النهر، و حتي في حالة تجمده فإن ذلك لا يستغرق عدة سنوات كما ذكر أوتو الفريزي نقلا عن أسقف جبلة.

كما أن هذا النهر لم يكن حائلا دون عبور العديد من القوات و الغزاة عليه منذ اقدم العصور وحتي تاريخ هذه الرواية .

ويعلق المؤرخ الألماني فردريش زارنكا Friederich Zarncke علي عبارة «فإن الكاهن يوحنا كماهم معتادون أن يلقبوه» الواردة في رواية أوتو الفريزي ،أن هذا الاسم كان شائع الاستخدام من قبل و ارتبط كاسم مسيحي شرقي مع أسطورة مملكة القديس توما في الهند.(٢٢)و يري باكنجهام Beckingham أن أسقف جبلة عندما روي هذه القصة لمركز صنع القرار في الغرب الأوربي كان يبغي تحذيرهم من الاعتماد علي ايتمعونة منتظرة من شرق دجلة لأنه ليس فى استطاعة الملك المسيحى شرقه الوصول إلى غرب آسيا لظروف جغرافية.(٢٣)

والرأي عندي أن باكنجهام يحمل النص أكثر مما يحتمل لأن أسقف جبلة يربط بين هزيمة حاكمين مسلمين علي يد حاكم مسيحي علي حد قوله، وأن الأخير تحرك بقواته تجاه القدس و بالطبع ليس من أجل الموضوع الذي سافر له أسقف جبلة للغرب الأوربي و هو نجدة الصليبيين وتدعيم صفوفهم بقوات جديدة في مواجهة الزنكيين بعد سقوط إمارة الرها في أيديهم. وهذايتضح من خلع لقب كاهن مسيحي علي ملك بوذي، لأن الراوي كان يحلو له أن يقنع سامعيه بأن كل من يحارب المسلمين فهو مسيحي و من أجل الأراضي المقدسة.

وأن نشرهذه الرواية في الوقت الذي صدم فيه الغرب بسقوط الرها كان لبث الأمل في نفوس السلطتين الدينية و العلمانية في الغرب الأوربي وفى الشرق اللاتيني علي حد سواء في إمكانية هزيمة المسلمين بسهولة و امدادات حربية يمكن توقعها من خلف ظهر المسلمين شرقى دجلة .

ومهما يكن من أمر ، فإنه بعد عشرين عاما من هذه الرواية وفى حوالي عام ١١٦٥م وصل أوروبا خطاب ممن يسمي بالكاهن يوحنا Prester John قيل أنه أرسله في الأصل للإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنين (١١٤٣-١١٨٠) الذي أرسله بدوره للإمبراطور فردريك الأول بارباروسا(١١٥٢-١١٨٩م) و حوله الأخير للبابا الكسندر الثالث(١١٥٩-١١٨١م). و هذا الخطاب-الذي ذاعت شهرته في أوروبا للدرجة التي وجد منه حوالي مائة نسخة مخطوطة ومحفوظة للآن بالمكتبات والمتاحف الكبري في الغرب الأوربي ، و منها عشرة نسخ بمكتبة المتحف البريطانى وحدها (٢٤)-كان و مايزال مثار جدل بين المؤرخين، ولم يتفقواحول شخصية الراسل و مكانه ودوافعه من وراء ذلك و اللغة الأصلية المكتوب بها، و ذلك لأن أيا من

المصادر المعاصرة حينئذ لا يشير ألي محتويات هذا الخطاب العجيب سوي إشارة واحدة من المؤرخ البريكوس الذي بدأ في كتابة حوليته عام ١٢٣٢م أي بعد سبعين عاما من وصول هذا الخطاب المزعوم لأوروبا ، فضلا عن أن هذا المؤرخ مشكوك في أمانته في النقل.[٢٥] .

ولكن هناك خطاب بابوي مؤرخ في ٢٢ أو ٢٧ سبتمبر من ريالتو بالبندقية يعتبره المؤرخون ردا علي خطاب الكاهن المزعوم. و هذا الخطاب البابوي والسفارة التي حملته للشرق وردت أخبارهما في العديد من الحوليات اللاتينية حينئذ.[٢٦]

ويتفق جميع من تناولوا هذا الخطاب بالدراسة علي انه مزيج من الأسطورة والخرافات فهومرجه من «يوحنا الكاهن :ملك الملوك، بقوة الرب وقوة ربنا المسيح عيسي وسيد الأسياد، إلي صديقه ايمانويل أمير القسطنطينية». ويدعوه لزيارة مملكته كي يهديه ما يقدر علي حمله من ذهب وفضة وأحجار نفيسة. ويقول الخطاب أن كاتبه يحكم كل المخلوقات التي تعيش تحت السماء ، وأن سبعين ملكا هم من توابعه وأن ضيوف مائدته مائة وثلاثين ألفا يوميا، ولا يوجد لص أو محتاج أوشرير في مملكته، وأن رؤساء أساقفة كنائس القديس توما وسمر قند وسوسة يرافقونه غدوة وعشية، وأن عنده أنهاراً لاتجف من العسل واللبن، ولا يضارعه ملك علي وجه البسيطة في ملكية المعادن النفسية، وأن أقاليمه وأرضه وجيوشه أكثر من أعداد نجوم السماء. . . !![٢٧] ويهمنا هنا أن كاتب هذه الرسالة يقول علي لسان ما يسمي بالكاهن يوحنا «أنه مسيحي غيور، وحامي المسيحيين في إمبراطوريته، وأنه يمدهم بالأعطيات وأنه قرر زيارة الضريح المقدس للرب بجيش جرار طبقا لمجد الرب في الأعالي كي يذل أعداء الصليب ويشتت شملهم»[٢٨]

ويعتقد المؤرخ ألكسندر فازيلييف أن كاتب هذا الخطاب إغريقي الأصل وأنه كتبه باللغة اليونانية ثم أعيدت ترجمته إلي اللغة اللاتينية[٢٩] . ولكن مالكولم ليتس Malcolm Letts أثبت أن العجائب والأساطير التي وردت بهذا الخطاب مستمدة من الأدب اللاتيني متمثلا في كتابات بليني و سولينوس وإيسيدور والقديس أغسطين .[٣٠]، ويؤيده في ذلك سليساريف في أطروحته للدكتورة عن «الكاهن يوحنا: خطابه وأسطورته» التي قدمها لجامعة مينسوتا عام ١٩٥٩م.[٣١]

وهناك اتجاه عام أن هذا الخطاب العجيب ربما يكون قد كتبه أحد المثقفين الغربيين علي لسان الكاهن يوحنا، وأن كاتبه له اطلاع واسع علي الأدبين اللاتيني و اليوناني علي حد

سواء، وله خيال خصب ومعرفة عميقة بالأوضاع السياسية السائدة آنئذ في الغرب الأوربي ، وذلك كي يلفت أنظار قادة أوروبا إلى خطورة التردى فى الخلافات السسياسية و العقائدية، وليقدم لهم أملا جديدا في وجود مملكة مسيحية قوية خلف نهر دجلة لمساعدتهم ضد أعدائهم المسلمين، خاصة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٨) التي باركتها وشجعتها، البابوية ، وقام بها اثنان من ملوك الغرب الأوربي.[٣٢] ولهذا فإن هذا الخطاب تعبير عن العقلية الشعبية الأوربية التي كانت تفرز في أوقات الأزمات من الأساطير والخرافات ما يعتبر تعويضًا عن الإحباط الجماعي .

والمهم أنه في سبتمبر عام ١١٧٧ وبعد أن فرغ البابا ألكسندر الثالث من حروبه ومشاكله مع الإمبراطور فريدريك باربا روسا، فإنه كتب خطابا لما يسمي بالكاهن يوحنا و أعطاه لمبعوثه وطبيبه الخاص «فيليب» لكي يقوم الأخير بتسليمه لهذا الملك . ويفهم من هذا الخطاب أن فليب هذا أرسل للشرق في هذه المهمة كمبعوث بابوي. ويبدأ البابا بالفقرة المعتادة عن سمو كنيسة روما. ثم يستطرد البابا للمرسل إليه أنه سمع كثيرا أن الملك يوحنا يرغب في اعتناق المذهب الكاثوليكي «الذي ينجو معتنقه من الآثام » . وأنه يريد منه حسن استقبال المبعوث البابوي الذي أوفد لمعرفة تفاصيل أكثر عن هذا الأمر ، وعلي الملك يوحنا أن يرسل مبعوثين من قبله. و في نهاية رسالته، فإن البابا يذكر الكاهن يوحنا أنه سيستمع لطلباته لو أنه أظهر قدرا من التواضع في الحديث عن ثرواته وسطوته ونفوذه.[٣٣] و الجملة الأخيرة في خطاب البابا تدل علي عدم تصديق الأخير للمبالغات الواردة في الخطاب المزعوم إرساله ممن يسمي بالكاهن يوحنا.

ويعتقد البعض أنه ربما نزل فيليب في الأراضي المقدسة كي يخترقها إلي الشرق حيث مملكة الكاهن يوحنا بعد برج بابل كما كان يعتقد آنذاك، وأنه ربما تقابل مع الرهبان النساطرة–في آسيا الصغرى– الذين أحاطوه علما بصعوبات وصوله إلي الهند. ويعتقد البعض الأخر أن كلمة Indians الواردة في خطاب البابا للكاهن يوحنا علي أنه ملك الهنود King of Indians ربما كانت تعني أيضا مملكة جورجيا المسيحية أو النوبة أو الحبشة وأن يكون المبعوث البابوي قد ذهب لأحد هذه المناطق ولقي حتفه بها .[٣٤] ولكن هذه مجرد افتراضات، لأنه لقي حتفه حيثما ذهب ولم يترك أثرا ماديا عن وجهته، وكل ما نعرفه عن هذه البعثة البابوية هو هذا الخطاب الذي ورد فى بعض الحوليات اللاتينية المعاصرة حينئذ .

ولم تنته أسطورة الكاهن يوحنا عند هذا الحد، بل استمرت حية في أذهان الغرب الأوربي باعتبارها نوعا من الإبداع الشعبي الذي عبر عن رغبات وأطماع المجتمع الكاثوليكي في ذلك العصر.

وفي الربع الأخير من القرن الثاني عشر استطاع صلاح الدين الأيوبي توحيد الجبهة الإسلامية والاستيلاء علي كثير من القلاع والموانى الاستراتيجية للصليبيين، وأهم من ذلك كله استرداد مدينة بيت المقدس علي أثرهزيمة كاسحة للصليبيين في موقعة حطين عام ١١٨٧م.ومن ثم نجحت البابوية في حشد أكبر قوة عسكرية أوربية ضد المسلمين بقيادة امبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملكي فرنسا وانجلترا فيما سمي بالحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م). ولكن الأول غرق في أحد أنهار آسيا الصغري وتشتتت قواته علي اثر ذلك، والثاني انسحب بقواته راجعا لبلاده بعد خلافاته مع ريتشارد الأول، وكل ما كان في استطاعة الملك الإنجليزي هو وقف المد الإسلامي لتقويض بقية قواعد الصليبيين في السواحل الشامية فضلا عن الاستيلاء علي بعض المدن والحصون. وهكذا فشلت هذه الحملة في اعادة الاستيلاء علي المدينة المقدسة لحوزة الصليبيين.

ودعت البابوية إلى حملة أخري يطلق عليها الصليبية الرابعة. ولكن البنادقة وقادة هذه الحملة وجدوا أن مكاسبهم الاقتصادية في القسطنطينية أكثر كثيرا منها في الأراضي المقدسة وأقل خطرا. ولهذا فإن قادة هذه الحملة عام١٢٠٤ قد أضافوا رصيدا جديدا للحماقة الأوربية في العصور الوسطي، لأن إستيلاءهم علي القسطنطينية لم يحقق الهدف الأساسي والاستراتيجي وهو التغلغل من القسطنطينية إلي الأراضي المقدسة .

وانشغلت البابوية في مواجهة مسلحة تحت شعار الصليب مع المنشقين (الالبيجنسيين)في جنوب فرنسا ، وفي جمع شمل الأوربيين الذين صدمتهم مسألة انحراف الحملة الرابعة عن أهدافها . وفي مجمع اللاتيران عام ١٢١٥ استطاع البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨- ١٢١٦م) الحصول علي موافقة كثير من قادة الغرب الأوربي لتمويل وإرسال حملة صليبية بعد ذلك بعامين، ولكن وفاته عام ١٢١٦أجلت ذلك إلى ١٢١٨م فيما عرف بالحملة الصليبية الخامسة التي أوكل أمر قيادتها إلي جان دي برين : الوصي علي مملكة بيت المقدس الإسمية في عكا وللمندوب البابوي بلاجيوس.

وقبيل تحرك هذه الحملة إلى الشرق فإن جاك دي فيتري- أسقف عكا وأحد الذين يقع علي عاتقهم الدعوة والتبشير بهذه الحملة والمشاركة في قيادتها وفشلها- كتب خطابا للغرب

الأوروبي عام ١٢١٧م أشار فيه إلي أن «الكاهن يوحنا والعديد من الملوك المسيحيين الذين يعيشون في الشرق قد سمعوا باقتراب مجيئ الحملة من الغرب وأنهم يستعدون لمساعدة القادمين لنصرة المسيح ضد المسلمين.(٣٥) وسواء سمع جاك دي فيتري بهذه الخرافات من الرهبان النساطرة أو من غيرهم أو قام هو ومعاونوه بتزييف الحقائق، فالمقصودهنا هو اثارة الحماسة بين الأوربيين الرافضين الحضور للأراضي المقدسة فضلا عن الصليبيين القابعين في بلاد الشام لمساعدة إخوانهم الأوربيين الذين كانوا قد اتخذوا مصر هدفا لحملتهم .

وليس هذا فقط بل انتشرت الشائعات بين صفوف الحملة الخامسة- قبيل سقوط مدينة دمياط في أيديهم وبعدها-عن انتصارات لملوك مسيحيين في الشرق والجنوب علي المسلمين ، وأن بعضهم قادم لاسترداد بيت المقدس من الأخيرين. وأشارت واحدة من هذه الشائعات إلي أن ملك الحبشة المسيحي يستعد للانضمام لجانب الصليبيين ضد «أعداء الدين » وانه بالفعل قد استولي علي مدينة مكة (٣٦)(المكرمة) ! ولم يتوقف الأمر علي اطلاق الشائعات المقصودة بل تعداه لإرسال خطابات للغرب الأوربي بمعلومات لا أساس لها من الصحة.

فها هو خطاب كتبه بلا جيوس للبابا هنريوس الثالث(١٢١٦-١٢٢٩) وتسلمه الأخير في مارس عام ١٢٢١م ، وفحواه أن الملك داوود King David قد حقق انتصارات كبيرة علي المسلمين ، وأن الرب أرسله ليقضي علي «الكفرة أعداء الدين »ويسترد المدينة المقدسة . ولهذا فإن البابا أرسل خطابا في ١٣ مارس لرئيس أساقفه ترير Trier ولغيره من رجال الدين ليزف لهم الأنباء السارة التي أرسلها له مندوبيه في الشرق . وتقول سطور هذه الرسالة:

> إن الرب قد بدأ يحكم في قضيته بصورة جلية لأنه مدرك للآلام التي يعاني منها شعبه كل يوم وتوسلات الذين يدعونه. وكما تلاحظ فإن أخانا المبجل بلا جيوس: أسقف الباتو Albano ومندوب الكرسي البابوي(في الحملة الصليبية الخامسة) قد أبلغنا أن الملك داوود (ديفيد)الذي يسمي عادة بالكاهن يوحنا Prester John ملك كاثوليكي يخشي الرب- قد اقتحم فارس بجيش جرار وهزم سلطانها في معركة ضارية وأنه توغل في مملكته مدة مسير عشرين يوما واحتلها واستولي هناك علي كثير من المدن والقلاع. وأن جيشه علي مسافة مسيرة عشرة أيام فقط من بغدادوهي المدينة الكبيرة والمشهورة والمكان الخاص بأسقفهم ورئيس كهنتهم الذي يلقبهوالمسلمون Saracens بالخليفة . والخوف من هذه الأحداث جعل سلطان حلب-وهو شقيق سلطان دمشق والقاهرة- يسحب جيوشه - والتي كان يعدها لمهاجمة الجيش المسيحي (الصليبي) في دمياط-ويوجهها ضد الملك (يوحنا) وفضلا عن ذلك، فإن مندوبنا قد أرسل رسلا إلي جورجيا-وهم رجال كاثوليكيين ولهم قوة حربية ضخمة-يسألهم

ويلتمس منهم أن يشعلوا الحرب مع المسلمين من ناحيتهم. ومن أجل ذلك فنحن نأمل أنه لو حصل جيشنا في دمياط علي المساعدة التي يتوقعها هذا الصيف، فإنه سيكون بمساعدة الرب من السهل احتلال أرض مصر بينما قوات المسلمين التي تم تجميعها من كل الجهات للدفاع عنها (أي عن مصر) ستكون مشتتة للدفاع عن حدود بلادهم(ضد ملك جورجيا من الشمال والكاهن يوحنا من الشرق)(٣٧)

ويكررالبابا فى خطاب أخر - وبتفصيل - كيف أن الملك داوود يقود جيشا من ٤٠٠ ألف محارب من بينهم ١٣٢ ألف فارس مسيحي، وكيف أن قواته قد قوضت إقليم فارس،وأن سقوط بغداد متوقع في القريب العاجل .(٣٨)

وهذه الخطابات البابوية والشائعات التي أطلقها بلاجيوس وجاك دي فيتري وغيرهما تعبر عما كان يدور في مخيلة الصليبيين-سواء هؤلاء الذين كانوا في الأراضي المقدسة آنئذ أو في أوربا نفسها. ويري البعض أن هذه الأنباء عن معجزة تأتي من الشرق لوضع المسلمين بين فكي الكماشة كانت أحد الأسباب التي جعلت المندوب البابوي يرفض عروض الأيوبيين المغرية نظير جلاء الصليبيين عن مصر ويتصرف بحماقة أودت بالحملة للفشل الذريع.(٣٩)

وإذا فرض أن بلا جيوس ومعاونيه صدقوا هذه الإشاعات التي أطلقها الرهبان النساطرة كي يضغطوا علي الأمراء المسلمين في غرب آسيا ومصر لتحسين معاملتهم لأهل الذمة في بلادهم:(٤٠) فإن تصديق البابوية لها أمر يدل علي المستوي الذي كان عليه الجهاز الإعلامي للبابوية خاصة ما يتعلق بأوضاع المسيحيين في الشرق. فلم تكن جورجيا الصغري مملكة كاثوليكية، ولم يكن عندها جيش جرار ولم يكن بينها حدود مشتركة مع المسلمين في بلاد الشام، إذ أنها كانت أرثوذكسية تدين بالولاء لسلاجقة آسيا الصغري ويفصلها عن سوريا السلاجقة ومملكة أرمينيا الصغري.

ولايتفق الباحث مع المؤرخين الغربيين الذين ألقوا مسئولية تغذية الصليبيين بالشرق بهذه النبوا ءات والأساطير علي الرهبان النساطرة وحدهم؛ فالأعم الأغلب أن هؤلأ الأخيرين كانوا منها براء لأنه لم يكن لهم مصلحة فيها أو في رواجها . ويكفي أن مقر بطريق النساطرة في كل آسيا كان في مدينة بغداد التي هي مقر الخلافة العباسية التي كانت تقود العالم الإسلامي ولو من الناحية الإسمية.

ثم أن المسلمين- خاصة في أيام العادل والكامل الأيوبيين -كانوا يعاملون أهل الذمة بصفة عامة باحترام وتقدير كاملين بصرف النظر عن أحداث فردية أو شخصية أو مؤقتة حدثت ضدهم هنا أو هناك. ولكن الصليبيين أنفسهم كانوا يعاملونهم علي أنهم هراطقة !

ومن ثم فالرأي عندي أن الصليبيين أنفسهم كانوا وراء هذه التداعيات التلقائية التي تعبر عن الروح العدائية للغرب الكاثوليكي ضد العرب والمسلمين التي تمثلت في تدبيج الأساطير والحكايات عن ملك مسيحي يأتي من الشرق ليساعدهم في استرداد المدينة المقدسة أو يتحالف معهم ضد المسلمين. وكما سبق ذكره فإن أسطورة الملك المسيحي الشرقي بدأت بعد سقوط الرها ، أي في وقت حاجة الصليبيين للنجدة، وتكررت بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة، وازدادت رواجًا أثناء فشل الحملة الخامسة في تحقيق مكاسب سريعة متوقعة علي المصريين. إذن هي محاولة ديناميكية مستمرة لتوحيد الصفوف في الغرب لاستعادة الأراضي المقدسة وللتغلغل في الشرق.

ويتضح أيضا من هذه الخطابات أن الغرب الأوروبي كان يجهل تماما ما يحدث في الشرق ، فما تصوروه علي أنه الكاهن يوحنا أو الملك داوود ليس إلاجنكيز خان، ومسألة هزيمته لسلطان فارس في معركة ضارية فهذا صحيح إذأن قواته استطاعت فى الفترة ما بين ١٢١٨ و ١٢٢٢ أن تحطم أهم المدن الإسلامية فى وسط آسيا ، وتشتيت شمل الخوارزميين . ولكن إمبراطورية جنكيز خان لم تكن مسيحية أو إسلامية ولم يكن يعمل لحساب أحد، وكان يعمل لتكوين إمبراطورية عالمية يحكمها هو وأولاده فى ظل الاعتقاد بأنه مفوض من السماء لحكم البشر.كماأن قوات جنكيز خان وخلفائه كانت وبالا على شرق أوربا وشمالها مثلما كانت نقمة على العالم الإسلامى .

وعلى الرغم من هذا كله ، لم تتوقف تفاصيل الأسطورة عند هذا الحد، فقد وصلت للغرب الأوربي بعد ذلك معلومات (عن طريق الأرمن) عن جنكيز خان أنه إمبراطور مسيحي ، ثم عدلت هذه الأخبار بالقول بزواجه من ابنة أو حفيدة الكاهن يوحنا . وحاول الغرب الأوربي أن يسقط أحلامه في الكاهن يوحنا علي جنكيز خان وخلفائه للتحالف معهم ضد المسلمين أو لشغل الأخيرين عن مواجهة الصليبيين ، أو تنصير المغول للاستفادة بهم في حسم الصراع مع المسلمين . علي أية حال تطورت أسطورة الكاهن يوحنا مع تطور الأحداث والظروف والملابسات تبعا لتطور صلات وعلاقات الأوربيين بالمغول وبقارة آسيا . (٤١)

الهوامش

1- Lach,Donald :Asia in the Making of Europe .Vol.I :The Century of Discovery . Chicago , 1965,p.9.

2- Lockhart, L., "Persia as Seen by the West,"in A.J. Arberry (ed.):The Legacy of Persia. Oxford, 1953,pp. 334 ,35 .

3- Ibid, pp. 336 ,37.

4- Lach, op.cit .,pp . 16-20.

5- Rachewiltz , Igor de :Papal Envoys to the Great Khans .London, 1970, P. 21.

6- Lockhart, op .cit .,p. 338 .

٧- كان الاعتقاد- في العصور الوسطي المبكرة- بأن آسيا هي موقع الجنة الأرضية وأن أنهار الجانج وجيحون و النيل والفرات هي مصادر لجنة عدن . وأن أناسا مقيدين بسلاسل حديدية يوجدون خارج حدود هذه الجنة. وفي الشرق الآسيوي يوجد أبناء يافث وهم برابرة ذوو أشكال مخيفة سوف يخرجون في نهاية العالم ليقضوا علي البشر ، وأن هؤلاء يعيشون في أرض يأجوج ومأجوج ، وأن الإسكندر الأكبر قد قام ببناء سور حديدي ونحاسي في معبر داريل في القوقاز وشمال تفليس ليمنع هؤلاء البرابرة من تدمير العالم المسيحي . ويوجد في القرآن الكريم.(سورة الكهف آيات ٨٢-٩٩) رواية عن هؤلاً القوم. وسنري أن الأوربيين عندما سمعوا بفظائع المغول ووحشيتهم في تدمير المدن وذبح من فيهادون تفرقة فإنهم اعتقدوا أنهم من قبائل يأجوج ومأجوج وجاءوا ليدمروا العالم

عن مصادر وجذور أسطورة يأجوج ومأجوج والرؤية اليهودية والمسيحية والإسلامية لها انظر
Andersen, R. :Alexande`s Gate ,Gog and Magog ,and the Inclosed Nations .
Cambridge , 1932 ;

وعندما زار ابن بطوطة مدينة الزيتون الصينية حوالي عام ١٣٤٠م كتب يقول «وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوما فيما ذكر لي ويسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم ، لم أرَ بتلك البلاد من رأى السد ولا من رأى من رآه..» رحلة ابن بطوطة : طبعة بيروت.د.ت، ص. ٦٣٥.

8- Rachewiltz , op . cit ., p.26

٩- ماركوبولو: رحلات ماركوبولو ترجمها للعربية عن الإنجليزية عبد العزيز جاويد. القاهرة ، ١٩٧٧، ص٣٠٠.

Lach ,op . cit ., p . 25.

10- Lach, op . cit., pp. 25, 26:Slessarev , Vsevolod:Prester John :the Letter andthe Legend . Minnesota , 1959 ;pp. 7-9 .

11- Slessarev, op.cit ., pp.10 , 11: Letts, Malocolm , Prester John:Sources and . Illustrations", in Notes and Queries , vol .188, 1945, pp179. 128.

12- Rachewiltz , op .cit.p .30.

13- Slessarev , op. cit., pp.23, 24 .

14- Lach, op. cit., p. 26;Rachewiltz, op . cit ., pp . 31-34.

15- Otto , Bishop of Freising :The Two Cities : A Chronicle of Universal History to the Year 1146 A.D Trans. and Notes by Charles Christopher Mierow. Columbia University Press,1928, pp.443, 444 .

١٦- وردت هذه الكلمة في مخطوطة أخري لأوتو الفريزى علي أنها Saniardes ويعني أوتو بها الحاكم السلجوقي سنجر Sanjar

Cf . Rachewiltz , op. cit ., p. 33.

17- Ullendorff, Edward ; C . F. Beckingham :The Hebrew Letters of Prester John. Oxoford University Press , 1982,p. 1.

١٨- يقول أوتو الفريزي إنه قد سمع أسقف جبلة وهو يشكو بالدموع من الخطر الذى يحيق بالكنيسة الكاثوليكية وبالصليبيين في الشرق بعد سقوط الرها .

Cf. The Two Cities, p. 343.

١٩- لظروف كثيرة انهارت دولة الخطا في شمال بلاد الصين ١١٢٥م . وقبيل سقوطها تحت أسرة كين الصينية فر أحد أمرائها وهو يي لوتا شي نحو الغرب يصحبه بعض رجاله المخلصين حيث استقروا في بلاد التركستان ، ووسعوا نفوذهم حتي وصلت حدود مملكتهم من صحراء جوبي إلي نهر سيحون ومن هضبة التبت إلي سيبريا وتسمي بلقب غورخان أي ملك العالم ، ونقل عاصمته من بلاد بلاساغون إلي كاشغر علي حدود ممتلكات السلاجقة . وفي هذه الفترة كانت الدولة السلجوقية في طور الاحتضاربعد وفاة ملوكهم العظام وسيطرة السلطان سنجر بن ملكشاة علي القسم الشرقي منها . وكان قطب الدين محمد خوارزم مشاه الذي يسعي للاستقلال عن السلاجقة قد دخل في معركة مع

حاكم الخطا ولكنه هزم واضطر أن يدفع له جزية كبيرة، ولكنه حرض عدوه القرة خطاي علي السلاجقة للتخلص منهما معا أو من أحدهما. وفى عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م اندفع يى لوتاشي في جيش ضخم إلي ماوراءالنهر وأوقع هزيمة منكرة بالسلاجقة وأسر زوجة سنجر قرب سمرقند ، ويروي ابن الأثير أن عدد قتلي السلاجقة بلغ مائة ألف فارس ، وفى العام التالى استدار المنتصرون على الخوارزميين وهزموهم واستولوا على بعض أملاكهم وأجبروهم على دفع جزية كبيرة لهم . أنظر للمزيد من التفاصيل :

حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول (القاهرة ١٩٤٩)، ص ٥٠-٥٤، Slessarev,op. cit. p.28.

٢٠- حافظ حمدى، المرجع السابق ٥١ .

21- Si Liao, cf. E.Bretschneider (ed.&trans.) Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources (London,1910) vol. I, p.214.

22- Slessarev,op. cit. ,pp 29,30

23- Beckingham,C. F.," The Achievment of Prester John",An Inaugural Lecture at the SOAS. London,1966, pp.8-10

24- Ross, E. Denison,"Prester John and The Empire of Ethiopia", in Newton,A.P. (ed.) Travel and Travellers of the Middle Ages" London 1930, p.179.

25- Beckingham , op . cit ., pp. 10 , 11 .

26- Loc .cit ., Letts,op .cit ., Notes and Queries , vol .188, 1945, p.179.

27- Slessarev, op. cit ., pp. 67-80; Ullendorff:The Hebrew Letters of Prester John , pp.38-72.

28- Ross,"Prester John "op. cit,p. 175, Slessarev,op. cit., p . 35.

29- Slessarev ,op. cit ., p.41.

30- Malcolm Letts, op. cit ., vol. 188, pp .146-248,266.

31- Slessarev : Prester John, the Letter and the Legend ,p.41.

32- Letts, op.cit .,pp.266,7; Rachewiltz : Papal Envoys ,pp.35,36.

33- Beckingham, op. cit.,pp.11 , 12; Rachewiltz, op .cit., pp.19,20.

34- Beckingham,op.cit ., pp . 12, 13; Ross,op. cit .,p.180;Rachewiltz, op. cit .,pp.12,13.

35- Rachewiltz:Papal Envoys to the Great Khans,pp. 37,38.

36- Ibid , pp.38,39.

37- Southern, R.W. (trans.):Western Views of Islam in the Middle Ages.Harvard University Press ,1962,pp. 45, 46.

38- Ibid,p.46.

39- Rachewiltz,op.cit . p.39.

40- Ibid,p.40.

٤١- للمزيد من التفاصيل انظر -فضلا عما سبق ذكره من مصادر ومراجع عن أسطورة الكاهن يوحنا- : جوانفيل ، جان دي : حياة القديس لويس ورحلاته . ترجمة حسن حبشي القاهرة ، د.ت، ماركوبولو : رحلاته ، ترجمها إلي العربية عبد العزيز جاويد . القاهرة ١٩٧٧ ص ١٩٩-١٠٢، ١١٩-١٢١ Whitoker" An Historical Explanation of the Asiatic Myth of Prester John "Asiatic Review , 42, 1952, pp. 74-79:Nowell , Charles E.,"The Historical prester John "Speculum ,vol . 28, 1953 , pp. 4-35; Connell, C. W." The Western Views of the Origin of the Tartars" The Journal of Medieval and Renaissance Studies, vol. 3, 1973, pp. 115-137; Beckingham, C. F., " The Quest for Prester John""Bulletin of the John Rylands Universty Library 62 , Manchester ,1980 ,pp. 291 ,310 Rachewilts Igor de: Prester John and Europe's Disconery of East Asia Canbera , Austeralian National Universty Press,1972.

الفصل الأول

الاتصالات بين المغول و أوروبا من عام ١٢٣٧ حتي عام ١٢٥٥م

العناصر

- ظهور المغول علي مسرح الأحداث .
- غزو المغول لجنوب روسيا فى عامي ١٢٢٢- ١٢٢٣ م.
- غزو روسيا ١٢٣٦- ١٢٤٠ م.
- موقف الغرب الأوروبي من الغزو المغولي لروسيا.
- غزو بولندا ١٢٤٠-١٢٤١ م.
- غزو المجر ١٢٤١-١٢٤٢ م.
- موقف غرب أوروبا من الغزو المغولى لبولندا .
- السفارات المتبادلة بين البابوية و المغول في عهد إنوسنت الرابع :
- بعثة لورانس البرتغالي .
- بعثة يوحنا الكاربيني
- بعثة آندريه لونجيجيمو الأولي .
- بعثة آسيلين اللومباردي .
- الاتصالات بين المغول و لويس التاسع.
- بعثة وليم روبروك للمغول ١٢٥٣-١٢٥٥
- الخاتمة .

ظهور المغول علي مسرح الأحداث :

أسهبت المصادر الشرقية والغربية علي حد سواء في الحديث عن غزوات المغول وتوسعاتهم شرقاً وغربافي النصف الأول من القرن الثالث عشرالميلادي . واهتم فريق من المؤرخين المحدثين بتناول هذه الغزوات بالنقد والتحليل .[1] ومن ثم يعني الباحث هنا ليس تكرار ما سبق دراسته ، ولكن وضع الخطوط العريضة للتوسع المغولي في أوربا كتمهيد ضروري لمعرفة جوانب القوة والضعف في رد الفعل الأوروبي تجاه المغول ولدراسة أبعاد الاتصالات السلمية بين الطرفين في النصف الأول للقرن الثالث عشر الميلادي .

نشأ المغول في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي ، وهي صحراء قفراء مناخها قاري . واستطاع (تيموجين)- أحد قادة هذه القبائل الرعوية ، بما وهبته حياة الصحراء من قسوة وفراسة ،أن يوحد قبائل أقاليم آسيا الشرقية شمالى بلاد الصين تحت لوائه مستعينا بقبيلة ضد أخرى ، ومتحالفا مع القوى ضد الضعيف حتى تربع على عرشها واختير ملكا عليها سنة ١٢٠٦م وسمى نفسه جنكيز خان أى "إمبراطور كل البشر ".

وكانت عوامل الضعف والانحلال تنخر فى الأقاليم الخصبة الغنية المجاورة لأملاك جنكيز خان ، ومن ثم عمل على الاستيلاء عليها . واستطاع المغول فى الفترة من عام ١٢١١حتى ١٢١٥م أن يخضع مملكة كين الصينية والاستيلاء على بكين ، وقبل ذلك وأثناء قضى على دولة الخطا المجاورة . وقد استفاد المغول من ثروات وكنوز المناطق المحتلة فى تدعيم قوتهم الاقتصادية فضلاعن استعانتهم بخبرة الأسرى الصينيين فى فنون الحصار والقتال والإمداد والتموين .

وكان الهدف من وراء ذلك كله السيطرة على الأملاك الواسعة للدولة الخوارزمية ، وسواء قتل حاكم مدينة أوترار الخوارزمي سفراء المغول أو جواسيسهم أو أبقى عليهم ، فإن المغول كان لديهم من المبررات لغزو الدولة الخوارزمية وغيرها من الدول والممالك فى آسيا وأوربا ، وأهمها ما كانوا يعتقدونه من أن زعيمهم مفوض من السماء لحكم العالم شرقه وغربه . ومن ثم ، فإن أى إقليم لا يعلن خضوعه الكامل للمغول ويسلمهم جزءا من رجاله وخيوله ومحصولاته يعتبر عدوا يستحق القتل والتدمير . ولا غرو أنه فى غضون أربعة أعوام (١٢١٩-١٢٢٣م) اكتسحت قوات جنكيز خان الدولة الخوارزمية بعد أن قاد الهجوم بنفسه على أهم المعاقل والحصون ، ووزع أولاده وقواده لمحاصرة بقية المدن فيما وراء النهر وخوارزم وأذربيجان

وخراسان وغزنه وإخضاعها. ولم يتوقف المغول عن الوصول إلى بقية أطراف الدولة الخوارزمية في فارس والعراق إلا بسبب عودة جنكيز خان لإخضاع بقية القبائل الصينية ووفاته سنة ١٢٢٧م .

غزو جنوب روسيا عامي١٢٢٢و١٢٢٣م:

وصلت القوات المغولية إلى أذربيجان وشواطيء بحر قزوين الجنوبية أثناء مطاردة إثنتين من الفرق المغولية بقيادة سوبداي Subudey وجيبي أو شيبي Jebe لفلول قوات السلطان جلال الدين خوارزم شاه (١٢١٩-١٢٣١) شمال مملكته سنة ١٢٢١م، ومن ثم استأذن قائدا الفرقتين جنكيز خان في التقدم شمالا إلى القوقاز لاستكشاف المناطق الغربية والشمالية (١) .

ويبدو أن الروس لم يعرفوا شيئا عن المغول قبل ذلك ، إذ أن حولية "نوفوجارد " الروسية تشير إليهم للمرة الأولى في أحداث عام ١٢٢٣بقولها : "وفي هذا العام قدمت قبائل غير معروفة لنا بسبب ذنوبنا ، ولا أحد يعرف من هم ولا من أين أتوا، ولا أحد يعرف لغتهم أو جنسهم أو دينهم ، فأطلق عليهم تارتار Tartarمرة وتورمان Tourman(تركمان ؟) مرة أخرى ، كما وصفوا مرة ثالثة بأنهم شعب البشناق Pecheng ،والرب وحده هو الذي يعلم من هم ..... ولكننا سمعنا أنهم استولوا على كثير من البلاد وذبحوا عددا هائلا وشردوا آخرين ....وأن الرب الرحيم أراد تحطيم شعب الكومان الشرير من أبناء اسماعيل الذين أراقوا دماء الكثيرين من المسيحيين ..."(٣) .

وهكذا ، نرى أن الانطباع الأول لدى الروس أن الرب أرسل هؤلاء الغزاة لتخليصهم من قبائل الكومان الذين يعيشون في شمال القوقاز والذين كانوا يغيرون على الأقاليم الروسية باعتبارهم قبائل رعوية غير مستقرة (٤) واعتنقت قبائل كثيرة منها الإسلام بسبب الاحتكاك مع المناطق الإسلامية المجاورة وبفضل التجار المسلمين.

وتمضي الحولية في سرد تفاصيل اكتساح القوات المغولية لمناطق روسيا التي يسكنها العديد من القبائل التركمانية. كما توضح أن ملك الكومان قد أرسل سفراء للاستنجاد ببقية الأمراء الروس حتى لايلتهم المغول إماراتهم الواحدة تلو الأخرى ،وأن الأمراء الروس قتلوا السفراء المغول الذين طلبوا منهم التسليم . وانتهى الأمر بهزيمة ساحقة للقوات الروسية والتركمانية المتحالفة على نهر كالكا Kalka في٣١مايو ١٢٢٣م، ونتج عن ذلك دمار وتحطيم المناطق المحيطة بموقع المعركة وقتل معظم القوات المتحالفة وأسر الباقي ، ثم عاد الغزاة عن طريق نهر الدنيبر من حيث أتوا (٥).

ومن المدهش أن رواية ابن الأثير عما فعله التتار بقفجاق الروس تتفق فى مضمونها مع حولية نوفوجارد مع اختلاف فى بعض التفاصيل هنا أو هناك. وربما يرجع هذا إلى أنهما استمدا معلوماتهما من تجار الرقيق الذين وجدوا فى هرب الآلاف من أبناء القبائل التركمانية فرصة لجمعهم وحملهم إلى أسواق الشام حيث اهتم الأيوبيون بشرائهم وضمهم إلى جيوشهم . ويرجع ابن الأثير سبب الغزو المغولى إلى "أن بلاد القفجاق كثيرة المراعى فى الشتاء والصيف"(٦).

والمهم أن هذه الغارة الاستكشافية لم تكن غزوا منظما ، ومن ثم انسحب الغزاة ولم يعودوا إلا بعد أربعة عشر عاما لأن المغول توقفوا عن الغزو بوفاة جنكيزخان سنة ١٢٢٧م وما تبع ذلك من فترة استرخاء فى منغوليا .

وكان جنكيزخان ، قبيل وفاته، قد وزع أجزاء مملكته على أولاده الذكور من زوجته الأولى؛ وهم تولوى وجوشى وأوجوداى وجغطاى . وكانت المناطق الجديدة شمال بحر آرال من نصيب ابنه جوشى الذى توفى قبل والده ، ومن ثم منحت لباتو أكبرأبنائه . وفى اجتماع للقوريلتاى ، أى المجلس الأعلى الذى يضم أبناء جنكيزخان وأحفاده وقواده ، عام ١٢٣٥م فى قراقورم تمت الموافقة على تسيير الجيوش فى أربعة اتجاهات رئيسية :

أولا : ضد كوريا التى تمردت على المغول بعد خضوعها سنة ١٢٣١م.

ثانيا :ضدمملكة سونج فى جنوب الصين .

ثالثا: ضدالعراق وسوريا ومنطقة بحر قزوين ، وسلاجقة آسيا الصغرى ومملكة أرمينيا الصغرى .

رابعا :ضد روسيا والغرب الأوربى .(٧)

غزو روسيا ١٢٣٦-١٢٤٠:

أصدر الخاقان أوجوداى(١٢٢٧-١٢٤١م) أمرا يلزم كل قواد المغول بإرسال فرقة حربية لمساعدة باتو فى حملاته فى روسيا وأوربا. ومن ثم انضم تحت لوائه مجموعة كبيرة من أمراء بيت جنكيزخان أشهرهم جويك Guyuk وقادان Kadan ابني أوجوداى ، ومونجوMongka ، ابن تولوى ، وبيدار Baidar وبيرىBuri ابن جغطاى وحفيده . وتم تعيين سوبداى فيما يسمى اليوم أركان الحرب لأنه كان على علم وخبرة بميدان القتال من خلال تجربته فى حملته السابقة

على جنوب روسيا عامي ١٢٢٢-١٢٢٣م.وقيل إن جيش باتو كان يتألف من حوالى خمسين ألفا من المغول ، فضلا عن سبعين ألفا من عناصر التركمان الذين جندهم باتو لجيشه من المناطق التى احتلها فى جنوب روسيا عند بدء حملته (٨).

وكان على المغول أن يبدأوا بإخضاع مملكة البلغار ، التى كانت قابعة فى منطقة الحوض الأعلى لنهر الفولجا حتى جبال الأورال ، وذلك لتأمين خطوط الاتصال بين القوات المزمع تقدمها غربا وبين مركز الإمداد فى أقصى الشرق . وتشير حولية "نوفوجارد "فى عام ١٢٣٧إلى أن «التتارالأشرار قد أتوا واستولوا على كل بلاد البلغار وأخذوا مدينتهم الكبيرة وذبحوا كل السكان : رجالا ونساء وأطفالا (٩)» وهكذا استطاعت القوات المغولية توجيه ضربة مفاجئة لهذه المملكة تحولت على إثرها للتبعية المطلقة للغزاة . وتم بعد ذلك إخضاع قبائل الباشكير Bashkirs التى كانت تعيش فى منحدرات نهر الأورال . وفى نفس الوقت أرسلت فرقة مغولية بقيادة مانجو إلى الحوض الأدنى لنهر الفولجا شمالى بحر قزوين حيث طاردت قبائل القفجاق (الكومان) وحاكمهم فى نهر الفولجا والغابات المحيطة ،كما أعدم قائد الكومان على الطريقة المغولية(١٠) ثم واصلت إحدى الفرق المغولية إخضاع القفجاق على حين فر الآلاف منهم بقيادة ملكهم كوتان Kutan إلى سهول المجر حيث منحوا حق الإقامة هناك. وكان تعقب المغول لهؤلاء الفارين وبالا على المجريين بعد ذلك بقليل. (١١)

وفى نهاية عام ١٢٣٧م اتجه المغول غربا تجاه مدينة ريازان Riazan وأرسلوا لأميرها يورى إجورفيتش Iurii Igorvich إنذارا بتسليم عشر السكان وكل العتاد والخيول للمغول ،فضلا عن تدمير حصون المدينة. ولكن الأمير الروسي منع سفراء المغول من دخول مدينته وأبلغهم "أن كل شيء سيؤول إليهم بعد فنائهم جميعا "وهذا يعنى تفضيله الموت على الاستسلام للشروط المغولية . وأرسل يورى مبعوثيه إلى أمير مدينة فلاديمير القوي لنجدته ،ولكن الأخير رفض الذهاب إليه مفضلا ملاقاة المغول بمفرده .والمهم أنه فى ديسمبر ١٢٣٧م دمرت القوات الغازية الإمارة ومدنها : Kolomna, Riazan, Pransk,Murom وقتلوا كل من فيها حتى أنه "لم تبق عين مفتوحة تبكى الموتى " على حد تعبير حولية روسية معاصرة(١٢)

والأمر الذى يسترعى الانتباه أن المغول قد بدأوا عملياتهم فى شمال روسيا فى فصل الشتاء القارس الذي كان حائلا فيما بعد ضد قوات نابليون وهتلر من تحقيق الانتصار على الروس . ويرى المؤرخ الروسي جورج فيرنادسكى أن الجنود المغول قد تعودوا فى منغوليا على

البرد القارس وقسوة الظروف المناخية وأنهم كانوا يرتدون الفراء وجلود الحيوانات لكى تقيهم قسوة الطبيعة فى هذه المنطقة ، وأن وسيلة الانتقال المغولية كانت الخيول القادمة من شرق آسيا حيث تعودت البرد والجليد، وكانت تنبش بحوافرها الجليد الرخو للوصول إلى جذور النباتات التى كانت تتغذى عليها، كما أن تجمد الأنهار والقنوات والبحيرات الكثيرة فى شمال روسيا فى فصل الشتاء كان يجعل عبور القوات المغولية عليها أمرا سهلا دون مشقة بناء القناطر أو الجسور فى غير فصل الشتاء (١٣).

وبعد حصار استمر ستة أيام فقط استطاعت قوات سوبداى الاستيلاء على مدينة فلاديمير الحصينة فى٨فبراير ١٢٣٨م وحرقها بمن فيها ، حتى أن بقية السكان هربوا إلى كنيسة الأم المقدسة للاحتماء فيها ، ولكن المغول أشعلوا النار فيها لتحترق وهم داخلها. وكان حاكمها يورى الثانى قد هرب إلى الشمال للإعداد للمعركة القادمة فى أعالى نهر الفولجا ولكن تقدم قوات المغول شمالا جعل اكتساح هذه التحصينات أمرا ميسورا فى ٤مارس، كما تم قتل دوق فلاديمير . ولم تجد قوات باتو وسوبداى صعوبة خلال شهري فبراير ومارس فى الاستيلاء على ما يجاورها من مدن :وهى موسكو (التى كانت مدينة صغيرة آنذاك)وسوزدال Suzdal ودميتروف Dmitrov ويوريف Yuriev وتيفير Tver وتورزوك Torzhokوقتلوا ما استطاعوا قتله وشردوا وأسروا الباقين ولم يعد أمامهم من المدن القوية فى شمال روسيا سوى مدينة نوفوجارد القوية(١٤) .

وفى الوقت الذى كان فيه الغزاة على بعد خمسة وستين ميلا فقط من مدينة نوفوجارد ، وارتعدت فرائص سكانها خوفا من موت عاجل، ولكن «تراجعت قوات باتو عن الشمال وانسحبت إلى الجنوب وبذلك أنقذت المدينة من المصير المحقق الذى لقيته بقية المدن الروسية التى واجهت المغول . وتعزو حولية نوفوجارد سبب هذا التوقف الفجائي للمغول إلى "بركة الرب وبركة كاتدرائية سانت صوفيا ودعوات وابتهالات رجال الدين المخلصين وأميرها التقى ورهبانها الأسوياء»(١٥) والتفسير الديني للأحداث ليس غريبا عن حولية كنسية فى العصور الوسطى لأن ذات الحولية فسرت الغزو المغولى بأن الرب أراد تطهير المسيحيين من ذنوبهم فسلط عليهم التتار.

وهناك من المؤرخين من يرى إن دفء مارس وبداية فصل الربيع قد جعل الجليد يذوب وأن الأنهار والقنوات العديدة التى تصب فى بحيرة إلمان Elman ، الواقعة جنوب نوفو جارد قد

فاضت وغطت الأرض الواقعة جنوب المدينة ومن ثم فقدت القوات المغولية ميزة سرعة الحركة على الجليد(١٦).

والرأى عندى أن هذا وحده غير كاف لانسحاب القوات المغولية التى لم تكن تعوقها الأنهار أو الفيضانات ، لأنهم اكتسحوا الأراضى البولندية والمجرية بما فيها من أنهار وفيضانات فى أبريل ١٢٤١م ، أى فى وقت ذوبان الجليد ، كما أن المغول الذين لم يتأثروا فى زحفهم على شمال روسيا بقسوة البرد ونزول الجليد ، لم يكن دفء الربيع عائقا أمامهم ، إن لم يكن ميزة فى حد ذاته(١٧).

ولهذا أعتقد أن القوات المغولية اتجهت إلى شمال روسيا لتأمين القوات فى الوسط ناحية كييف والزاحفة جنوبا ناحية المجر وذلك لقطع الإمدادات من الشمال . وأن هذا الهدف قد تحقق تماما بتحطيم كبريات المدن الروسية فى الشمال وإلقاء الرعب واليأس فى قلوب سكان نوفوجارد للدرجة التى لا يستطيعون بها نجدة مدن أخرى فى الجنوب تبعد عنها مئات الأميال، فى الوقت الذى يتوقعون أن يعيد المغول الكرة عليهم بين الحين والآخر . ولهذا وجد المغول أن هدفهم قد تحقق تماما دون مشقة الذهاب إلى نوفوجاردولهذا انسحبوا جنوبا.

وأثناء تراجع المغول من الشمال إلى الجنوب اتخذوا طريقا غير الذى تقدموا منه قبل ذلك ودمروا المدن والمراعى التى مروا بها ، وصمدت أمامهم مدينة كوزليسك Kozelesk الصغيرة فى إقليم كالوجا Kaluga فترة من الوقت ، واستولى عليها المغول بعد أن قتلوا جميع من فيها ثم وصلوا إلى الحوض الأدنى لنهر الدون حيث استراحت القوات المغولية وجاءتهم إمدادات حربية جديدة من جراء الاستيلاء على خيول قبائل الكومان .

وفى عام ١٢٣٩م تمت عمليات حربية محدودة . إذ قامت قوة بقيادة مانجو بغزو قسم كبير من القوقار شمال بحر قزوين. وفى الوقت نفسه أجبرت قوات باتو معظم قبائل القفجاق على الاعتراف بالسيادة المغولية، ومع ذلك فر حوالى أربعين ألفا منهم بقيادة ملكهم كوتيان إلى المجر حيث منحهم ملكها بيلا الرابع حق الاستقرار(١٨) .

وفى عام ١٢٤٠م أعيد تنظيم القوات المغولية وتخطيط عملياتها على ضوء التجارب السابقة مع المدن الروسية وعلى ضوء المعلومات التى جمعها قواد المغول من حكام المدن التعيسة وأسراها الذين وقعوا فى أيدى الغزاة. وسقطت مدينتا Pereiaslav, Chernigov فى أيدى القوات المغولية فى صيف ذلك العام(١٩). وبعد ذلك أرسل باتو سفراءه إلى مدينة

كييف، التى كانت أهم المدن الروسية، للإنذار بالتسليم أو التدمير. وبعد أن قتل أمير كييف السفراء المغول حاصر الغزاة المدينة من جميع الجهات حتى بات من المستحيل علي أى فرد الخروج منها أو الدخول اليها، لدرجة أن " ضجيج العربات وصهيل الخيول وصوت الآلات وأنفاس الآلاف المؤلفة من المحاصرين جعل من الصعب على السكان أن يسمع أحدهم صوت الآخر"(٢٠). وأسر أهل كييف أحد المغول الذى أخبرهم بأسماء قواد المغول وبأن باتو قد أمر بإحضار آلات الحصار التى نقبت جدران المدينة ليل نهار حتى أحدثت فيها فتحات دخل منها الغزاة، الذين رموا السكان المذعورين بالسهام والأقواس، وقتلوا معظمهم وفر الأحياء منهم إلى كنيسة المدينةالتى سقطت جدرانها وسقوفها من كثرة الزحام، واستولى المغول على كل المدينة يوم ٦ديسمبر ١٢٤٠م بعد هروب أمراء المدينة وقادتها إلى المجر(٢١).

وبسقوط مدينة كييف القوية صار الطريق مفتوحا عبر غاليسيا Galicia وبولندا إلى وسط أوربا وغربها. وأنه بسقوطها أيضا سارع أمراء منطقة أوكرانيا وأدواقها بتقديم فروض الطاعة والولاء للسادة الجدد وتعهدوا لهم بتقديم محصولاتهم غذاء لجيوشهم وخيولهم. وهكذا استطاعت القوات المغولية في غضون سنوات تعد غلى أصابع اليد الواحدة اكتساح مساحات جغرافية هائلة وإخضاع قبائل الباشكير والبلغار والقفجاق للسيادة المغولية ، فضلا عن الاستيلاء على معظم المدن الروسية واعتراف الباقى بالولاء للمغول . ولا ريب أن تفكك الإمارات الروسية وعدم توحدها أمام جحافل المغول، فضلا عن عدم وجود تحصينات قوية أو موانع طبيعية حاجزة أمام الغزاة،بالإضافة إلى الأثر النفسي السيء الذى نجم عن سرعة اكتساح المغول للمدن الروسية وذبح سكانها وأسرهم، كل هذا ألقى الرعب والفزع فى قلوب سكان المدن الأخرى حتى شكوا فى جدوى الصمود فاستسلموا لليأس .

أما العوامل التى أدت إلى النجاح السريع للمغول فهى كثيرة: إذ كان الغزاة يعملون فى تنسيق بارع وتحت قيادة خبيرة ويختارون الوقت المناسب للحصار أو الهجوم أو الانسحاب، مع تخطيط مدهش لتنظيم وسائل الإمداد والتموين والاتصال .وبطبيعة الحال كان سقوط مدينة فى أيديهم يضيف قوة جديدة لهم لأنهم كانوا يستخدمون الأسرى الأشداء فى حصار أو قتال بنى جلدتهم ويأخذون من الأسرى معلومات كاملة عن الضحايا القادمين، فضلا عن أنهم كانوا يستولون على ما يكفيهم من مؤن وعتاد. ولا شك فى أن قوة الجندى المغولى وشدة بأسه والفرق الشاسع بين العسكرية المغولية، التى تطورت وازدادت خبرة من جراء حصار وقتال

عشرات المدن والشعوب من الصين شرقًا حتى شمال روسيا غربا ، والعسكرية البدائية للقبائل الرعوية مثل الباشكير والبلغار والكومان والمدن الروسية المفككة، كان لها الدور الحاسم فى تحقيق هذه الإنتصارات السريعة.

موقف الغرب الأوربي من الغزو المغولي لروسيا

وفى خضم حوادث الاكتساح المغولى للمدن والأقاليم الروسية (١٢٣٦-١٢٤٠) وصلت أخبار كثيرة عن الغزو والغزاة إلى أوربا سواء بحكم الموقع الجغرافى أو من التجار أو من فرار العديد من قادة المدن الروسية إلى المجر وبولندا. ولكن لم يتحرك أحد أو يأبه بمساعدة الروس، ربما لأن الأخيرين كانوا يدينون بالمسيحية الأرثوذكسية وكانوا بعد سقوط القسطنطينية فى يد اللاتين عام ١٢٠٤م يعتبرون أن كنيستهم رائدة الأرثوذكسية فى العالم. وبالطبع نظر اللاتين للروس على أنهم هراطقة. وهذا يدل على عنصرية الكاثوليك الغربيين وعجزهم عن فهم حقيقة ودوافع الغزو المغولى إذ كانوا لا يتصورون بالطبع إمكانية وصول المغول بعد شهور قليلة من القضاء على آخر معاقل الروس إلى بولندا والمجر ووسط أوربا.

بل إن بعض القوى الأوربية اللاتينية اعتبرت أن الظروف الصعبة التى تمر بها الأقاليم الروسية فى مواجهة الاكتساح المغولى هى اللحظة المناسبة للهجوم على روسيا. ولهذا حاول الفرسان التيوتون وقبائل السويديين الاستفادة من مصائب الروس وانشغالهم وقاموا بمهاجمة المناطق الشمالية والشرقية عام ١٢٣٨م من خليج فنلندا حاملين السيف والصليب على اعتبار أن الروس الأرثوذكس مثل الوثنيين .

وفى يوليه ١٢٤٠م هاجم السويديون وحلفاؤهم مصب نهر نيفا Neva لقطع مدينة نوفوجارد عن البحر البلطى مستغلين انشغال المدينة بالغزو المغولى. وتقدم حولية نوفوجارد تفصيلات هذا الغزو ودوافع الحقد لدى اللاتين من تبجيل الروس " للآباء المقدسين فى خلقدونيه" إشارة إلى أرثوذكسيتهم ولكن قوات المدينة الروسية شتت شمل الغزاة[٢٣]. ومن المستبعد ألا تكون أخبار الغزو المغولى لوسط آسيا وشمالها قد وصلت للغرب الأوربى عن طريق التجار البنادقة فى منطقة البحر الأسود والقسطنطينية أو عن طريق الصليبيين فى بلاد الشام.

ومهما يكن من أمر فإن أقدم وثيقة لاتينية عثر عليها حتى الآن عن المغول وتوسعاتهم وخططهم وأهدافهم هي تقرير لجوليان المجرى ، وهو أحد الرهبان الدومينيكان الذين أرسلوا عام١٢٣٧م إلى جنوب روسيا فى بعثة تبشيرية لتنصير قبائل الكومان ولكنه رجع فور مقابلته لأحد سفراء المغول للأمراء الروس حيث أخبره الأخير أن" المغول عازمون على احتلال المانيا Alemania وأنهم يتوقعون وصول فرقة مغولية أخري من إقليم فارس وأنهم قد أخضعوا خمسة عشر شعبا وأنهم يدمرون كل من يقابلهم"[٢٤] . ولهذا رجع جوليان لإبلاغ مليكه بيلا الرابع بما سمعه ورآه ، وقد ذهب جوليان بنفسه للمقر البابوى لإبلاغ البابا بذلك راجيا أن يحفزه على القيام بشيء لإنقاذ العالم المسيحى من كارثة محققة [٢٥] .

وفضلا عن ذلك ، فإن جوليان المجرى قد حمل معه - فى طريق عودته لبلاده رسالة شخصية من دوق مدينة سوزدال الروسية إلى بيلا الرابع يخبره فيها أن المغول « يتآمرون ليل نهار ضد المجر ، وأنهم قد خططوا لمد توسعاتهم حتى إلى روما وما وراءها [٢٦] - كما أن حاكم المدينة الروسية قد أعطى جوليان الرسالة التى كان قد بعثها باتو القائد المغولى - إلى ملك المجر . وقد أورد جوليان - فى تقريره - ترجمة لاتينية لهذه الرسالة ومنها :

> إننى قد سمعت أنك قد أويت (قبائل) الكومان الخاضعين لنا تحت حمايتك ، وإننى آمرك بوقف إيوائهم وتجنب تحريضهم على معاداتنا . وإنه لمن السهل عليهم أن يهربوا لأنه لا منازل لهم وهم يعيشون فى الخيام ، ولكنه ليس من السهل عليكم ذلك ، لأنكم تعيشون فى منازل وتقيمون فى مدن فكيف تستطيعون الهرب منا ؟[٢٧].

وقدم جوليان المجرى للغرب الأوروبى - لأول مرة - معلومات وافية وصحيحة عن الجيش المغولى وتقسيماته وأسلحته ، واستخدام الأسرى فى قتال بنى أوطانهم وخوف المغول من الحصون[٢٨] وغير ذلك من معلومات أكدها المبعوثون الرسميون للبابوية بعد ذلك بعقد من الزمان[٢٩] .

وهكذا فإن الملك المجرى قد أحيط علماً بخطط المغول ضد غرب أوروبا عامة وبلاده خاصة سواء من تقرير جوليان نفسه أو من رسالة دوق سوزدال له أو من إنذار القائد المغولى له . وعلى أقل تقدير فإن الملك المجرى قد أبلغ البابوية وبقية قادة غرب أوروبا بهذه الأخبار للاستعداد والتحوط هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن أخبار الاكتساح المغولى قد وصلت الغرب الأوروبى أيضا عام ١٢٣٨م عن طريقين :

أولا : سفارة من طائفة الاسماعيلية[٣٠] فى فارس أو بلاد الشام لبعض ملوك الغرب بغرض طلب معاونتهم ضد المغول .

ثانيا : التجار الأوربيون

وفى أحداث عام ١٢٣٨ يروى المؤرخ الإنجليزى المعاصر متى الباريسى[٣١] ما ترجمته:

وفى هذا الوقت وصل سفراء خصوصيون من المسلمين Saracens[٣٢] وبصفة أساسية بالنيابة عن شيخ الجبل الكبير إلى ملك فرنسا كيى يخبروه أن جنسا غريبا من البشر الهمجيين قد ظهر فى الجبال الشمالية ، وأنه استولى على بقاع واسعة من الأراضى الغنية والمزدحمة بالشرق ، وأنه قد جرد منطقة هنغاريا الكبرى[٣٣] من سكانها وأنهم (أى التتار) قد أرسلوا خطابات تهديد مع سفراء فى شكل كريه . وأن رئيسهم قد أعلن أنه مفوض من الرب لإخضاع الشعوب التى تتمرد ضده ... وأن رئيسهم رجل عدوانى شرير يسمى خان . وأن هؤلاء الأقوام يعيشون فى المناطق الشمالية إما فى جبال القوقاز أو فى المناطق المجاورة ، وأن اسمهم ترتار Tartars نسبة إلى نهر التار Tar . وأنهم كثيرون جدا ويعتقد أنهم أرسلوا كوباء للجنس البشرى . وعلى الرغم من توسعهم (للأمام) فى مناسبات كثيرة ، إلا أن شرورهم وخطرهم هذا العام أكثر عنفا من ذى قبل .

وإن سكان جوتلاند Gothland وفريزيا Friesland - الذين يخشون هجومهم (أى التتار) لم يحضروا إلى ميناء يارموث Yarmouth فى انجلترا كما هى عاداتهم فى موسم وفرة سمك الرنجة حيث تمتلأ به سفنهم - ولهذا السبب ، فان الرنجة هذا العام (١٢٣٨م) رخيصة جدا بسبب وفرتها حتى أن أربعين أو خمسين قطعة منها - رغم جودتها - كانت تباع بقطعة فضية واحدة ، حتى فى المناطق البعيدة تماما عن البحر .

وأن هؤلاء النبلاء : سفراء المسلمين الذين أتوا للملك الفرنسى قد أرسلوا نيابة عن كل شعب الشرق كى يخبروه بهذه الأمور وأنه (أى شيخ الجبل) قد طلب المعونة من شعوب الغرب (الأوربى) كى يكبح جماح الترتار ، وكان (شيخ الجبل) قد أرسل أيضا سفيرا من طائفته إلى ملك انجلترا كى يخبر عن هذه الأحداث ، ويقول لو أنهم (أى الإسماعيلية أو شعوب الشرق) لم يستطيعوا التصدى لهجمات هذا الشعب (التتارى) ، فإن أحدا لن يمنع تدميرهم لبلاد الغرب (الأوربى) طبقا لقول الشاعر : عندما تحرق النار منزل جارك دون أن تفعل شيئا لإنقاذه) فإنها ستلتهم منزلك تباعا . ولهذا فان شيخ الجبل قد طلب المساعدة

العـاجلة والطارئة حتى يتـمكن المسلمون والمسـيحيـون من مقاومـة هجمـات هذا الشـعب (التتارى) .

ولكن أسقف ونشستر (Winchester) الذى كان موجودا حينئذ (عند الملك الإنجليزى) مرتديا علامة الصليب قاطع حديثه وأجاب هازلا : دعنا نترك هذه الكلاب (يقصد المغول والمسلمين) كى يفترس أحدهما الآخر حتى يهلكوا ويفنوا ، عندئذ نتحرك ضد أعداء المسيح لندحرهم وننظف وجه الأرض منهم وبذلك يخضع العالم للكنيسة الكاثوليكية . ويكون حينئذ راع واحد «أى البابا» لقطيع واحد «أى المسيحين» .

ويوجد فى نص متى الباريسى ثلاثة أمور جديرة بالتعليق . أولها السفارة الإسماعيلية ، وثانيهما موقف الغرب الأوربى من هذه السفارة لوصحت رواية متى الباريسى عنها . وأخيرا عدم مجيئ التجار لاستلام أسماك الرنجة من الموانى الإنجليزية .

وبادئ ذى بدئ لم يرد ذكر هذه السفارة فى جميع المصادر الإسلامية من قريب أو بعيد وهي مصادر معنية بالأمر ، وربما بسبب موقف المصادر السنية من أخبار الحشاشين الخاصة . كما أن متى الباريسى لم يحدد أسماء السفراء ولا هويتهم ولا من أين جاؤا سوى أنهم سفراء "The Old Man of the Mountain" أى شيخ الجبل وهو لقب معروف للأوروبيين عن طائفة الإسماعيلية أو الحشاشين "Assassians" كما كانوا يلقبونهم . ولكن هذا لا يمنع القول أنهم اتصلوا بالغرب لأن تحركاتهم فى الشرق كانت تحاط بالسرية . كما أن المركز الرئيسى لهذه الطائفة فى قلعة «ألموت» Alamut فى شمال فارس كان يتعرض لخطر مغولى محقق . فالجيوش المغولية قد اكتسحت التركستان وما وراء النهر فى الفترة من ١٢١٨ حتى ١٢٢٢م. وبعد ذلك أرسلت الجيوش لتعقب الخوارزميين الفارين فى شمال فارس . وفى عام ١٢٣١ دخلت القوات المغولية بقيادة جورماغان لإقليم أذربيجان وغزت جورجيا للمرة الثانية عام ١٢٣٦م وكذلك منطقة آسيا الصغرى . وبعد ذلك مباشرة كانت قوات أخرى بقيادة باتو تغزو جنوب روسيا وشمال القوقاز . ولهذا ظل الخطر المغولى المدمر يهدد اسماعيلية فارس من كل ناحية . ومن المنطق السليم أن طائفة الإسماعيلية كانت لها مصلحة فى التحالف مع الغرب الأوربى طالما أنه لا فائدة ترجى من الشرق الإسلامى ، لأن رصيد هذه الطائفة من الكراهية لدى كل القوى الإسلامية فى المشرق كان كبيرا ، ولأن الإسماعيليين يعلمون تماما أنه لا الخلافة العباسية الضعيفة ولا الإمارات الأيوبية المتنازعة فى بلاد الشام والعراق يستطيعون

مد يد المساعدة لهم أو لغيرهم لأنه لم يجرؤ أحد منهم من قبل على القيام بنجدة الخوارزميين ولا أمهات المدن الإسلامية التى تعرضت للتدمير وتعرض أهلها للذبح والفناء .

ولهذا حاول سفراء الإسماعيلية اقناع الغربيين أن الدور سيحل عليهم ما لم يقدموا العون للشرق الإسلامى باعتباره منطقة فاصلة بين المغول وأوروبا .

وإن كنا لانعرف رد الفعل الفرنسى تجاه هذه الغارة ، إلا أنه من السهل استنتاجه . فالذكريات المريرة التى يحملها الغرب الأوروبى من «الحشاشين» من جراء محاولة اغتيال أو قتل بعض قادة الصليبيين فى الشرق ، تجعلهم لايحملون إلا الكراهية والازدراء لهم[٣٤] هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن فكرة التحالف بين المسلمين والمسيحيين الكاثوليك فى غرب أوروبا لم تكن سهلة التحقيق بعد عدة قرون من الحروب والعداء منذ ظهور الإسلام ، تلك العداوة التى ازدادت اشتعالا منذ بداية المواجهة المسلحة بين الطرفين فى بلاد الشام فى نهاية القرن الحادى عشر فيما يعرف بالحركة الصليبية .

ولكن رد الفعل الإنجليزى كان حاسما ومعلنا على لسان أسقف ونشستر الذى قيل أنه كان بالأراضى المقدسة أثناء حملة فردريك الثانى عام ١٢٢٩م وهو رد يدل على الفرحة والتشفى فى المسلمين بقوله «دعنا نترك هذه الكلاب يفترس أحدهم الآخر» . وبطبيعة الحال هذه وجهة نظر قاصرة ، لأن المغول حطموا عدة ممالك مسيحية فى شرق أوروبا بعد ذلك بثلاثة أعوام . ولولا وفاة الخاقان المغولى أوجوداى عام ١٢٤١م ، وما نتج عنه من انسحاب مفاجئ للقوات المغولية من أوروبا لربما تغير وجه التاريخ . وعموما تغيرت هذه النظرة بعد قليل ، ليس للتحالف مع المسلمين ضد المغول ولكن للاتجاه العكسى تاما باعتبار أن المسلمين عدو مشترك للطرفين .

وأخيرا فإن متى الباريسى يبرر كساد تجارة سمك الرنجة فى الموانى الإنجليزية بعدم حضور تجار جوتلاند وفريزيا لنقله لأسواق الاستهلاك كما هى عادتهم ، وهذا بالقطع أضر باقتصاديات المدن الساحلية فى ذلك العام (١٢٣٨) . ويفسر فيرنادسكى Vernadsky هذا الأمر بوجود علاقات تجارية بمقتضى معاهدة عام ١١٩٥ م بين مدينة نوفوجارد الروسية (والتى كانت حلقة الوصل بين المدن الروسية الداخلية وبين الأقاليم الأوربية الساحلية) وجزيرة جوتلاند (فى البحر البلطى) وموانى فريزيا (الأراضى الواطئة الآن) لاستيراد الأسماك وسلع أخرى ، وان تجار المناطق الأخيرة كانوا يقومون بدور الوسيط بين نوفوجارد والموانى الإنجليزية[٣٥] .

ولكن عندما اكتسح المغول روسيا وكانوا غير بعيدين عن نوفوجارد نفسها ، فان حاكم المدينة الأخيرة جند كل سكانها القادرين على حمل السلاح للدفاع عن مدينتهم والسهر ليل نهار خلف الحصون وأمام الأسوار انتظارا للنكبة التى ستحل بهم ، لهذا لم يفكروا فى بنود معاهداتهم مع جوتولاند وفريزيا (٣٦)، وفى نفس الوقت لم يكن البؤساء من سكان نوفوجارد وقتذاك فى حاجة لأكل السمك فى ذلك الوقت العصيب .

ولكن لهذا الحديث دلالة تثير الانتباه ، لأن قرارا أصدره الخاقان الأعظم فى الطرف الشرقى للكرة الأرضية بغزو روسيا وأوربا يصيب الشعب الإنجليزى - فى الطرف الغربى للعالم المعروف حينذاك - فى رزقه وقوته اليومى . وهذا أكبر انذار وإشارة تحذير للغرب الأوربى كى يستعد لهذه الطامة الكبرى ، ولكن أحدا لم يستفد من هذه الإشارة مثلما لم يستفيدوا من تحذيرات جوليان المجرى وسفراء الإسماعيلية .

غزو بولندا : ١٢٤٠-١٢٤١م .

لما كانت الاستراتيجية الثابتة لجنكيز خان وخلفائه من الأباطرة العظام هى إخضاع العالم بأسره للحكم المغولى ، فإنه بعد الانتهاء من إقليم روسيا فقد أصبح الطريق مفتوحا إلى بولندا غربا والمجر جنوبا . وكان هروب معظم أمراء غرب روسيا وحكامها لهاتين الدولتين ، فضلا عن إيواء ملك المجر للكومان الفارين أمام المغول وحاجة الأخيرين لمراعٍ جديدة لخيولهم حافزا للقوات المغولية فى أوربا على المزيد من التوسع .

ويبدو أن هدف المغول من غزو بولندا كان لتأمين قواتهم الموجهة بقيادة بيدر Baidar وقادان Kadan لغزو بولندا بجيش لايزيد عن ثلاثين ألفا(٣٧) رغم المبالغات التى قيلت فى هذا الصدد (٣٨). وقد انسحبت هذه الفرقة للحاق بالجيش الرئيسى الذى اتجه إلى المجر بمجرد تحطيم القوة العسكرية البولندية .

وقد ظهرت القوات المغولية فى بولندا(٣٩) فى أواخر عام ١٢٤٠م ، ودمرت مقاطعة Lu-blin ولكنها تراجعت إلى غاليسيا الروسية ، ومرة ثانية عبرت هذه القوات نهر فيستولا Vistula المتجمد وعاثت فسادا فى مدينة ساندومير Sandomir ، ووصلوا إلى مسافة سبعة أميال من مدينة كراكوف Gracow ، وفى أثناء تراجعهم دمروا الكثير من القرى والأديرة وحملوا معهم الغنائم والأسرى . وفى طريق عودتهم فاجأهم أمر المدينة الأخيرة وأنقذ منهم كثيرا من الغنائم والأسرى ، ولكن المغول استداروا عليه وقتلوه وحطموا قواته (٤٠).

وفى بداية عام ١٢٤١م انقسمت القوة المغولية الزاحفة على بولندا إلى جزئين : فرقة تحت قيادة بيدر الذى زحف إلى كراكوف ، والجزء الآخر تحت قيادة أخيه قادو إلى Sieradia Cu-javia , Lancitia وفى ١٨ مارس من ذات العام سحقت القوة المغولية بقيادة بيدر قوة بولندية فى Chmielnik وبعد ذلك وجد المغول مدينة كراكوف خالية من سكانها الذين هجروها (خشية الغزاة) ومن ثم سويت بالأرض .

وبعد ذلك تجمعت القوات المغولية وتقدمت غربا وعبرت نهر الأودر Oder ووصلت مدينة بريسلاو Breslau فى إقليم سيليزيا حيث تجمع سكانها فى قلعتها . ومن ثم حرق المغول المدينة ، ولكنهم تركوا حصار القلعة عندما علموا بأن القوات البولندية المؤلفة من عشرين ألفا تؤازرها قوات من الفرسان التيوتون الألمان وقوة من مورافيا تتجمع تحت قيادة هنرى الثانى دوق سيليزيا فى منطقة ليجنتز Liegnitz لانتظارهم [٤١].

وقد ظهرت - فى هذه المعركة - العبقرية الحربية للمغول والمدعمة بالخبرة الصينية والتى صقلتها ممارسة القتال فى العديد من الميادين والأجواء وضد الكثير من الشعوب والقبائل . فقد استخدم المغول ما يشبه اليوم بالغازات السامة ، وذلك باشعال النيران فى الغابات المحيطة بميدان القتال ، واستخدام مداخن سامة وتوجيه كرات النفط المحترقة تجاه القوات المتحالفة . وظهرت كذلك براعة المغول فى تطويق الأعداء والالتفاف حولهم وغير ذلك من وسائل أحبطت البولنديين قبل بدء المعركة . ولاغرو أنه فى يوم ٩ أبريل عام ١٢٤١م حصدت القوات المغولية زهرة فرسان بولندا والتيوتون ومورافيا وعلى رأسهم هنرى الثانى دوق سيليزيا. وطبقا لرواية مؤرخ بولندى معاصر ، فإنه بعد انتهاء المعركة قطع المغول أذنا واحدة من كل جثث أعدائهم وملأوا بها تسعة أجولة كبيرة [٤٢]. وربما فعلوا ذلك لأنهم قوم بدائيون لايعرفون القراءة والكتابة ، وأراد قواد هذه الفرقة تقديم الدليل على مهارتهم العسكرية إلى باتو قائد العمليات فى أوربا والموجود وقتذاك فى المجر ، فوجدوا أن هذه الطريقة البربرية خير وسيلة لإحصاء قتلى ضحاياهم !!

وبعد هذه الهزيمة الساحقة للقوات المتحالفة فى بولندا ، لم تجد القوة المغولية أدنى مقاومة فى بقية بولندا أو مورافيا ، وتم تدمير الإقليم الأخير . ولأن باتو كان قد أصدر أوامره لقواده فى بولندا للتحرك شرقا لملاقاته فى المجر ، فإن القوة المغولية التى كانت فى بولندا قد دمرت المدن الصغيرة والأديرة المجاورة لها فى إقليم بوهيميا (فى تشيكوسلوفاكيا السابقة) ، وهرب الناجون إلى الكهوف والغابات . ولم يكن هناك وقت يسمح للقوة المغولية بتدمير بوهيميا أو منازلة ملكها - رغم ادعاءات بعض المصادر التشيكية فى هذا المجال [٤٣].

غزو المجر : ١٢٤١-١٢٤٢م

كانت القوة المغولية الرئيسية تحت قيادة باتو وسويداى فى طريقها عام ١٢٤٠ لغزو المجر وذلك بعد تحطيم قوة مدينة كييف الروسية ، وكان ملك المجر يتوقع هذا الغزو - للظروف التى سبق دراستها - ورغم ذلك كانت الحالة الداخلية للمجر وقتذاك لاتسمح لها بمواجهة هذا الغزو الضاري (٤٤).

حاول بيلا الرابع تحصين ممرات جبال الكاربيثيا التى تفصل بلاده عن جيرانه الروس وذلك لمنع تقدم القوات المغولية لبلاده . وعهد لقائد جيشه بحمايتها ، وأرسل كذلك لاستدعاء جميع النبلاء وكبار رجال الدين لمقابلته فى مدينة بودا Buda فى ١٧ فبراير ١٢٤١م ومعهم جيوشهم وأسلحتهم وعتادهم ، وكذلك استدعى كوتان - قائد الكومان - للمثول بين يديه بقواته . ولكن حدثت خلافات بين النبلاء ومليكهم لرغبة الأخيرين فى الحصول على امتيازات اقطاعية حرمهم منها والده أندرو الثانى (١٢٠٥-١٢٣٥م) ، وكذلك لرغبتهم فى طرد قبائل الكومان من المجر باعتبارهم سببا مباشرا للتهديدات المغولية للمجر . ولكن إذا كان الملك قد رفض شروط نبلائه فانه اعتقل قائد الكومان ، ولهذا عاثت قوات الأخير فى البلاد فسادا فى وقت الحاجة لجهودهم . بل واستطاع المغول بعد ذلك مباشرة استخدامهم ضد المجريين . والمهم أنه فور علم ملك المجر باقتحام المغول دفاعاته فى ممرات الكاربثيا فانه أرسل زوجته وأولاده وجزءا من ثرواته بصحبة رئيس الأساقفة إلى دوق النمسا (اوستريا) للاحتماء بقوته ولطلب نجدته وعون بقية قوى الغرب الأوربى (٤٥).

ولكن القوات المغولية زحفت على المجر - فى تخطيط عسكرى بارع يقوده الخبير سوبداى- من ثلاثة جهات : من ممرات الكاربثيا فى الشمال ، ومن ناحية الشرق ومن بولندا فى الغرب . وبعد أن حقق المغول بعض الانتصارات الصغيرة ، أسروا عددا كبيرا من الكومان واستخدموهم فى قتال المجريين . وحدث أن تقابلت فرقة مغولية بقيادة باتو مع القوات المجرية بقيادة ملك المجر وشقيقه يوم ١١ أبريل ١٢٤١ قريبا من قرية موهى Mohi على نهر Saje حتى قبل أن تتجمع بقية القوات المغولية وكانت مذبحة مريعة للقوات المجرية ، قتل وأسر فيها جميع قادة المجر وخمسة وستين ألفا من قواتهم باستثناء ملكها الذى هرب متخفيا بمعجزة (٤٦). وهكذا انهارت مقاومة المجريين بعد يومين فقط من انهيار قوة بولندا فى موقعة ليجنتز فى ٩ أبريل .

ودون الدخول فى تفاصيل بقية العمليات العسكرية المغولية فى المجر والبلقان ، يكفى القول أن قوة مغولية قد حطمت مدينة جران وإقليم ترانسلفانيا (المجريين) ووصلت على مقربة من فيينا ، بينما تتبعت فرقة أخرى الملك المجرى الهارب ناحية الجنوب الغربى من خلال كرواتيا (فى يوغسلافيا السابقة) إلى زغرب ، ثم إلى دالماشيا ، حتى هرب بيلا الرابع فى جزيرة تراو Trau (أمام سواحل ألبانيا الحالية) . وزحفت هذه الفرقة المغولية إلى Cattaro على البحر الأدرياتى وعاثت فى ألبانيا فسادا ، ثم انضمت لقوات باتو فى بلغاريا (٤٧). ولم تجد هذه الفرقة ولاغيرها أية مقاومة . وفى مايو ١٢٤٢م انسحبت الفرق المغولية من المجر والبلقان بنفس السرعة والتنظيم التى دخلت بها هذه المناطق دون أن تجد فى طريقها أحدا يقاومها ، وعسكرت فى جنوب روسيا فى منتصف ذلك العام على الضفاف الجنوبية لنهر الفولجا .

ويتفق جميع من تناولوا الغزو المغولى لأوربا بالدراسة أن وفاة الخاقان المغولى أو جوداى فى ديسمبر عام ١٢٤١م ، ووصول الخبر لقادة المغول فى وسط أوروبا فى ربيع ١٢٤٢ هو السبب الرئيسى للانسحاب باعتبار أن باتو - قائد الجيش - كان أفضل المرشحين لهذا المنصب ، فهو أكبر أحفاد جنكيز خان ، وأكثرهم تحقيقا للانتصارات. ولهذا سحب قواته من وسط أوربا إلى جنوب روسيا ليشارك هو وبقية أحفاد جنكيزخان فى القوريلتاى الذى سيختار الخاقان الجديد وبذلك يكون قريبا من مركز صنع القرار فى قراقورم .

وهناك وجهة نظر أخرى مفادها أنه حدثت خلافات شخصية بين باتو من ناحية وبين جويك ابن الخاقان (المتوفى) وبيورى حفيد جغطاى من ناحية أخرى أثناء حصار كييف فى ديسمبر ١٢٤٠م ، ورجوع الأخيرين حانقين عليه فورا إلى قراقورم . وعندما علم باتو بوفاة الخاقان فإنه اضطر للانسحاب إلى جنوب روسيا خشية وصول أحدهما للمنصب الخاقانى(وهذا ما حدث فعلا بتولى جويك لهذا المنصب عام ١٢٤٦م) وقد يمنع عنه الإمدادات الحربية من الشرق وهو فى وسط أوربا (٤٩). وربما لإدراك باتو أن الفترة التى تعقب وفاة الخاقان وتولية غيره تكون فترة استرخاء عسكرى . ولهذا خشى باتو من رد فعل فورى للغرب الأوربى بعد المذابح التى ارتكبها فى شمال أوروبا وشرقها وأن يؤدى ذلك إلى تدمير كل جيوشه .

موقف غرب أوروبا من الغزو المغولي لبولندا والمجر :

لقد سبق الإشارة أن أسقف ونشستر حينما علم بالكارثة التى حلت بالشرق الإسلامى فانه هلل وقال : « دعنا نترك هذه الكلاب تفترس بعضها » ، وأن قبائل السويدين والفرسان التيوتون وجدوا فى انشغال المدن الروسية بالغزو المغولى فرصة سانحة للإغارة على ممتلكات المدن الأخيرة من ناحية الشمال والشرق وعلى الطرق التى تربط مدينة نوفوجارد بالبحر البلطى.

ولم يتغير هذا الموقف حتى حينما كانت الضحايا شعوبًا تدين بالمسيحية الكاثوليكية وتقع فى أوروبا ومجاورة تماما للامبراطورة الرومانية المقدسة .

سبق القول أن ملك المجر قد أرسل زوجته وأولاده بصحبة رئيس الأساقفة لدوق النمسا للاحتماء عنده وطلب نجدته العاجلة . وبعد موقعة Mohi فى ١١ أبريل عام ١٢٤١م وتدمير قواته وانسياب القوات المغولية فى مملكته ، فان بيلا الرابع فر أمام الغزاة إلى حدود النمسا حيث وصلته دعوة من دوقها فردريك باللجوء إليه والاحتماء عنده . ولكن للأسف - كما تقول حولية معاصرة «كان ملك المجر مثل سمكة حاولت الهرب من الثلج فألقت بنفسها فى النار» فبمجرد وصول الملك عند دوق النمسا فإن الأخير اعتقله وطلب منه فدية ضخمة قدرها ثلاثة أقاليم مجرية مجاورة لحدود دوقيته ومبلغا ضخما من المال . ولم يساعد الملك على أمره إلا أن يتعهد له كتابة بذلك ، وأن يترك رهينة جزءا كبيرا من الذهب والفضة التى كان قد أنقذها من مخالب المغول . وليس هذا فقط بل وهاجم دوق النمسا مملكة المجر المنكوبة حتى وصل إلى الناحية اليمنى لنهر الدانوب لاحتلال مدينة Gijor التى أحرقها المجريون بأنفسهم حتى لايستفيد بها الدوق الغادر[٥٠] . ومن ثم ترك ملك المجر مضيفه الخائن وفر إلى كرواتيا ثم إلى زغرب ثم لجأ إلى إحدى الجزر فى البحر الإدرياتى أمام سواحل ألبانيا .

وفى هذا الوقت ، كان الشغل الشاغل للبابوية وأنصارها هو تحطيم الإمبراطور فردريك الثانى (ت ١٢٥٠م) وليس الدفاع عن العالم المسيحى ، حتى أنه فى منتصف فبراير ١٢٤١ أي قبيل اكتساح المغول للأراضى المجرية بعدة أيام - قام المندوب البابوى فى المجر بالدعوة إلى حملة صليبية ليس ضد المغول كما هو متوقع ولكن ضد الإمبراطور ؛[٥١] وكان فردريك الثانى هو الأخير مشغولا بحصار أنصار البابوية فى مدينة Faenza واستولى عليها عام ١٢٤١ بالقوة المسلحة، وكان مقيما فى صقلية تاركا شئون الإمبراطورية لابنه وولى عهده: كونراد.

ولم يكن ملك المجر يتوقع العون من الإمبراطور المشغول لأذنيه فى صراعه مع البابوية وأنصارها من المدن الإيطالية . ومع ذلك فإنه أثناء وجوده فى النمسا ، أرسل مبعوثيه برسائل يتضرع فيها للبابوية بالدعوة لحملة صليبية ضد المغول ، ويتوسل إلى الإمبراطور للعمل على حشد قواته وإرسالها لنجدته . كما عرض عليه فى مقابل ذلك ولاءه وتبعيته له فى حالة إرسال نجدة عاجلة تخلص بلاده من المغول (٥٢).

وحتى قبيل تلقى نداءات بيلا الرابع ، فإن أخبار الكارثة التى كانت قد حلت بالمدن الشمالية لبولندا (قبل موقعة Liegnitz) كانت قد وصلت إلى الغرب الأوربى عن طريق رسالة كتبها هنرى كونت اللورين فى ١٠ مارس عام ١٢٤١م إلى والد زوجته هنرى الأول دوق برابانت (١٢٣٥-١٢٤٨) . وفى هذه الرسالة يلفت كاتبها نظر الغرب إلى أن عددا لايحصى من التتر قد استولت على الأقاليم المحيطة به ، وأن ابن عمه ملك بوهيميا قد أبلغه بعزم الغزاة على غزو مملكته بعد عيد القيامة ، وأن هؤلاء «البرابرة» يقومون - وقتذاك - باكتساح بلاد المجر وذبح من يقابلونه وتدمير الأخضر واليابس ، وفى نهاية الرسالة طلب من دوق برابانت حث الهيئات الدينية عنده بل وحث كافة رجال الدين للدعوة لحملة صليبية ضد الغزاة باعتبار أن هذا العمل يرتبط بالسيد المسيح وأعداء المسيحية قبل أن يدمروا العالم المسيحى (٥٣).

وعلى الفور قام دوق برابانت بإرسال نسخ من هذه الرسالة إلى كل من أسقف باريس وملك انجلترا ورئيس أساقفة كولونيا كى يعملوا على وقف النزاع بين البابا والإمبراطور والالتفات لهذا الخطر المحدق بهم .

وذهب أسقف باريس - فور تلقيه هذه الأنباء - لمقر مليكه لويس التاسع ووجد والدته الملكه بلانش وعرض عليها هذا الأمر . ومن ثم استدعت الملكة ولدها لويس التاسع على عجل وقالت له باكية « أين أنت يا ولدى ؟ ماذا سنفعل إزاء هذه الأحداث المفجعة التى نقلها هذا التقرير المخيف عما يحدث فى أراضينا (تقصد العالم الكاثوليكى) ؟ إن - تدميرا شاملا لنا جميعا وللكنيسة المقدسة وشيك الوقوع فى زمننا هذا بسبب هذه الغزوات الترترية» وطبقا لرواية متى الباريسى ، رد عليها ملك فرنسا بنغمة مفعمة بالحزن والأسى «أرجوا يا أماه أن تتنزل علينا سكينة من السماء ، ولو أتى هؤلاء القوم الذين نسميهم ترتاراً فإما أن ندفعهم ثانية إلى أقاليم الجحيم التى أتوا منها أو أنهم سيرسلوننا جميعا إلى السماء (كناية عن الاستشهاد) (٥٤).

وكتب فردريك الثانى رسالة - على أثر تلقيه توسلات ملك المجر - فى ٣ يوليه (١٢٤١) وأرسل نسخا منها إلى جميع قادة الغرب الأوربى . وقد نشر متى الباريسى رسالته لملك انجلترا كاملة وجاء فيها « .. إننا لانستطيع السكوت على أمر لايخص فقط الإمبراطورية الرومانية بل أيضا كل الممالك التى تعتنق المسيحية فى العالم » . ويحكى الإمبراطور للملك الإنجليزى المعلومات التى وصلته عن المذابح التى ارتكبها المغول ضد الجميع دون تفرقة بين جنس أو نوع أو ديانة أو طبقة معينة لضحاياهم . ولم ينس فردريك الثانى أن يلقى باللائمة على الملك المجرى لأنه «رجل تافه كسول ... لم يأخذ حذره ولم يستعد لهذا الخطر ..» !! وألقى الإمبراطور بمسئولية ذلك أيضا على البابوية وكيف أن طمع البابا وعدوانيته هى سبب انقسام العالم المسيحى ومشاكله . وطلب فردريك الثانى من الملك الإنجليزى التدخل فورا مع كل القادة الأوربيين لدى البابا كى يعدل الأخير عن حروبه ضد الإمبراطور ويبتعد عن تأليب المتمردين عليه حتى يتفرغ فردريك بكل قواته ضد المغول . كما أبلغ فردريك المرسل إليه بأن البابا « قد أمر بالدعوة لحملة صليبية ضدى وأنا حامى الكنيسة والمدافع عنها ، ومن واجبه بل ومن الأفضل له أن يفعل ذلك ضد الغزو التتارى » .

ويطلب الإمبراطور من هنرى الثالث (١٢١٥-١٢٧٠) أن يجند قوة من خيرة فرسانه مجهزين بالعدد والعتاد ويرسلها إلى الأراضى الألمانية للاشتراك مع بقية القوات للدفاع عن الدين المسيحى تحت قيادة ابنه كونراد «لأنه لو أن الترتار غزوا الأراضى الألمانية لاقدر الله بدون مقاومة تصدهم ، فانهم سيخضعون كل الغرب ويدمرون الدين واسم المسيح».وفى نهاية رسالته يلعن الامبراطور «من بيدهم أمور العقيدة والدين الذين غرقوا فى شرور الربا ومختلف أنواع الطمع والسيمونية» (٥٥). وتلك إشارة واضحة للمساوئ العديدة للبابوية وقتذاك .

وهكذا فان الامبراطور - من ناحيته - وجد فى الخطر المغولى المحدق بأوروبا فرصة لتوحيد الغرب تحت لوائه ، والقاء المسئولية على البابوية على أنها المسئولة عن انقسام العالم الكاثوليكى بين مؤيد لها ومعارض ، وأنها السبب فى استنزاف قواته ضد المتمردين عليه بدلا من توجيهها ضد المغول .

والمتتبع للصراع الدامى بين البابوية وفردريك الثانى لايجد صعوبة فى استنتاج أن دعوة الأخير لتكوين قوات من غرب أوروبا للدفاع المشترك عن القارة ضد المغول لم تجد آذانا صاغية ، وذلك لأن الداعى نفسه كان فى نظر الكنيسة والغرب الكاثوليكى «كافرا» لأنه

صدر ضده قرار الحرمان ، ولم يحلل منه بعد ، وطبقا لهذا القرار فان من يتعاون أو يتحالف معه يستحق نفس الجزاء ، ولم يكن فى استطاعة أى قائد أوروبى وقتذاك المجاهرة بمعاداة البابوية حتى لايتعرض لأسلحتها التى أذلت العروش الأوروبية منذ هنرى الرابع فى حادثة كانوسا عام ١٠٧٦م حتى الملك جون الإنجليزى فى العقد الثانى من القرن الثالث عشر . كذلك كان تلبية هذه الدعوة فى إرسال قوات تحت إمرة فردريك الثانى أو ابنه معناه تعريض مركز البابوية للخطر . وقد كانت البابوية تنظر بعين القلق لأى تقارب بين أى حاكم أوروبى وبين هذا الإمبراطور ، خاصة وأن متى الباريسى يروى أنه فى تلك السنة أيضا (١٢٤١) قبض فردريك الثانى على مجموعة كبيرة من الأساقفة والكرادلة والمندوبين البابويين من عدة دول أوروبية وهم فى طريقهم إلى المقر البابوى فى روما[٥٦] . بل وحاصرت قواته -فيما بعد- روما نفسها لإرغام البابوية على تحليله من قرار الحرمان بالقوة . ولهذا فان البابا - عندما دعا إلى عقد مجمع مسكونى عالمى - اختار مدينة ليون الفرنسية ليكون تحت حماية لويس التاسع وليستطيع دعوة من يشاء من معارضى الامبراطور وتقرير ما يشاء ضده دون إمكانية تدخله .

ولهذا كان على الإمبراطور سرعة التحرك بمفرده لحماية بلاده من المغول الذين كانوا وقتذاك داخل امبراطوريته من الناحية الشمالية . فأمر ابنه هنرى فى صقلية بالانضمام إلى أخيه كونراد فى إيطاليا على رأس أربعة آلاف فارس للدفاع عن الامبراطورية . وفى نفس الوقت دعا البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١) لحملة صليبية ضد المغول . وفى ١٩ مايو ١٢٤١م تقلد كونراد شعار الصليب وتوالت التبرعات والإمدادات عليه من ألمانيا . ولكن دوق النمسا لم ينضم له بحجة أن جنوده مشغولين بالدفاع عن حدود دوقيته (وهم فى الحقيقة كانوا ينهبون ما تبقى من المجر) . وكتب فى ١٣ يونية يشجعه على الضغط على ملوك فرنسا وأسبانيا وانجلترا لإمداده بقوات وعتاد ، ودعا الفرسان للمرور من دوقيته على نفقتهم الخاصة[٥٧].

وفى تلك الفترة ، كانت القوات المغولية المعسكرة فى وسط المجر - بعد تحطيم مقاومة المجر وفرار ملكها - قد أرسلت فرقة استطلاعية صغيرة إلى الشمال الغربى للمجر . وقد تجولت هذه الفرقة على حدود النمسا وداخلها ، ولكن قوات دوق النمسا - التى كانت فى طريقها لاحتلال مدينة مجرية - أجبرت هذه التجريدة المغولية على التراجع وأسرت منها أسيرا

واحدا اتضح فيما بعد أنه انجليزى الأصل . وعلى الفور كتب هذا الدوق إلى كونراد تفاصيل معركة بين جنوده «البواسل» وبين قوة ضخمة للمغول ودبجها بالمبالغات . فادعى أنه كبدهم فيها ثلاثمائة قتيل ! ثم كتب بعد أسبوع واحد لأسقف كونستانس يبلغه بتفاصيل المواجهة مع المغول ويرفع عدد ضحايا عدوه إلى سبعمائة(٥٨)!

وقد مرت عدة شهور على قوات كونراد دون الاشتباك مع المغول الذين كانوا حينذاك فى فترة استرخاء فى وسط المجر . ولم يكن كونراد ساذجا ، كى يذهب على رأس قواته لطرد الغزاة من المجر . ومن ثم بدأ القلق يسيطر على المتطوعين فى جيش كونراد . وصدرت أوامر مندوبى البابا لهؤلاء الفرسان بالعودة إلى منازلهم إلى أن يحين الوقت لدعوتهم لحملة ضد الامبراطور الذى كانت قواته تحاصر روما نفسها فى ذلك الوقت . «وقبل أن يعود الأساقفة والأمراء (المشاركون فى قوات كونراد) للمناطق التى جاؤا منها ، فانهم أخذوا كل الأموال التى جمعت للإنفاق على الجنود ووزعوها على أنفسهم»(٥٩) !!

ولكن الرحيل المفاجئ للقوات المغولية عن شمال أوروبا وشرقها فى ربيع عام ١٢٤١م لم يعط الأمان للأوربيين الذين كانوا يتوقعون عودة الغزاة مرة ثانية ، خاصة وأن عشرات الآلاف من جثث البولنديين والمجريين لم تجد من يدفنها ، وأن حطام عشرات المدن والكنائس لم تجد من يرفعها بعد . ولهذا ظلت نداءات الذين يحيطون بالمواقع التى دمرها المغول تجوب الغرب الأوربى لطلب النجدة ضد عدو يتوقعون قدومه ثانية .

فها هو هنرى دوق ثورنجيا وساكسونى يرسل لدوق برابانت يصف له ما فعله الغزاة من خراب وتدمير «وأن الشعوب المسيحية كانت تفر أمامهم كما تفر الحيوانات أمام الأسد»(٦٠).

وفى خطاب مشترك كتبه اثنان من الرهبان الدومنيكان والفرنسسكان فى نهاية عام ١٢٤١م موجها إلى جميع قادة هاتين الهيئتين الدينيتين وأعضائها ، وذلك لإبلاغهم بتفاصيل الدمار الذى أحدثه المغول فى شمال أوروبا وقوة الغزاة وأسلحتهم (٦١).

وفى خطاب من مقدم دير السيدة العذراء فى المجر ، مؤرخ من النمسا فى يناير ١٢٤١ «إلى كل رجل دين يمكن أن يراه أو يقرأه أو يسمع عنه» للإخبار بتفاصيل اكتساح المغول للمجر وقتلهم خمسة وستين ألفا فى هذه البلاد ، وأربعين ألف بولندى ، وعددا لايحصى من الروس وعلى رأسهم خمسة وعشرين دوقا ، وأن الغزاة ارتكبوا المفاسد فى الكنائس ولم يراعوا أية حرمات . ويتوسل الراسل - فى نهاية رسالته - إلى رجال الدين أن يفتحوا صدورهم لكل اللاجئين الفارين أمام الغزاة (٦٢).

وينشر متى الباريسى - ضمن أحداث عام ١٢٤٣م - خطابا مطولا من إيفو الناربونى Ivo of Narbonne إلى جيرالد رئيس بوردو ، كتبه من إحدى المدن النمساوية التى اقترب منها المغول قبل ذلك بعامين . ويتفق خطابه - فى عرض تفاصيل الغزو المغولى لأوروبا والفظائع التى ارتكبوها هناك - مع الخطابات الأخرى السابق دراستها ، ويضيف إليها بعض المعلومات الجديدة ومنها أن النمساويين قد أسروا أحد رجال القوات المغولية ويدعى بيتر (٦٣). ويروى عن لسان الأخير أن هدف المغول من حروبهم هو إخضاع العالم كله لسيادتهم . كما يحكى عنه تفاصيل كثيرة عن جيش المغول وتقسيماته وأسلحته . هذا فضلا عن عدم احترام المغول لنصوص المعاهدات المبرمة مع غيرهم إلى جانب تدميرهم لكل من يقاومهم (٦٤).

ويتساءل إيفو الناربونى - ساخرا - عن مهمة رجال الدين عامة إذا لم يكن لهم دوراً فى إنقاذ العالم المسيحى من الخطر المحدق به ، ويطلب منهم أن يصرخوا فى الآذان لايقاظ الغافلين عن الخطر المغولى ، ويستنكر غفلة مستشارى الملوك والأساقفة ومقدمى الأديرة عن الدعوة لحملة صليبية ضد الغزاه ويقول أيضا :

> إن ست ممالك مسيحية قد دمرت بالفعل، وأن نفس المصير معلق على رقاب الآخرين ، بينما لم يأخذ الأحياء عظة وعبرة من الذين هلكوا ، ولكننا نهمل أسوأ أعدائنا بين ظهرانينا (أى المغول) ونهاجم هؤلاء الذين لايؤذوننا فيما وراء البحار (أى المسلمين) . ولهذه الأسباب أرجو منك أن تنصح ملوك فرنسا وانجلترا وأسبانيا ... أن يدعوا جانبا خلافاتهم الخاصة للأبد أو مؤقتا ، وأن يعقدوا اجتماعا سريعا وحكيما فيما بينهم كى يقرروا كيف يواجهون هذه الآلاف من البرابرة(٦٥) .

ولكن لم تثمر كل هذه النداءات شيئا ، حتى أن متى الباريسى يقول - بعد أن نشر النص الكامل للخطاب السابق «أفسد النزاع بين الامبراطور والبابا كل شئ» وقال أيضا أنه رغم أن هذا الخطاب قد أرعب قلوب الملوك والأمراء الذين قرأوه ، كما أثار الحماسة فيهم للانتقام من الأضرار التى لحقت بالعالم المسيحى ، فان الانقسامات والنزاعات بين الامبراطور والبابا نشرت القلق والفوضى فى كل مكان (٦٦).

أما البابا جريجورى التاسع فلم يصنع شيئا لأنه شغل بالصراع مع الامبراطور وأعوانه ولم يكن فى جعبته سوى الدعوة لحملة صليبية فى ألمانيا فقط ضد المغول . ولم يأخذ خطوات أخرى أكثر من ذلك ، ربما لحرج موقفه ، إذ أن قوات فردريك الثانى قبضت على أعوانه ،

ولأنها كانت تحاصره فى روما . وجاءت وفاة جريجورى التاسع فى ٢٢ أغسطس عام ١٢٤١م وخلو الكرسى البابوى لمدة عامين تقريبا إضافة جديدة لفتور رد الفعل الأوربى تجاه المغول .

فالامبراطور الذى لم يعد أمامه أية أعذار يتعلل بها بعد أن ساعده القدر فى التخلص من جريجورى التاسع وعدم وجود من يخلفه لمدة عامين - لم يتقدم بقواته ليعسكر بها فى المجر أو فى كرواتيا أو حتى على حدود امبراطوريته انتظارا لرجوع المغول ، أو المشاركة فى اصلاح الدمار الذى سببه الغزاه فى كبريات المدن البولندية والمجرية . ولكنه بقى بجوار روما للضغط على الكرادلة ، زاعما بأن فى يده وحده إنقاذ أوروبا من غزو تتارى وشيك الوقوع لو أنهم اختاروا أحد أصدقائه من الكرادلة للكرسى البابوى (٦٧).

ووجه أنوسنت الرابع فور اعتلائه الكرسى البابوى (١٢٤٣-١٢٥٤) اهتماما شديدا للمسألة المغولية . فقد جدد جهود سلفه فى الدعوة لحملة صليبية ضد المغول ، وأرسل لمندوبيه فى الامبراطورية الرومانية لترغيب الفرسان والعامة على حد سواء لحمل الصليب ضد المغول بمنحهم نفس الامتيازات الممنوحة للصليبيين المتجهين إلى الأراضى المقدسة . وأرسل إلى الكرادلة فى بوهيميا ومورافيا للاستعلام عن حجم الخسائر التى الحقها الغزاة بأراضيهم ، كما أرسل إلى دوق الترويج طالبا منه الانضمام لملك المجر فى حالة عودة المغول لأراضى الأخير (٦٨).

ولجأ أحد رؤساء الأساقفة الروس ويدعى بيتر لانوسنت الرابع طالبا منه المساعدة العسكرية ضد المغول الذين حطموا الكنائس والأديرة فى إقليمه . وحصل البابا الجديد على معلومات وافرة عن المغول من هذا المطران الروسى . ومنها - طبقا لرواية متى الباريسى - أن التتر يعتقدون بوجود حاكم واحد فقط للعالم هو خليفة جنكيز خان ، وأنهم يعتقدون أيضا « أن الرب وابنه God and His Son فى السماء وأن جنكيز خان فى الأرض ، وأنهم يرفعون أيديهم كل صباح ناحية السماء ليعبدوا خالقهم وأنهم «يتخذون من يوحنا المعمدان قدوة لهم ، وأنهم يبتهجون كذلك عند رؤية كل قمر جديد » . كما أنهم يستقبلون السفراء بكل لطف وييسرون مهمتهم ويعيدونهم سالمين (٦٩).

وكان هذا التقرير على درجة كبيرة من الأهمية لانوسنت الرابع فى تقرير سياسته نحو المغول ، وقيل أنه وضعه أمام مجمع ليون المسكونى فى العام التالى(٧٠) ، وذلك لأن البابا وجد فى أقوال المطران الروسى عن معتقدات المغول شيئا شبيها بالمسيحية الكاثوليكية خاصة

فى الاعتقاد «بالأب والابن» فى السماء وأن البابا يمثل الرب على الأرض ، وكذلك رفع اليد ناحية السماء ، وتبجيل يوحنا المعمدان ، ولهذا اعتقد أن هؤلاء القوم أقرب إلى المسيحية ، وأنه يمكنه تحويلهم للدين المسيحى لأن فى اعتناقهم ديانة مشتركة مع الغرب الأوربى إنقاذاً لأوربا من أخطارهم المتوقعة . وقد شجعته شهادة المطران الروسى عن احترام المغول للسفراء وتسهيل مهمتهم على التفكير فى إنفاذ مبعوثين من قبله لقادة المغول .

وقد وقعت أحداث مقلقة فى الأراضى المقدسة - فى هذا العام أيضا (١٢٤٤م) - أثارت الغرب الأوربى عامة والبابوية خاصة وهى استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس . وكان أولئك الخوارزمية هم فلول الفارين أمام المغول الذين استدعاهم الأيوبيون للاستقرار فى بلاد الشام . وقد ألحقوا أضرارا كبيرة بالمدينة المقدسة ، واستطاعوا بعد عدة شهور إلحاق هزيمة ضارية بقوات الصليبيين قرب غزة . وقد وصلت خطابات الصليبيين فى الشرق للبابوية لطلب النجدة العاجلة [٧١]. وقد انعشت هذه الخطابات - بإضافة المبالغات للوقائع - الروح الصليبية من جديد بعد أن فترت لإساءة البابوية للصورة المثالية للجهاد الصليبى .

وتحت تأثير هذه الخطابات ، وللفظائع التى ارتكبها المغول فى شمال أوربا وشرقها ، ولخطورة الصراع مع الامبراطور ، أرسل انوسنت الرابع خطابات لكل القوى المسيحية للدعوة لعقد مجمع مسكونى عالمى فى مدينة ليون التى كان قد لجأ إليها - مختارا - للهرب من مدينة روما التى أضحت تحت رحمة قوات الامبراطور .

ويهمنا أنه فى خطابه لرجال الدين فى انجلترا فى نهاية يناير عام ١٢٤٥ للدعوة لعقد هذا المجمع فى العيد التالى للقديس يوحنا المعمدان ، حدد انوسنت الرابع للمدعوين أهداف هذا المجمع ومنها «كى نجد المعونة ضد التتر» [٧٢].

وإذا كانت جلسات هذا المجمع قد بدأت فى ٢٠ يونية من ذات العام (١٢٤٥م) فان البابا قد أرسل عدة سفراء من قبله لقادة المغول فى شمال ووسط آسيا وشرقها قبل ذلك بثلاثة شهور تقريبا [٧٣] ، وذلك كى يتفرغ فى جلسات المجمع لما هو أهم من المغول بالنسبة للبابوية وقتذاك : وهو الترتيب لاستخدام سلاح الحرمان ضد الامبراطور وقطعه من رحمة الكنيسة وعزله من منصبه . ومع ذلك ففى الخطبة الافتتاحية لجلسات هذا المجمع التى حدد فيها البابا جدول الأعمال فانه بدأ بـ «وحشية التتر الهمجيين الذين دمروا العالم المسيحى» [٧٤].

وفى نهاية الجلسات أعلن البابا باسم المجمع القرارات التى توصل إليها أعضاؤه ومنها المادة رقم ١٦ (Canon 16) التى تتعلق بالمغول . وقد ورد فى مقدمتها وصفًا لوحشية الغزاة الذين « دخلوا بولندا والمجر وممالك مسيحية أخرى ، وأحدثوا قتلا وتدميرا لم يسبق له مثيل » . ومما جاء فى هذا الشأن :

وبناء على توصية المجمع المقدس ، فإننا نحث وتذكر وندعو كل المؤمنين إلى فحص كل الطرق والممرات التى يمكن أن يعبر منها هذا الجنس (التتارى) إلى البلاد المسيحية فحصا جيدا ليتم تقويتها بالخنادق والحوائط وكل التحصينات التى يمكن أن تكون ضرورية ... وفى حالة العودة الفعلية لهؤلاء (الغزاة) ، فيجب أن تبلغ الكنيسة الرسولية بذلك فى حينه ، حتى يستطيع البابا أن يحصل على معونة المؤمنين ... وسوف نساهم كثيرا فى هذه التكاليف التى ترونها ضرورية ومفيدة .

ونحن نرى (أنه من الأفضل) أن يشارك كل المسيحيين من كافة الأقاليم بدرجة مناسبة لمواجهة هذا الخطر العام . كما أننا سنبعث برسائل مشابهة لهذا القرار لكل المسيحيين الذين يحتمل أن يمر هذا الجنس السابق الاشارة إليه فى أراضيهم[٧٥] .

ولم يكن باستطاعة انوسنت الرابع أن يفعل أكثر من هذا البيان الفاتر الذى يدعو لاتخاذ اجراءات دفاعية لتحصين الطرق التى يحتمل أن يعبر منها الغزاة إذا رجعوا ثانية لأوربا .

والدراسة المتأنية الفاحصة لجلسات هذا المجمع والقرارات الصادرة عنه ترجح أن البابا لم يعط للمسألة المغولية ما تستحقه من اهتمام . ومن الجلى أنها لم تنل نفس الاهتمام الذى أعطاه لمسألة الأراضى المقدسة . فانوسنت الرابع قدم للمجمع الأساقفة الحاضرين من هذه البقاع ، واختار أحد الفرنسيسكان المشهورين بالبلاغة والفصاحة لقراءة الخطابات التى حملوها من الأراضى المقدسة ، والتى تصور - بعد المبالغات التى أضيفت إليها - كيفية استيلاء الخوارزمية على المدينة المقدسة ، ولاغرو أن «بكى كل الحاضرين» [٧٦]. وخرجت قرارات هذا المجمع تدعو وتبشر وتحث على إعداد حملة صليبية عاجلة لإنقاذ الأراضى المقدسة . وانهالت التبرعات لهذا الغرض ، وحولت ضريبة العشور الصليبية لتجهيز حملة تحت قيادة ملك فرنسا وحامى مجمع ليون : لويس التاسع . وكان البابا ذكيا فى التعامل مع هذه المسألة لأنه يعرف أنها قضية مخدرة لمشاعر العامة والخاصة على حد سواء ، وأن الاهتمام بها سوف يظهر هيبة البابوية وزعامتها وحرصها على كل ما يخص الدين والمسيح ، وذلك لشغل الحاضرين فى

المجمع والرأى العام فيما بعد عن الترتيبات والاجراءات والقرارات التى اتخذها البابا بموافقة الحاضرين فى المجمع ضد الامبراطور فردريك الثانى من حرمانه من رحمة الكنيسة وعزله من منصبه الامبراطورى(٧٧) . أما بالنسبة للمغول ، فكل ما وعد به البابا هو «دعوة المؤمنين للنجدة» إذا رجع الغزاة لأوربا .

وقد حاول البابا استغلال مأساة الخطر المغولى على أوروبا لإقناع الأمراء الروس بالانضواء تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية ثمنا لمؤازرتهم فى حالة عودة المغول مرة ثانية وطمعا فى الاستفادة بهم فى إمداد البابوية بمعلومات عاجلة فى حالة تقدم الغزاة للأراضى الأوربية باعتبار أنهم أول من سيواجه المغول فى أوربا . ولهذا فانه منح الأمير دانيال الروسى دوق غاليسيا لقب «ملك روسيا» وتبادل معه السفراء لهذا الغرض .

وطبقا للأرشيفات البابوية ، فان انوسنت الرابع أرسل الأخ الكسيوس من جماعة الرهبان الدومينكان فى ٣ مارس عام ١٢٤٦م إلى ملك روسيا كى يولى الأخير أذانا صاغية للبابا . وفى ٢٢ يناير ١٢٤٨ م طلب أنوسنت الرابع من دانيال الروسى سرعة امداد جماعة الفرسان التيوتون فى بروسيا بأية معلومات جديدة عن تقدم التتر ضد العالم المسيحى . وفى نفس اليوم أرسل البابا خطابا لمقدم جماعة التيوتون فى بروسيا يأمره فيه بسرعة إمداد البابا بكل ما يصله من معلومات من الأمراء الروس عن التقدم المغولى(٧٧ ب) .

ولكن دانيال الروسى - الذى حضر موقعة كلكا عام ١٢٢٣حيث هزمت فيها القوات الروسية أمام المغول وكان أيضا شاهد عيان لما حدث لبلاده من دمار فى الفترة من ١٢٣٧ حتى ١٢٤٠م - لم يكن من السذاجة بحيث يعتمد على البركات الرسولية التى يبعثها له البابا من مدينة ليون الفرنسية - التى اتخذها الأخير مكانا حتى وفاة الامبراطور عام ١٢٥٠م لأنه لم يكن بامكانه حتى حماية مدينة روما نفسها . ومن ثم ذهب دانيال إلى مقر باتو عند (سراى) نهر الفولجا حيث أقسم له يمين الطاعة والولاء ، ولهذا انقطعت العلاقات بينه وبين البابا منذ عام ١٢٤٩م . هذا بالنسبة لتطور الموقف البابوى من روسيا (٧٨) .

أما بالنسبة للمجر التى تمثل خط الدفاع الثانى ضد المغول فقد أرسل ملكها : بيلا الرابع فى نوفمبر عام ١٢٥٤م خطابا للبابا انوسنت الرابع يبلغه بالأنباء التى وصلته عن حشود مغولية قادمة لأوربا ، ويخبره أنه لامفر من عمل حائط تحصينات دفاعية على نهر الدانوب لحماية أوروبا مستقبلا من القبائل الأسيوية بصفة عامة ومن المغول بصفة خاصة . وطلب الملك

المجرى من الباب مساعدات فعلية إعمالا لنص المادة السادسة عشر من قرارات مجمع ليون الأول ، وليس مجرد وعود وابتهالات وبركات رسولية . وأعلن بيلا الرابع استعداده للخضوع الكامل للبابا فى حالة إرسال هذه المساعدة . ولم يرد البابا ، ولم تصل المساعدة المرجوة لملك المجر . ربما لأن انوسنت الرابع نفسه لم ير هذا الخطاب المؤرخ فى نوفمبر - لأنه توفى فى ٧ ديسمبر (١٢٥٤م)[٧٩] وربما كان قد رآه ولكنه قنع بالاتصالات الدبلوماسية مع المغول .

السفارات المتبادلة بين البابوية والمغول فى عهد انوسنت الرابع :

اكتسب انوسنت الرابع - من الناحية الدبلوماسية - شهرة كبيرة من جراء اتصالاته مع قادة المغول . فقد أدرك هذا البابا مدى الخطر الذى يحيق بأوروبا من جراء المغول ، ولمس بنفسه مدى تفكك الغرب ومدى وطأة الصراع مع الامبراطور فضلا عن عجزه عن تأليف قوة حربية لمواجهة هذا الخطر الداهم . ولهذا وجد أن أفضل السبل المتاحة له هو إيفاد رسل ومبعوثين للمغول . وشجعه على تحقيق هذه الخطوة رواية بيتر الأسقف الروسى عن معتقدات المغول واحترامهم للسفراء . ولهذا أرسل أربعة سفارات قبل انعقاد جلسات مجمع ليون الأول وذلك فى مارس من عام ١٢٤٥م . اثنتين منها من جماعة الرهبان الفرنسيسكان[٨٠]: جون (أو يوحنا) بلانو الكاربينى John of Plano Carpini ولورانس البرتغالى ، والاخيرتين بقيادة اثنين من جماعة الرهبان الدومنيكان[٨١] يقودهما آسيلين اللومباردى وآندريه لونجيجيمو .

وقد يبدو أن إيفاد سفراء من هاتين الهيئتين أمرا غريبا خاصة إذا كان الأمر يتعلق بأقوى قوة عالمية حينئذ . ولكن ارتكز هذا الاختيار إلى خبرة هاتين الجماعتين فى التبشير بالدين المسيحى على المذهب الكاثوليكى فى شرق أوربا وشمالها وفى شمال آسيا وغربها ، فضلا عن محاولاتهما توحيد الكنائس الشرقية تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية الأم فى روما . هذا إلى جانب دورهما الكبير فى غرب أوربا أيضا ، إذ اعتمدت عليهما البابوية فى الدعاية لها عند أنصار الامبراطور وفى جمع الهبات والضرائب الكنسية ، ولقد كان رهبان هاتين الجماعتين مندوبين مخلصين للبابوية إلى الملوك والنبلاء ورجال الدين . ونظرا لانتشار أعضاء هاتين الجماعتين بين عامة الناس وخاصتهم على حد سواء فى مختلف بقاع الغرب الأوربى ، فانهم أمدوا البابوية بمعلومات كاملة وسريعة عن الأوضاع فى الغرب ومن ثم فان المحافظة على هيبة البابا وعلى السلطة البابوية فى القرن الثالث عشر - رغم الأزمات العنيفة التى مرت بها - يرجع إلى حد كبير إلى هاتين الهيئتين[٨٢].

ولهذا فان انوسنت الرابع لم يجد حوله خيرا منهم للتبشير بالدين المسيحى بين المغول وجمع المعلومات عنهم . فهؤلاء الرهبان نذروا حياتهم للتبشير بالدين بين «الكفرة» وأوقفوها لهذا الغرض رغم ما يتطلب ذلك من عبور آلاف الأميال فى الغابات والأحراش والقفارى بدون مؤن أو عتاد ، ودون الخوف من موت محقق بسبب الجوع أو الحيوانات المفترسة أو بسيوف المغول .

بعثات الفرنسسكان :

كان مقررا لبعثة لورانس البرتغالى السفر إلى لمغول فى ٥ مارس عام ١٢٤٥م ، ولكن البابا غير مسارها إلى الشرق اللاتينى لتؤدى رسالة أخرى . كما حملت خطابات منه إلى الأمراء المسلمين فى بلاد الشام وآسيا الصغرى لحثهم على اعتناق الديانة المسيحية ، وكان من مهامها أيضا إقناع رجال الدين النساطرة واليعاقبة والإغريق لتوحيد كنائسهم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية فى روما . ومن ثم فإنها لاتدخل فى نطاق هذا البحث [٨٣].

بعثة يوحنا الكاربينى (١٢٤٥-١٢٤٧م) :

تعد سفارة يوحنا (جون) بلانو الكاربينى واحدة من أشهر البعثات البابوية للمغول وذلك لأنها أول بعثة أوروبية تصل إلى قراقورم : عاصمة الإمبراطورية المغولية ، وأول فرصة للاحتكاك المباشر وتبادل المعلومات بصورة علنية ومكتوبة بين المغول وأوربا. وترجع أهمية هذه السفارة أيضا إلى دقة وغزارة المعلومات التى دونها الرحالة الفرنسيسكانى - فى تقريره الذى قدمه إلى البابا - عن حياة المغول ونظمهم الاجتماعية وجيوشهم وخططهم الحربية ، ومعتقداتهم الدينية ، وشرائعهم ، وطريقة غزوهم ، وأسلوب حكمهم للبلاد التى احتلوها ، فضلا عن معلومات جغرافية وتاريخية لم تكن معروفة للغرب الأوروبى من قبل عن مناطق وسط آسيا وشرقها . كما أن الكاربينى ورفاقه الذين حضروا حفل تنصيب كيوك خان خاقانا على المغول فى أغسطس عام ١٢٤٦م قد تقابلوا مع كبار قادة المغول وتحدثوا معهم لأول مرة واستمعوا إليهم ، ونقلوا للغرب الأوربى ما سمعوه ورأوه . ومن ثم فإن هذه السفارة قد وضعت الأساس للاتصالات السياسية والتجارية والدينية بين المغول والغرب الأوربى فى المائة عام التالية .

وقد غادر الكاربينى ورفاقه مدينة ليون الفرنسية - حيث مقر البابا المؤقت - فى ١٦ أبريل عام ١٢٤٥م ، وفى ٢٢ يولية ١٢٤٦ وصلوا إلى خيمة المغول قرب قراقورم [٨٤].

ويشرح المبعوث البابوى الأهداف الكاملة لسفارته – فى تقريره – من خلال حديثه مع أول قائد مغولى يقابله فى جنوب روسيا قائلا :

عندما تقدمنا إلى خيمتهم ، فان رؤساهم قابلونا وسألونا عن سبب مجيئنا لهم وما هى مهمتنا عندهم . ونحن أجبنا قائلين : إننا مبعوثون من السيد البابا : سيد وأب لكل المسيحيين – وأرسلنا إلى ملوك التتر وأمرائهم ، لأن رغبته أن يكون كل المسيحيين أصدقاء للتتر ، وأن يكونوا فى سلام معهم . كما أنه يرغب أن يكون للتتر عظماء أمام الرب فى السماء أيضا (مثلما هم فى الأرض) . ولهذا فان السيد البابا يحثهم – سواء عن طريقنا ، أو من خلال الخطابات التى أرسلها معنا لهم – كى يكونوا مسيحيين وأن يعتنقوا دين سيدنا عيسى المسيح، وإلا فانهم لن ينقذوا (من الهلاك فى الآخرة) . كما أن البابا يبلغهم باستيائه من المذابح الوحشية للناس من التتر ،خاصة رعاياه من المسيحيين المجريين والمورافيين والبولنديين ، وذلك لأنهم لم يحدثوا ضررا للتتر بل ولم يحاولوا أن يضروهم . ولأن السيد البابا قد أوذى بصورة محزنة من جراء ذلك ، فانه يحثهم على تجنب ارتكاب هذه الأفعال (الآثمة) فى المستقبل ، وأن يكفروا عن خطاياهم السابقة . ونحن (أى السفراء) أضفنا لذلك أن السيد البابا طلب منهم (أى من قادة المغول) أن يكتبوا له عما يريدونه فى المستقبل ، وما هى نواياهم وأن يعطوننا الإجابة فى خطاب عن كل النقاط الواردة بعالية [٨٥].

ومن ثم فان أهداف سفارة حنا الكاربينى يمكن تلخيصها فى النقاط التالية :

أولا : دعوة المغول لاعتناق المسيحية .

ثانيا : التساؤل عن سبب المذابح التى اقترفوها ضد الدول الكاثوليكية.

ثالثا : جمع المعلومات عن أهداف المغول فى المستقبل وطلب هذه المعلومات من قادة المغول شخصيا أو عن طريق شخص السفير .

وعند وصول أعضاء السفارة البابوية إلى العاصمة المغولية فإنهم انتظروا حتى انتهت مراسم تعيين الخاقان الجديد : كيوك خان (١٢٤٦–١٢٤٨م) الذى تم فى مجمع مغولى عام (قوريلتاى) حضره عدد كبير من المبعوثين والسفراء من معظم أنحاء آسيا وشرق أوروبا – قدرهم كاربينى بأربعة آلاف مدعو [٨٦]. ويصف الكاربينى مراسم تولى كيوخان للسلطة ، وكذلك الهدايا الفاخرة التى قدمها له هؤلاء السفراء – رغم أنوفهم بطبيعة الحال – وكيف أنه وجد العديد من الأسرى الروس والمجريين الذين يعرفون اللغتين الروسية واللاتينية ويشغلون وظائف لدى المغول و «عن طريقهم عرف التتر كل شئ «عن أوروبا » [٨٧].

وقد حمل يوحنا الكاريني خطابين من البابا : أولهما مؤرخ فى ٥ مارس ١٢٤٥م وهو خطاب غير موجه لشخص معين بل مفتوح لكل المغول .

والخطاب الثانى مؤرخ فى ١٣ مارس وموجه إلى «امبراطور التتار» دون تحديد اسم معين لأنه لم يكن معروفا وقتذاك شخص الخاقان الجديد .

وقام البابا - فى الخطاب الأول - بشرح خطيئة آدم ورسالة السيد المسيح «الذى تنازل وعاش بين البشر وليكون فداء عن خطاياهم» وبعد قيامته ترك لبطرس وخلفائه سلطان الحل والعقد على الأرض وفى السماء . وأبلغ انوسنت الرابع المغول أنه لهذا السبب أرسل مبعوثيه لهم وهم على درجة كبيرة من التقوى والدراية بالكتاب المقدس . وطلب البابا من امبراطور المغول وأمرائهم الاستماع إليهم لعلهم «يعتنقوا شعائر عيسى المسيح ابن الله ويبجلوا اسمه المجيد ويمارسوا العقيدة المسيحية» . وطلب البابا من المغول حسن معاملة الرسل كأنهم يعاملون الراسل شخصيا ، ويزودونهم بالمؤن والمساعدات إبان رجوعهم . وفى نهاية رسالته قال انوسنت الرابع إنه يعتقد «أن هؤلاء سيكونون مصدر عون كبير للمغول ، لأنهم فى تواضعهم يقتفون أثر منقذنا»، وأنه لن يتردد فى إرسال المزيد من رجال الدين الأقوياء للمغول لو علم أنهم سيكونون مصدر نفع وقبول عندهم [٨٨].

ومن الواضح أن هدف هذا الخطاب هو دعوة المغول لاعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، لأنه لو تحقق هذا الأمر فان زملاءهم فى الدين سيأمنون جانبهم وربما يستفيدون بهم ضد أعدائهم ، وكان يهم انوسنت الرابع مخاطبة قادة المغول فى ذلك الأمر لأن فى اعتناقهم المسيحية ، انتشارا لهذه العقيدة بين الملايين من رعاياهم . ولهذا فان البابا يبلغهم باستعداده لإرسال المزيد من رجال الدين لو وجد منهم استجابة لهذا الأمر .

وفى الخطاب الثانى المؤرخ فى ١٣ مارس عام ١٢٤٥م والموجه «لامبراطور» المغول شخصيا، يبدأ انوسنت الرابع بابداء دهشته وانتقاده لغزو المغول للكثير من الممالك المسيحية وتدميرها وقتل سكانها دون تفرقة بين عمر الضحايا أو نوعها. ولهذا فانه مقتفيا أثر «ملك السلام» ورغبة فى أن يعيش كل البشر فى وئام ويخشون الرب (فقط وليس المغول) « فان البابا يحثهم ويرجوهم الإقلاع عن هذه الاعتداءات وخاصة على المسيحيين والتكفير عن الخطايا السابقة ، لأنهم لو لم يفعلوا ذلك فان الرب سينزل عليهم عقابه فى الدنيا والآخرة . ويكرر انوسنت الرابع طلبه السابق بحسن معاملة السفراء والتناقش معهم فى المسائل التى

تخص السلام بين الطرفين، وأنه على المغول إبلاغ البابا (كتابة) بالأسباب التى دفعتهم إلى تدمير الشعوب الأخرى ، وكذلك أحاطته علما بنواياهم فى هذا الشأن مستقبلا . وفى نهاية رسالته طلب البابا إعادة المبعوثين مزودين بالمؤن والضروريات حتى يعودوا إليه سالمين (٨٩).

وهذا الخطاب السياسى يعكس وضع البابوية فى العصور الوسطى المتأخرة التى كانت لاتترك ما لقيصر لقيصر، ولكنها كانت تعزل الملوك وتعين غيرهم ، وتعتبر نفسها مسئولة عن أرواح «المؤمنين» وكذلك عن علاقاتهم بملوكهم وشئونهم الدنيوية . فها هو انوسنت الرابع يرى أنه إذا كان مسئولا عن «هداية أرواح البشر جميعا» ، فانه مسئول أيضا عن أمن بولندا والمجر ومورافيا ، ويجعل سفراءه يتفاوضون باسمه فى مسائل سياسية خاصة بأمور الحرب والسلام ، ولم يترك هذا الأمر مثلا لسفراء من قبل السلطة العلمانية فى انجلترا أو فرنسا أو الامبراطورية الرومانية ، وهذا التصرف يعكس وضع البابوية وقتذاك فى الهيمنة على الشئون الروحية لغرب أوروبا والتدخل أيضا فى الشئون السياسية .

وثمة ملاحظة أخرى – ألا وهى اللهجة العنيفة فى انتقاد تصرفات المغول فى شرق أوروبا ، وهى لهجة لم يتعود – من يعتبرون أنفسهم – سادة العالم على سماعها . ولهذا فانه بمجرد اعتلاء الخاقان الجديد العرش المغولى فى ٢٤ أغسطس عام ١٢٤٦ ، استمع – عن طريق المترجمين – للخطابات البابوية ، وظهر الامتعاض على وجهه ، حتى أن بلانو الكاربينى يقرر أنه لم يشاهده – ضاحكا أو حتى متبسما . وأمر بسفراء البابا – الذين تعودوا على كرم الضيافة فى قراقورم أربعة أسابيع كاملة قبيل اعتلاء كيوك خان العرش – أن يوضعوا فى مكان أشبه بالسجن حيث حرموا من الطعام والشراب حتى كانوا يتضورون جوعا لولا أن قدم لهم أحد الروس – الذين يعملون فى خدمة المغول – الطعام خفية . ولهذا فان المبعوث البابوى كتب يقول أن الخاقان «كان يود إعلان الحرب على العالم الغربى» فى اليوم التالى لمقابلته. ومعرفته لفحوى خطابات البابا (٩٠).

وهكذا كانت سياسة البابوية من وراء إرسال بعثة بلانو الكاربينى تهدف إلى محاولة إقناع قادة التتار لاعتناق المسيحية والانضواء تحت لواء البابوية وبذلك تضمن كسبا كبيرا لأوربا وللمسيحية الكاثوليكية ، وكذلك استطلاع نواياهم إزاء الغرب الأوربى (٩١)، وجمع كل المعلومات عنهم لبحث أفضل السبل لاستبعاد خطرهم أو الاستعداد لهم . ولكن ليس هناك أية إشارة على الإطلاق سواء فى تقارير بلانو الكاربينى أو زميله بندكت البولندى أو فى

خطابى انوسنت الرابع المشار إليهما بعاليه لمسألة «إشراك التتار مع اللاتين فى القيام بحرب صليبية عامة لانتزاع الأراضى المقدسة من الحكم الإسلامى »[٩٢]. وذلك لأن البابا فى أول اتصال مباشر مع المغول - الذين كانوا يعرفون فى أوروبا باسم ترتار وهو تعبير لاتينى يطلق على الشيطان - كان يحتج بشدة على المذابح الجماعية من المغول ضد رعاياه ، ومن ثم فليس معقولا أن البابا أو حتى مبعوثيه فكروا فى تحويل المغول فى لقاء واحد من ألد أعداء أوروبا إلى حلفاء لهم . ولكن فكرة التحالف هذه جاءت بعد ذلك بعدة سنوات فى خطاب يشك الباحث فى صحة نسبته لقادة المغول [٩٣].

ومهما يكن من أمر فقد جاء الرد المغولى محبطا للآمال . ورغم وجود نسختين - بينهما بعض الاختلافات[٩٤]- للخطاب الذى أرسله الخاقان المغولى للبابا انوسنت الرابع فى نوفمبر عام ١٢٤٦م، فليس هناك خلاف فى العناصر الأساسية لمضمون الرد المغولى .

وردا على طلب البابا بعقد سلام بين الطرفين يقول الخاقان للبابا (طبقا للنص الفارسى) :

> عندما يصلك أمرنا ، فانك أيها البابا تحضر مع جميع الأمراء (يقصد ملوك الغرب الأوروبى) بصفة شخصية لخدمتنا ، وحينئذ فإننى سوف أبلغك جميع أوامر الياس[٩٥].

(وطبقا للنص اللاتينى) :

> أنه بعد ما اتفقتم على عقد السلام معنا ، فانك أيها البابا وجميع الأمراء قد أرسلتم لنا مبعوثا كما سمعنا منه وكما أعلنت خطاباتكم . وحيثما تكونوا ، فانكم لو رغبتم فى سلام معنا ، فانكم : البابا وجميع الملوك والحكام تحضرون إلينا بدون تأخير كى توقعوا بنود هذا السلام ، وحينئذ سوف تسمعون أيضا إجابتنا وإرادتنا [٩٦].

وهكذا فان الخاقان المغولى طلب من البابا وملوك الغرب الأوروبى أن يحضروا بأنفسهم ليقدموا له فروض الولاء والطاعة - مثلما فعل معظم حكام آسيا حربا أو سلما - ويركعوا أمامه وليؤدوا له الجزية عن رعاياهم وهم صاغرين .

وردا على طلب البابا بأن يستمعوا لمبعوثيه ومواعظه ويتنصروا على يديه فان الخاقان المغولى يقول - طبقا للنص الفارسى - «وأنتم تقولون أنكم قدمتم (لنا) الصلوات والابتهالات كى أجد مدخلا طيبا للمعمودية ، ولكنى لم أفهم صلواتكم » [٩٧]. ولكن الكاربينى ينقل هذه العبارة - فى ترجمته اللاتينية - كالآتى « أن محتويات خطاباتكم تقول

أنه لابد وأن نعمد ونصبح مسيحيين وعلى هذا نجيب باختصار أننا لم نفهم بأية طريقة يجب أن نفعل ذلك » (٩٨).

والاختلاف البسيط هنا بين النصين ربما يكون متعمدا من الكاربينى نفسه ، وذلك لأن النص الفارسى - الرسمى - يدل على رفض قادة المغول لدعوة البابا للدخول فى المسيحية ، ولكن إضافة المبعوث البابوى لكلمته « إننا لم نفهم بأية طريقة يجب أن نفعل ذلك » ، تدل على أن المغول لم يرفضوا الدخول فى الديانة المسيحية ولكنهم فقط لايفهمون ممارسة شعائرهم. والكاربينى - باعتباره أحد أعضاء جماعة الفرنسيسكان ، ووظيفته التبشير بالدين المسيحى بين من لايعتنقه - لم يرد أن يغلق باب دخول المغول فى ديانته ، ولكنه تركه على الأقل مواربا ، بدليل أنه فى تقريره - الذى رفعه إلى البابا فور عودته - ركز على رؤيته لكثير من المسيحيين فى عاصمة الخاقان وقصره ، وأنه سمع من بعضهم أن الخاقان نفسه «على وشك أن يكون مسيحيا » ويدلل على صحة وجهة نظر من نقل عنهم هذا الرأى بأن كيوك خان يستخدم كثيرا من المسيحيين فى الوظائف الهامة وأن هداياه لهم عبارة عن متعلقات مسيحية ، وأنه يحتفظ بجوقة ترتيل Chapel أمام خيمته الرئيسية ، وأنهم يرتلون على الطريقة الإغريقية ، وأن كثيرا من التتر يستمعون لهذه التراتيل (٩٩).

ويمضى الخاقان - فى رسالته إلى لبابا- قائلا :

> وفى بقية محتويات رسائلك تتعجب من المذابح الكثيرة للبشر خاصة المسيحيين البولنديين والمورافيين والمجريين منهم ... فذلك لأنهم لم يطيعوا كلمة الرب وأمر جنكيز خان والخان (اوجوداى ١٢٢٩-١٢٤١م) ولكنهم اتفقوا على قتل مبعوثينا (إليهم) ومن ثم فان الرب أمرنا بأن ندمرهم وأعطاهم لأيدينا ... وكيف يستطيع أى فرد أن يأسر أو يقتل معتمدا على قوته (فقط) على غير مشيئة الرب ؟ .. . فالأرض التى تقع بين شروق الشمس وغروبها قد خضعت لسلطانى . ومن يستطيع أن يفعل ذلك على غير مشيئة من الرب ؟ ولكنكم يا معشر الغرب تعتقدون أنكم فقط مسيحيون وتحتقرون الآخرين (١٠٠).

وفى هذه الفقرة يؤكد كيوك خان بأن تدمير الممالك المسيحية - وبالتأكيد الإسلامية أيضا- قد تم بأمر من الرب الذى أبلغه إلى جنكيز خان ، وأنه ينفذ مشيئة الرب فى إخضاع العالم لخلفائه . وهذه اللهجة توضح اعتناق المغول لفكرة السيادة العالمية وأنهم مبعوثون من قبل السماء لحكم العالم بأجمعه . وعلى الرغم من أن شعوبا كثيرة ما زالت غير خاضعة

لحكمهم ، فانهم يعتبرونها أعضاء داخلون لا محالة فى الامبراطورية المغولية العالمية ولهذا فالخاقان اعتبر الشعوب الأوربية التى دمروها شعوبا متمردة على حكم السماء [١٠١]، ومن ثم استحقت القتل والتدمير بواسطة المغول الذين أخضعوا الأرض من شروق الشمس حتى غروبها بموافقة السماء .!

وفى نهاية رسالته يبلغ الخاقان انوسنت الرابع بما هو آت :

والآن يجب أن تقول بقلب صادق : سوف أخضع لك وأخدمك ، وأنت بنفسك على رأس جميع الأمراء (الملوك) تأتون فى الحال لتخدمونا وتنتظرون (على أبوابنا) . وفى هذه الحالة فاننى سوف أقبل خضوعكم ، ولو لم تطع أمر الرب ، ولو تتجاهل أوامرى فسوف أعرف أنك من أعدائى . وفى هذه الحالة لا أعرف ماذا سيحدث (لك) فالرب وحده يعلم [١٠٢].

ومسألة اعتناق المغول لفكرة السيادة على العالم لم تكن غائبة عن المبعوث البابوى، ففى موضع آخر من تقريره للبابا يقول «أنهم تلقوا الأوامر من جنكيز خان باخضاع كل العالم لهم لو استطاعوا إلى ذلك سبيلا» . ويقول الكاربينى أن كيوك خان كتب للبابا- لهذا السبب أيضا - عبارات «بقوة الرب ، امبراطور كل البشر» ، وأن ختم الخاقان على الخطاب » الرب فى السماء، وكيوك خان على الأرض ، ختم امبراطور كل البشر» . ومن ثم يفسر المبعوث البابوى رفض المغول ابرام أى سلام مع أى شعب احتكوا به إلا بعد خضوعه التام لهم باعتقادهم أنهم سادة البشر [١٠٣].

وبناء على ما تقدم ، فان بلانو الكاربينى يحذر البابا بأن الدور سيحل على الغرب الأوروبى، لأن الخاقان السابق كان ينوى إخضاعه لولا وفاته مسموما ، ولهذا فهو يناشد البابا وملوك الغرب بتوحيد الصفوف وجمع الجيوش الجرارة تحت قيادة مشتركة ليقاتلوا المغول قبل دخول الأخيرين للأراضى الأوربية ، لأنهم - طبقا للكاربينى أيضا - لو قاموا بغزو أوروبا فان كل حاكم سيشغل بالدفاع عن بلاده ولن يستطع مساعدة الآخرين . ولو حدث ذلك فانهم لن يصمدوا أمام الغزاة [١٠٤].

ولا غرو أن المبعوث البابوى رفض اصطحاب سفراء للمغول معه إلى الغرب الأوربى رغم طلب المغول ذلك . وفى تبريره لهذا التصرف أورد الكاربينى عدة أسبابا :

أولا : «خشينا أن يروا (أى سفراء المغول) الخلافات والحروب المنتشرة بيننا وهذا يشجعهم على مهاجمتنا» .

ثانيا : خشية أن يكون الهدف الحقيقى للمغول من إرسال السفراء هو التجسس على الغرب .

ثالثا : أن جموع الأوربيين كانوا وقتذاك فى حالة غليان من جراء تدمير المغول لعشرات المدن والكنائس والأديرة وذبح عشرات الآلاف من السكان بلا رحمة أو تفرقة . ولهذا خاف الكاربينى من مقتل أو أسر سفراء المغول بواسطة هذه الجموع الغاضبة وليس معه قوة تحميهم. ولهذا فهو يقرر أن من عادة التتر عدم عقد أى سلام مع الشعوب التى تقتل سفراءهم حتى ينتقموا منهم بالذبح والأسر [١٠٥].

ولهذا فضل المبعوث البابوى قيامه بمهمة نقل رسالة الخاقان السابق ترجمتها وذلك لتجنب مخاطر اصطحاب السفرائه ، ولأن الرد المغولى نفسه لايشجع على تبادل السفراء .

وهكذا رجعت هذه السفارة بخفى حنين . فالخطاب الذى كتبه كيوك خان إلى البابا يخاطبه فيه كأحد اتباعه . وعادت البعثة من نفس الطريق الذى قدمت منه ، حتى وصلت إلى مدينة ليون فى نوفمبر عام ١٢٤٧م ، ورغم ذلك قوبلت بحفاوة بالغة من البابا وذلك بسبب المعلومات غير المسبوقة التى قدمت له عن المغول من خلال تقرير السفير . ومن ثم أوفد البابا بلانو الكاربينى إلى لويس التاسع فورا لإبلاغه تفصيليا بنتائج سفارته ولبعض المهام الأخرى المتعلقة بحملة الأخير الصليبية التى كانت ستقلع من فرنسا عن قريب[١٠٦] .

سفارات الدومنيكان :

أما عن المبعوثين الدومنيكان الذين أرسلهم البابا أنوسنت الرابع للمغول عن طريق منطقة الشرق الأدنى ، فمعلوماتنا قليلة عن بعثة أندريه لونجيجيموه الأولى ، ولكن التقرير الذى تركه سيمون أوف سانت كوينتين Simon of Saint- Quentin رفيق آسيلين اللومباردى فى بعثته لغرب آسيا ووسطها ، جعلت سفارتهما تحظى بشهرة قريبة من سفارة بلانو الكاربينى .

أولا : بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى :

ما نعرفه عن بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى أن البابا انوسنت الرابع أرسله على رأس مجموعة من الرهبان الدومنيكان عام ١٢٤٥م لتسليم رسائله لقادة المغول فى فارس وآسيا

الصغرى ، وكتابة معلومات وافرة عنهم ، وكذلك تسليم رسائل منه للأمراء المسلمين فى بلاد الشام والعراق وإيران ودعوتهم لاعتناق الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، وكذلك إبلاغ خطابات انوسنت الرابع إلى كبار رجال الدين النساطرة واليعاقبة والأرثوذكس تدعوهم للانضواء تحت لواء البابوية (١٠٧).

ولايهمنا هنا تسجيل مدى نجاح أو فشل هذه البعثة مع الأمراء المسلمين أو رجال الدين المسيحى : الأرثوذكس والنساطرة واليعاقبة (١٠٨)، ولكن يهمنا أن أندريه لونجيجمره قد تقابل مع فرقة مغولية فى منطقة تبريز ، وقام بتسليم خطابى البابا لقائد هذه الفرقة الصغيرة، ولكنه فشل فى مقابلة القائد المغولى بايجو Baiju فى غرب اسيا (١٠٩). ومن ثم رجع هو ورفاقه إلى مدينة ليون الفرنسية لمقابلة البابا عام ١٢٤٧م. ويعتقد البعض أن الخطابات البابوية لم تصل إلى بايجو أو الخاقان المغولى نفسه فى قراقورم . ومن ثم فان النجاح الذى حققته هذه البعثة يتمثل فى لقائها بأسقف النساطرة فى تبريز والحصول على معلومات عن خطة المغول فى غزو العالم وعن روايات جديدة لأسطورة الكاهن يوحنا (١١٠).

ثانيا : بعثة آسيلين اللومباردى:

ترأس الراهب آسيلين اللومباردى البعثة الثانية من جماعة الرهبان الدومنيكان إلى الشرق وقد غادرت هذه البعثة مدينة ليون الفرنسية فى مارس أو ابريل عام ١٢٤٥م ، ورجعت لنفس المكان فى سبتمبر أو اكتوبر عام ١٢٤٨م بعد غياب ثلاثة أعوام وسبعة شهور تقريبا (١١١).

وهذه البعثة - مثل بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى - أرسلت لمنطقة الشرق الأدنى ، وذلك لخشية البابا أن يفشل اندريه فى الوصول إلى المغول من الشمال فيستطيع آسيلين توصيل خطابات البابا لقادة المغول من طريق آخر أقل خطرا . وقد استطاع المغول فى هذه الفترة إخضاع مملكتى جورجيا الصغرى وأرمينيا الصغرى المسيحيتين : الأولى بحد السيف والثانية طواعية واختيارا . ولهذا خشى البابا من أن يكتسح المغول أملاك الصليبين ومواقعهم فى الأراضى المقدسة ، ولهذا أرسلت هاتين البعثتين المنفصلتين(١١٢) للتفاهم مع الغزاة ، وكذلك لتوحيد الكنائس الشرقية تحت لواء البابوية ، وجمع معلومات عن نية المغول وأهدافهم فى غرب اسيا ، كما كانت البابوية تهدف من وراء ذلك حث المغول على اعتناق المسيحية الكاثوليكية والتكفير عن ذنوبهم والكف عن قتل السكان المسيحيين أو تدمير املاكهم والدعوة إلى حسن معاملتهم(١١٣) .

ولما كان آسيلين اللومباردى قد خرج من مدينة ليون بمفرده ، فانه أشرك معه أربعة من الرهبان الدومنيكان من الأديرة التى كان يمر بها حتى أصبحت البعثة تتألف من خمسة أفراد أهمهم أسيلين نفسه ، وسيمون أوف سانت كوينتين ، وجويشارد دى كريمونا وكان الأخير من أعضاء الدومنيكان فى تفليس عاصمة جورجيا المسيحية ويجيد لغات تلك المنطقة ويعرف عادات سكانها وتقاليدهم ، وعن طريقه حصل السفراء على معلومات تاريخية هامة دونها سيمون فى تقريره عن غزو المغول لآسيا الصغرى .

ومن مدينة أياس عبر السفراء أرمينيا وجورجيا حتى تقابلوا مع القائد المغولى فى آسيا الصغرى فى منطقة سيسان Sisian (أو Sitiens) قرب الشط الجنوبى الغربى لبحر قزوين شمال تبريز . ولما كانت تعليمات البابا لهم بتسليم رسائله لأول قائد مغولى يقابلونه ، فان بعثة اسيلين سلمت هذه الخطابات للقائد بايجو Baiju (وينطق أحيانا Baiothnoy أو Baiotney) الذى طلب من الرسل التوجه شرقا لتسليمها إلى الخاقان شخصيا (١١٤).

ويصف سيمون أوف سانت كوينتين ما حدث لهذه البعثة فى مقر القائد المغولى فى يولية عام ١٢٤٧م وكيف رفض الرهبان الركوع للقائد المغولى بحجة أنهم ممثلوا الأب الأعلى لكل المسيحيين على الأرض . كما أن عدم إحضارهم هدايا - كما تعود المغول من بقية السفراء تعبيرا عن الولاء للمغول - حمل بايجو على أن يصدر حكمه باعدام أعضاء البعثة كلها . ولكن بعض قواده اقترحوا إعدام بعضهم - ومنهم اسيلين نفسه - وإرسال رءوسهم مع الأحياء منهم للبابا . ولم ينقذهم من هذا المأزق سوى وصول مبعوث من الخاقان المغولى فى قراقورم وهو الجيجداى Eljigidei وكان على دراية ببعثة بلانو الكاربينى إلى قراقورم ورد الخاقان عليها فى العام السابق . وطلب الجيجداى من بايجو إطلاق سراح اسيلين ورفاقه والرد على الرسائل التى حملوها من البابا بمثل ردود الخاقان على الأخير مع بلانو الكاربينى ، ولهذا كانت إحدى الرسالتين اللتين بعث بهما بايجو للبابا مماثلة تقريبا لسابقاتها ، حيث طلب بايجو من انوسنت الرابع المثول بنفسه أمام «سيد البشر» فى قراقورم . وفى رسالته الثانية ندد بايجو للبابا من غطرسة السفراء ورفضهم الركوع أمامه وحماقاتهم المتكررة بقولهم أن سيدهم أعلى مقاما من الخاقان نفسه (١١٥).

وبناء على طلب الرهبان فان بايجو أرسل معهم اثنين من السفراء هما أيبج Ai-beg وسرجيس، ويعتقد أن الأول من أصل تركى ، والثانى نسطورى ، وذلك لتوصيل رسائله للبابا ، وربما للتجسس على الغرب (١١٦).

وهكذا فشلت بعثتا الدومنيكان - مثلما فشل الفرنسسكان من قبل - فى تنصير المغول أو تحقيق تقارب معهم أو حتى حثهم على وقف اعتداءتهم على المسيحيين . والنجاح الوحيد لهذه السفارات ينحصر فى التقارير والمعلومات التى حملها الرهبان للغرب الأوربى عن المغول وحياتهم وعقائدهم ونظمهم الاجتماعية والقانونية ، إلى جانب المعلومات التاريخية والجغرافية الكثيرة عن المناطق التى زاروها والطرق التى ارتادوها . وكان لهذه المعلومات أثرها المباشر على فتح طرق التجارة أمام تجار المدن الإيطالية ، وكانت هذه البعثات رائدة لغيرها من بعثات تبشيرية فى المائة عام التالية » .

والمهم أن سفارة بايجو وصلت - برفقه بعثة آسيلين اللومباردى -إلى مدينة ليون الفرنسية فى سبتمبر أو أكتوبر عام ١٢٤٨م . ويقرر متى الباريسى فى حوادث ذلك العام «أن مبعوثين تتاريين قد حضرا من قبل أميرها إلى البابا» ويقرر متى الباريسى أيضًا أن البابوية قد أحاطت السفارة المغولية بالكتمان الشديد ، « وأن الرسائل التى حملتها قد ترجمت من لغة غير معروفة». وبغض النظر عن تأويلات متى الباريسى لغرض هذه السفارة ، فان البابا قد تقابل مع سفيرى بايجو وعقد معهما عدة اجتماعات ليعرف مدى استعداد المغول لاعتناق المسيحية ، وبعد ذلك سمح لهما بالعودة ، بعد أن زودهما بالرسائل والهدايا للقادة المغول ومنح البابا هدايا «من الذهب والفضة» لشخصى السفيرين طبقا لرواية متى الباريسى(١١٧).

وكانت رسائل انوسنت الرابع إلى بايجو وزملائه تماثل فى المضمون تقريبا تلك التى حملها بلانو الكاربينى للخاقان المغولى قبل ذلك بثلاثة أعوام . فبعد أن أبلغ المرسل إليهم باستقباله الحار لسفرائهم ، ذكر أن من واجبات منصبه السامى أن يحقق الوحدة بين كل البشر أمام الرب لتخليص أرواحهم من الذنوب قبل الموت المحقق . ولهذا -على حد قول البابا - فهو قد أرسل المبعوثين ليشرحوا مبادئ العقيدة لهم . ومضى البابا يقول إن استمرار العناد المغولى جعله يشعر بالقلق والألم معا ، ومن ثم فهو يعاود حثهم على اعتناق المسيحية لأنهم بذلك سوف يتوقفون عن سفك الدماء خاصة ضد المسيحيين لأن هذا «عمل عدائى ضد الرب»(١١٨) .

وهكذا فان كل الردود التى تسلمها أنوسنت الرابع من المغول تأمره بالمثول بين أيديهم والاعتراف بأنه أحد أتباعهم وتقديم الطاعة والولاء والجزية لهم . كما أن رسائله إليهم كانت تدعوهم لاعتناق المسيحية ، والكف عن قتل المسيحيين (لأنه لم يكن يهمه غيرهم) . وتعتبر السفارة المغولية برفقة آسيلين اللومباردى هى السفارة المغولية الأولى للغرب . ولكن البابوية

لم تجد ما يشجعها على الاستمرار فى إرسال السفراء للمغول خوفا على حياتهم ، وذلك لأن أعضاء بعثة آسيلين نفسها كان مُقرراً لهم الإعدام. وهكذا فشلت البعثات فى عهد انوسنت الرابع فى تحقيق الأهداف السياسية والدينية المرجوة. لأن الجانبين كانا على طرفى نقيض فكلاهما كان يدعى السمو على الجانب الآخر والسيادة على العالم ، وكلاهما ادعى أنه ممثل السماء على الأرض ، وأن قراراته لها صفة القداسة. كما أن المغول لم يكونوا حتى ذلك الوقت بحاجة إلى التعاون مع الأوروبيين أو التفاوض معهم . فانتصاراتهم كانت كاسحة ، وجيوشهم لايقف أمامها أحد ، وأمر رئيسهم الأعلى نافذ على الجميع، ولم تكن امبراطوريتهم الواسعة قد قسمت بعد إلى عدة أقاليم متنازعة .

الاتصالات بين المغول ولويس التاسع [١١٩]:

كان أول رد فعل إيجابى من المغول تجاه الغرب الأوربى مرتبطا بحملة الملك الفرنسى لويس التاسع على مصر (١٢٤٨-١٢٥٠) فيقول جوانفيل - الذى كان مرافقا للحملة الصليبية السابعة ومؤرخها - أنه «بينما كان الملك مقيما فى قبرص أنفذ إليه ملك التتار العظيم رسولين من قبله يحملان له رسائل طيبة كريمة وكان من بين ما ذكره ملك التتار استعداده لمعاونة الملك (الفرنسى) فى غزو الأراضى المقدسة وتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين» [١٢٠].

وثمة شكوك كثيرة حول حقيقة إرسال هذين «الرسولين» برسالة من قبل أى قائد مغولى فى وسط آسيا أو آسيا الصغرى أو فى قراقورم لعدة أسباب منها : -

أولا : أن السفيرين داوود ومارك - وهما موفدين من بايجو- من المسيحيين النساطرة وليسا من المغول أو واحدا منهما على الأقل ، مثلما كان الأمر فى أول بعثة مغولية للغرب. إذ كيف يأمن المغول- وهم فى أوج قوتهم - أن يتفاوض أثنان من رعاياهم من السكان المحليين باسمهم مع الغرب الأوربى- تلك المنطقة التى كانوا يخططون للاستيلاء عليها- كما يقول بلانو الكاربينى نفسه ؟ .

ثانيا : أن الخطاب الذى حمله هذا السفيران إلى لويس التاسع فى قبرص - حسبما أورده متى البارسى [١٢١]، يختلف نصه جملةً وتفصيلا عن الخطابات التى أرسلها نفس الخاقان : كيوك خان إلى البابا مع بلانو الكاربينى وتلك التى أرسلها بايجو ومعه الجيجداى -El jigidei- القائد المغولى الجديد فى فارس - إلى الباب . وقد درسنا آنفا أن هذه الرسائل

دعت البابا إلى المثول بنفسه على رأس ملوك الغرب الأوربى لتقديم الولاء للمغول . وليس معقولا أو متصورا أن الموقف قد تغير تماما فى مدى ستة شهور .

ثالثا : أن النص الكامل الذى أورده متى الباريسى لهذه الرسالة - التى وصلت إلى لويس التاسع فى قبرص فى ديسمبر عام ١٢٤٨م - يختلف تماما عن المقتطفات التى أوردها جوانفيل عن فحوى هذه الرسالة . فالنص الذى نشره المؤرخ الإنجليزى يتعلق بكيفية معاملة التتار للمسيحيين والدعوة لعدم التفرقة بين مذاهبهم ، وليس بها إلا التمنى بنصرة المسيحية «فوق أعدائها الذين يحتقرون الصليب» ولكن جوانفيل يقول صراحة « أن من بين ما ذكره ملك التتار استعداده لمعاونة الملك (لويس) فى غزو الأراضى المقدسة وتخليص بيت المقدس من المسلمين » ورغم أن جوانفيل كان موجودا مع مليكه إبان وصول رسل المغول ووداعهم ويفترض فيه أنه أكثر ثقة وموضوعية من متى الباريسى ، ولكن واقع الأمر يدحض ذلك تماما لعدة عوامل هى :-

أ- أن المندوب البابوى فى حملة لويس التاسع أرسل نسخة من هذه الرسالة - من قبرص - إلى البابا انوسنت الرابع - ومعها أخبار مبالغ فيها عن تحول المغول إلى المسيحية بناء على هذه الرسالة . ومن ثم نقل المؤرخ الإنجليزى هذه الرسالة وتلك الأخبار فورا فى حوليته [١٢٢]، ولكن جوانفيل كتب مذكراته بعد قرابة خمسة وخمسين عامًا من أول مصاحبة له للويس التاسع فى حملاته على مصر والشام أى فى الفترة بين ١٣٠٥ و ١٣٠٩م حينما كان فى العقد التاسع من عمره [١٢٣].

ب- وبناء عليه ، ربما تكون الذاكرة قد خانت جوانفيل فى تسجيل وقائع هذه السفارة المغولية مثلما خانته فى مواضع أخرى من مذكراته منها أنه ذكر أن سقوط بغداد فى يد المغول كان فى أثناء وجود لويس التاسع فى بلاد الشام [١٢٤] (١٢٥٠-١٢٥٤) وهذا ليس صحيحا لأن ذلك حدث بعد أربعة أعوام من رحيل الملك الفرنسى وقواته من الشرق .

جـ- ربما أدى تقدم العمر بالمؤرخ الفرنسى للخلط بين العديد من سفارات مغول فارس التى ذهبت مرارا إلى فرنسا بدءا من العقد السابع من القرن الثالث عشر حتى العقد الأول من القرن الرابع عشر لعرض التحالف مع الملوك الأوربيين ومنهم ملك فرنسا ضد المماليك نظير مساعدة المغول «للفرنجة» فى تخليص بيت المقدس من المسلمين - وبين سفارتهم إلى لويس التاسع فى قبرص عام ١٢٤٨م.

ومهما يكن من أمر ، ففى الرسالة - موضع الشك - يخاطب الراسل الملك الفرنسى بكل الود والاحترام ويصفه بأنه «الملك العظيم» ... سيف العالم ، نصير الملة المسيحية » ، ويدعو الرب «لنصرة المسيحية فوق أعدائها الذين يحتقرون الصليب» ويمضى الراسل فى سرد ما فعله للمسيحيين فى إقليمه من عدم التعرض لهم وإعادة بناء كنائسهم وإعفائهم من الضرائب . ويبلغ الملك الفرنسى أن المبعوثين (مارك وداوود) سوف يخبرانه شفاهة بهذه الأخبار الطيبة بالتفصيل . وما يجعل الباحث أن يعتقد أن كاتب هذه الرسالة هو جاثليق (أو بطريق) النساطرة فى تبريز- (وليس القائد المغولى فى آسيا الصغرى كما يعتقد متى الباريسى أو «ملك التتار العظيم» كما كتب جوانفيل) وأنه أرسل بها هذين المبعوثين على أنهما من قبل المغول العبارة التى وردت فى نهاية هذه الرسالة وترجمتها : «وبعد ذلك فانه طبقا لناموس المسيح فانه لايوجد هناك أية فروق بين (المسحيين) اللاتين والإغريق والأرمن والنساطرة واليعاقبة وغيرهم ممن يبجلون الصليب لأنهم جميعا فى درجة واحدة فى نظرى . ومن ثم فنحن نطلب من الملك (لويس) العظيم ألا يضع تميـيزا بينهم ،بل تكون رحمته دائمة فوق كل المسيحيين ..» (١٢٥).

فالنساطرة وحدهم هم الذين كانوا يعانون من هذه التفرقة منذ الحكم على زعيمهم نسطور بالهرطقة فى مجمع افسوس عام ٤٣١م (١٢٦). وكان بين هذا البطريق والبابا انوسنت الرابع رسائل متبادلة عن طريق مبعوثى الرهبان الدومنيكان : آندريه لونجيجيمو - وآسيلين اللومباردى قبل ذلك بعدة شهور . ومن ثم فربما أرسل البطريق سفارة من قبله للبابا وأن هذه السفارة - حين علمت بوجود لويس التاسع وقواته فى قبرص - عرجت على هذه الجزيرة ، وقامت بتسليم الرسالة للملك الفرنسى ، وحينما تأثر السفيران بحرارة الاستقبال فانهما أضافا الكثير من المبالغات ، خاصة وأن نص الرسالة يوضح أنهما سيبلغا المرسل إليه شفاهة بـ «أخبار طيبة» كما أنه لو حدث ذلك فعلا لكان المجازا لهم يباهون به الغرب الكاثوليكى الذى ينظر إليهم على أنهم منشقين وهراطقة . حتى أن وليم روبروك - الراهب الفرنسسكانى الذى زار قادة المغول فى روسيا وقرقورم (١٢٥٣-١٢٥٥م) قال إن النساطرة « تعودوا أن يبالغوا فى الحقيقة بعشرة أمثالها وأنهم ينشرون الإشاعات من لا شئ » (١٢٧).

ومهما يكن الراسل أو مضمون الرسالة ، فان لويس التاسع استقبل السفيرين بحفاوة بالغة وأرسل معهما بعثة من قبله على رأسها أندريه لونجيجيمو - باعتبار أن الأخير له خبرة سابقة

فى السفر إلى المغول والتعامل معهم ، وزودها برسائل وهدايا ثمينة منها خيمة على هيئة كنيسة صغيرة وبعض الرفات المسيحية وبعض الأشياء اللازمة لاقامة القداس [١٢٨]. وقطعت هذه السفارة الرحلة من قبرص إلى انطاكية ثم إلى الموصل ، ومنها إلى تبريز ، حيث أرسلها القائد المغولى الجيجداى إلى قراقورم . وكانت زوجة كيوك خان وصية على العرش بعد وفاة زوجها . ولضعف مركزها فى البلاط المغولى ، فانها استدعت ممثلين عن أتباع المغول الأسيويين لمشاهدة ما اعتبرته رمزا لولاء الملك الفرنسى . وعبرت عن ذلك بقولها « أيها السادة ، لقد بعث ملك فرنسا إلينا ملتمسا عطفنا للدخول فى طاعتنا ، وهاكم الجزية التى أنفذها إلينا فانظروها ، فاذا لم تستسلموا لنا فاننا مرسلون فى طلبه للقضاء عليكم »[١٢٩].

ولهذا فان الرد المغولى الذى حمله أندريه لونجيجيمو إلى لويس التاسع لايختلف عن ردودهم السابقة على البابوية وجاء فيه « ... لن تعرف معنى السلام إلا إذا عقدته معنا ... لذلك ننصحك أن تبعث إلينا عاما بعد عام بشئ من ذهبك وفضتك ... فان لم تفعل هذا دمرناك أنت وشعبك كما فعلنا مع غيرك من الملوك ... » وكان طبيعيا إزاء هذا الرد المحبط - كما يقول جوانفيل - أن يندم لويس التاسع « أشد الندم على إرساله رسلا » [١٣٠] للمغول. والمهم أنه فى تلك الأثناء هزمت قوات لويس التاسع وأسر الملك الفرنسى بالمنصورة ورحل ملك فرنسا وقواته من مصر بعد دفع فدية ضخمة ، ووصلته بعثة أندريه لونجيجيمو - ومعها السفراء المغول بالرد السابق اقتباسه - وهو فى قيساريه فى مارس عام ١٢٥١م [١٣١]. ولهذا لم يكن لهذه الاتصالات مع المغول أدنى تأثير على مجريات الأحداث ، ولم تحرز أى تقدم فى تقارب أوروبى - مغولى دينيا أو سياسيا .

بعثة وليم روبروك للمغول (١٢٥٣-١٢٥٥م)

أثناء وجود لويس التاسع وقواته فى بلاد الشام (١٢٥٠-١٢٥٤) ترامت إليهم الأنباء - عن طريق المسيحيين الشرقيين عامة والأرمن خاصة - عن حسن معاملة المغول لرجال الدين المسيحين ، وأن سارتاك بن باتوخان قد تنصر ، وأن عددا من قادة المغول فى طريقهم إلى اعتناق المسيحية وأنهم بحاجة إلى رهبان يعلمونهم أصول تلك العقيدة ، وأن كثيرا من الأسرى الأوربيين - الذين أسرتهم القوات المغولية من أوربا فى عامى ١٢٤٠-١٢٤١م متواجدون فى وسط آسيا ومعزولون عن الكنيسة وعن أية مساعدة وأنهم بحاجة إلى رجال الدين لإقامة الشعائر الدينية لهم [١٣٢].

ولهذا فان الراهب الفرنسسكانى وليم روبروك William Rubruck استأذن مقدم الفرنسسكان فى الأراضى المقدسة ومليكه (لويس التاسع) فى الذهاب إلى مغول روسيا (القفجاق) لمقابلة سارتاك للتبشير بين المغول ، والبحث عن الأسرى الأوربيين وذلك بمبادرة شخصية منه فى بعثه دينية للمغول .

وقد انقسم المؤرخون فى تفسير ماهية رسالة ربروك فى الشرق : هل كان مبعوثا رسميا من الملك الفرنسى لقادة المغول (١٣٣)، أم أن بعثته كانت مبادرة منه باعتباره راهبا فرنسسكانيا من واجباته ومسئولياته للتبشير بالمسيحية بين من لايدينون بها (١٣٤). ورغم أن هؤلاء المؤرخين لم يوضحوا أسبابهم لنفى إحدى وجهتى النظر أو تأييدها ، إلا أنه بعد الرجوع إلى التقرير الذى كتبه وليم روبروك نفسه والذى نشر وترجم إلى العديد من اللغات الأوربية الحديثة، يمكن كشف الغموض عن هذا الأمر بجلاء .

فالذين يقولون بالطابع الرسمى لبعثة وليم روبروك لهم عدة مبررات من أهمها :-

أولا : أن وليم نفسه كان فرنسيا من منطقة روبروك بجوار مدينة كاسل باقليم الفلاندرز الفرنسى

ثانيا : أن الملك لويس التاسع أرسل معه أحد الفرنسيين محملا بالهدايا إلى قادة المغول وأيضا زوده بخطاب إلى سارتاك ، وأن الخاقان المغولى قد أرسل بدوره رسالة إلى الملك الفرنسى مع وليم روبروك ونشرها الأخير فى تقريره.

ثالثا : أن وليم روبروك كتب تقريره الطويل عن كل ما صادفه وسمعه ورآه عن المغول على هيئة خطاب مرفوع إلى ملك فرنسا ، وهذا كله يؤيد الطابع الرسمى لهذه البعثة .

ولكن الدراسة النقدية الفاحصة لتقرير وليم نفسه تنفى أنه كان مبعوثا رسميا للملك الفرنسى للأسباب الآتية :

أولا : أعلن وليم روبروك نفسه - عدة مرات وفى عدة مناسبات فى تقريره وأمام القادة المغول أنفسهم - أنه ليس مبعوثا من قبل الملك الفرنسى ولكنه قدم إليهم بصفته راهبا فى هيئة الفرنسسكان (١٣٥). وكان أيسر وأفضل لوليم روبروك أن يقول لهم أنه مبعوث ملك فرنسا لأن ذلك أدعى لمزيد من التقدير والتبجيل له ، لهذا وجد كثيرا من القسوة والجفاء لأنه لم يكن يمثل أحدا من ذوى الحيثية والنفوذ ، وأنه - على حد روايته - كان يتنقل فى قصورهم حافى القدمين عارى الرأس فى ملابس الرهبان الرثة ، لأنه لايمثل إلا نفسه فقط باعتباره أحد الفرنسسكان الذين تدربوا على حياة التقشف وشظف العيش .

ثانيا : أن خطاب لويس التاسع إلى سارتاك - كما يروى وليم نفسه - كان لتهنئته باعتناق الدين المسيحى ، ويدعوه لحسن معاملة المسيحيين ، وكذلك حسن استقبال روبروك ورفاقه والسماح لهم بالبقاء بين ظهرانى المغول للتبشير بالعقيدة المسيحية [١٣٦]. أى أنه بمثابة خطاب تذكية لتقديم الحماية المعنوية لربروك حتى إذا رفض رجال القصور السماح لهذا الراهب حافى القدمين عارى الرأس بمقابلة سادتهم ، فعلى الأقل سيقرأ هؤلاء القادة خطابات ملك فرنسا ويعرفوا أهمية هذا الراهب وغرضه .

ثالثا : أن وليم روبروك فى نهاية تقريره يقول للملك الفرنسى أنه وصل إلى طرابلس (فى ١٥ أغسطس عام ١٢٥٥م) وأن مقدم هيئة الفرنسسكان بالأراضى المقدسة رفض السماح له بالذهاب إلى فرنسا ، وطلب منه أن يكتب ما يريده إلى الملك كى يرسله مقدم الفرنسسكان مع أحد الرهبان لفرنسا ، ومن ثم فان وليم يعتذر للملك الفرنسى عن عدم مقابلته بل ويقول له « وإننى أرجوك أن تكتب إلى الرئيس (يقصد رئيس دير الفرنسسكان بالأراضى المقدسة) وتطلب منه أن يأذن لى بأن أحضر إليك وبعد مقابلتك سوف أعود ثانية للأراضى المقدسة بعد وقت قصير » [١٣٧]. وتروى مصادر أخرى أن لويس التاسع بعد تسلمه تقرير وليم روبروك عن المغول والتماسه هذا فانه تدخل لدى رئيسه فى الشرق ، وذهب وليم إلى فرنسا فعلا بعد ذلك. وهذا يدل دلالة واضحة على أن وليم ذهب للمغول - كما يقول هو نفسه - باعتباره أحد أعضاء الفرنسسكان وليس سفيرا من قبل ملك فرنسا ، لأنه لو كان سفيرا لما كان فى حاجة للذهاب للأراضى المقدسة (بعد رحيل لويس التاسع عنها) لاستئذان رئيسة للذهاب إلى فرنسا ، ولما كان بحاجة إلى تدخل الملك الفرنسى بنفسه لدى رئيسه كى يلتمس منه الإذن لوليم روبروك بالذهاب إليه فى فرنسا .

ولكن هذا كله لاينفى أيضا رغبة الملك الفرنسى فى إعادة فتح باب المفاوضات مع قادة العمليات المغولية فى شمال آسيا وشرق أوروبا ريثما يفلح فيما فشل فيه سابقا مع قادة المغول فى وسط آسيا وشرقها . ولهذا فانه شجع رحلة وليم روبروك وباركها وزوده بالهدايا والرسائل والمؤن ، وطلب منه أن يكتب له عن كل كبيرة وصغيرة يراها أو يسمع عنها عند أو عن المغول كى يعرف نواياهم تجاه الغرب الأوربى وإمكانية تحويلهم إلى المسيحية - خاصة بعد الانباء التى وصلته عن تنصر سارتاك وحسن معاملة المغول للمسيحيين بين ظهرانيهم .

ومهما يكن من أمر فقد غادر وليم روبروك ورفاقه مدينة عكا فى بداية عام ١٢٥٣م ، ووصلوا إلى القسطنطينية التى أقاموا فيها حتى أول يونية للراحة والتزود بالمؤن وجمع المعلومات عن مغول روسيا . وبعد رحلة لمدة شهرين فى جنوب روسيا فانه تقابل مع سارتاك وسلمه رسالة لويس التاسع فى أول أغسطس ١٢٥٣ مع ترجمة لها بالعربية والسريانية (١٣٨).

وفى اليوم التالى أخبره كوياك : الراهب النسطورى القائم على خدمة سارتاك « أن (الملك الفرنسى) كتب عبارات ثناء لسيده (سارتاك) ولكن (خطابه) يحتوى على مسائل صعبة لايجرؤ على أن يفصل فيها بدون نصيحة والده (باتو) ومن ثم يجب عليكم أن ترحلوا لوالده »(١٣٩). وذلك فى إشارة واضحة لرفض سارتاك السماح لوليم ورفاقه بالبقاء فى إقليمه للتبشير بالمسيحية ، وفى موضع آخر من تقريره فان وليم روبروك يقول إن سارتاك ومانجوخان (الخاقان الجديد ١٢٥١-١٢٥٩م) لا يعتنقا المسيحية بل أنهما فقط يعطيان احتراما كبيرا للمسيحيين (١٤٠).

والمهم أنه بعد وصول وليم روبروك إلي حضرة باتوخان - (مؤسس مغول القبيلة الذهبية وعاصمتها سراى فى الحوض الأدنى لنهر الفولجا) - فانه ركع أمامه طبقا للعادة المغولية حتى لايتكرر معه ما حدث مع آسيلين اللومباردى . وخاطب باتوخان قائلا بأنه «لن ينال مغفرة السماء دون أن يكون مسيحيا » ، حتى أن قادة المغول فى حضرة باتو قد ذهلوا من هذه اللهجة غير الودية ، ويقول روبروك أن المترجم «ارتعدت فرائصه وحبست أنفاسه ، ولكننى شجعته على ألا يخاف»(١٤١) . وكالعادة لم يستطع باتوخان أن يفصل فى الأمر بمفرده ، فأرسل الرهبان الفرنسسكان إلى قراقورم التى وصلوها فى يناير ١٢٥٤م (١٤٢).

وقد شاهد وليم روبروك كنيسة صغيرة قريبة من القصر الامبراطورى بها مجموعة من الأيقونات الثمينة وبها راهب أرمنى . وأبلغه الأخير أن عليه أن يبلغ الخاقان بأنه لو اعتنق المسيحية فان كل العالم سيخضع لسلطانه وأن الفرنج والبابا نفسه سيكونوا تابعين له . ولكن وليم أبلغ محدثه أنه يسعده لو أن الخاقان اعتنق المسيحية لان هذه هى مهمته ، ولكن سيعد، أن البابا والفرنج سيكونون أصدقاء واخوته فى الدين ولكنه لايستطيع أن يعده أنهم سيكونوا له أفصالا يقدمون له الجزية مثل بقية الشعوب (١٤٣).

وقد تناول وليم - فى تقريره - بشئ من التفصيل أوضاع المسيحيين فى عاصمة المغول والمحاورات - تحت إشراف الخاقان - بين ممثلى الأديان المختلفة(١٤٤) بصورة توضح أن المغول كانوا غير متعصبين لديانة بعينها .

وعند مقابلته لمانجوخان ، فان وليم روبروك أبلغه بأن سبب ذهابه لبلاده هي سماعه باعتناق سارتاك للمسيحية ، وأنه حضر لمقابلته حاملا رسالة من الملك الفرنسي ولكن سارتاك أرسله لوالده باتو خان والأخير أرسله ورفاقه إلى قراقورم .

وقد شرح وليم للخاقان بأن من واجباته «تعليم الناس أن يعيشوا وفقا لشريعة الرب ... وأنت رجل قد أعطاك الرب ممالك شاسعة على الأرض ، ولهذا فنحن نرجو أن تعطف علينا بالسماح لنا بالبقاء هنا فى بلادك كى نقوم بخدمة شئون الرب نيابة عنك وعن زوجاتك وأولادك . نحن لانملك ذهبا ولافضة ولا معادن ثمينة لنقدمها هدية لك ولكننا نملك فقط أنفسنا التى نقدمها لخدمة الرب والدعاء له من أجلك ..»(١٤٥). وأجابه الخاقان بنغمة متعالية أن ممالكه تنتشر فى كل مكان مثل أشعة الشمس وأنه ليس بحاجة إلى الذهب والفضة (١٤٦).

والمهم أن مانجوخان سمح للرهبان بالبقاء فى عاصمته عدة شهور . وأرسل الخاقان فى ٣٠ مايو ١٢٥٤م يخبرهم أنهم قضوا عدة شهور فى بلاده وعليهم الرجوع إلى بلادهم وسألهم عما إذا كانوا يرغبون فى اصطحاب سفراء للمغول معهم لأوربا ، ولكن الرهبان أجابوه بالنفى المهذب بدعوى عدم ضمان سلامتهم (١٤٧).

ويهمنا هنا أن نذكر أن الخطاب الذى أرسله الخاقان إلى الملك لويس التاسع - مع وليم روبروك ، وأورد الأخير نصه كاملا فى تقريره - لايختلف فى لهجته المتعالية عن خطابات كيوك خان وزوجته للبابوية ولويس التاسع قبل ذلك بعدة أعوام .

فيبدأ الخاقان المغولى - رسالته بقوله : «هذا مرسوم الرب الخالد ، يوجد فى السماء رب واحد خالد ، ويوجد فى الأرض سيد واحد هو جنكيز خان ابن الرب !!» ويمضى الخطاب قائلا أن العالم سيكون فى سلام وأمان فى حالة واحدة فقط هى خضوعه من مطلع شروق الشمس إلى موضع غروبها تحت إمرة الخاقان المغولى «سيد العالم» وأنه على الملك الفرنسى أن يسرع بتقديم الطاعة والولاء وإرسال الرسل والجزية . وحذر مانجوخان لويس التاسع من الاعتقاد بأن بلاده بعيدة وأن جباله مانعة وأن بحاره واسعة (١٤٨)، لأنه لن يفلت من قبضة المغول .

ولهذا السبب فان وليم روبروك ينصح ملك فرنسا بعدم إرسال رهبان إلى التتار ، ولكن من الأفضل - على حد قوله - إرسال أسقفا بصحبة عدة مترجمين أكفاء للرد فقط على حماقات التتار وبذاءاتهم التى أرسلوها إلى البابا وإلى الملك الفرنسى عدة مرات (١٤٩).

وهكذا فشلت أيضا بعثة وليم روبروك فى جذب قادة المغول للمسيحية أو حتى البقاء بين المغول للتبشير بهذه الديانة ، أو فى تحقيق أى درجة من درجات التقارب بين الغرب الأوربى من ناحية وبين المغول (السادة الجدد للعالم كما كانوا يعتقدون) من ناحية أخرى .

الخاتمة :

كان اهتمام أوروبا بوسط آسيا وجنوبها فى العصور الوسطى المبكرة يرجع إلى حاجتها إلى التوابل والحرير والمنسوجات وغيرها من منتجات آسيوية وجدت رواجا فى الأسواق الأوربية . وبعد ظهور الإسلام وسيطرة المسلمين على غرب آسيا وشمال أفريقيا ، فان الاتصال المباشر بين أوروبا ووسط آسيا أصبح صعبا إلا عن طريق وسطاء من التجار المسلمين وغيرهم . وقد انتشرت شائعات وأساطير - فى عصر الحروب الصليبية - فى الغرب الأوربى عن وجود مملكة مسيحية فى الهند ، ثم عن مملكة الكاهن يوحنا المسيحية وذلك فى مناسبات وأوقات حاجة الصليبين في الشرق إلى نجدات جديدة كلما حقق المسلمون انتصارات عليهم ، وتطورت هذه الأسطورة - فى نظر الأوربيين - بتطور الأحداث السياسية فى آسيا ، وحاول الغرب أن يجد فى جنكيز خان وخلفائه صورة لما توقعوه من أحلام فى الكاهن يوحنا ومملكته المسيحية التى تتحالف معهم ضد المسلمين .

ولكن القوات المغولية دمرت معظم مدن روسيا وبولندا والمجر ومورافيا وعاثت فسادا فى منطقة الادرياتى وبلغاريا دون أن تجد أية مقاومة منظمة من الغرب الأوربى فى وجهها . وكان الصراع بين البابوية والامبراطور فريدريك الثانى وتدهور مركز البابوية من أسباب فتور رد الفعل الأوربى تجاه الغزو المغولى ، ولم يشغل ملك انجلترا نفسه بالأمر لأنه يعرف أن المغول لايستطيعوا عبور القنال الانجليزى ، والملك الفرنسى وعد بالتحرك ولكن إذا قدم المغول إلى بلاده ، والامبراطور فردريك الثانى وعد بالتحرك بعد هزيمته للبابا ! وكانت وفاة الخاقان المغولى (اوجوداى فى ديسمبر ١٢٤٠م) إنقاذا لبقية أوروبا من دمار محقق وخضوع للسيطرة المغولية .

ولم يكن فى جعبة البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) سوى الاتصالات الدبلوماسية التى كان لها طابع دينى وسياسى مع قادة المغول : لتنصير الأخيرين ولإبعاد خطرهم عن أوربا . ولكن خطابات قادة المغول أمرته بالذهاب بنفسه لتقديم الولاء لسادة العالم الجدد. وجاءت الفرصة للويس التاسع عن طريق مبادرة مغولية ، ولكنه اكتشف أن السياسة المغولية

لم تتغير بعد . وذهب إليهم وليم روبروك (١٢٥٣-١٢٥٥) فى بعثة دينية للتبشير بينهم ، ولكنهم رفضوا بقاءه فى بلادهم ، وأرسلوا المليكه للمسارعة بتقديم فروض الطاعة والولاء لهم. وهذا كله لأن ميزان القوى كان يميل بشدة لصالح المغول ولأن الأخيرين لم يكونوا فى حاجة للأوروبيين بعد .

ولكن بعد أن استقر الأمر على تقسيم الامبراطورية المغولية إلى أربعة أجزاء بين أحفاد جنكيز خان فى باكورة النصف الثانى للقرن الثالث عشر بدأت مرحلة جديدة فى العلاقات بين إحدى هذه الأجزاء : وهى مغول فارس - مع الغرب الأوربى وذلك لحدوث تغيرات جذرية فى ميزان القوى فى منطقة الشرق العربى الاسلامى منذ بداية النصف الثانى للقرن الثالث عشر وهذا هو موضوع الفصل الثانى من هذه الدراسة .

الهوامش

١- للتفاصيل انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، الجزء التاسع ، حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول : غزو جنكيز خان للعالم الإسلامى وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية . القاهرة ، ١٩٤٩ ، فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ، القاهرة ، ١٩٦٠
J.J. Saunders :The History of the Mongol Conquests .London ,1971 ; Chambers , James : the Devil`s Horsemen The Mongol Invasion of Europe . London ; 1979 ,
وكذلك المصادر والمراجع الواردة فى هوامش هذا الفصل .

2- Vernadsky : The Mongols and Russia . New Haven , 1953 , p. 40 .

3- The Chronicle of Novgorod 1016 - 1471 . Trans . from Russian by Robert Michell and N. Farbes . Camden Third Series , vol . XXV , London . 1914 , p. 64 .

٤- كانت منطقة جنوب روسيا الواقعة فى الحوض الأدنى لنهر الفولجا والدون وشمالى بحر قزوين والبحر الأسود مصدرا لاينضب للعديد من الهجرات للقبائل البدائية لأوروبا . فأولا وفد الهون فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، والآفار فى النصف الثانى للقرن السادس (والذين حطمهم شرلمان بعد ذلك) ، وقبائل البشناق من ٨٩٠ حتى ٩٠٠ تقريبا ، من قبلها قبائل الماجيار الذين استقروا فيما يعرف بالمجر فى الدانوب الأدنى فى منطقة الاستبس الممتدة من الدون حتى الدانوب . وبعدها قبائل الكومان (القفجاق) الذين استقروا فى الدانوب الأوسط وهاجروا أمام الزحف المغولى إلى المجر . وجميع هذه القبائل تشترك فى كثير من الصفات مع المغول أنفسهم . وفى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ظهرت قبائل الكومان على مسرح الأحداث كقوة يعمل حسابها من جيرانهم البيزنطيين والإمارات الروسية والمجر . وفى نهاية القرن الحادى عشر استخدمهم الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين ضد قبائل البشناق والأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى واستخدمهم أيضا أحد امراء المجر ضد المجر فى نزاعهما على مناطق الحدود بينهما ،
Cf . Denis Senior : History of Hungary . London . n . d ., pp . 66 , 67 ; Cheshire , Harold . T., "The GreatTartar Invasion of Europe , "in the Slavonic Review , vol . 5 , 1926- 7 , pp. 89-90 .

5- The Chronicle of Novgorod , pp . 65-66 .

٦- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٩ ، ص٣٤٠، ٣٤١ .

7- Vernadsky : The Mongols and Russia , pp. 48,49 .

8- Loc . cit .

9- The Chronicle of Novogorod , p. 81 .

10- Chambers, James : The Devil's Horsemen : The Mongol Invasion of Europe . London, 1979, pp. 70-71 ; Saunders, J.; The History of the Mongol Conquests . London, 1971, pp. 81, 82 .

١١- انظر حاشية رقم ٤٤ من هذا الفصل، ومما هو جدير بالذكر أن الكومان والماجيار (المجريين) من أصل واحد ومنطقة واحدة ، ويتحدثون لغة . واحدة ولكن الكومان ظلوا فى المنطقة الأم يعيشون على الرعى وكمرتزقة فى الحروب لدى حكام الأقاليم المجاورة .واهتم الدومنيكان المجريون بتنصير إخوانهم قبائل الكومان وأرسلوا لهم العديد من البعثات التبشيرية حتى أن أمير الكومان تنصر على المذهب الكاثوليكى على يد روبرت رئيس أساقفة المجر عام ١٢٢٧ م وتبعه خمسة عشر ألفا من أتباعه . ولهذا أولى ملك المجر جهوده لتنصير الكومان حتى أن الملك بيلا الرابع (١٢٣٥-١٢٧٠) عند اعتلائه عرش المجر تلقب أيضا بملك الكومان . ومن ثم فانه بعد أن سحق المغول الكومان فى عام ١٢٢٣ فان هذا الأمير الكومانى المسيحى وأتباعه وضعوا أنفسهم تحت حماية ملك المجر . وبعد توغل المغول فى روسيا بدءا من عام ١٢٣٦ وتشتيتهم للكومان فان زعيمهم كوتان Kutan أرسل سفراء إلى بيلا الرابع عام ١٢٣٩م يعرض عليه لجوءه وأتباعه البالغين حوالى أربعين ألفا للأراضى المجرية نظير اعتناقهم المسيحية الكاثوليكية ودفاعهم عن المجر ووجدت هيئة الدومنيكان فى المجر فى ذلك فرصة لتنصير الكومان ، واستقبل الكومان وزعيمهم بحفاوة بالغة من الملك المجرى الذى أراد استخدامهم فى الدفاع عن بلاده ضد المغول الذين كانوا يبعدون مئات الأميال فقط عن حدوده الشمالية ، ولكن عدم تعود هذه القبائل الرعوية على الاستقرار والزراعة وحياة التحضر والتكيف مع المجتمع الجديد خلق مشاكل كثيرة للمجريين فى أصعب مراحل تاريخهم ، فضلا عن أن استخدامهم فى الدفاع عن المجر جاء بنتيجة عكسية تماما لما أراده الملك ، كما أنه خلق مبرراً للمغول فى اكتساح المجر بحجة تعقب هؤلاء الكومان الفارين أمامهم .

Cf . Sinor : History of Hungry , pp. 67-71 .

12- Cf . Dmytryshyn , Basil (ed. & trans .) Medieval Russia : A Source Book , 900-1700 . New York , 1967 , pp. 87, 88 .

13- The Mongols and Russia , p. 50 .

14- The chronicle of Novogorod , pp. 82-83 .

وتشير حولية روسية أخرى معاصرة للأحداث أن المغول فى فبراير عام ١٢٣٨ استولوا فى إمارتى روستوف وسوزدال على أربعة عشر مدينة بالإضافة إلى توابعها من القرى وممتلكات الكنائس - وللمزيد من التفاصيل انظر : Cf . Dmytryshyn . op . cit ., p. 90; Chambers : The Mongol Invasion of Europe , pp. 72-76 .

15- The Chronicle of Novogored , p. 84 .

16- Vernadsky , op . cit . p. 51 ; Chambers , op . cit ., p. 76 .

١٧- ومما يؤيد ما ذهبت إليه أن الأنهار لم تكن عائقا أمام المغول رواية ابن الأثير نفسه عن عبور قوات سويداى - نفس القائد الذى انسحب من أمام نوفوجارد - لنهر جيحون وذلك لتتبع فلول قوات وشخص السلطان الخوارزمى علاء الدين تحت أحداث عام ٦١٧هـ أن القوات المغولية «لم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم ، وألقوا الخيل فى الماء وأمسكوا أذنابها . وتلك الحياض التى من الخشب مشدودة إليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملؤ بالسلاح وغيره، فعبروا كلهم دفعة واحدة ولم يشعر بهم خوارزمشاه إلا وهم قد صاروا معه على أرض واحدة «الكامل فى التاريخ ، جـ٩ ، ص٣٣٣، ٣٣٤). هذا وقد أيد يوحنا الكاربينى- المبعوث البابوى إلى المغول عام ١٢٤٥م - فى تقريره الذى رفعه إلى البابا هذه الرواية على أساس أن هذه الطريقة كانت شائعة ومعروفة عند المغول فى عبور جميع الأنهار الواسعة والضيقة على حد سواء.

Cf . John Plano Carpini , History of the Mongols , Ed , in Christopher Dawson . The Mongol Mission . New York , 1955 , pp. 35-36 .

18- Vernadsky , op . cit ., pp . 51, 52 ; Saunders , op . cit ., p. 83 .

19- Bretschneider , E . (ed- & trans) Medival Researches from Eastern Asiatic Sources . London , 1910 , pp. 317, 318 .

20- Cf . Dmytryshyn , op . cit ., pp . 92-93 .

21- Loc , cit ., Bretschnieder , op . cit ., pp. 317, 320 .

22- Vernadsky , op . cit ., pp . 54و55 .

23- The Chronicle of Novogorod , pp . 84-5 .

24- Cf Diens , M ., " Eastern Missions , " Isis , vol . 27, 1937 , pp. 238 , 9 .

25- Ibid , p. 235.

26- Cf . Dienes , " Eastern Missions " , op . cit ., p. 240 .

27- Saunders : The History of the Mongol Conquest , p. 221, n . 35 .

28- Dienes , op . cit ., p. 234 .

29- Cf . John of Plano Carpini , op . cit ., pp. 32-38 .

٣٠- سميت هذه الطائفة بالاسماعيلية لأن أتباعها كانوا يدينون بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، كما عرفوا بالباطنية لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون ، وسموا بالملاحدة لأن مذهبهم يقوم على الإلحاد ، وقد سموا أيضا بالحشيشية لاعتمادهم على مادة مخدرة فى نشر مذاهبهم الهدامة . القلقشندى : صبح الأعشى ج١٣ ، ص٢٤٥ ، انظر أيضا ما يلى حاشية رقم ٣٤ .

31- Matthew Paris : English History from the Year 1235 to 1273 . Trans . from Latin by J.A Giles . London , 1852 , vol . I , pp. 131,132 .

٣٢- تعبير «Saracens» تعبير شائع فى المصادر الأوربية لعصر الحروب الصليبية للدلالة على أعدائهم المسلمين . وكان الإغريق والرومان يستخدمون تعبير Saraceni على القبائل العربية التى تقيم فى الصحراء السورية شرق البحر الأحمر والذين كانوا يعيشون على أطراف الامبراطورية الرومانية ، ولقد استخدم ايوزيبوس وجيروم فى القرن الرابع الميلادى لفظ Saraceni مرادفا لأولاد اسماعيل مشيرين إلى أن نفس القبيلة تعرف أيضا بالهاجريين أى أولاد هاجر . وفى القرنين الخامس والسادس استخدم اسم Saracens لكل القبائل العربية على حد سواء ، وبعد ظهور الإسلام فان الاغريق أشاروا لكل المسلمين بهذا الاسم . وانتقل هذا التعبير - فى عصر الحروب الصليبية - للغرب الأوربى ليعنى أى شخص فى البقاع الإسلامية ، ولما كان هذا الاسم أطلقه الرومان أساسا على القبائل التى تعيش على أطراف أمبراطوريتهم وكانت نظرتهم فى أعين الرومان أنهم وجدوا للسلب والنهب والاغارة والاعتداء على امبراطوريتهم ، فقد ظل الأوربيون يستخدمون نفس التعبير لأن المسلمين - من وجهة نظرهم - سلبوهم كل ممتلكاتهم فى أفريقيا وغرب آسيا وطردوهم من الأراضى المقدسة التى يعتقد الغرب أنها تخصهم دون غيرهم . ولهذا ظل هذا التعبير شائعا للدلالة على رسوخ هذا المفهوم عند الغرب وليس عن خطأ أن العرب أولاد «سارة» وليسوا أولاد «هاجر» .

Cf . Connell , Charles William : Western Views of the Tartars , 1240 - 1340 . Unpublished Ph . D . Diss . The State University of Rutgers , 1969 . pp. 28,29 .

٣٣- هنغاريا الكبرى : المقصود بها المنطقة الواقعة شمال بحر قزوين والبحر الأسود وهى مركز قبائل القفجاق والتى هاجر منها الماجيار فى القرن التاسع الميلادى إلى المجر أو هنغاريا . والإقليم الأول تعرض للغزو المغولى عامى ١٢٣٦-١٢٣٧، ولكن المجر لم تتعرض له إلا عام ١٢٤١م .

٣٤- يجدر بالباحث عرض فكرة أكثر وضوحا عن هذه الطائفة ، فمنذ أن استتب الأمر للفاطميين فى مصر أخذوا يروجون للمذهب الشيعى فى بلاد المشرق وذلك لإضعاف الخلافة العباسية ، غير أنه حدث أن انقسم أنصار هذه الدعوة منذ أيام الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) فادعى البعض أنه أوصى بالخلافة من بعده لإبنه نزاره وادعى البعض الآخر أنه أوصى بها لابنه المستعلى . واتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق ملجأ لها بزعامة الحسن بن الصباح ، وقد

اتخذ الأخير من قلعة آلموت - التى كان قد بناها ملكشاه السلجوقى قريبا من بحر قزوين - مركزا لنشر دعوته . وقد استولى الاسماعيلية فى فترة ضعف السلاجقة على كثير من البلاد والقلاع المجاورة فى قوهستان وخوزستان حتى بلغت خمسين قلعة . وكانوا يهدفون لإسقاط الخلافة العباسية بطرق القتل وسفك الدماء وساعدهم على ذلك جماعة الفدائيين من الشبان المتحمسين الذين كانوا يدينون بالطاعة العمياء لرئيسهم ، ومهروا فى فن التخفى واستعمال السلاح ، وقد أوعز السلاجقة لهم بقتل الخليفة المسترشد عام ٥٢٩هـ - ١١٣٤م وولده الراشد عام ١١٣٧م . وكانوا يقومون بحملات منظمة على القرى المجاورة للسلب والنهب والقتل وقطع طرق التجارة والحج . وكان لهم فروع فى سوريا واشتركوا فى قتل بعض الامراء الصليبيين والمسلمين على حد سواء لفرض الاتاوات والسلب والنهب . وقاد صلاح الدين الأيوبى الكثير من الحملات على فروعهم ببلاد الشام ودمر معظمها ، واستطاع الظاهر بيبرس تدمير الباقى . وفى فارس استطاع هولاكو عام ١٢٥٦م تدمير قلاعهم وقتل قادتهم (حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص٩٧-١٠٠) .

ومن بين قتلى الحشاشين من زعماء الصليبيين ريموند الأول كونت طرابلس عام ١١٥٢م وتروى بعض المصادر أيضا أنهم قتلوا كونراد أمير اوستريا فى ٢٩ ابريل عام ١١٩٢ أثناء وجوده فى الحملة الثالثة . ويقول أحد المؤرخين المهتمين بعلاقات هذه الطائفة بالغرب الأوربى أن سفارة الاسماعيلية جاءت إلى فرنسا عام ١٢٣٧ لقتل الملك لويس التاسع نفسه (وليس عام ١٢٣٨ للتحالف معه ضد المغول كما روى متى الباريسى) ، ومهما يكن من أمر فان مؤرخى لويس التاسع وادوارد الأول ملكى فرنسا وانجلترا أفاضوا فى نسج حكايات عن تعرض هذين الملكين أثناء وجودهما فى الأراضى المقدسة ١٢٥٠-١٢٥٤ و ١٢٧٠م لمحاولات قتل من الحشاشين . للمزيد من التفاصيل انظر :

Nowell , C.E., "The Old Man of the Mountain , Speculum , vol XX 11 , 1947 , pp. 497-519 .

35- The Mongols and Russia , pp. 53 , 54 .

36- Saunders , J.J., " Matthew Paris and the Mongols" in Essays in Medieval History Presented to Bertile Wilkinson , ed. T. A. Sandquist and M.R. Powicke . Toronto , 1969 , pp. 118 , 119 .

37- Boswell A. Bruce , " Territorial Division and the Mongol Invasions , 1202-1300 " , in the Cambridge History of Poland ; vol . I, Cambridge , p. 92 .

٣٨- يذكر Shinabu Iwamura نقلا عن مصدر ألمانى أن عدد القوات المغولية فى معركة ليجنتز Liegnitz فى بولندا كانت مائة ألف وأن عدد البولنديين وحلفائهم كانوا عشرين ألفا فقط .

Cf . his , "Mongol Invasion of poland in the Thirteenth Century" in Memoirs of the Research Department of the Tayo Bunko , Tokyo , No . 10 , 1938 , p. 110 .

ويذكر Harold T. Cheshisr أن قوات المغول تحت قيادة باتو فى روسيا كانت نصف مليون وأن ربعهم قد أرسل إلى بولندا .

Cf . his : "The Great Tartar Invasion of Europe " The Slavoni ce Review , vol.5, 1926-7 , p. 94 .

بينمـــا يرى Boswell أن كل جيش باتو كان مائة وثلاثين ألفا وأن ثلاثين ألفا فقط منهم قد أرسلوا إلى بولندا . ويقول أن المصادر الأولية ضخمت من تعداد جيش المغول لعدة أسباب منها السرعة الفائقة للفرسان المغول فى الدوران والالتفاف والكر والفر ، وكذلك وجود عدد ضخم من الخيول الاحتياطية للفرسان ووجود عدد كبير من الأسري يسيرون فى أعقاب الجيوش المغولية ، فضلا عن أن المصادر البولندية بالغت فى عدد المغول لتبرير هزائم البولنديين أمامهم .Cf . Boswell , op . cit . pp . 92 , 3 .

٣٩- كانت حدود بولندا حينئذ : بروسيا من الشمال ، وليتوانيا وإمارة غاليسيا الروسية من الشرق ، وجبال كاريثيا تفصل بينها من الجنوب وبين البحر ، ومن الغرب سيليزيا ومر براندنبرج . وفى عام ١١٣٩ م فان ملكها بوليسلاف الثالث قسم مملكته إلى أربعة أقسام على أولاده الأربعة تاركا وراءه خلافات وصراعات داخلية بين الأخوة المتنازعين . وفى عشية الغزو المغولى لبولندا كان بها تسعة إمارات مستقلة ، ولهذا لم يوجد بها حكومة مركزية قوية لتوحيد كل مصادر القوة البولندية للتصدى للغزاة .

ولايدخل فى خطة هذا البحث تتبع الغارات المغولية على الأراضى البولندية بعد ذلك وبالتحديد فى أعوام ١٢٥٩-١٢٦٠ ، ١٢٦٤ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٩م، ولكن يهمنا هنا فقط وضع الخطوط العريضة للهجوم المغولى الأول على تلك البلاد بغية توضيح رد الفعل الأوروبى منه . وللتفاصيل انظر :. Iwamura , op . cit ., pp . 103-157

حيث نشر النص اللاتينى والترجمة الانجليزية لخمسة عشر وثيقة من الحوليات البولندية وأرشيفات البابوية فى القرن الثالث عشر من هذا الموضوع ، وكذلك ، Szczesniak Boleslaw , " Hagiographical Documentation of the Mongol Invasions of Poland in the Thirteenth Century , "Memoirs of the Research of Department of the Toyo Bunko , Tokyo , 1953 , pp. 167-195 ,

حيث نشر أيضا النص اللاتينى والترجمة الانجليزية لاثنين وعشرين وثيقة من الحوليات الكنسية البولندية المرتبطة بالغزو المغولى لبولندا حتى عام ١٣٠٠م ، وكذلك Boswell , " Territorial Division and the Mongal Invasions of Poland , 1202 - 1300 . " op . cit ., pp. 85-107 .

40- Iwamura , op . cit ., p. 107; Bretschneider , op . cit , vol . I , p . 321 .

41- Cheshire , op . cit ., p. 95 ; Chambers , op . cit ., pp . 98 , 99 .

42- Iwamura , op . cit ., p. 110 ; Vernadsky , op . cit ., p. 55 ; Rachewiltz , op . cit ., p. 76 ; Chambers , op . cit ., pp. 98,99 .

٤٣- للمزيد من التفاصيل انظر Cheshire , " The Great Tartar Invasion of Europe, p. 95 ; Saunders, The Hist. of the Mongel of Europe , p. 85 op . cit ., p. 95 ; Chambers , op . cit ., pp. 99,100 ; Vernadsky , op . cit . p. 56 , n . 148 .

٤٤- انظر ما سبق حاشية ١١ ، كانت مملكة المجر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من القوى القوية في أوروبا . واستطاع العديد من ملوكها من أسرة آرباد Arpad أن يوسعوا حدودها ويؤمنوها ضد اعتداءات الألمان والبيزنطيين . وكانت كنيستها كاثوليكية . وساهم كثير من نبلائها وفرسانها في الحروب الصليبية في الشرق ، وكانت هذه المملكة أيضا ضعيفة أمام الأطماع البنادقة عام ١٢٠٢ حيث استولت الحملة الرابعة على المجر لأنه باع المدينة الأخيرة للبنادقة أيضا ، ورهن كثيرا من الاقطاعيات لليهود وللنبلاء ، وحطم جيوشه في مغامرات عسكرية فاشلة مع جيرانه الروس للصراع على مناطق الحدود . وكانت خلافاته مع النبلاء وغيرهم لا حدود لها . وكان ابنه بيلا الرابع (١٢٣٥-١٢٧٠) شخصية متزنة . ولكن الافلاس الاقتصادي الذي ورثه عن والده ولجوء أربعين ألفا من الكومان واستقرارهم في بلاده، فضلا عن عدم وجود جيش منظم كل هذه الاعتبارات وغيرها كانت حائلا دون تكوين دفاعات قوية للمجر أمام المغول

Sinor : The Histoy of Hungry , pp . 57 , 71 .

45- Ibid , pp . 72, 3 ; Saunders , op cit ., pp , 86,87 .

46- Sinor , pp . 72 , 3 ; Vernadsky , pp . 56 , 7 ; Chambers , pp . 101,105 .

47- Cheshire , op . cit ., pp . 98 , 9 Vernadsky , op . cit . p . 57 .

48- John of Plano Carpini , op . cit ., pp. 44 , 5 , Sinor ; op . cit ., p . 75 ; Vernadsky ., op. cit ., p. 58 .

49- Vernadsky , op . cit .p. 58 .

50- Sinor , op . cit . pp . 70-74 ; Chambers , op . cit ., pp . 104-107 .

51- Sinor , op . cit ., pp . 70 .

52- Ibid , pp . 70-74 ; Chambers , op . cit ., pp . 104-107 .

53- Cf . Matthew Paris , op . cit ., vol . I . pp . 339-340 .

54- Ibid , vol . I , p. 340 حيث أورد نص هذه الرسالة)

55- Ibid , op . cit ., vol . I , pp . 341 , 6 .

56- Ibid , p. 356 .

57- Ibid , vol I , pp . 356 , 7; Chambers , op . cit ., p. 107 .

58- Chambers , op . cit ., p. 108 .

59- Ibid , p. 109 .

60- Matthew Paris , op . cit . vol III , pp . 450 , 1 (حيث نص الخطاب)

61- Ibid , III , pp . 454 , 55 . (حيث نص الخطاب)

62- Ibid , pp . 453 , 54 . (حيث نص الخطاب)

٦٣- كان بيتر انجليزى الأصل ، وكان قد طرد من بلاده قبل ذلك بسنوات عديدة وذهب للأراضى المقدسة وتجول شرقا حتى وقع فى يد المغول الذين استخدموه فى جيشهم فى أوربا . ثم استعان به باتو فى أعمال التجسس على الأوربيين لمعرفته بعدة لغات أوربية ومعرفته كذلك بلغة المغول

Cf . Matthew Paris , op . cit . vol . I , pp . 467 , 8 .

64- Ibid , pp . 467-472 .

65- Ibid , p. 473 .

66- Loc . cit .

67- Connell , Western Views of the Tartars , pp. 120 , 121 .

68- Ibid , pp . 122 , 3 .

69- Matthew Paris , op . cit ., II , p . 29 .

70- Saunders . "Matthew Paris and the Mongols" , op . cit ., p . 125 .

٧١- نشر متى الباريسى النص الكامل لجميع هذه الخطابات (op . cit ., I . pp . 29-49)

72- Ibid , vol . II , pp. 48 -49 .

٧٣- أنظر تفاصيل هذه السفارات ص٥٩-٧١ .

74- Matthew Paris , op . cit ., II , pp . 67-68 .

75- Sohroeder , J . : Disciplinary Decrees of the General Counciles , Text , Translation and Commentary . London , 1937 , p. 311 .

76- Matthew Paris , op . cit ., II , p. 67 .

77- For details, Cf . Ibid , vol . II ,.pp . 66 , 68 - 73 , 77 - 86 .

77B- Iwamura , "The Mongol Invasion of Poland in the Thirteenth Century, "op . cit . Documents no . vii - xii , pp . 122- 124 ; also cf . Connell , op . cit ., p. 127 .

78- Iwamura , op . cit ., pp . 112 , 113 . Szczesnisak Boleslaw , "The Mission of Giovanni del Plano Carpini and Benedict the Pole of Vratislavia to Halicz" . in the Journal of Ecclesiastical History , vol . VII , no . I , April 1956 , pp. 12-20 .

79- Connell , op . cit ., pp . 129 , 130 .

٨٠- هيئة الفرنسيسكان أو الأخوة الصغار Minor Friars هيئة دينية أسسها فرانسيس الأسيسى Francis of Assisi (١١٨١-١٢٢٦م) فى أحد الأديرة فى منطقة Assisi بايطاليا ، وحصلت على الموافقة البابوية الشفوية فى عام ١٢٠٩ م والرسمية عام ١٢٢٣م . وسرعان ما أصبح لها فروع فى جميع أنحاء الغرب الكاثوليكى وكان الهدف منها التبشير بالدين المسيحى على المذهب الكاثوليكى ، وخدمة المسيحيين الفقراء . وكان نظام حياتهم قائمًا على العمل اليدوى ، أو التسول وعدم إدخار شئ لليوم التالى ، وتحريم الملكية الخاصة . وقد حضر فرنسيس نفسه إلى الشرق مع الحملة الصليبية الخامسة بهدف التبشير بين قادة المسلمين ووضع سياسة - اقتفى أثرها خلفاؤه - مفادها أن أيسر الطرق لهزيمة الأعداء هى تحويلهم إلى الدين المسيحى . ومن ثم كان لهذه الهيئة فروع عديدة فى شمال أفريقيا والأراضى المقدسة وبين المغول فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . للتفاصيل انظر :

Moorman , John: A History of the Franciscan Order from its Origins to the Year 1517 . Oxford , 1968 ; Daniel E . Randolph : The Francis can Concept of Mission in the High Middle Ages . Kentucky , 1975 .

٨١- جماعة الدومنيكان أو الأخوة المبشرين Friars Preachers

أسسها دومنيك (١١٧٠-١٢٢١م) فى مدينة تولوز فى بداية القرن الثالث عشر وحصلت على موافقة البابوية عام ١٢١٦ . ومن الخبرة الشخصية التى اكتسبها دومنيك من التبشير بين الالبيجنيسين (١٢٠٥-١٢١٥) فى جنوب فرنسا ، فانه أنشأ هذه الهيئة الدينية للتبشير بين الهراطقة والملحدين فى جميع أنحاء العالم . ومبادئها - المشابهة لنظم الفرنسيسكان - تقوم على عمل أعضائها فى الدفاع عن العقيدة والتبشير بين «الكفرة» واكتساب قوتهم اليومى من التسول والهبات . وكان لها فروع فى معظم أنحاء أوربا وشمال آسيا ووسطها .

Cf . The Encyclopedia Britannica , vol . 7 , pp . 517 - 520 , arts . Saint Dominic & Dominicans) .

82- Rachewiltz : Papal Envoys to the Great Khans , pp . 85 . 6 .

٨٣- للتفاصيل عن هذه السفارة انظر : Phaire , Barbara Rose :

Papal Motivations for an Asian Apostolate , 1245 - 1254 : An Analysis . Unpablished Ph . D . Diss . New York University , 1972 , pp . 28 - 39 .

84- John of Plano Carpini , " History of the Monglos , " in C . Dawson (ed.) : The Mongol Mission . New York , 1955 , p. 3 .

85- Ibid, pp. 53 , 54 .

86- Ibid, p. 62 .

87- Ibid, p. 66 .

88- Cf . Dawson : The Mongol Mission , pp. 73 - 75 .

(حيث أورد النص الكامل لهذا الخطاب مترجما إلى الانجليزية) .

89- Dawson , op . . cit ., pp . 73-75 .

(حيث أورد الترجمة الانجليزية الكاملة لهذا الخطاب أيضا) .

90- John of Plano Carpini , op . cit ., pp . 65-66 .

٩١- جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ١٢٤٥-١٢٥٠م . القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص٢٣٨ .

٩٢- جوزيف نسيم يوسف : نفس المرجع والصفحة ، ويشاركه هذا الرأى J . J. Saunders

Cf ., "John of Plan Carpini , " in History Today , vol . xxll , 1972 , p. 552 .

٩٣- انظر ص٧١-٧٣ من هذا الفصل .

٩٤- يقول بلانو الكاربينى أنه فى آخر مقابلة له مع كيوك خان فانه سئل عما إذا كان سادته يستخدمون لغة المسلمين (المقصود بها هنا الفارسية) أو اللغة الروسية أو لغة المغول ولكنه أجاب بالنفى مقترحا أن تكتب الرسالة باللغة المغولية ثم تترجم له بواسطة الأوربيين - الذين يعملون فى خدمة المغول - إلى اللاتينية . وهذا ما تم فعلا ، إذ أنهم أعادوا على مسامعه عدة مرات نص خطاب الخاقان مترجما حتى تأكدوا من فهمه لما قصدوه ، وهذا ما دونه الكاربينى وزميله بندكت البولندى فى تقاريرهما أى ترجمة ما سمعوه من النص المغولى الشفوى . ولزيادة التأكيد

فان رجال الخاقان أعطوهما نسخة رسمية لهذا الخطاب باللغة الفارسية ، والأخيرة عثر عليها الباحث الفرنسى باول بليو فى أرشيفات الفاتيكان عام ١٩٢٠ م وقام بترجمتها إلى الفرنسية وأجرى لها دراسة نقدية فاحصة فى سلسلة مقاله عن والبابوية والمغول (Cf . Revue de L`Orient Chretien , vol . XX lll , 1922 , pp . 13-23) .

وقد اعتمد الدارس على الترجمة الانجليزية لكل من الأصلين اللاتينى والفارسى فى : Dawson : The Mongol Mission , pp. 83-96 .

ويوجد عدة ترجمات أخرى لهذا الخطاب نشرها كل من :

Rachewiltz : Papol Envoys to the Great Khans , p. 213 ; Voegelin , Eric , " The Mongol Orders of Submission to European Powers , 1245-1255 " { Byzantion , xv , 1944 , pp. 386 , 7 ; Spuler , Bertold . History of the Mongols Based on Eastern and Western Accounts of the Thirteenth and Fourteenth Centuries . Eng . trans by Helga and Stuart Drummond . London , 1972 , pp. 68 , 9 .

95- Cf . Dawson , op . cit ., p. 85 .

96- Ibid , p . 83 .

97- Ibid , p . 85 .

98- Ibid , p . 83 .

99- John of Plano Carpini , cf . Dawson, op . cit ., p . 68 .

100- Cf . Dawson , op . cit .pp . 83-86 .

(الترجمة عن النصين الفارسى واللاتينى)

101- Rachewiltz : Papal Envoys , pp . 104 , 5 .

102- cf . Dawson , op . cit ., p. 86 .

103- John of Plano Carpini , in Dawson , op . cit ., pp . 43 , 44 .

104- Ibid , pp . 45, 46 .

105- Ibid , pp . 68-69 .

106- Rachewiltz , op . cit ., p. 111 .

107- Phaire : Papal Motivations for an Asian Apostolate 1245-54 , pp . 60 , 61 ; Rachewiltz , op . cit ., pp. 112 , 113 .

١٠٨- للمزيد من التفاصيل عن بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى انظر :

Paul Pelliot "les Mongols et la Papaute " , Revue de l` Orient Chretien , xxiv , 1924 , pp. 225 ff ; Phaire : Papal Motivations , pp . 62-69 .

109- Guzman , Gregory G . , " Simon of Saint - Quentin and the Dominican Mission to the Mongol Baiju " , Speculm , XLVI , 1971 , pp. 235 , 36 , 242 .

110- Rachewiltz , op . cit ., pp . 114 , 115 ; Phaire , op . cit ., pp . 69-70 .

111- Guzman , op . cit ., pp . 237-239 .

١١٢- تعتبر كثير من المراجع المكتوبة باللغات الأجنبية والعربية على حد سواء أن أندريه لونجيجيمو كان عضواً فى بعثة آسيلين اللومباردى ، ولكن الدراسات النقدية المعاصرة - خاصة بعد اكتشاف تقرير سيمون أوف سانت كونتين (أحد أعضاء بعثة آسيلين) ونشره وترجمته - أثبتت أنهما بعثتان منفصلتان ، وإن كانت أهدافهما ووجهتهما واحدة ، وقد تولى الباحث الامريكى جريجورى جوزمان - فى أطروحته للدكتورة بجامعة كنكناتى عام ١٩٦٨ بالنقد والتحليل المصحوبين بنشر الأصل اللاتينى لهذا التقدير - دراسة - كل ما ورد أو أثير حول هذه البعثة فى المصادر الأوربية عامة وفى السجلات البابوية خاصة ، ومن ثم فانه قام بتصحيح وتعديل وتحليل كل النقاط التى أثيرت حول هذا الغموض .

Cf . Guzman , Gregory G . : Simon of Saint Quentin and the Dominican Mission to the Mongols , 1245 - 48 . (Unpublished doctoral Diss ., Univ . of Cincinnati , 1968) , pp . 38-40 , 52-55 .

113- Ibid , p. 69 .

114- Guzman , " Simon of Saint - Quentin , " Speculum, XLVI , 1971 , p. 236 note 39 ,246, 246 ; Phaire, op . cit , p. 45, جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص٢٤٢ ، ٢٤٣

115- Guzman : Simon of Saint - Quentin and the Dominican Mission to the Mongols , pp . 52 - 65 ; Rachewiltz , op . cit ., 115-117 .

116- Guzman " Simon of Saint - Quentin , " op , cit . p . 70 ; Rachewiltz , op . cit ., pp. 116 , 117 . جوزيف نسيم يوسف المرجع السابق ، ص٢٤٣ .

117- Matthew Paris , op . cit ., II . p . 280 .

118- Phaire : Papal Motivations for an Asian Apostolate , pp . 46-47 .

١١٩- تناول الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف (المرجع السابق ص٢٤٤-٢٧٠) السفارات المتبادلة بين المغول ولويس التاسع بإسهاب يغنى عن المزيد من الإيضاح ، ومن ثم فاننى اكتفيت هنا بمناقشة النقاط الجديدة والتى أثارت اهتمامى أكثر من غيرها فى ضوء الوثائق والمراجع الجديدة فى الموضوع والتى ظهرت بعد دراسة سيادته فى الموضوع . انظر كذلك الفصل الثانى من هذا البحث عن مراسلات هولاكو إلى لويس التاسع .

١٢٠- جوانفيل ، جان دى : مذكرات جوانفيل ، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام . ترجمة وتعليق حسن حبشى . الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٨ ص٨٤ ، ٨٥ .

121- Matthew Paris , op . cit ., III , pp . 419 , 20 .

122- Matthew Paris , op . cit ., III , p. 319 .

١٢٣- حسن حبشى : مذكرات جوانفيل ، ص٨ .

١٢٤- مذكرات جوانفيل ، ص٢٥٥ ، ٢٥٦ .

125- Matthew Paris , op ., III , pp . 419 , 20 .

١٢٦- للتفاصيل عن مقدمات هذا المجمع ووثائقه انظر : :

Schroeder H . J . Disceplinary Decrees of the General Councils . London , 1938 , pp . 69-77 .

127- William Rubruck`s Report , in Dawson : The Mongol Mission p . 122 .

١٢٨- مذكرات جوانفيل ، ص٨٥ .

١٢٩- المصدر السابق ، ص٢١٨ .

١٣٠- المصدر السابق ، ص٢١٨ ، ٢١٩ .

١٣١- للتفاصيل انظر : جوزيف نسيم يوسف ، المرجع السابق ص٢٥٠-٢٥٣ .

132- Rachewiltz , op . cit ., pp . 126 -8 ; Dawson : The Mongol Mission , op . cit ., pp . xxi , xxii .

١٣٣- يؤيد هذا الرأى عزيز سوريال عطيه وجوزيف نسيم يوسف (المرجع السابق ، ص٢٥٤)

The Crusade in the Later Middle Ages , p. 243.

١٣٤- يؤيد كثير من المؤرخين المحدثين هذا الرأى ومنهم , Barbara Phaire (pp . 51 , 2)

Rachewiltz (op . cit ., p . 125) ; Dawson , (op . cit ., p . xxi xxii) .

135- William Rubruck`s Report , in Dawson : The Mongol Mission , pp . 91 , 204, 205.

136- Ibid , pp . 93 , 120 , 127 , 128 , 190 .

137- Ibid , pp . 218 , 219 .

138- William Rubruck , op . cit ., pp . 117 - 119 .

139- Ibid , pp . 119 , 120 .

140- Ibid , p. 122 .

141- Ibid , p. 128 .

١٤٢- جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص٢٥٨ .

143- William Rubruck , op . cit ., pp . 150 , 151 .

144- Ibid , pp . 191-194 .

145- Ibid , p. 155 .

146- Loc . cit .

147- Ibid , p. 190 .

148- Ibid , pp. 202 - 4 .

149- Ibid , p. 220 .

الفصل الثانى

التحالف المغولى – اللاتينى ضد المسلمين

العناصر :-

- المتغيرات السياسية فى الشرق الأدنى فى بداية النصف الثانى للقرن الثالث عشر .
- خضوع مملكة أرمينيا الصغرى للمغول والتحالف معهم ضد القوى الإسلامية .
- موقف الصليبيين من الغزو المغولى للشام .
- رد فعل الصليبيين من الصدام بين المغول والمماليك فى عين جالوت .
- الاتصالات بين مغول فارس واللاتين فى عهد هولاكو .
- السفارات المتبادلة بين الإيلخانيين والغرب الأوربى فى عهد كل من :

أبغاخان (١٢٦٥-١٢٨١م)

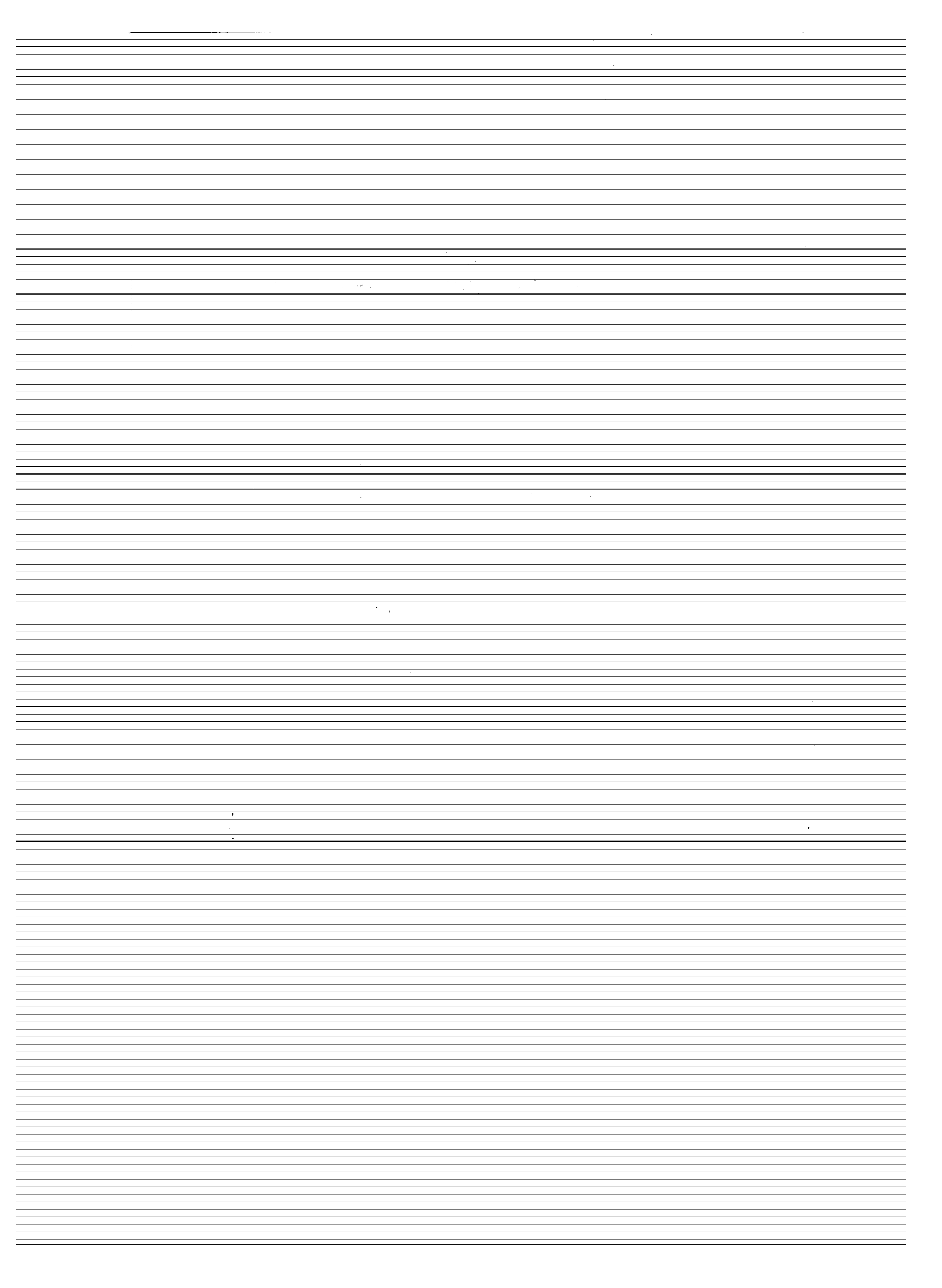
أرغون خان (١٢٨٤-١٢٩١م)

غازان خان (١٢٩٥- ١٣٠٤م)

أولجايتوخان (١٣٠٤-١٣١٦م)

أبو سعيد (١٣١٦-١٣٣٥م)

- أسباب فشل التحالف المغولى – اللاتينى ضد المماليك .



طرأت عدة أحداث هامة على منطقة الشرق العربى مع نهاية النصف الأول للقرن الثالث عشر الميلادى منها : فشل حملة لويس التاسع (ت ١٢٧٠م) على مصر فى تحقيق أهدافها المرجوة عام ١٢٥٠م، وقيام دولة المماليك البحرية فى مصر ، ونجاح قوات المغول فى القضاء على أية مقاومة تقف فى طريقها شرقى نهر دجلة وفى آسيا الصغرى .

ولذا سارع هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى بتقديم فروض الطاعة والولاء للمغول مدركا أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لإنقاذ مملكته الصغيرة من مصير محتوم ، وكذلك لإنقاذ المسيحيين فى غرب آسيا من براثن البرابرة الجدد حتى لايلاقوا نفس مصير المسلمين فى الدولة الخوارزمية[1]. وكان ملك الأرمن قد قام بتسليم قادة السلاجقة الفارين أمام المغول للأخيرين . وأرسل شقيقه سمباد Sempad القائد العام للجيش - إلى قراقورم عام ١٢٤٦م محملا بالهدايا لحضور القوريلتاى الذى قرر اختيار كيوك خاقانا على المغول فى أغسطس من ذلك العام [2]. ولهذا فان الخاقان الجديد أرسل تقليدا لهيثوم الأول اعتبره فيه أحد تابعيه ومنحه وثائق تضمن إعفاء بلاده وأديرته وكل المسيحيين من الضرائب المغولية [3]. وإذا كانت وفاة كيوك خان عام ١٢٤٨ م قد حالت دون تنفيذ هذه الامتيازات بل وأدت إلى تعريض مملكة أرمينيا الصغرى للسلب والنهب من قبل الفرقة المغولية فى آسيا الصغرى ، فان زيارة هيثوم الأول لقراقورم عام ١٢٥٤ وحضوره تتويج مانجو خاقان على المغول (١٢٥٤-١٢٥٩م)[4] كان لها أكبر الأثر فى تقرير سياسة هذه المملكة تجاه المغول والمسلمين فيما بعد .

فلقد كانت جهود الملك الأرمنى فى المدة التى قضاها فى العاصمة المغولية منصرفة إلى إقناع الخاقان المغولى بالقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين . وبموجب معاهدة الصداقة والتحالف بين الطرفين ، أكد مانجو خان على عدم تعرض المغول للأرمن بسوء، بل ومساعدتهم ضد أعدائهم، وإعفاء الكنائس والأديرة الأرمينية وجميع المسيحيين الشرقيين داخل الامبراطورية المغولية من الضرائب . وتعهد هيثوم الأول - فى مقابل ذلك - بمعاونة المغول وإمدادهم بالجيش والمؤن وأن يدلهم على جميع الطرق والمعابر عند الحاجة [5].

ومنذ ذلك الحين فصاعدا أصبح ملوك أرمينيا الصغرى تابعين للمغول عامة ولمغول فارس (فيما بعد) خاصة ، ويؤلبونهم ضد جيرانهم المسلمين ، ويشتركون معهم بجيوشهم ضد المماليك كما سنرى .

وتحسنت العلاقات بين مملكة أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية الصليبية بفضل جهود ووساطة الملك الفرنسى لويس التاسع أثناء وجوده بالشام (١٢٥٠-١٢٥٤م) . ومن ثم توطدت روابط الصداقة بزواج حكام أنطاكية وقبرص وصيدا من بنات الأسرة الأرمينية الحاكمة[٦]. وكان لهذا الأمر أكبر الأثر فى جر إمارة أنطاكية هى الأخرى فى علاقات صداقة وتحالف مع المغول ضد جيرانها المسلمين مما جلب عليها المتاعب فيما بعد .

كما أن ملك أرمينيا الصغرى حاول فرض حصار اقتصادى على المماليك . فأصدر أوامره المشددة عام ١٢٦٠م بمنع الأهالى من الاتجار مع المماليك . وكانت بلاده معبرا لكثير من المواد الأساسية لصناعة السفن وكذلك المواد الغذائية وتجارة الرقيق وهى مواد أساسية للنظام العسكرى الذى قامت على أركانه دولة المماليك فى مصر والشام ، فى الوقت الذى كانت فيه العراق وإيران تحت حكم المغول ، وكانت موانى البحر الأسود والقسطنطينية ما زالت فى يد اللاتين . وكذلك لجأ إلى تخفيض الضريبة المفروضة على بضائع التجار الأوربيين المارة ببلاده وأصدر هو وخلفاؤه العديد من الامتيازات لهؤلاء التجار لجعل موانيه منافسا قويا وبديلا عن الموانى المصرية [٧].

ولكن « سرعان ما أثبتت الأيام أن ملوك أرمينية الصغرى راهنوا على الجواد الخاسر وأنه صار عليهم أن يدفعوا ثمنا باهظا مقابل المكاسب السريعة التى حصلوا عليها » [٨]. فالمماليك حرضوا سلاجقة الروم ضد الأرمن ، وشنوا الغارات العديدة - فى فترات انشغال المغول بحروبهم ومشاكلهم الداخلية - على أرمينيا الصغرى ، كذلك فان الهزائم التى ألحقها المماليك بالمغول تركت آثارها السلبية على الأرمن تمثل فى خسارتهم فى القتلى والأسرى والعتاد ، ومنذ عهد المنصور قلاوون (١٢٧٩- ١٢٩٠م) وجه المماليك ضربات قوية للأرمن حتى دفعوا لهم الجزية وهم صاغرون . وفضلاً عن ذلك كانت جيوش المماليك تقوم بعملية تمشيط لأرمينيا الصغرى كلما أبدى الأرمن تمردا أو امتنعوا عن دفع الجزية حتى استولوا على هذه المملكة نهائيا عام ١٣٦٨ م بعد اضمحلال دولة مغول فارس .

ولقد أسهبت المصادر التاريخية فى الحديث عن تقدم قوات هولاكو صوب العراق [٩]. ويكفى القول أنه باختفاء آخر السلاطين الخوارزميين من الميدان عام ١٢٣١م ، توغلت الفرق المغولية التى أرسلت لملاحقته حتى وصلت إلى حران والرقة ونصيبين والخابور والموصل واربل لايمنعهم مانع . وسارع الأمراء المحليون بتقديم فروض الطاعة والولاء للقادة المغول . ولم

يكتف هؤلاء الأمراء بالخنوع للذل المغولي بل وسارعوا عند وصول هولاكو في طريقه نحو بغداد إلى تجديد طاعتهم وأبدوا استعدادهم لمرافقته نحو حاضرة الخلافة العباسية ، بل وشارك بعضهم في حصار بغداد عام ١٢٥٨ و سقوطها[١٠] .

وقد عبر هولاكو وقواته نهر جيحون في أوائل سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م . وسارع سلطان سلاجقة الروم وأتابك فارس بإرسال الرسل لتحيته ، وقضى هولاكو هذا العام متنقلا بين مدن فارس المختلفة وأرسل الحملات للقضاء على طائفة الاسماعيلية وقتل آخر حكامهم وأزال حصونهم . وفي ٢١ سبتمبر ١٢٥٧م - ٩ ربيع الثاني عام عام ٦٥٥هـ أرسل هولاكو إلى الخليفة المستعصم العباسي رسالة يدعوه فيها إلى تقويض حصون بغداد وأسوارها والحضور بنفسه إلى حضرته وتسليم المدينة وإلا فالحكم للسيف وحده . وكان من اليسير على قوات هولاكو وقوات تابعيه من الأرمن والجورجانيين والإمارات الإسلامية الاستيلاء على بغداد وإزالة أهم المعالم الحضارية والعلمية للمدينة في صفر عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م . وقتل آخر الخلفاء العباسيين في بغداد على الطريقة المغولية ومعه حوالي مليون نسمة ، إذ أن قوات المغول " حرقوا الأخضر واليابس ماعدا قليلا من منازل الرعاة وبعض الغرباء " [١١].

وبعد سقوط بغداد في يد قوات هولاكو أصبح الطريق إلى بلاد الشام مفتوحا خاصة وأن رسل الناصر صلاح الدين يوسف - أمير حلب ودمشق وزعيم البيت الأيوبي في الشام - كانت قد وصلت إلى هولاكو تدعوه إلى القدوم إلى الشام لمساعدته على تخليص مصر من المماليك. وأسرع هولاكو بارسال قوة من عشرين ألف فارس إلى الشام لانتهاز هذه الفرصة . ولكن قوات المغول بمصاحبة قوات من الأرمن والجورجانيين وإمارة أنطاكيا الصليبية استباحت مدينة حلب في يناير عام ١٢٦٠م / صفر ٦٥٨هـ حتى امتلأت الطرق والمسالك بجثث القتلى . وقيل أنهم أسروا زيادة على مائة ألف من النساء والأطفال . ثم دخل الغزاة دمشق بعد فرار الناصر يوسف عنها في فبراير ١٢٦٠م وتسلموها بالأمان . وسلمت لهم بقيه مدن شمال سوريا وقلاعها طوعا أو عنوة فعاثوا فيها فسادا وقتلا وتدميرا [١٢]، وبات الطريق إلى مصر مفتوحا أمامهم .

موقف الصليبيين من الغزو المغولي للشام

كان ميسورا على هيثوم الأول - ملك أرمينيا الصغرى - أن يقنع زوج ابنته - بوهيموند السادس أمير أنطاكية وطرابلس - بالتحالف مع المغول ضد الإمارات الأيوبية في الشام.

وعندما ظهر هولاكو فى شمال بلاد الشام أسرع بوهيموند بزيارته فى معسكره عدة مرات(١٣).
وقد اشترك الأخير بقواته مع قوات هولاكو وصهره ملك أرمينيا فى الاستيلاء على حلب .
وفى المقابل أعاد هولاكو إلى بوهيموند السادس جميع الأراضى التى كان المسلمون قد
اقتطعوها من امارته منذ عصر صلاح الدين الأيوبى (١٤).

وعندما تقدم جيش هولاكو إلى دمشق كان يعاونه الأرمن وقوات بوهيموند السادس .
وطلب هيثوم الأول وبوهيموند السادس من كتبغا - قائد الجيش التترى - إغلاق مساجد
دمشق وتحويل بعضها إلى كنائس ففعل ذلك ضاربا عرض الحائط باستعطافات المسلمين . بل
وطاف هيثوم وبوهيموند وكتبغا بشوارع دمشق علانية تجبرا وعتيا (١٥).

وقد رفضت بقية القوى الصليبية فى بلاد الشام موقف بوهيموند السادس من التحالف
لخوفها من المغول الذين سبق لهم توجيه الانذار إلى حكام عكا بتدمير أسوار مدنهم وحصونهم
وقد مالأ الصليبيون قادة المغول بالهدايا حتى تصلهم نجدة من الغرب الأوربى بعد أن أرسل
مقدموا الهيئات العسكرية خطابات بالفعل إلى قادة الغرب الأوروبى لطلب هذه النجدة(١٦) .
كذلك فان موافقة بوهيموند على إعادة بطريرك أنطاكية البيزنطى إلى منصبه-استجابة لأوامر
هولاكو وإرضاء لملك أرمينيا - اعتبر شرخًا كبيراً فى وحدة مسيحى الشرق اللاتينى(١٧).

كما أن صدام بعض القوى الصليبية مع قوات المغول قد نبه بقية القوى اللاتينية إلى
خطورة الغزاة الجدد . فقد حدث أن اللورد جوليان Julian حاكم صيدا - وزوج ابنة ملك
أرمينيا- أرادا استغلال فرصة تحالف صهره مع المغول فى الاغارة على إقليم البقاع - الذى
كان تحت سيطرة القوات المغولية حينئذ - للاستيلاء عليه من المسلمين . ولكن كتبغا - القائد
المغولى- أرسل فصيلة صغيرة لدفعه من حيث أتى . وكان قائدها ابن أخى كتبغا فقتله حاكم
صيدا، ومن ثم أرسل كتبغا قوات توغلت فى صيدا ودمرتها . وحاول جون الثانى حاكم بيروت
وقوات الداوية هناك مناصرة حاكم صيدا ولكن قوات المغول قامت بتأديبهم بشدة وأسر جون
نفسه الذى تم افتداؤه ، وربما أراد كتبغا الهجوم على بقية الصليبيين لولا علمه بقدوم
المصريين لملاقاته (١٨).

وبالإضافة إلى ما تقدم ، كان خوف الصليبيين من المغول أكثر من خوفهم من المسلمين.
فالتجربة كانت قد أظهرت لهم أن المغول لم يتركوا دولا مستقلة تعيش بجوارهم ولكن
حلفاءهم كانوا بالنسبة لهم مجرد تابعين . أما المماليك فانهم منذ استيلائهم على السلطة فى

مصر عام ١٢٥٠م لم يقتربوا من الصليبيين ولم يؤذوهم بعكس المغول الذين دمروا الأخضر واليابس (١٩). ويؤكد الباحث الانجليزى بيترجاكسون Peter Jackson اعتمادا على رواية لرشيد الدين الهمذانى بأن هولاكو كان قد أصدر أوامر لقائده فى آسيا الصغرى بالتحرك ضد الفرنجة ، وعلى رواية متى البارسى بانذارات هولاكو لقادة الصليبيين فى سوريا وعلى رواية المؤرخ ابن العميد ، أن كتبغا قائد هولاكو بالشام بعد رحيل الأخير إلى الشرق - «قد ترك لحراسة البلاد وليكون قبالة نجدة الفرنج من جهة مصر » وهذا معناه بوضوح أن الصليبيين كانوا أيضا مستهدفين فى الغزو مثل المسلمين تماما من ناحية المغول (٢٠).

وأيضًا كانت استهانة قادة المغول برسل البابوية وملك فرنسا قبل ذلك بعدة أعوام ، والخراب الذى ألحقه هؤلاء الغزاة بشرق أوروبا فى الفترة من - ١٢٣٧-١٢٤٢ ، وهجوم مغول روسيا فى ذلك الوقت أيضا (١٢٥٩-١٢٦١) على بولندا والمجر والمانيا وإرسالهم انذارا لملك فرنسا بالخضوع والتسليم(٢١) من العوامل الرئيسية لكراهية الغرب الأوربى للمغول عامة وللتحالف أو التعاون مع أحد فروعهم خاصة .

ولهذا فان البابا الكسندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦١) أصدر قرار الحرمان ضد بوهيموند السادس حاكم أنطاكية وطرابلس لتحالفه مع المغول وإرجاعه للبطريرك البيزنطى لأنطاكيه(٢٢). ولا غرو أيضا أن نجد أن موقف بقية القوى الصليبية كان متعاطفا مع المماليك فى صدامهم المسلح الوشيك مع القائد المغولى فى سوريا .

ومهما يكن من أمر فانه بعد استيلاء المغول على دمشق طواعية فان الرسل قدمت من ناحية المشرق لهولاكو تنعى له أخيه مانجو الخاقان الأعظم للمغول . ومن ثم فان هولاكو ترك كتبغا للمحافظة على الشام وذلك فى جمادى الآخرة عام ٦٥٨هـ / مايو ١٢٦٠ ورجع إلى قراقورم لمواجهة الأحداث الجديدة الناجمة عن وفاة الخاقان . وخاصة وأنه حدثت خلافات وحروب بين إخوته قوبيلاى وأريق بوقا حول أحقية كل منهما فى العرش المغولى . وربما وجد هولاكو فى نفسه أنه المرشح المناسب للمنصب الشاغر ، ولهذا فانه جمع جيوشه المغولية ورجع بها إلى الشرق ولم يترك مع قائده كتبغا بالشام سوى عشرة آلاف فارس (٢٣).

وربما يكون فى وفاة مانجو خان عام ١٢٥٩ م انقاذا لبقية العالم الإسلامى من الخضوع للسيطرة المغولية مثلما كانت وفاة أو جوداى خان عام ١٢٤١م إنقاذا لغرب أوروبا من الدمار الذى لحق بشرقها قبيل وفاته. ولهذا فان بقية العالمين المسيحى والإسلامى قد استفادا من مصائب المغول فى وفاة قادتهم فى عامى ١٢٤١ ، ١٢٥٩ على التوالى .

ويؤيد ما نحن بصدده رواية ابن العبرى أن قوات هولاكو كانت أربعمائة ألف من العساكر عندما دخل الشام [٢٤]. وفى رواية رشيد الدين الهمذانى أن كتبغا نفسه قال للماليك قبيل مقتله على أيديهم أن جيش هولاكو ثلاثمائة ألف [٢٥]. ومع التسليم بالمبالغة فى هذين الرقمين إلا أنهما يدلان على التفوق العددى الكاسح لقوة هولاكو التى كانت تمكنه - لولا رجوعه الفجائى إلى الشرق - من تحقيق انتصار كاسح على المماليك .

وكان هولاكو - قبيل رجوعه إلى قراقورم - قد أرسل إنذارا إلى المماليك فى مصر جاء فيه " أى أرض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ،وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال ، والحصون لدينا لاتمنع ، والعساكر لقتالنا لاتنفع ، ودعاؤكم علينا لايُسمع [٢٦] ». وفى نهايته طلب منهم الخضوع له والتسليم لأوامره دن قيد أو شرط .

ولم يكن أمام المماليك سوى توحيد صفوفهم وتعبئة الرأى العام فى مصر للجهاد. وقام قطز - الذى تولى السلطنة لمواجهة هذا الخطر الداهم - بتعليق رءوس سفراء المغول على باب زويلة ليلهب مشاعر العامة والخاصة على السواء للجهاد دفاعا عن الدين والوطن . وأرسل بيبرس البندقدارى على رأس فرقة استطلاعية كسرت فرقة مغولية مماثلة فى غزة . والتقى الجمعان فى عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠م حيث منى المغول بهزيمة ساحقة قتل فيها كتبغا وبقية أمراء المغول الذين كانوا معه ، وتعقب المماليك أعداءهم فى حمص وتعقبهم العامة فى دمشق وفى شمال الشام حتى نهر الفرات حتى أفنوا كثيرا منهم وأسروا الباقى[٢٧] .

وإذا كان هناك شبه إجماع على أن موقعة عين جالوت تعتبر من المعارك الحاسمة فى العصور الوسطى لنتائجها على الصراع بين المسلمين والمغول وبين المسلمين - والصليبيين فى النصف الثانى للقرن الثالث عشر الميلادى [٢٨]، فإنها تعد كذلك مرحلة تحول هامة فى سياسة هولاكو وخلفائه - الذين أسسوا إيلخانية فارس بعد هذه الموقعة مباشرة - نحو الصليبيين . فبدلا من نظرة هولاكو للأخيرين قبيل هذه الموقعة على أنهم مجرد تابعين يتوقع انضمامهم لدولته ، بدأ ينظر إليهم على أنهم خلفاء ضد أكبر قوة تمخضت عنها هذه الموقعة وهى سلطنة المماليك.

رد فعل الصليبيين تجاه الصدام بين المغول والمماليك

كان تقدم قوات المماليك - بقيادة قطز - لملاقاة المغول بالشام قد قوبل بترحيب من القوى الصليبية فى عكا لأنه سيخلصهم من الخطر المغولى فى الوقت الذى لن يكلفهم شيئا خاصة وأن أحدا من الغرب الأوربى لم يتحرك لنجدتهم (٢٩).

ولما كانت قوات المماليك مضطرة إلى عبور أراضى فى حوزة الصليبيين ، فان قطز قد أرسل رسلا من معسكره فى غزة (قبيل موقعة عين جالوت) لقادة عكا لطلب السماح له بالعبور ، وطبقا للمصادر الصليبية فانه عرض عليهم إمداده بالمؤن وطلب منهم المساعدة العسكرية .وعندما اجتمع قادة المدينة الذين يمثلون مختلف الهيئات العسكرية والدينية والتجارية فانهم كانوا يميلون لتلبية كل طلبات المماليك ، ولكن مقدم فرسان التيوتون Anno Sangerhausen عارض هذا القرار بأنه «ليس من الحكمة أن تضيع حياة المسيحيين فى نصر قد يشجع المصريين على أن يستديروا بعده ضد الفرنجة » . ولهذا فان المجتمعين اقتنعوا برأيه ورفضوا مساعدة المماليك عسكريا ، ولكنهم أعطوهم تصريحا بالمرور من أراضيهم وشراء المؤن من أسواقهم (٣٠).

. ولم يكن هناك أى ندم فى عكا عند سماع انتصار المصريين على كتبغا . بل ويرى المؤرخ بيتر جاكسون - اعتمادا على مصادر أوربية معاصرة للأحداث - أن الغرب الأوربى قد قابل هذا الانتصار على أن المصريين كانوا يحاربون معركة الفرنجة أيضا . وهذا كله فى ضوء أن أحدا لم يكن يتوقع مقتل قطز ومجيئ بيبرس بما فعله مع الصليبيين بعد ذلك (٣١).

وأراد هولاكو أن يرسل جنوده مرة ثانية إلى الشام لينتقم لمقتل قائده كتبغا وجنوده فى عين جالوت ، ولكن الظروف الداخلية فى الامبراطورية المغولية لم تكن تسمح له بذلك بسبب وفاة مانجو خان وظهور الخلافات بين أخوى هولاكو : أريق بوقا وقوبيلاى فى النزاع على العرش المغولى وكذلك الخلافات بين هولاكو - باعتباره حاكما لإيلخانية فارس التى تضم كل المناطق غربى نهر جيحون وبين بركه خان حاكم مغول القفجاق أو مغول القبيلة الذهبية فى جنوب روسيا (٣٢).

وكان الأمر الأكثر تأثيرا على السياسة الخارجية لهولاكو وخلفائه هو صراعهم الطويل والمرير مع أبناء عمومتهم ايلخانات مغول القبيلة الذهبية فى جنوب روسيا ، ويتفق المؤرخون على أن باتوخان - أكبر أحفاد جنكيز خان والقائد المغولى الذى فتح روسيا وشرق أوروبا

للسيطرة المغولية والذى أسس سراى Sarai وجعلها عاصمة لمملكته فى الحوض الأدنى لنهر الفولجا - هو صاحب القول الفصل فى اختيار مانجو بن تولوى خاقانًا على المغول عام ١٢٥١م(٣٣). ولكن بوفاة باتو عام ١٢٥٦ م ووفاة مانجوخان عام ١٢٥٩ م انتهت العلاقات الودية بين أبناء العمومة . ومن ثم بدأت الخلافات تطفو على السطح بين بركة خان أخو باتوخان وخليفته من ناحية وبين هولاكو خان عام ١٢٦٠ م من ناحية أخرى حتى أنغمس الطرفان وخلفاؤهما فى حروب بدأت منذ ذلك الحين .

وهناك أسباب كثيرة لهذه الخلافات نجملها فيما يلى : أولا أن بركه خان قد مد يد العون لأريق بوقا ، واعترف به خاقانًا على المغول وهو ما أغضب كلا من قوبيلاى وهولاكو ومعظم أحفاد جنكيز خان (٣٤). ثانيا : أن قوبيلاى بعد وتوليته خاقانا أصدر فرمانا يقضى باقرار شقيقه هولاكو على البلاد " من ضفاف نهر جيحون حتى ديار مصر والشام، (٣٥) وإدماج بلاد آران وأذربيجان داخل أملاك هولاكو» وهذا الأمر لم يعجب بركه خان باعتبار أن أذربيجان بمراعيها من إرث والد الأخير - جوشى - حسب وصية جنكيز خان (٣٦). ثالثا : أن بركه خان كان قد اعتنق الإسلام هو وقادته ومعظم جيشه ، وساءه ما فعله هولاكو ببغداد عام ١٢٥٨ م. وينقل رشيد الدين عن بركه خان قوله عن غريمه " أنه دمر جميع مدن المسلمين وقضى على أسر ملوك الإسلام جميعهم ، ولم يميز بين الصديق والعدو ، وأعدم الخليفة دون مشورة كبار الأسرة (المغولية) ، فلو أمدنى الله تعالى لطالبته بدم الأبرياء» (٣٧). وأهم من هذا وذاك أن هولاكو قد منع عن بركه خان نصيبه المعتاد - حسب تقاليد المغول - من مغانم الحروب فى وسط آسيا وغربها . فأرسل الأخير اثنين من أقاربه إلى هولاكو برسالة ضمنها ما جرت به العادة من إعطاء بيت باتوخان نصيبهم من فتوح البلاد ومغانم الحرب ، ولكن هولاكو قتلهما وقال عن بركه " ولو أنه كبير الأسرة (أى أسرة جنكيز خان ، وسيدها إلا أنه لايرعى الحياء والخجل ، ويخاطبنى بتهديد وعنف وإنى لن أحابيه بعد هذا » (٣٨).

ولهذه الأسباب فان بركه خان قد أرسل قائده بوقا على رأس ثلاثين ألفا من قواته ومن أقارب رسوليه اللذين قتلهما هولاكو للمطالبة بدمائهما . والتقى الجمعان فى ممرات دربند ، ومنيت جيوش هولاكو فى النهاية بهزيمة كاسحة أعقبتها استعدادات ومناوشات وحروب بين الطرفين استمرت حتى انهيار حكم دولة مغول فارس (٣٩). وكان لها أثرها البعيد على علاقة هولاكو وخلفائه ببقية القوى السياسية فى منطقة الشرق الأدنى .

ولقد كانت للحروب بين مغول فارس ومغول روسيا (١٢٦١-١٢٦٣م) نتائج مباشرة وغير مباشرة يهمنا منها أولا انشغال الطرفين بصراعهما عن التوسع غربا على حساب جيرانهم الذين سبق لهما أن أخضعوهم من قبل . فمن ناحية هولاكو لم يستطع الثأر لهزيمة قواته فى عين جالوت أو إعادة إخضاع بلاد الشام لحكمه . واكتفى فقط بارسال غارات صغيرة مؤقتة لاختبار قوة المماليك أو للزود عن حلفائه الأرمن ، وذلك لانشغاله باعداد جيوشه ومعداته فى أذربيجان لملاقاة قوات بركه خان والانتقام من هزيمته منه . وبالنسبة لبركه خان فان قواته كانت فى عام ١٢٥٩م قد قامت بغزو لبولندا وهددت المجر وألمانيا وأرسل بركه إنذارا للملك فرنسا بالتسليم والخضوع له [٤٠]. ولكن تفجر الصراع مع مغول فارس أرغم بركه خان على سحب قواته من شرق أوروبا وتحويلها إلى ميدان الصراع الجديد تجاه بحر قزوين .

ومن الناحية الأخرى فان كلا من هولاكو وبركه خان بدأ البحث عن حليف قوى ضد منافسه وكانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ الإمبراطورية المغولية التى يستعان فيها بقوى أجنبية ضد قوى مغولية ، وما تبع ذلك من طلب علاقات متوازنة مع الحلفاء (وليس باعتبارهم أتباعا لهم) ، والتخلى عن نغمة السيادة العالمية والقداسة التى كانوا يدعون أن السماء أعطتها لجنكيز خان وخلفائه فى إخضاع البشر لحكمهم . وكانت الإمارات الصليبية فى بلاد الشام هى الحليف المأمول لمغول فارس باعتبارهم العدو التقليدى للمماليك الذين هزموا قوات هولاكو والذين توثقت علاقتهم بحكام مغول روسيا .

ومن اليسير معرفة عوامل التقارب بين بركه خان وسلاطين المماليك بدءًا من عام ١٢٦١ وأقواها العداء المشترك لهولاكو ورابطة الإسلام التى كانت تجمع الطرفين[٤١] وفضلا عن ذلك كان الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧م) ومعظم قادة المماليك من منطقة القفجاق التى كان يسيطر عليها وقتذاك بركه خان ، ومن ثم فان الحنين للموطن الأصلى قد شجعهم على التقارب مع الأخير . كما أن هذه المنطقة ظلت المورد الأساسى للرقيق - الذين كانوا عماد العسكرية بالنسبة لسلطنة المماليك - وكان يهم الطرفين استمرار فتح طرق التجارة بينهما[٤٢] عن طريق القسطنطينية - بعد سقوطها فى يد آل باليو لوجس عام ١٢٦١م .

وقد وصلت أنباء الخلافات بين هولاكو وبركه للقاهرة فى ذى الحجة عام ٦٦٠هـ / نوفمبر ١٢٦٢ بوصول مائتين من القوات التابعة لمغول روسيا والتى كان بركه خان قد أرسلها لإمرة هولاكو لمساعدته فى فتح قلاع الاسماعيلية . وعندما تفجرت الصراعات بينهما فان بركه خان

أرسل لقواته بالحضور إليه وإن لم يستطيعوا فعليهم الذهاب «إلى عسكر الديار المصرية» وقد قوبل هؤلاء «التتار المستأمنين» بحفاوة بالغة من المماليك . ويروى ابن عبد الظاهر «أن السلطان بيبرس نظر فى مصلحة عامة للإسلام ، وهى إنفاذ رسل إلى الملك بركه .. وكتب له كتابا فيه شئ عظيم من الاستمالة والحث على الجهاد ... والإغراء بهلاوون (هولاكو) خذله الله! وتهوين أمره وتقبيح الغفلة عنه .. »[٤٣].

وهكذا تلقف المماليك هذه المبادرة من بركه خان وردوا عليها بارسال سفارة لتشجيعه على الجهاد ضد هولاكو وما تبع ذلك من تبادل للسفارات والخطابات بين الدولتين . وتوطدت هذه العلاقة بزواج بيبرس وقلاوون الألفى وغيرهما من قادة المماليك من بيت بركه خان ورعاياه . وكانت هذه العلاقات على قدم المساواة بين المماليك - باعتبارهم أكبر قوة إسلامية فى المنطقة - وبين مغول روسيا . وكان التحالف مع الأخيرين جزءا من سياسة المماليك لمواجهة مغول فارس منذ ذلك الحين [٤٤].

الاتصالات بين مغول فارس واللاتين فى عهد هولاكو

إذا كانت هناك خلافات فى وجهات النظر بين العديد من المؤرخين المحدثين حول التوقيت الدقيق لبداية تبادل السفارات بين اللاتين فى عكا وهولاكو من ناحية وبين هولاكو والغرب الأوربى من ناحية أخرى ، فان هناك شبه اجماع على أمرين : أولهما أن هولاكو بدأ يتصل باللاتين بعد هزيمة قواته فى موقعة عين جالوت ، وبعد دخوله فى صراع مسلح مع مغول روسيا عام ١٢٦١م ، وذلك لأنه كان بحاجة فعلية للتعاون معهم . ثانيا : أن الغرب الأوربى - الذى سبق له إرسال عدة سفارات للمغول (١٢٤٥-١٢٥٤م) باءت جميعها بالفشل ، والذى وصلته عدة نداءات للنجدة من الصليبيين فى عكا إبان غزو هولاكو لبلاد الشام ، فى نفس الوقت تقريبا الذى كانت قوات مغولية (من فرع مغول القفجاق) تغزو شرق أوروبا - لم يثق فى مراسلات هولاكو ولم يعطها آذانا صاغية[٤٥] هذا إذا افترضنا أن الغرب الأوربى كان لديه القوة والقيادة الموحدة التى تجعله يرحب بالتحالف مع مغول فارس سواء بعمليات حربية ضد مغول روسيا فى شمال أوربا أو بعمليات عسكرية مباشرة ضد المماليك أو عن طريق الكيانات الصليبية فى شرق البحر المتوسط .

ويتضح من خلال التقرير الذى قرأه مبعوثوا أبغاخان بن هولاكو (١٢٦٥-١٢٨٢م) أمام مجمع ليون الرابع عشر عام ١٢٧٤م ، أنه أثناء وجود هولاكو فى بلاد الشام عام ١٢٦٠م ،

أرسل بطريرك مملكة بين المقدس فى عكا سفارة استطلاعية للقائد المغولى لمعرفة نواياه تجاه الصليبيين فى الشام . وكان على رأس هذه السفارة الراهب الإنجليزى الدومنيكانى ديفيد الأشبى David of Ashby «وأنه بعد أن جاء هؤلاء المبعوثون إلى الملك العظيم (هولاكو) حدثوه كثيرا عن عقيدة الدين المسيحى وعن قداسة الكرسى الرسولى (البابوية) وعن عظمة الملوك اللاتين الذين يدعون بالفرنج » (٤٦).

ويستنتج من تلك الوثيقة ومن تطور الأحداث بعد ذلك أن هولاكو قد احتجز «ديفيد الأشبى» لديه لاستخدامه فى بلاطه ، حيث مارس الأخير مهامه التبشيرية فى ايلخانية فارس حتى أرسله ابغا بعد ذلك على رأس بعثه مغولية للغرب الأوربى فى عام ١٢٧٤م (٤٧).

وفى عام ١٢٦٢م أرسل هولاكو خان سفارة من قبله تحمل رسائل للبابا وللملوك الغرب الأوربى(٤٨). ولكن ما نفريد هوهنشتاوفن - ملك صقلية الذى كان فى المرحلة الحاسمة لحروبه مع البابوية وحليفها شارل الأنجوى فى ذلك الوقت - قبض على أفراد السفارة المغولية وصادر الوثائق التى كانت تحملها (٤٩)، ربما لكراهيته للمرسل إليهم وربما لأنه وجد فيها عروضا بتحالف مغولى أوربى ضد أصدقائه المسلمين . وكان جون الهنغارى John the Hungarian ضمن أفراد هذه السفارة ويعتقد أنه غافل رجال مانفريد وهرب منهم واستطاع الوصول إلى البابا أوربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤م) وحكى له مقتطفيات من الخطابات المفقودة وهدف السفارة المغولية (٥٠).

ورغم أن أحد الباحثين وهو باول ميفارت Paul Meyvaert عثر حديثا على خطاب هولاكو المرسل مع هذه السفارة إلى الملك الفرنسى لويس التاسع ، إلا أنه ليس هناك دليل واحد على أن الأخير قد تسلم هذه الرسالة ، والمهم أن هولاكو يكرر فيها نفس النغمة القديمة عن الرسالة السماوية التى تلقاها جنكيز خان بالسيادة العالمية ، وأنه يجب على كل أمراء البسيطة بما فيهم لويس التاسع نفسه الخضوع لإمرة المغول . ويعدد هولاكو - من قبيل الفخر - الولايات والأقاليم التى أخضعها لسيطرته بحد السيف . ويطلب فى نهاية رسالته من الملك الفرنسى «محاولة اقناع القوات اللاتينية (فى سوريا) بأن تستعد على طول السواحل وأن تستخدم السفن الحربية (ضد المماليك) حتى إذا ما هاجم المغول عدوهم المشترك فان (المسلمين) لايجدون مكانا يتراجعون فيه (أو يهربون إليه) وبذلك يمكن تدميرهم» ولم ينس هولاكو أن يحذر الملك الفرنسى بأنه إذا لم تأته هذه المساعدة فان مصيرة يوما ما سيكون مثل

هؤلاء (الكفرة) العصاه . وفى محاولة من الايلخان المغولى لاستمالة الملك الفرنسى لقبول اقتراحه فانه يذكر له حبه للمسيحين فى ايلخانيته وإعفائه للكنائس ورجال الدين من الضرائب . وأنه قد أمر أن مدينة بيت المقدس - بعد استردادها من المسلمين - سوف تعطى للبابوية عن طريق جون الهنغارى حامل هذه الرسالة[٥١].

ونظرا لضياع الخطابات الأخرى التى أرسلها هولاكو للقوى الكبرى فى الغرب الأوروبى فلانستطيع القول بأن هولاكو قد خص لويس التاسع بهذه الرسالة ، وعموما كان هولاكو يعلم تماما - كما أورد فى رسالته - بسفارات الملك الفرنسى للمغول من قبل ، وأن لويس التاسع كان أخر ملك أوروبى فى الشرق العربى (حيث رحل منه - عام ١٢٥٤) . ومن ثم فكلمته مؤثرة على اللاتين فى الشرق والغرب على حد سواء .

ومهما يكن من أمر فقد كان لوصول جون الهنغارى للمقر البابوى وإحاطته علما بمحتويات الرسائل المفقودة تأثيره على قيام البابا أوربان الرابع بكتابة رسالة إلى هولاكو فى ذلك العام (١٢٦٢م) .

وفى هذه الرسالة - غير المحددة التاريخ ولا اسم الراسل -[٥٢] يبدأ البابا بابداء سعادته لما سمعه من جون الهنغارى عن رغبة هولاكو فى اعتناق الدين المسيحى على المذهب الكاثوليكى وأنه فى حاجة لشخص ذى حيثية لتعميده . ويبارك أوربان الرابع هذه الخطوة من هولاكو ويبلغه أنه وكل رعاياه الذين سيقتفون أثره سوف ينالون المثوبة فى الآخرة إذا ما نالوا المعمودية . ويذكره كذلك بقصر الحياة وقرب دنو الأجل ويطلب منه سرعة التعميد . ويبدأ البابا يلقى الطعم لهولاكو بقوله أنه لو عمد فعلا فانه سيرى «كيف ستزيد قوتك فى حربك مع المسلمين لو أن الجنود المسيحيين يساعدونك علانية وبكل قوتهم بفضل معونه الرب ، ومن ثم فانك ستزيد قوتك فى الدنيا وبالتأكيد سوف تضمن المجد الخالد فى الآخرة ... » ويمضى البابا بأنه نظراً لأن جون الهنغارى لم يقدم الأدلة الدامغة على حقيقة نية هولاكو بالتنصر والتحالف مع الغرب نظرا لمصادرة ما نفرد للخطابات التى معه فانه (أى أوربان الرابع) قد أرسل لبطريرك مملكة بيت المقدس للتحرى عن هذا الأمر . ولهذا فان البابا يحث الخان المغولى على إبلاغ رغباته للبطريرك باعتباره ممثلا للبابا فى الشرق اللاتينى وحينئذ فان الأخير سينظر فى الإجراءات الضرورية لهذا الأمر [٥٣].

والمهم أن خطاب البابا وصل إلى هولاكو وهو فى أخريات حياته ، وكانت استعداداته للثأر من هزيمته من مغول روسيا ومشاكله الداخلية سببا فى عدم مرده على رسالة البابا . ثم مات هولاكو فى ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م . والأمر المؤكد أنه مات بوذيا بقول رشيد الدين أنه فى آخر حياته «بنى معابد للأصنام فى مدينة خوى » (٥٤). ومن ثم فان خطاباته السابقة للغرب الأوربى عن نيته التنصر على المذهب الكاثوليكى لم تكن إلا طعما للغرب الأوربى الذى كان يحلم بتنصر قادة المغول لجرهم للتحالف معه ضد المسلمين : العدو المشترك للطرفين.

فترة أبغا خان (١٢٦٥-١٢٨٢م)

تعتبر فترة حكم إبغا خان فترة هامة فى تاريخ العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوربى وذلك لازدياد حاجة الطرفين للتعاون العسكرى ضد المسلمين عن ذى قبل . فتفجر النزاع بين ابغا وبين مغول التركستان أو الجغطائيين بدءا من عام ١٢٦٨ ، وانشغال جزء هام من قواته فى حروب على الحدود الشرقية فى الوقت الذى لايزال النزاع مستمرا على حدوده الشمالية مع روسيا جعل الإيلخان مغولى فى فارس يرسل العديد من السفارات للبابوية وملوك غرب أوروبا طلبا للتحالف العسكرى معهم ضد المماليك ليأمن شر أعدائه على حدوده الغربية .

ولقد عاصر ذلك الايلخان الظاهر بيبرس الذى كان رجلا سياسيا حاذقا بعيد النظر فى التعامل مع أعدائه من الصليبيين والأرمن والمغول . فبعد سلسلة إصلاحات داخلية وعلاقات دبلوماسية لتطويق أعدائه . استطاع بيبرس أن يقود أكبر قوة عسكرية ضاربة فى المنطقة والانفراد بخصومه واحدا بعد الآخر ، وبعد تحطيم أو تحييد أحد خصومه يستدير للخصم الآخر ولهذا كان الصليبيون فى الشرق بحاجة ماسة أيضا للتحالف مع مغول فارس فى ضوء انشغال البابوية بمشاكل سياسية فى جنوب أوروبا وكذلك انشغال بقية قادة الغرب الأوروبى بمشاكلهم الاقليمية عن نجدة الصليبيين ضد المماليك .

فقد تمكنت قوات المماليك فى عامى ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ من الاستيلاء على قيساريه وحيفا وأرسوف وصفد من أصحابها الصليبيين بالإضافة إلى بعض القلاع الأخرى لفرسان الداوية . وعقد بيبرس معاهدات مع القوى الصليبية الأخرى يلزمهم فيها بعدم التحرش بالمسلمين أو مساعدة أحد ضدهم (٥٥). وكان ضروريا للسلطان المملوكى أن يقوم بتحييد هذه القوى الصليبية فى صراعه المرتقب مع أهم أعدائه - بعد المغول - وهم الأرمن وإمارة انطاكية الصليبية اللذين تحالفا مع المغول ضد المسلمين عام ١٢٦٠م .

ومن ثم فان بيبرس أرسل تجريدة عسكرية للاغارة على أملاك بوهيموند السادس فى طرابلس لشغل قواته عن مد يد العون لصهره وحليفه ملك أرمينيا الصغرى التى تعرضت بلاده فى أغسطس عام ١٢٦٦- ذى القعدة ٦٦٤هـ لهجوم كاسح من قوات المماليك التى انتهزت فرصة انشغال مغول فارس على حدودهم الشرقية . واستطاعت قوات المماليك هزيمة الأرمن وتدمير قلاعهم وحصونهم وقتل أحد أبناء هيثوم الأول وأسر ابن ثان له (ليفون) مع عدد كبير من الأسرى والغنائم[٥٦] . وكانت هذه ضربة قاصمة لملك أرمينيا الصغرى تعلم منها أن المغول لايعتمد عليهم وأنهم لايستطيعون حماية مملكته من المماليك .

وأسرع كل من هيثوم الأول وأبغاخان بارسال السفارات للغرب الأوربى لطلب المساعدة العسكرية ضد المماليك وذلك فى نهاية عام ١٢٦٦م. ونظرا لعدم العثور على خطاب أبغاخان للبابا كليمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٨٢م) فيمكن من خلال الرد الذى أرسله البابا عام ١٢٦٧ م على هذه الرسالة بالإضافة إلى خطاب أبغا مع سفارته الثانية فى العام التالى لسنة ١٢٦٨م للغرب الأوربى استنتاج أهم النقاط الواردة فى الخطاب الأول لأبغا .

إذ يتضمن هذاالخطاب تهنئة للبابوية على انتصارها فى موقعة Benevento (٢٢ فبراير ١٢٦٦م) على ما نفريد بن فردريك الثانى ويطلب أبغا كذلك من البابا إرسال جيوش الغرب الأوروبى بالتعاون مع قوات (صهره) ميخائيل الثامن باليولوجس (١٢٦١-١٢٨٢م) للشام لمحاصرة قوات المسلمين (الكفرة !) بين المغول شرقا والقوات الأوربية غربا ، ويستفسر أبغا خان من البابا عن الطريق الذى ستسير فيه هذه القوات وعن موعد وصولها إلى الشرق .

ولما كان هذا الخطاب مكتوبا باللغة المغولية ولم يستطع أحد فى روما ترجمته ، فان البابا اعتمد على مبعوث الايلخان المغولى فى فهم محتواه . ويبدو أن هذا المبعوث قد أفهم البابا بأن الايلخان المغولى قد اعتنق الديانة المسيحية فعلا وذلك لكسب الغرب الأوربى لاقتراح أبغا خان فى مشروع التحالف العسكرى[٥٧].

ولهذا فان كليمنت الرابع فى خطابه عام ١٢٦٧م من مدينة Viterbo الايطالية والذى أرسله مع مبعوثه Jaymo Alarich يبدى أسفه لأبغا خان أن أحدا فى بلاطه لم يستطع أن يقرأ خطابه لأنه غير مكتوب باللغة اللاتينية . ويبدأ البابا رسالته بشكر الرب أن أبغا قد اعتنق الدين المسيحى ، ويشكر الأخير على تهنئته له بالانتصار على ما نفريد هو هنشتاوفن، ويستمر البابا فى قوله أن ملوك فرنسا ونافار وكثيرا من البارونات وعددا لايحصى من الجنود

يستعدون للذهاب للأراضى المقدسة ليهاجموا أعداء الدين . ويقول لأبغا « وأنتم قد كتبتم أنكم تنوون الانضمام لصهرك (الامبراطور البيزنطى) لمساعدة اللاتين (فى الشرق) ، ونحن سوف نفعل ما فى وسعنا لمساعدتك ولكننا لانستطيع القول- حتى نستفسر من هؤلاء أنفسهم أى الطرق سوف يسير فيها شعبنا (للأراضى المقدسه) ... » وكتب البابا لأبغا أنه سيرسل لهؤلاء الملوك والأمراء برغبته حتى يعدلوا من خططهم ويطوروها وأنه سوف يخطره (أى أبغا) فى موعد لاحق عن طريق مبعوث موثوق فيه بما طلبه . وطلب كليمنت الرابع من الايلخان المغولى أن يستمر فى خططه ومشروعه هذا وأن يعتقد فى الرب مانح النصر والحياه «والذى بيده الملكوت وقلوب الملوك ، ويرفع منهم من يشاء ويذل من يشاء بغير حساب»[٥٨].

وأرسل كليمنت الرابع خطابا لبطريرك بيت المقدس فى عكا لمساعدة ملك أرمينيا الصغرى وأمير أنطاكيه حينما يتقدمان بقواتهما مع قوات المغول ضد المماليك . وأرسل أيضا وعدا بالمساعدة لهيثوم الأول من قوات لويس التاسع عندما تصل للشرق . وأرسل البابا كذلك للإمبراطور البيزنطى يحثه على العودة لحظيرة كنيسة روما والمشاركة مع صهره - الايلخان المغولى - فى مساعدة الصليبيين ، وأخيرا فانه أرسل لجيمى الأول ملك أراجون ولويس التاسع لتشجيعهما على سرعة إعداد قواتهما [٥٩].

والمهم أنه بوصول مبعوث البابا لأبغا خان قام الأخير على الفور بارسال سفارة للغرب الأوروبى بخطاب مؤرخ من أذربيجان فى ٣ أغسطس عام ١٢٦٨م ، وذلك لأن موقف حلفاء مغول فارس فى الشرق الأدنى كان قد بلغ - حينئذ - درجة من السوء لم تحدث من قبل.

فقبل ذلك بعامين كانت قوات المماليك قد حطمت أرمينيا الصغرى وقتلت ابن ملكها وأسرت ابنا آخر فى إطار خطة السلطان الظاهر بيبرس لتحطيم هذه المملكة أو إخراجها من صراعه مع إمارة أنطاكية . وفى مايو عام ١٢٦٨م/ رمضان ٦٦٦ هـ قاد بيبرس جيشا ضخما وحاصر أنطاكية فجأة من عدة جهات . ولم يتمكن أحد من نجدتها ، سواء من الأرمن أو المغول أو الصليبيين ، وكان أميرها بوهيموند السادس فى طرابلس ولم يستطع شيئا لإنقاذ امارته ، وطبقا لرواية ابن عبد الظاهر كان بانطاكية «مائة ألف نفر [٦٠]، وجميعهم إما قتل أو أسر . وحصل المماليك على غنائم لاتحصى حتى «طال الوزن ، فقسمت النقود بالطاسات... ولم يبق غلام (مسلم) إلا له غلام (صليبى) ، وبيع الصبى باثنى عشر درهما ، والجارية بخمسة دراهم ... وركب (السلطان) إلى قلعة أنطاكية وأحرقها وأخذ الناس حديد أبوابها ورصاص كنائسها »[٦١].

ومما يدل على حنكة بيبرس الدبلوماسية تأجيله تسليم ليفون بن هيثوم الأول - لوالده - رغم الثمن الفادح الذى قبله الأرمن نظير إطلاق سراحه - إلى ما بعد الانتهاء من أمر الاستيلاء على أنطاكية بشهر واحد فقط حتى يضمن تماما عدم تدخل قوات ملك الأرمن وحلفائه المغول لمساعدة صهره بوهيموند السادس . وبعد أن تحقق للسلطان المملوكى ما أراد ، أطلق سراح ليفون الذى أخذه والده لابغا خان كى يوافق على توليته عرش أرمينيا الصغرى. واعتزل هيثوم بقية حياته فى أحد الأديرة (٦٢). وهكذا وجه المماليك ضربة قاصمة للتحالف المغولى الأرمنى الصليبى وذلك بتحطيم أرمينيا الصغرى والاستيلاء على أنطاكية ولم يعد لبقية الصليبيين أية حدود مشتركة مع الأرمن أو مع مغول فارس .

ولهذا فان أبغاخان كان يتوقع استجابة فورية من الغرب الأوروبى للتحالف معه ضد المماليك بعد سقوط أنطاكية . ففى خطابه الذى أرسله فى أغسطس عام ١٢٦٨م - يدخل أبغاخان فى تفاصيل مشروع التحالف المشترك ويبلغ البابا أنه سيرسل أخاه Ejei على رأس قوة كبيرة إلى بلاد الشام وأن جيش البابا (الذى أخبره المبعوث البابوى أن ملك فرنسا سيتولى قيادته) وجيش ملك أراجون سوف يهاجمان المماليك من الناحية الأخرى لحصار وتدمير عدوهما المشترك بينهما . ولم ينس الايلخان المغولى من قبيل تحفيز الغرب الأوربى للاستجابة له أن يشير لانتصاراته على أعدائه فى الداخل والخارج وحبه للمسيحيين وحمايته لكنائسهم (٦٣).

وعندما وصلت سفارة أبغا بصحبة المبعوث البابوى إلى روما عام ١٢٦٩م وجدت أن كليمنت الرابع قد مات . ومن ثم ذهبت إلى جيمى الأول ملك أراجون وبقية ملوك غرب أوربا. وكانت أخبار سقوط أنطاكية قد وصلت للغرب ، وكانت استعدادات لويس التاسع وعدد من أمراء الغرب لحملة صليبية جديدة لنجدة الصليبيين فى الشرق فى مراحلها النهائية ، وإزاء الأنباء التى بعثها أبغا بوجود جيشه على أهبة الاستعداد لغزو سوريا فور ظهور الجيوش الأوربية على سواحلها ، فان جيمى الأول قاد أسطوله للشرق ، ولكن ريحا صرصرا عاتية حطمت معظم سفنه أمام السواحل الفرنسية ورجع لبلاده ، ولكن ولديه أكملا الرحلة إلى عكا مع قوة صغيرة حيث أعتقدا أنه يمكنهما بقوتهم الصغيرة هزيمة المماليك ، ولكن نبلاء عكا نصحوهما بالعدول عن استخدام القوة ، وبعد غارة على قرية مسلمة رجعا من حيث أتيا(٦٤).

ولكن الحملة الكبرى التى كانت تضم عددا كبيرا من أمراء وبارونات الغرب الأوربى وقواته تحت قيادة لويس التاسع انحرفت إلى تونس ضد الحفصيين الذين لم يكن بينهم وبين غرب أوروبا أية علاقات عدائية . والمهم أن الملك الفرنسى ومعظم قواته ماتوا بالطاعون بعد نزلوهم لقرطاجة ، ومن ثم رجع أولاده بجثمانه وبفلول جيوشهم من حيث أتوا بعد أن حقق شقيقه شارل الأنجوى أهدافه مع الحفصيين (٦٥).

وكان الأمير إدوارد بن الملك هنرى الثالث ملك انجلترا قد قاد نحو ألفًا من قواته للحاق بحملة لويس التاسع ولكنه وصل قرطاج فى ٩ نوفمبر ١٢٧٠م أى بعد وفاة الملك الفرنسى بشهر واحد . ولم يعد إدوارد لبلاده مثل بقية قوات حملة لويس التاسع باعتبار أنه كان عليه الوفاء بنذر عليه وعلى والده سبق أن قطعاه للبابوية بحمل الصليب ومساعدة الصليبيين فى الشرق (٦٦)، وكذلك لتفويت الفرصة على بارونات انجلترا باعادة التمرد ضد الملكية ، ووصل إدوارد بحملته الصغيرة إلى عكا فى ٩ مايو عام ١٢٧١م وأنعش آمال الصليبيين فى الشرق وعلى الفور أرسل إدوارد ثلاثة من رفاقه إلى ابغاخان لطلب إرسال جيوشه وهو الوعد الذى سبق أن أبلغه للأوربيين فور نزولهم للشرق (٦٧).

ونظرا لانشغال قوات أبغاخان على الحدود الشرقية آنذاك فان الأخير أبلغ الأمير الإنجليزى فى ٤ سبتمبر ١٢٧١م بأنه أرسل أوامره لقائده صمغار Samagar فى أناضوليا لغزو بلاد الشام ، واقترح على ادوارد الترتيب مع هذا القائد لمواجهة المماليك . وقاد صمغار قوة مغولية من عشرة آلاف فارس واحتلت حلب وتقدمت قواته فى البقاع حتى وصلت إلى ٢٠٠ ميل من مدينة عكا . ولكن القوة المغولية انسحبت إلى شرق الفرات بمجرد وصول القوات المملوكية بقيادة بيبرس إلى تلك المنطقة . وهذه الغارة على شمال بلاد الشام كانت هى كل ما فعله أبغا لمساعدة حليفه الانجليزى . أما قوة ادوارد فلم تفعل أكثر من غارة مماثلة على قلعة صغيرة (٦٨).

ويعلق المؤرخ الانجليزى Powicke على ذلك بقوله «إن حملة ادوارد التى لم تكن قادرة على انتزاع قلعة صغيرة ، لم تكن مؤهلة بأى حال لاسترداد مدينة بيت المقدس ولو أن أبغا كان حرا من خطر الجغطائيين (مغول التركستان) وانضم لحملة ادوارد بكل قواته ، فإن اللاتين كانوا من الضعف والانقسام بالدرجة التى تجعلهم لايستفيدون بهذا التحالف بل على الأكثر سيكونون خاضعين للحكم المغولى » (٦٩).

ولا عجب فى ضوء ما تقدم أن شجع الأمير الإنجليزى مبادرة شارل الأنجوى - الملك الإسمى لملكة بيت المقدس الصليبية لأمراء عكا بعقد هدنة مع المماليك مدتها عشرة أعوام وعشرة شهور للمحافظة على البقية الباقية من أملاك الصليبيين . وبعد ذلك أسرعت بقية المدن والقلاع الصليبية بطلب هدنة مماثلة من الظاهر بيبرس ، وفى ٢٤سبتمبر ١٢٧١م غادر الأمير الانجليزى وقواته سواحل الشام عائدا لبلاده حيث تولى ملكية انجلترا حتى عام ١٣٠٨ لوفاة والده أثناء وجوده بالشرق (٧٠). وهكذا لم ينجح هذا التحالف فى أول تجربه عمليه له .

ولكن زوال خطر حملة ادوارد وانتهاء حملة لويس التاسع بوفاته أطلق يد المماليك فى المنطقة ، فقام بيبرس بهجوم على ممتلكات أبغا شرقى نهر الفرات . وعبر السلطان المملوكى هذا النهر سباحة بنفسه مع قواده للإغارة والسلب والنهب لتأديب أبغا على حملته التى أرسلها إلى بلاد الشام فترة وجود ادوارد بها ، ورفض عروض الأخير للصلح التى أرسلها عن طريق ملك أرمينيا الصغرى تارة وحكام سلاجقة الروم تارة أخرى . ومن الناحية الأخرى ، لم تتوقف قواته عن الإغارة على القلاع الصليبية بها وأرسل سفنه لغزو قبرص نفسها عام ١٢٧١ ولكنها تحطمت قرب الجزيرة وأسرت قواته هناك (٧١).

ولم يكن الغرب الأوربى غافلا عن حقيقة أنه ما لم ترسل نجدات سريعة للصليبيين فى الشرق فان البقية الباقية سوف تنهار أمام المماليك ، خاصة وأن البابا الجديد جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦م) كان بطريركا لمملكة بيت المقدس فى عكا من قبل وكان عضوا فى حملة الأمير ادوارد . ولهذا دعا هذا البابا إلى عقد مجمع مسكونى عالمى فى مدينة ليون الفرنسية فى مايو عام ١٢٧٤ ليبحث على رأس موضوعاته وسائل تقوية الكيان الصليبى وإرسال حملة صليبية عاجلة لإنقاذه .

وقد أرسل أبغا خان سفارة لحضور هذا المجمع مكونه من ستة عشر عضوا من بينهم عدد من الرهبان اللاتين والمترجمين . وقد قدم البابا سفراء أبغا خان للحاضرين فى نهاية الجلسة الرابعة لأعمال المجمع فى يوم ٧ يولية (١٢٧٤) حيث تليت رسالة الإيلخان المغولى باللغة اللاتينية . وجاء بها «لهذا نريد أن تعلن إلى جميع من يعيش تحت الشمس أن ملكنا صاحب العظمة أبغا خان يريد التحالف ، ويريد السلام مع كل المسيحيين التابعين للكنيسة الرومانية»(٧٢) .

وفى حركة إعلامية بارعة من أبغا خان فان ثلاثة من سفرائه المغول طلبوا من البابا تعميدهم على المذهب الكاثوليكى . وقام بذلك كاردينال أوستيا Ostia (٧٣) أمام المجمع فى

جلسة يوم ١٦ يولية ، وقد قوبل هذا التصرف بترحيب عام من ممثلى كنائس غرب أوربا . وتشير إحدى الحوليات الإيطالية إلى أنه سرت إشاعة - حينئذ - فى الغرب الأوربى مفادها أن أبغا خان سيحضر إلى روما للتعميد على يد البابا وتلقى التاج من الأخير شخصيا (٧٤).

وقد ذهب سفراء المغول بعد انتهاء جلسات مجمع ليون إلى العواصم الكبرى للغرب ، وقد نشر المؤرخ هنرى هوارث خطاب ادوارد الأول إلى ابغا خان المؤرخ فى ٢٦ يناير عام ١٢٧٥م من مدينة Beaulieu بمقاطعة هامبشير الإنجليزية ، وفيه يبلغ الملك الانجليزى الايلخان الفارسى أنه قد تلقى خطابه عن طريق سفيره ديفيد الأشبى وجاء فيه :

> وقد علمنا منه مقدار الحب الذى تحملونه للدين المسيحى ومدى التصميم الذى قررتموه لتخليص المسيحيين والأراضى المقدسة من أعداء المسيحية ، وهذا جميل كبير لنا ونحن نشكركم عليه ، ونحن ندعو لجلالتكم لتنفيذ هذا المشروع المقدس . ولكننا لانستطيع فى الوقت الحاضر أن نبلغكم بأية أنباء مؤكدة عن موعد وصولنا للأراضى المقدسة ولاعن سير القوات المسيحية الأخرى ، لأن البابا لم يقرر شيئا بعد فيما يتعلق بهذا الأمر ، ولكننا سوف نخطركم (بأى جديد فى هذا الشأن) بمجرد العلم به . ونحن نوصيكم خيرا بمسألتى الأراضى المقدسة وبكل المسيحيين الشرقيين (٧٥).

وقد عرج سفراء المغول - فى طريق عودتهم للشرق على روما - لتسلم رسالة البابا جريجورى العاشر لمليكهم . وفى رسالته المؤرخه فى ١٣ مارس عام ١٢٧٥ م ، فان البابا أشار إلى الوعد الذى تلقاه من مبعوث الايلخان بأن سيدهم سيعتنق الدين المسيحى . ووعد جريجورى العاشر فى رسالته أبغا خان بارسال سفراء من لدنه فى موعد لاحق لإبلاغه بما يتلقاه من معلومات من الأمراء العلمانيين بخصوص الحملة الصليبية التى يجرى إعدادها للشرق للانضمام لقوات المغول ضد المسلمين . ويبلغه أيضا أن «الكرسى البابوى يكرس الوقت والجهد معا ليس فقط لمصير أرض المسيح ، ولكن أيضا لسعادة الملك الفارسى والشعب الذى يحكمه » (٧٦).

وعلى الرغم من الجهود المضنية التى بذلها جريجورى العاشر لتهيئة المناخ فى أوروبا للقيام بحملة صليبية للشرق ، فان الوعود التى تلقاها من الأمراء العلمانيين كانت مجرد شعارات لم تجد طريقها للتنفيذ لانشغال كل منهم بمشاكله الاقليمية (٧٧). ومات جريجورى العاشر فى ١٠ يناير عام ١٢٧٦ م، وبموته خبأت الحماسة الصليبية التى أذكتها شخصية هذا البابا الذى يعتبر أكثر البابوات فى النصف الثانى للقرن الثالث عشر اهتماما بالكيان الصليبى فى الشرق.

وفى تلك الأثناء كانت قوات المماليك قد وجهت ضربة أخرى لأرمينيا الصغرى عام ١٢٧٥م ، وذلك لأن ملكها ليون الثالث (١٢٧٠-١٢٨٩م) «قد حصلت منه أذية للتجار (المسلمين) ... وصار يستميل الفرنج إلى التتار ... »[٧٨] ومن ثم غدت مملكته مسرحا للسلب والقتل والسبى والحرائق من قوات المماليك دون أن يتقدم حلفاؤها مغول فارس لمساعدتها .

بل أن بيبرس أراد أن يوجه لطمة أخرى مباشرة إلى ايلخانية فارس . فاختار أن يهاجم بلاد سلاجقة الروم التى كانت مشمولة بالحماية المغولية وذلك بالتعاون والدسيسة من وزير السلاجقة ، واستطاعت قوات المماليك تمزيق الجيش المغولى فى الأناضول عند ابلستين فى ١٣ من ذى القعدة ٦٧٥هـ / ١٩ أبريل ١٢٧٧م. وبعد عودة بيبرس إلى سوريا ، فان ابغاخان حضر بقواته لمكان الواقعة ، وبكى عندما شاهد قتلى التتار مكدسين[٧٩].

ولم يستطع الايلخان المغولى أن يفعل شيئا سوى إعادة إرسال سفارة عاجلة للبابوية وللملوك الغرب الأوربى . وأعاد أبغا على مسامع هؤلاء وعوده السابقة بالانضمام لقواتهم فور وصولها للشرق . ولكن فيليب الثالث ملك فرنسا (١٢٧٠-١٢٨٥م) لم يفعل أكثر من حسن استقباله للسفراء المغول ووداعهم . بل وتروى حولية فرنسية معاصرة أن الباريسيين اعتقدوا أن هؤلاء المغول جواسيس وليسوا سفراء[٨٠].

والحقيقة أن فيليب الثالث لم يكن يهمه من أمر الصليبيين شيئا إلا بالقدر الذى يحفظ علاقاته بالبابوية من المخاطر ، وربما يكون هذا الموقف ناجما عن هزيمة لويس التاسع - والد فيليب الثالث - فى مصر عام ١٢٥٠م، وفشل حملته فى تونس ووفاته هناك عام ١٢٧٠م بحيث تركت آثارها على الفرنسيين . بل وأثرت تأثيرا خطيرا على الاقتصاد الفرنسى خاصة إذا ما عرفنا أن حملة لويس التاسع فى الشرق العربى (١٢٤٨-١٢٥٤) تكلفت ما يعادل مجموع دخل فرنسا - حينئذ - لمدة ستة أعوام[٨١]. فضلا عن أن تورط فرنسا فى حرب مع مملكة قشتالة على وراثة العرش كبدتها خسائر فادحة أبعدتها عن الاهتمام بالكيان الصليبى.

ونفس الرد تقريبا سمعه سفراء المغول من الملك الانجليزى عام ١٢٧٧م عندما طلبوا مساعدته «ضد الكفرة أعداء الصليب»[٨٢]، وفى عام ١٢٧٨ م أرسل البابا نيقولا الثالث (١٢٧٧-١٢٨٠م) عدة رهبان لمغول فارس للتبشير بالدين المسيحى ولتعميد أبغا نفسه[٨٣]. وكان هذا رأى قادة أوروبا أى تنصر الايلخان المغولى قبل التحالف معه . ويرى «بالمر ثروب» Palmer Throop أن ذلك الموقف كان لإخفاء ميولهم الحقيقية ، لأنهم كانوا يخشون أن

يورطهم الخان المغولى فى حملة صليبية جديدة هم فى قرارة أنفسهم لايريدونها [٨٤].

وعندما باءت جهوده للتحالف مع الغرب بالفشل ، قرر «أبغا خان» الاعتماد على القوى المحلية فى غرب آسيا لمواجهة المماليك خاصة بعد وفاة «الظاهر بيبرس» وتمرد «سنقر الأشقر» على المنصور قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠م) واستقلاله ببلاد الشام ومراسلاته لقادة مغول فارس . ولهذا أرسل أبغا مبعوثا إلى عكا فى أكتوبر عام ١٢٨٠م لطلب التحالف مع الصليبيين عندما تتقدم جيوشه فى العام التالى ضد المماليك [٨٥]. أما عن الأرمن والجورجانيين فلم يكن أمامهم خيار آخر سوى الإذعان لمشيئة أبغا خان فى الانضمام لقواته ضد المماليك .

وكان للصليبيين موقفًا آخر ، فمعظم القوى الصليبية اختارت موقف الحياد لأنهم علموا من الدروس المريرة التى تلقتها كل من مملكة أرمينيا الصغرى وأمارة أنطاكية أن المغول غير قادرين على حماية حلفائهم .

ويهمنا فى مجال ذكر مرحلة الصدام المسلح بين المماليك من ناحية وبين المغول وحلفائهم من ناحية أخرى الذى دارت رحاه فى حمص فى اكتوبر عام ١٢٨١م / رجب ٦٨٠هـ إلقاء الضوء على موقف اللاتين منه .

فالمصادر العربية أشارت إلى أن جيش المغول بقيادة مانكوتمر - شقيق أبغا خان - كان مكونا من «خمسين ألفا من المغل وثلاثين ألفا من الكرج[٨٦] والروم والأرمن والفرنجة »[٨٧]. وذلك دون أية تفاصيل أخرى عن دور «الفرنجة » أو عددهم فى هذه المعركة . ورشيد الدين لم يشر لاشتراك الفرنجة مع المغول فى هذه المعركة [٨٨]. وابن العبرى أشار إلى أن المغول قد أخذوا معهم ملك الأرمن بعساكره مع خمسة آلاف كرج[٨٩] دون الإشارة لوجود «الفرنجة» مع المغول .

ولكن أحد فرسان هيئة الاسبتارية فى حصن المرقب ويدعى «جوزيف دى كانسى» Sir Joseph de Cancy أرسل تقريرا للملك الانجليزى فى مايو عام ١٢٨٢م - أى بعد معركة حمص بسبعة شهور تقريبا - يصف فيه معركة حمص كشاهد عيان ، ويصف أحوال الشرق اللاتينى والمماليك وقت كتابة هذا الخطاب .

ويقرر «دى كانسى» « أنه بناء على الحاج ملك أرمينيا الصغرى - الذى كان متواجداً بالمعركة- فان استبارية حصن المرقب قد أرسلوا إليه مائتين من الفرسان والمشاة للانضمام لقواته[٩٠] ولقد أشارت حولية انجليزية فى حوادث عام ١٢٨٢ بأن «ملك التتار انضم مع الاسبتارية لقتال السلطان (المملوكى) »[٩١] ولكن لم يُشردى كانسى أو غيره من المصادر اللاتينية لطبيعة الدور الذى لعبه هؤلاء الاسبتارية فى المعركة ، وربما كان دورهم قاصرا على

القيام بامداد قوات الأرمن بالمؤن والعتاد من قلعتهم القريبة من ميدان المعركة بل وربما كانوا يتجسسون على قوة المماليك تحسبا لصدام مسلح حاسم معهم .

وفى مايو ١٢٨٥ م استولى المنصور قلاوون على هذه القلعة من الإسبتارية تأديبا لهم على اشتراكهم مع المغول ضد المسلمين (٩٢). فى اكتوبر عام ١٢٨١م .

ومهما يكن من أمر فقد انتهت هذه الجولة بانتصار المماليك وأن المنهزمين من المغول وحلفائهم ولوا الأدبار ، وأن قوات المسلمين تعقبتهم حتى شرقى نهر الفرات وحدود أرمينيا الصغرى ، وأن القوات المنسحبة خسرت أثناء الفرار أكثر مما خسرته فى ميدان القتال (٩٣).

وقد أوضح دى كانسى فى تقريره أن نائب شارل الأنجوى بمدينة عكا قد تقابل مع السلطان المنصور قلاوون فى أثناء عودة الأخير لبلاده منتصرا وقدم له الهدايا والتهانى على انتصاره على المغــول (٩٤). وكان هذا تعبيرا عن موقف مملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا الودى للمماليك حرصا على البقاء بجوار الأقوى .

وتوفى «أبغا خان» فى أول أبريل عام ١٢٨٢ بعد سماعه خبر هزيمة جيشه فى موقعة حمص . وتولى شقيقه تكودار (أحمد) منصب الايلخانية (١٢٨٢-١٢٨٤م) ونظرا لاعتناقه وكثير من قواده الإسلام ، فانه حاول التقارب مع المماليك وإنهاء حالة الحرب بين البلدين ليتفرغ لمشاكله الداخلية الناجمة عن تمرد ابن أخيه أرغون عليه ولكن مصرعه على يد الأخير أغلق باب الحوار مع المماليك إلى حين .

عهد أرغون خان (١٢٨٤-١٢٩١م)

وصل التقارب بين مغول فارس فى عهد أرغون خان والغرب الأوربى لمرحلة الذروة حيث أرسل هذه الايلخان أربعة سفارات من قبله فى أعوام ١٢٨٥، ١٢٨٧، ١٢٩٠ ، و١٢٩١ م لإعادة عرض مشروع التحالف العسكرى مع الغرب ودراسة تفاصيله وتحديد موعد التقاء القوات المتحالفة ، وقامت البابوية وملكا انجلترا وفرنسا بارسال مبعوثين من قبلهم سواء برفقة سفراء المغول أو بدونهم للرد على عروض أرغون خان .

وكان الايلخان المغولى هو صاحب المبادرة فى طلب التحالف ضد المماليك انتقاما من هزيمة والده فى موقعة حمص فى ٣٠ اكتوبر عام ١٢٨١ م ، تلك الهزيمة التى شجعت المنتصرين على الانتقام من أرمينيا الصغرى مرة أخرى ، بل وتحريض أمراء العراق للتمرد على الحكم المغولى ومراسلة رجال الصفوة المسلمين الذين كانوا تحت إمرة المغول للجوء إليهم .

ولما كان أرغون قد ارتقى عرش الايلخانية على جثة عمه تكودار أحمد - الذى كان مسلما هو ومعظم قواده ، فضلا عن عداء أرغون للمماليك وغيرهم من المسلمين فانه اتضح لأول مرة بصورة علنية عداء الايلخان المغولى لرعاياه المسلمين وتمثل ذلك فى إبعادهم عن المناصب الهامة فى الدولة والبلاط وتودده وحبه للمسيحيين واليهود على السواء بل وإسناده منصب الوزارة «لسعد الدولة» اليهودى - رغم أن أرغون نفسه كان بوذيا . ولاعجب أن كانت مدينة تبريز تعج بالأوربيين الذين يعملون فى خدمة المغول كمستشارين أو مترجمين أو سفراء لهم أو كأعضاء فى الجماعات التبشيرية الكاثوليكية من الفرنسسكان والدومنيكان أو من التجار الإيطاليين .

أما الغرب الأوروبى فكان أيضا بحاجة ماسة للتعاون العسكرى مع المغول لأن قوات المماليك كانت تسقط عاما بعد أخر واحدا من مواقع الصليبيين الهامة فى بلاد الشام فى الوقت الذى انشغل فيه عن الآخيرين بحروبه الاقليمية ومشاكله الداخلية.

أولا :- سفارة عام ١٢٨٥م .

أرسل أرغون خان سفارته الأولى للغرب الأوربى فور اعتلائه العرش والتخلص من عمه ومؤيديه . وهذه هى السفارة الوحيدة التى لا نعرف عنها أية تفصيلات سوى خطاب يتيم عثر عليه فى أرشيفات الفاتيكان من أرغون إلى البابا مؤرخ فى ١٥ مايو من عام ١٢٨٥م (٩٥).

وفى هذا الخطاب يوضح أرغون أنه تلقى أوامر الخاقان الأعظم قوبيلاى خان (ت١٢٩٤) بوضع أراضى المسيحيين القريبة تحت حمايته ورعايته -وذلك فى إشارة إلى الأراضى المقدسة -وعزمة تقديم العون لها. ويقترح على البابوية أن تقوم جيوشه بمهاجمة الشام وأن تقوم قوات البابوية و «الفرنجة» بمهاجمة مصر فى نفس الوقت حتى يمكن تحطيم المسلمين فيما بينهما « وذلك حتى يكون هناك سيدان (فقط) هما الخاقان (قوبيلاى) والبابا » .

وعند وصول سفارة أرغون الأولى عام ١٢٨٥ كان البابا هنريوس الرابع (١٢٨٥-١٢٨٧) رجلا طاعنا فى السن ، ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئا خاصة بعد اندلاع الثورة الصقلية (مارس ١٢٨٢) . فتمرد أهالى صقلية على حاكمهم الفرنسى شارل الأنجوى وتأييد بيزنطة وأراجون جعلت أوروبا منقسمة لعدة معسكرات متصارعة (٩٦).

ولهذا يمكن تفسير عثور خطاب ارغون فى أرشيفات البابوية وعدم العثور على رد للبابا فى هذه السجلات أن البابا نفسه لم يكتب ردا لأرغون على هذه السفارة . ويعتقد الباحث أن

هنريوس الرابع هو الذى صرف سفراء أرغون برفق من روما وجعلهم لايذهبون لعواصم الغرب الأوروبى حتى لايعلم الايلخان المغولى بما يحدث فى أوروبا فيصاب باحباط . ومن ثم فان البابا أراد أن يترك الخان لحماسته ضد المسلمين ربما يستطيع هو والأرمن أن يفعلوا ما لا يستطيع الغرب أن يفعله .

ثانيا : سفارة «رابان صاوما» ١٢٨٧-١٢٨٨م

ازداد موقف الأرمن والصليبيين سوءا فى مواجهة المماليك فى الفترة من عام ١٢٨٥ حتى ١٢٨٧م ، إذ أن المنصور قلاوون عزم منذ انتصاره على المغول على الانتقام من حلفائهم .

ففى صفر عام ٦٨٢هـ / مايو ١٢٨٣م أرسل قلاوون أمراءه فى الشام بقوات أغارت على الحدود الجنوبية لأرمينيا الصغرى سببت كثيرا من الخراب لها وقتلت وأسرت كثيرا من فرسانها(٩٧) عقابا على ما فعلوه ببلاد الشام إبان الغزو المغولى لها عامى ١٢٨٠ ، ١٢٨١م. ولهذا فان ملكها ليون الثالث (١٢٧٠-١٢٨٩) أرسل سفراءه لطلب الهدنة من المماليك ، ولكن قلاوون قذف بهم فى غياهب السجن ولم يفرج عنهم إلا بعد تدخل مقدم الداوية فى عكا وقبول ليو الثالث لمعاهدة مع المماليك من شروطها أن يدفع جزية سنوية للسلطان قدرها مليون درهم ، واطلاق حرية التجار المسلمين فى بلاده وألا يعتدى أو يساعد أحداً ضدهم على المسلمين (٩٨).

أما عن الاسبتارية فكان مصيرهم أنكى ، إذ استولى المماليك على قلعة المرقب فى مايو عام ١٢٨٥ دون أن يتدخل أحد من إخوانهم الصليبيين لنجدتهم . ولهذا أرسل أرغون سفارته الثانية للغرب الأوربى علها تنجح فى إقناع قادته بمديد العون للمغول ضد المماليك .

وقد انتقى أرغون بعناية بالغة شخص سفيره الجديد «رابان صاوما» « Rabban Sawma »(٩٩) ومرافقيه ، ويبدو أن أرغون فى اختياره صاوما باعتباره من بكين عاصمة قوبيلاى خان - أراد إفهام الغرب الأوربى أن سيده الأعلى راض عن صلاته بهم .

وكون «صاوما» أحد كبار رجال الكنيسة النسطورية فى آسيا يعكس رغبة أرغون فى كسب ثقة الأوروبيين عندما يستمعون من سفير مسيحى عن حسن معاملة المغول لرعاياهم المسيحيين ، وربما قصد أرغون من وراء ذلك أيضا تحقيق ولاء الكنيسة النسطورية للبابوية فى روما (١٠٠). وهو هدف كانت تسعى له البابوية منذ نصف قرن وذلك ليضمن تحقيق الأهداف السياسية التى من أجلها أوفد رابان صاوما .

وعندما وصل صاوما إلى روما كان كرسى البابوية شاغرا ، فذهب هو ورفاقه - ومنهم بوسكاريللو جيزولفو Buscarello of Gesulfo الجنوى - لمقابلة ملكى فرنسا وانجلترا لتسليمها خطابات الايلخان المغولى . وقد عرجوا على مدينة جنوة حيث استقبلهم أميرها وأهلها بحفاوة بالغة[١٠١] ترجع لأن تجار جنوة هم الذين كانت لهم اليد الطولى حينئذ فى ايلخانية فارس ومنهم اختار المغول مستشاريهم وسفراءهم .

وفى فرنسا أبلغ صاوما فيليب الرابع (١٢٨٥-١٣١٤) بهدف زيارته . ورد الأخير بأنه سوف يرسل أحد كبار قواده إلى أرغون[١٠٢] .

وبعد عبور الحدود الفرنسية لمقابلة الملك الإنجليزى فى مقاطعة جاسكونى Gascony فإن ادوارد الأول - بعد تسلمه خطابات وهدايا أرغون خان - أخبر صاوما أنه يحمل الصليب على صدره ، وأنه لايفكر إلا فى أمر الأراضى المقدسة وأنه سعيد أن أرغون يفكر فى نفس الأمر الذى يشغله . وبعد ذلك قام السفير بزيارة للمقاطعة الانجليزية وكنائسها وتلقى الهدايا والخطابات من الملك الانجليزى[١٠٣] .

ومن الواضح أن حسن استقبال ملكى فرنسا وانجلترا لصاوما ورفاقه لم يجعل السفير الشرقى يغفل أن ردودهما على مشروع أرغون خان سلبية على غير ما توقع . ويخبرنا صاوما فى مذكراته أنه أبلغ أحد كرادلة روما أثناء مقابلته بمدينة البندقية ما هو ترجمته :

> ماذا أستطيع أن أقول لك أيها الرجل المحبوب والنبيل ؟ أننى قد قدمت فى سفارة من الملك أرغون وبطريق الشرق بخصوص مدينة بيت المقدس . وهل تصدق أننى هنا (فى أوربا) منذ عام ولم يتم اختيار بابا بعد ؟ وعندما سأرجع (لبلادى) ماذا سأقول ؟ وما هى الإجابة التى سأعطيها للمغول ؟ فهؤلاء (المغول) الذين لهم قلوب أكثر قسوة من الحجارة يريدون الاستيلاء على المدينة المقدسة ، وأن هؤلاء (الأوربيين) الذين يهمهم أمرها لايلقوا لهذا الأمر بالا فى أذهانهم . وفضلا عن ذلك فانهم لايعطون لهذا أهمية على الإطلاق ، فماذا أقول لهم؟[١٠٤] .

ويقرر «صاوما» فى مذكراته أنه استدعى لمقابلة البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢) فور اعتلائه العرش البابوى حيث سلمه خطابات أرغون وبطريق النساطرة وهداياهم ، وسمح البابا له بالعودة لبلاده فى ٦ أبريل عام ١٢٨٨م[١٠٥] محملا بالهدايا وتسعة خطابات بابوية لأرغون خان وجاثليق النساطرة ولزوجة أرغون وأسقف اليعاقبة فى تبريز ولبعثات الرهبان الفرنسسكان والدومنيكان بايلخانية فارس وللتجار الإيطاليين فى تبريز ولصاوما نفسه[١٠٦].

وقد ركز البابا خطابه الأول لأرغون - المؤرخ فى ٢ أبريل عام ١٢٨٨ - على دعوة الأخير لاعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكى دون الإشارة للهدف الأساسى لسفارة أرغون[١٠٧].

ثم كتب البابا خطابا ثانيا قصيرا فى نفس يوم كتابة الخطاب السابق . رغم أن البابا يخاطب أرغون فى هدف سياسى فانه أعاد على مسامعه تلخيصا لما ذكره مفصلا فى الرسالة الأولى فيقول :

... علمنا (من المندوبين) أنه إذا ما تم تحرير مملكة بيت المقدس من أيادى الكفرة فانك تحب أن تولد مجددا فى هذه المدينة بغسل المعمودية . أما نحن فنأمل أن تحرير المملكة المذكورة سيكون أسهل بعونه تعالى إذا ما تنصرت أنت ... فنرجوا جلالتكم من صميم الفؤاد أن تسرع إلى المعمودية ولاتتأخر فى قبولها لتمجيد الرب ولنيل الخلاص[١٠٨].

ويتضح من خلال فحص سفارة رابان صاوما وردود الغرب الأوربى عليها الآتى :

أولا : أن أرغون طلب مساعدة الغربيين له ضد المماليك . وكى يشجع البابوية ورعاياها على ذلك فانه رفع شعار «تحرير مدينة بيت المقدس من الكفرة «كورقة دبلوماسية لإلهاب حماسهم خاصة وأنهم أرسلوا العديد من الحملات الصليبية من قبل تحت هذا الشعار البراق . وكانت تعليماته - كما يقرر «صاوما» فى مذكراته - لسفرائه «أنه يريد أن يخضع أراضى فلسطين وسوريا ، ولكن لو أن ملوك الغرب المسيحيين لم يساعدوننى فان رغبتى هذه لن تتحقق»[١٠٩]، وزيادة فى تحفيز الأوروبيين ، فان سفراءه أعلنوا فى العواصم الأوربية أنه بعد استرداد هذه المدينة المقدسة ، فان أرغون سيعلن تنصره فيها .

ثانيا : أن نيقولا الرابع - باعتباره أول شخص من هيئة الفرنسسكان يصل للكرسى البابوى كان جل اهتمامه تنصير الايلخان المغولى وشعبه ، ومن ثم فان محور خطابيه لأرغون يدور حول هذه النقطة . بل وقد أرسل البابا خطابات لزوجة أرغون ولرجال بلاطه ومستشاريه الأوربيين للضغط على الايلخان من جميع الجهات لتنصيره[١١٠] .

ويمكن تفسير هذا السلوك من نيقولا الرابع بواحد من سببين أو كليهما معا :-

أولا : أن البابا قد علم من صاوما بردود ملكى فرنسا وانجلترا السلبية على مشروع التحالف مع المغول . فأراد أن يتنصر الايلخان المغولى حتى يكون أداة طيعة فى يده

يستحدمه ضد من يشاء . خاصة وأن عملية نشر المسيحية بين المغول . فأرادأن ينتصر الايلخان المغولى حتى يكون أداة طيعة فى يده يستخدمه ضد من يشاء . خاصة وأن عملية نشر المسيحية بين المغول لن تكلف البابوية أموالا ليست فى خزينتها ، أو أسلحة ليست فى متناولها . هذا فى ضوء معرفتنا أن بعثات من الفرنسسكان والدومنيكان كانت تعمل فى مجال التبشير بالدين المسيحى فى ايلخانية فارس وتحت رعاية حكام المغول منذ فترة من الزمن (١١١).

ثانيا : أن البابا كان يخشى لو أن المغول استولوا على المدينة المقدسة وهم ما زالوا بوذيين فانه لايمكن التفاهم معهم على قدم المساواة بعكس الحال لو اعتنقوا المسيحية خاصة على المذهب الكاثوليكى . فحينئذ سيكونون تابعين للبابوية وليس العكس .

وعموما تجاهل البابا تماما الهدف الأساسى لسفارة أرغون بالتحالف العسكرى المشترك ضد المماليك ، وأرسل معها ردودا جميعها يتعلق بنشر المسيحية بين المغول وولاء الكنائس الشرقية لكنيسة روما الكاثوليكية .

أما ملك انجلترا فانه لم يفعل أكثر من عبارات المجاملة لأفراد البعثة وتزويدهم بالهدايا وتكاليف السفر ، وقد أرسل ملك فرنسا سفراء من لدنة بصحبة رابان صاوما ورفاقه . وتعرف من سفارة مغولية تالية أن السفراء الفرنسيين رفضوا تقديم التحية لأرغون على الطريقة المغولية باعتبار أنه غير مسيحى (١١٢). وواضح أن هؤلاء السفراء لم يفعلوا سوى تقديم بعض الهدايا من ملكهم رداً على هدايا العاهل المغولى .

وهكذا فشلت سفارة أرغون الثانية فى تحقيق هدفها السياسى الذى أراده أرغون وهى السفارة الوحيدة التى أشارت لها إحدى الحوليات الشرقية (١١٣).

السفارة الثالثة (١٢٨٩-١٢٩٠م)

انتهز أرغون خان فرصة سقوط طرابلس فى أيدى المصريين سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م (١١٤). لإرسال سفارته الثالثة للغرب الأوربى . وكان طبيعيا أن تصل هذه السفارة إلى أوروبا لتجد أمامها قادة هذه المدينة المنكوبة الفارين من سيوف المماليك يطوفون بعواصم الغرب الأوروبى لطلب النجدة ، ووصل بوسكاريللو Buscarello سفير أرغون لإيطاليا فى نهاية أغسطس ١٢٨٩م .

ولعله من اللافت للنظر أن أرغون اختار هذه المرة بوسكاريللو الجنوى لينوب عنه فى هذه السفاره ، وذلك لأن الجنويين هم أكثر الذين أضيروا بضياع طرابلس ويستطيع هذا السفير إقناع الغربيين بخطورة الموقف فى الشرق ، واختياره أيضا يهدف للبعد عن مشاكل المترجمين خاصة وأن هذا السفير ذهب لمناقشة تفاصيل العمليات الحربية المقترحة بين المغول والأوربيين والتنسيق بين موعد وصول الجيوش المختلفة وهذه أمور يعد هذا السفير وحده كفئا لها باعتباره خبيرا عسكريا أيضا [١١٥]. وربما قصد أرغون من هذا الاختيار أيضًا قطع الطريق على البابا فى التغاضى عن الأهداف الحقيقية لسفاراته والحديث فى الدين واللاهوت ، فالايلخان المغولى كان حينئذ بحاجة لقوات الأوربيين أكثر من حاجته للكتب والقرابين المقدسة.

ونظرا لعدم العثور على أية خطابات من أرغون للبابا من هذه السفارة ، فانه يمكن استنتاج أن خطاب أرغون لفيليب الرابع الذى حمله بوسكاريللو والذى عثر عليه فى الأرشيفات الفرنسية كان هو محور المناقشة مع البابا ومع الملك الانجليزى أيضا .

ومن المعروف أن بوسكاريللو قد غادر المقر البابوى فى أول أكتوبر عام ١٢٨٩م – حاملا رسائل تزكية من نيقولا الرابع لملكى انجلترا وفرنسا ، وورد فى رسالة البابا المؤرخة فى سبتمبر لإدوارد الأول – التى عثر عليها فيما يعد فى الأرشيفات الانجليزية ما هو ترجمته :

> ... لقد وصل إلينا حديثا ابننا العزيز النبيل بوسكاريللو جيزولفو وهو مواطن من جنوا وسفير أرغون ملك التتر العظيم ، وسلمنا خطابا من هذا الملك . وضمن ما يحتويه أن أرغون سوف يخرج بنفسه – طاعة لنداء الكنيسة – بعزيمة وقوة للانضمام لحملة صليبية عامة لحماية الأراضى المقدسة .

وفى نهاية رسالته ، يطلب نيقولا الرابع من الملك الانجليزى أن يقابل سفير أرغون بنفسه بترحاب وأن يستمع إليه وإلى المقترحات التى سيقدمها فى هذا الشأن وأن يرد عليها حتى يحملها للملك المغولى عند عودته إليه [١١٦].

والمهم أن بوسكاريللو وصل إلى باريس أولا وقدم لملك فرنسا خطاب أرغون ، وتتضمن هذه الرسالة الهامة قرار أرغون بتحريك قواته فى يناير عام ١٢٩١م حتى يتمكن من النزول أمام دمشق فى ٢٠ فبراير ١٢٩١ وذلك بشرط وجود القوات الأوربية فى مصر والشام فى ذلك الوقت «لمباغتة العدو من الخلف» وقال فى رسالته موجها كلامه لفيليب الرابع :

> ونعلمك الآن أننا وبمقتضى صدق كلامك سنبعث جيوشنا – فى الموعد المتفق عليه

(الزمان والمكان) . فاذا أخضعنا بقدرة السماء تلك الشعوب ، فاننا سنعطيكم القدس، أما إذا أهملتم الموعد وجعلتم جيوشنا تخوض عملية (حربية) فاشلة - وقد يكون ممكنا - فسوف تندمون ، وحتى إذا ندمتم ، فسوف لاينفعكم الندم(١١٧).

هذا وقد عثر برفقة هذا الخطاب على مذكرة كتبها بوسكاريللو بخط يده باللغة الفرنسية يبدو أنها تعليمات أرغون الشفوية له بخصوص تفصيلات الخطط العسكرية أو على الأرجح هي ترجمة لخطاب آخر من أرغون للملك الفرنسي .

وفي هذه المذكرة يقول أرغون أنه ينوى أن يصطحب معه فى حملته على الشام - لاسترداد مدينة بيت المقدس من المسلمين - ملكى جورجيا وأرمينيا الصغرى اللذان يمكنهما حشد عشرين ألفا من الفرسان ، ولأنه من غير المناسب أو من المكلف لملك فرنسا أن يصطحب معه خيولا لأرض المعركة ، فان أرغون أبدى تعهده بامداده بعشرين أو ثلاثين ألفا من الخيول وبسعر رمزى . بل ويمكنه أيضا أن يأمر رعاياه سلاجقة الروم بأن يوفروا للقوات الفرنسية ما تحتاجه من تموين من أبقار وجمال ودقيق وعلق للخيول وغير ذلك من إمدادات تحتاجها القوات. وتعبيرا عن حسن نيته تجاه الأوربيين ، فان أرغون أعلن أن مذبحة طرابلس قد أحزنته وأنه أعدم أربعة من الأمراء المسلمين فى العراق أبدوا سرورهم لانتصار المماليك ، وأنه رفض أن تدفن جثثهم بل وأمر أن تلقى للكلاب ! وأشار أرغون أن شقيقته تزوجت من ملك جورجيا المسيحية وأنها اعتنقت الدين المسيحى مثل كثير من رجال بلاطه ، وشكى أرغون من تصرفات سفراء الملك الفرنسى الذين أرسلهم بصحبة رابان صاوما ، وطلب من الأخير أن يأمر سفراءه بتقديم التحية لأرغون طبقا للتقاليد المعمول بها فى هذا الشأن لدى المغول (١١٨).

وعلى الرغم من أنه ليس لدينا رد مكتوب من الملك الفرنسى فيليب الرابع على عروض أرغون السخية ، فان أفعال الملك الفرنسى تعطينا الرد الكافى . فلاشك أن هذا الملك قد صم الآذان تماما عن نداءات البابوية له ولغيره لإرسال نجدات للصليبين فى الشرق . وكان يرى أن بلاده لم تجن إلا المتاعب من هذه الناحية ويكفى ما خسرته فرنسا على الحروب الصليبية من قبل. ولهذا فقد أرسل للبابا يوم ٩ ديسمبر عام ١٢٩٠ م يطلب إعفائه من الذهاب للأراضى المقدسة(١١٩).

والمهم أن بوسكاريللو وصل إلى لندن فى ٥ يناير ١٢٩٠م حاملا عروض أرغون التى سبق تقديمها للملك الفرنسى وخطاب البابا لتوصية الملك الانجليزى بحسن استقبال سفير أرغون ودراسة مقترحاته .

ويمكن اعتبار خطاب إدوارد الأول الذى عثر عليه Hudson Turner فى الأرشيفات الانجليزية عام ١٨٥١م ردا لبقا وموفقا من الملك الانجليزى بحسن استقبال سفير أرغون ودراسة مقترحاته .

فيبدأ إدوارد الأول بتهنئة أرغون باقتفاء خطوات والده أبغا فى الرغبة فى تحطيم قوة السلطان المملوكى «سلطان بابليون» ورغبته فى الحضور للأراضى المقدسة لمساعدة الصليبيين فيها ضد أعدائهم . ويشكره على عرضه بتقديم الخيول والامدادات اللازمة للقوات الأوربية فور وصولها للشرق . وأعلن الملك الانجليزى عن ترحيبه بالانضمام لقوات أرغون . ولكنه أبلغه أن مسألة تحديد موعد خروجه بقواته للشرق سيحددها البابا بنفسه على ضوء الظروف السياسية فى أوربا . وأنه بمجرد علمه بأوامر البابا فى هذاالشأن ، فانه سيرسل سفيرا للايلخان المغولى لإبلاغه بموعد قيامه من أوربا وموعد وصوله للأراضى المقدسة بالتقريب . وأن هذا السفير سيحمل معه الصقور والمجوهرات التى طلبها أرغون من ملك انجلترا (١٢٠).

والمهم أن بوسكاريللو عرج على روما فى طريق عودته لإبلاغ البابا بنتائج مفاوضاته فى باريس ولندن والحصول على رد نيقولا الرابع لأرغون خان ، ورغم عدم العثور على أثر لخطاب البابا إلا أنه من الواضح أن مضمونه لم يخرج عن الخطابات السابقة وعن الوعد بموافاة أرغون بموعد تحركات الجيوش الأوربية للشرق ريثما تصله أخبارها من الأمراء العلمانيين .

والحقيقة أن نيقولا الرابع كان أعجز من أن يحرك ملوك الغرب الأوربى وأمراءه لحشد الجيوش للتحالف مع الايلخان المغولى حتى لو كان هذا الأمر يعنى أيضا النجدة الحاسمة للصليبيين فى الشرق بعد سقوط طرابلس . والاستثناء الوحيد كان من البنادقة - الذين كانت لهم اليد الطولى فى عكا وخافوا ضياعها - ولهذا قدموا عشرين مركبا لنقل الصليبيين الذين استطاع أعوان البابوية تجنيدهم لنجدة اللاتين فى بلاد الشام . ولم يجد الأخيرون سوى تأجير المرتزقة من الدهماء والرعاع والعاطلين من لومبارديا وتوسكانى وبقية شمال إيطاليا فى حوالى ٣٥٤٠ (١٢١) شخصا لحمل الصليب للدفاع عن بقايا أخطاء البابوية والغرب الأوربى طوال قرنين من الزمان فى شرق البحر المتوسط . وإذا كان هذا هو حال الروح الصليبية فى الغرب الأوربى فلا غرو أن يرجع بوسكاريللو لأرغون بخطابات لاقيمة لها .

السفارة الرابعة (١٢٩٠-١٢٩١م)

لسنا نعرف على وجه اليقين ما إذا كان «بوسكاريللو» قد عاد إلى «تبريز» لإبلاغ أرغون خان بردود ملوك الغرب الأوربى والبابوية على مشروعه بالتحرك ضد المماليك فى ديسمبر

التالى والتقاء الجيشين المغولى والأوربى فى فبراير ١٢٩١م ببلاد الشام - أم أنه ظل فى جنوة لأعماله الخاصة ، وأرسل أحد مساعديه للشرق لإبلاغ أرغون بذلك (١٢٢). ولأن سفارة مغولية رابعة ظهرت فى البلاط البابوى فى نهاية ذلك العام (١٢٩٠م) وكان «بوسكاريللو» ضمناً فرادها ، وأن الوقت المتاح بين السفارتين حوالى ثمانية شهور قد تكون قليلة لعودة الأخير إلى «تبريز» ورجوعه مرة ثانية ، فقد يكون أكثر منطقيا أن السفراء الجدد لأرغون قد التقوا مع بوسكاريللو فى إيطاليا فى ديسمبر عام ١٢٩٠ .

وليس لدينا أية وثائق لأرغون من سفارته الرابعة ، ولكن يعتقد أن هذه السفارة جاءت للغرب للتأكيد على تواجد الأوربيين بجيوشهم فى المواعيد والأماكن المحددة من قبل حتى لاتحدث كارثة للجيوش المغولية .

وفى أثناء وجود السفراء المغول فى روما ، وصلت للبابا نيقولا الرابع أنباء بكارثة جديدة سببها المرتزقة الايطاليون الذين وصلوا إلى عكا فى أغسطس من ذلك العام . فهؤلاء الدهماء اعتدوا على التجار المسلمين الذي كانوا يحملون رقيقا للسلطان المملوكى ، وقتلوا كل من قابلوه من المسلمين ومن يرتدى زيهم فى شوارع عكا . ولهذا أقسم قلاوون على الانتقام من عكا(١٢٣). ولهذا وصلت الأنباء للبلاط البابوى لطلب النجدة العاجلة .

وفى ٥ ديسمبر ١٢٩٠م أرسل نيقولا الرابع أحد الكراولة الفرنسسكان للملك الفرنسى لحثه على سرعة حمل الصليب وإرسال النجدة للأراضى المقدسة . وبعد ذلك مباشرة أرسل البابا للمندوب البابوى فى باريس أن يبلغ فيليب الرابع أنه إذا لم يرغب فى الذهاب للشرق فعليه أن يقوم بتسليم ضرائب العشور الصليبية - التى ما زالت تجمع فى مملكته لحسابه- إلى المندوبين البابويين كى تذهب فعلا للأراضى المقدسة (١٢٤).

وفيما يتعلق بسفارة أرغون فلدينا خطابين مؤرخين من البابا فى ٢ ، ٣١ ديسمبر ١٢٩٠م إلى الملك الانجليزى بهذا الشأن .

ففى الخطاب الأول يبلغ البابا الملك الانجليزى بأن سفراء أرغون وهم أندرياس ودومنيك وبوسكاريللو ومارك قد وصلوا إليه بخطابات ملك التتر . وكالعادة يوصى البابا إدوارد الأول بحسن استقبال السفراء والاستماع لمقترحات أرغون بجدية والرد عليها على قدر ما يستطيع . ويختتم البابا خطابه بقوله « ونحن قاصدون إيفاد رسول خاص إلى الملك المذكور مع المندوبين أنفسهم لدى عودتهم إلينا » (١٢٥).

أما الخطاب الثانى المؤرخ فى ٣١ ديسمبر ١٢٩٠ - أى بعد شهر واحد من الخطاب السابق فيعتبر نسخة مكررة من الخطاب الأول عدا أسماء سفراء أرغون . ففى هذا الخطاب ، يقدم نيقولا الرابع سفيراً جديدا لأرغون وهو Saabedin Archoon للملك الانجليزى ، ويطلب منه « أن تحسنوا استقباله إكراما للكرسى الرسولى ... وتنظر حالا بتلبية طلبه لمجد الرب والمسيحية وفخرا لجلالتكم الملكية » [١٢٦].

والحقيقة أن صدور خطابين من البابا للملك الانجليزى فى شهر واحد بخصوص سفراء أرغون (أربعة فى الخطاب الأول وواحد فى الخطاب الأخير) مسألة أثارت انتباه الباحث J. D Ryan الذى يعتقد أنها سفارة واحدة لأرغون ، وأن السفير الأخير المؤرخ بشأنه خطاب ٣١ ديسمبر قد تأخر فى الطريق شهرا - ربما لمرضه - عن رفاقه . ومن ثم عرج على البلاط البابوى للحصول على تذكية مماثلة لتلك التى أعطاها البابالرفاقه قبل ذلك بتسعة وعشرين يوما [١٢٧].

وليس معروفا على وجه التحديد عما إذا كان سفراء أرغون قد ذهبوا لمقابلة الملك الفرنسى أيضا كعادة السفارات السابقة أم لا . فرسالة البابا للايلخان المغولى ردا على هذه السفارة تقول « ... وقد كتبنا رسالة تأييد لكم بناء على طلبكم إلى ملك انجلترا إدوارد لينظر فى تلبية طلباتكم ... » [١٢٨]. ولم يشر لكتابته للملك الفرنسى فى هذا الشأن ، ولكن حولية Bury St Edmunds الانجليزية المعاصرة أشارت تحت أحداث ذلك العام (١٢٩١) أن « ملك التتار العظيم قد أرسل سفراء لكل من البابا وملكى انجلترا وفرنسا لتجديد وتقوية صداقتهم وكى يناقشوا اعتناقه الديانة المسيحية وتقديم المساعدة للأراضى المقدسة » [١٢٩].

وسواء ذهبت هذه السفارة إلى باريس أم لا ، فالبابا كان يعلم أنه لا أمل يرجى من فيليب الرابع فى الذهاب للشرق . ومن ثم فقد اعتمد كلية على ادوارد الأول باعتبار أن دولته هى الوحيدة تقريبا التى لم تتورط بعد فى حروب ومشاكل داخلية تعوق ذهابه للشرق . خاصة وأن المفاوضات كانت قد قطعت شوطا طويلا بين مندوبى هذا الملك ومندوبى البابوية بشأن طلباته للقيام بحملة صليبية للشرق ، وهى حصوله على مبالغ نقدية من البابوية ومن ضريبة العشور الصليبية فى بلاده وبعض الأقاليم الأوربية لعدة سنوات قبيل ذهابه للشرق . ومن ثم فانه تم الاتفاق بين الطرفين على أن يتحرك الملك الانجليزى على رأس حملة صليبية أوروبية للشرق فى عيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ يونية) ١٢٩٣م [١٣٠]. وقد طلب الملك الانجليزى هذا

المتسع من الوقت حتى يكون قد حصل على موارد إضافية من ضريبة العشور الصليبية تكفى الإتفاق على إعداد وتموين حملته . وبطبيعة الحال فان أحدا لم يكن يتوقع هذا الانهيار السريع للمواقع الصليبية فى بلاد الشام .

ولكن هذا الموعد المتأخر يخالف تماما المواعيد التى سبق أن اقترحها بوسكاريللو عام ١٢٨٩ وأكدها السفراء الجدد عام ١٢٩٠ نيابة عن أرغون ، وهى تحرك قوات الطرفين ضد المماليك فى فبراير عام ١٢٩١م .

ولأن إدوارد الأول لم يكن عنده ما يقوله لسفراء أرغون فربما أخبرهم أنه سيخطر ملكهم فيما بعد بموعد قيامه للشرق . وكذلك فعل البابا شفويا لأنه لم يرد كتابة على أرغون إلا فى أغسطس التالى (١٢٩١) كما سنرى بعد قليل .

وعلى الجانب الآخر ، فان أرغون كان يعلق آمالا كبيرة على وصو قوات الأوربيين فى الموعد الذى حدده لهم . ولهذا بدأ فى تنفيذ فكرة جديدة فى ضرب المماليك وهى محاصرتهم اقتصاديا من البحر الأحمر وذلك بضرب سفنهم التجارية من المحيط الهندى إلى طريق البحر الأحمر .

فطبقا للحولية السريانية لابن العبرى تحت حوادث عام ١٢٩٠ ما هو ترجمته :

> أن حوالى مائتين من الفرنجة جاؤا فى نهر دجلة إلى الموصل بأوامر من ملك الملوك (أرغون) كما لو كانوا ذاهبين إلى بابل (بغداد) لبناء سفن هناك لكى يذهبوا إلى بحر بونت (البحر الأحمر) ليهاجموا المصريين . وبعضا آخر من الفرنجة حوالى سبعمائة رجل ذهبوا عن طريق البر ومكثوا فى بغداد طوال فصل الشتاء حتى تكتمل خطتهم . والآن توجد روايات عن الفرنجة فى بغداد تستحق الذكر ... (١٣١).

وينقل المؤرخ الفرنسى ريشارد J . Richard عن روايتين لراهبين كانا حينئذ فى بغداد قول الأول أن هؤلاء «الفرنجة» كانوا جنوية وأنهم قضوا الشتاء فعلا فى بغداد وقاموا ببناء سفينتين، وأن أحد الجنوية استخدم واحدة منهما فى تدمير أحد المساجد فى بغداد مما سبب هياجا لعامة المسلمين بالمدينة . ويروى ريشارد عن الثانى وهو الدمنيكانى وليم آدم William Adam أن البحارة الجنوية ساروا بالسفن حتى ميناء البصرة ، ولكنهم انقسموا إلى فريقين متنازعين ، وأن الفريقين اقتتلا(١٣٢) ولهذا فشل هذا المشروع فى عمل حصار تجارى على المصريين أو ضرب تجارة المماليك فى المحيط الهندى .

المهم أن هذا المشروع قد فشل سواء بسبب القائمين على تنفيذه من الجنوية أنفسهم أو لأن المشروع كان أكبر من إمكانيات مغول فارس والجنوية معا . إذ ماذا يفعل مركبين فى الخليج العربى أمام المماليك الذين كانت لهم السيطرة الكاملة على موانئ البحر الأحمر ؟ خاصة وأن التجار المسلمين كانوا القوة الضاربة فى المحيط الهندى من ميناء الزيتون بالصين شرقا حتى ميناء عدن غربا . ويمكن القول أنها تكرار لمحاولة أرناط أمير الكرك الصليبى عام ١١٨٢م فى الاستيلاء على ميناء أيله والإغارة على الموانى المصرية فى البحر الأحمر تلك التى باءت بالفشل الذريع وقتل الأخير بيد صلاح الدين الأيوبى نفسه جزاء له على تعرضه لأخطر مسألة تهدد المصريين حينئذ وهى تجارة البحر الأحمر .

هذا وقد طرأت تطورات خطيرة على الميدان المقرر للقاء القوات المتحالفة . فبعد هجوم المرتزقة الإيطاليين فى عكا على المسلمين داخل هذه المدينة وخارجها ، فان المنصور قلاوون أمر بتعبئة عامة فى مصر والشام ضد الصليبيين . ولكنه توفى قبل تنفيذ مشروعه بالاستيلاء على عكا . وبعد استقرار الأحوال لولده وخليفته الأشرف خليل (١٢٩٠-١٢٩٣) فانه قاد جيوشه ضد عكا . وبعد حصار مستميت من المماليك ودفاع يائس من الصليبيين سقطت هذه المدينة فى ١٨ مايو عام ١٢٩١ بعد سقوط آلاف القتلى والأسرى من اللاتين دفاعا عنها . وكان من السهل على قوات المماليك السيطرة والاستيلاء على بقية مدن وقلاع الصليبيين وهى بيروت وصور وصيدا وجبيل وعثليث وطرسوس ، وسقطت معظمها دون قتال بعد فرار سكانها لقبرص ، وجميع هذه المواقع تم تدميرها فى الفترة من مايو حتى أغسطس عام ١٢٩١م(١٣٣)، وتم كل ذلك دون أدنى تدخل من أية قوة أوروبية أو مغولية .

وقبل أن تصله أخبار سقوط عكا ، فإن نيقولا الرابع كان قد قرر إرسال بعثة بابوية لحكام غرب آسيا عامة ولمغول فارس خاصة للتبشير بالدين المسيحى ودعوة حكام هذه البلاد (مغول فارس - جورجيا - أرمينيا الصغرى - بيزنطة) للانضمام تحت لواء البابوية . ولهذا فان خطابات البابا لهؤلاء الحكام - ومنهم أرغون خان حتى ٢١ أغسطس ١٢٩١م كانت تتعلق بأمور العقيدة وليس فيها ما يتعلق بالرد على مشروعات الايلخان المغولى فى تحالف مشترك ضد المماليك ، ففى هذا التاريخ كتب نيقولا الرابع لأرغون فى خطابه « ... ونعود ونذكركم بأن تسرعوا وتتنصروا فخراً لكم وازدهارا لمملكتكم وانتشارا لاسمكم فى الأمة المسيحية.. »(١٣٤).

وقد يكون غريبًا أن البابا كان على وشك إرسال سفيريه متى الشيتى Matthew of Chieti ووليم الشيرى William of Chieri باثنى عشر خطابًا لأرغون خان وقادته فى بعثة تبشيرية ، ويتجاهل أن الصليبيين فى بلاد الشام كانوا يلتقطون أنفاسهم الأخيرة . ولكن يمكن تفسير ذلك بأن أنباء سقوط عكا لم تصل للبابا إلا فى يوم ٢٣ أغسطس أى بعد يومين فقط من كتابة خطابه لأرغون. ولم يكن البابا يتوقع سقوط هذه المدينة بهذه السرعة ، أو يتوقع بقية المدن والقلاع فى أثرها . وكان اتفاقه مع الملك الانجليزى أن الأخير سيخرج للشرق فى ٢٤ يونيه عام ١٢٩٣م . ولهذا فان البابا أراد تكريس الجهود فى هذه الفترة فى تحويل المغول أو قادتهم للمسيحية حتي ينضج اعداد حملة ادوارد الاول .

و لكن ما آن علم البابا بسقوط عكا في يوم ٢٣ آغسطس حتي أسرع بكتابة خطاب سياسي بالدرجة الاولي لارغون خان (لاول مرة) بل و أمر سفيره بالذهاب الي تبريز علي الفور دون المرور علي بيزنطة أو أرمنية كما كان مقرراً من قبل .

وتقول سطور هذه الرسالة :

... لاشك أنه قد بلغ مسامعكم عن طريق الرسائل والمندوبين ما جرى للأماكن المقدسة الربانية من سقوط فى أيد غريبة . وقد سقطت أيضا مدينة عكا بالرغم من الجهود التى بذلتها كنيسة روما - كام - كى تصمد ريثما تصلها النجدة من سفن وأموال ومحاربين بناء على طلبها . إلا أن هذه المدينة الحصينة - بعد حصار طويل مرير ليل نهار ، وإحاطة الآلات الحربية بها ودكها لها بلا رحمة ، وتوالى الهجمات عليها وعلى أسوارها - قد سقطت فى يد العدو وأسلمت للنار ونكل بالنصارى الموجودين فى داخلها شرتنكيل . والباقون اقتيدوا أسرى كما سمعنا وعندئذ أرتعشت مدينة صور خوفا واستسلمت حالا .

ولذلك نبهنا جميع الملوك والأمراء المسيحيين أن يسرعوا لإزالة هذا العار . وقد هرع إدوارد ملك انجلترا واتخذ الصليب ، وهو مستعد الآن لركوب البحر .

ونحن واثقون كل الثقة أنكم إذا أيدتم هذه القضية بذراعكم القوية سرعان ما ستجد الحل المنشود . ولذلك فاننا نرجو جلالتكم ونتوسل إليكم وندعوكم بثقة أخوية أن تنتصر خاشعا راضيا وتعمل بأوامره تعالى وتسرع إلى استعادة البلاد المذكورة ، وتذل كبرياء أعدائها ومكرهم ، وتستخدموا ما اعطيتم من قوة ، وبما تحليتم به من عزم وحكمه وتتحرك مع شعبك وباقى ملوك النصارى لاستعادة تلك الأمصار . وسندعو الرب أن يكافئكم خير مكافأة .

ونشكركم على ما تبدون من حسن معاملة للمسيحيين المقيمين فى مملكتكم . كما نرجو أن تحسنوا استقبال مندوبينا متى الشيتى Matthew of Chieti ووليم الشيرى William of Chieri (١٣٥) .

وهكذا كانت المرة الوحيدة التى ردت فيها البابوية على مقترحات أرغون (من خلال أربعة سفارات) بعد سقوط أخر القلاع الصليبية فى بلاد الشام . وحتى أرغون لم يعش ليسمع هذا الرد إذ أنه توفى فى أول مارس من ذلك العام أى قبل كتابة هذا الخطاب بستة شهور . بل أن إدوارد الأول ملك انجلترا خارت عزائمه عندما سمع هذه الأنباء ، وبدأ يتجه إلى مواجهة المشكلات الداخلية فى بلاده (خاصة الحرب ضد اسكتلندا) (١٣٦). وكان على العلاقات المغولية الأوروبية أن تتخذ مسارا جديدا بعد سنة ١٢٩١م على ضوء الظروف السياسية الجديدة .

عهد غازان خان (١٢٩٥-١٣٠٤م)

تولى كيخاتو (١٢٩١-١٢٩٤) الحكم بعد أخيه أرغون . ولم تحدث أية تحرشات من جانبه ضد المماليك أو اتصالات بالغرب الأوربى . وتمرد عليه ابن عمه بايدو وانتزع منه السلطة . ولكن غازان بن أرغون استطاع بعد فترة قتال طويلة اعتلاء عرش الايلخانية فى أكتوبر عام ١٢٩٥م حتى ١١ مايو عام ١٣٠٤م .

ورغم أنه كان مسلما منذ بداية عهده ، وقطع علاقة التبعية بالخاقان المغولى البوذى فى بكين ، وانتهج عدة اصلاحات فى بلاده على النمط الإسلامى (١٣٧). إلا أن العلاقات العدائية مع المماليك لم تتوقف فى عهده مثلما توقفت فى عهد تكودار أحمد (١٢٨٢-١٢٨٤) أول ايلخان مغولى مسلم فى فارس ، بل ازدادت سوءا لدرجة أن غازان قام بغزو الشام ثلاثة مرات وهزم المماليك لأول مرة فى ديسمبر عام ١٢٩٩م - واحتل الشام لعدة شهور حتى مايو عام ١٣٠٠م . ولاغرو أن استمرت اتصالاته ببقايا الصليبيين فى الشرق - وهم فرسان الداوية والاسبتارية فى قبرص وملك قبرص نفسه فضلا عن أتباعه الأرمن - وبالغرب الأوربى على حد سواء .

وإذا كان غازان قد قرر انتهاج السياسة التقليدية لأسلافه بمحاولة ضم بلاد الشام لسيطرته، فلقد شجعه على ذلك فترة عدم الاستقرار فى السلطنة المملوكية بحيث أن أربعة سلاطين اعتلوا العرش فى أقل من عشرة أعوام (١٢٩٠-١٢٩٩) وقتل اثنان منهم ، وطرد الثالث ، ونفى الرابع مؤقتا لإمارة الكرك (١٣٨).

ومهما يكن من أسباب غزو غازان للشام (١٣٩)، فانه بعد دخوله إلى بلاد الشام وقبيل التحامه مع المماليك كان قد أرسل رسالة عن طريق سفيره إيسول البيزى Isol of Piza لملك قبرص ومقدمى الاسبتارية والداوية هناك يطلب منهم الانضمام له فى حملته . وفى نوفمبر عام ١٢٩٩ عقد الأخيرون اجتماعا لاتخاذ قرار بهذا الشأن ، ولكنهم رفضوا التحالف مع غازان رغم أنه أرسل لهم رسالة ثانية فى نهاية ذلك الشهر (١٤٠). ومن ثم اضطر الخان المغولى للاعتماد على قواته بالإضافة إلى الأرمن : الحليف الطبيعى للمغول . واستطاع هزيمة المماليك فى ٢٢ ديسمبر عام ١٢٩٩ م وطردهم من الشام كلية وإنابة قبجق – حليف غازان والمتمرد على أخوانه المماليك فى القاهرة وأتباعه وبعضا من قواد المغول على المدن الشامية .

ولكن غازان اضطر للانسحاب من الشام لأسباب داخلية فى بلاده ومنها هجوم مغول الجغطاى على الحدود الشرقية لإيران . واتحد المماليك الذين كانوا موالين لغازان أثر ذلك مع أقرانهم فى مصر وطردوا الحاميات المغولية من الشام فى مايو عام ١٣٠٠م بعد فترة احتلال مغولى لها قاربت ستة شهور (١٤١).

وكان غازان قد أرسل للقبارصة رسولا بأنه سيغزو الشام فى الشتاء التالى وعليهم مقابلته فى أرمينيا لإعادة غزو بلاد الشام نظير إعطائهم المدينة المقدسة ، وقام القبارصة والداوية والإسبتارية – لعلمهم بقوة المغول وجديتهم هذه المرة – بغارات ضد عكا وطرسوسه وجزيرة أدوارد – التى كانت فى البحر أمام طرسوسه ، وأرسلوا قوة صغيرة لأرمينيا الصغرى . ولكن قوات المغول لم تلحق بهم إذ أن المغول قد أغاروا على شرق سوريا حتى حمص وتراجعوا بسرعة(١٤٢) ولم تثمر هذه الاتصالات شيئا .

وقد كان رد فعل الغرب الأوربى تجاه استيلاء قوات غازان على الشام فى ديسمبر عام ١٢٩٩م خليطا من الفرحة الغامرة التى اختلطت بالأساطير والنبوءات – والإشاعات التى رددها الأوربيون عام ١٣٠٠م(١٤٣) كنوع من التعويض النفسى لدى هذه الشعوب التى رفضت أن تعترف بهزيمتهم من المسلمين .

وعلى أثر ذلك ، سارع البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣) بارسال خطابات للملوك وأمراء الغرب الأوربى – ومنهم إدوارد الأول – فى ٧ أبريل عام ١٣٠٠ يبلغهم فيها بالأخبار السارة عن استعادة الأراضى المقدسة بواسطة غازان وإعادتها للمسيحيين . وفى هذه الخطابات يطلب من هؤلاء الملوك حث رعاياهم على الرحيل للأراضى المقدسة حيث منحهم البابا

امتيازات الغفران الكامل . وفى ٢٠ سبتمبر أرسل الأخير خطابات لقادة رجال الدين الذين كانوا فى الأراضى المقدسة قبل سقوط عكا يحثهم على العودة لكنائسهم فى تلك البقاع[١٤٤]. وقد ساعد على تصديق إشاعة أن غازان هزم المماليك لصالح المسيحيين ، وصول سفارة من غازان فى ذلك الصيف (عام ١٣٠٠) لروما على رأسها الفلورنسى جويسكارد بوستارى Guiscard Bustari تعرض التحالف مع الأوربيين [١٤٥]. وفضلا عن ذلك فان عام ١٣٠٠ كان عام الغفران Jubilee Year بمناسبة مرور ثلاثة عشر قرنا على مولد المسيح «عليه السلام» . وكان البابا قد منح امتيازات الغفران للنصارى الذين سيحجون لروما فى ذلك العام . ولهذا حمل آلاف الحجاج - الذين كانوا فى روما - أخبار هذه السفارة المغولية والإشاعات التى سبقتها إلى بلادهم فى مختلف أنحاء أوروبا [١٤٦]. ولهذا فلا عجب أن العديد من الحوليات الأوربية المعاصرة قد تناقلت هذه الأنباء وأضافت عليها الكثير [١٤٧]. وهذا يعنى أن الأوربيين كانوا يعيشون فى الفترة من فبراير حتى أكتوبر عام ١٣٠٠م تحت وهم أو أمل أن الرب قد أرسل المغول نيابة عنهم للانتقام من أعدائهم ، وأنهم استعادوا الأراضى المقدسة لهم ولكن هذه المرة بلا حملات صليبية .

أما النموذج العملى لرد الفعل الأوربى تجاه استيلاء غازان خان على الشام فقد جاء على يد جيمى الثانى ملك أراجون (١٢٩١-١٣٢٦م) الذى أرسل خطابا إلى غازان فى ١٨ مايو عام ١٣٠٠ (قبيل رحيل المغول من الشام) موجه إلى «أعظم وأقوى ملوك المغول ، وملك كل الشرق » . وفيه يبلغ جيمى الثانى الخان المغولى كيفية تلقيه الأنباء السارة بانجازات المغول ضد أعداء الرب» ، وأعلن استعداده بتقديم السفن والبحارة والفرسان وكل مواد التموين اللازمة لجيش المغول ، وطلب من غازان أن يبلغه بما يريده منه فى هذا الشأن . ويمضى قائلا «وقد أمرنا أن كل رعايانا الراغبين فى الذهاب لهذه البلاد لتمجيد الرب ولتقوية جيشكم أن يذهبوا فورا بدون تأخير » . وفى مقابل ذلك طلب جيمى الثانى من غازان إعطائه خمس الأراضى المقدسة التى استولى عليها وتلك التى سيحتلها فيما بعد ، والتصريح لرعاياه بزيارة الأماكن المقدسة دون دفع أية ضرائب أو رسوم [١٤٨].

والحقيقة أن خطاب ملك أراجون للخان المغولى خير دليل على العقلية الأوربية الجديدة فى بداية القرن الرابع عشر التى تعطى المصالح الشخصية الأهمية القصوى بعيدا عن الروح الصليبية التى بدأت فى الفتور منذ باكورة القرن الثالث عشر . ، ولكن أهمية إرسال هذا الخطاب من جيمى الثانى بصفة خاصة تتضح فى أمرين :-

أولا : أنه كانت هناك معاهدة بين ألفونسو الثالث ملك أراجون (١٢٨٥-١٢٩١) وشقيقه جيمى الثانى نفسه باعتباره ملكا لصقلية (١٢٨٥-١٢٩٥) من ناحية وبين المنصور قلاوون من ناحية أخرى مؤرخة فى ١٣ ربيع الآخر ٦٨٩هـ / ٢٣ أبريل ١٢٨٩ م تنص على «أنه متى طلب البابا ملوك الفرنج والروم والتتار وغيرهم من الملك الريدراغون أو من إخوته أو من بلاده الجادا أو معاونة أو خيالة أو رجالة أو مال أو مراكب أو شوانى أو سلاح لايوافقونهم على شئ من ذلك لافى سر ولا فى جهر ، ولايعين أحدا منهم ولايوافقه على ذلك ... »[١٤٩] وهذا يعنى أن بنود هذه المعاهدة - التى ما زالت سارية المفعول - تشمل التتار أيضا من ضمن أعداء المماليك الذين يخطر على جيمى الثانى مساعدتهم .

ثانيا : أنه فى عام ١٣٠٠ م على وجه الخصوص أرسل جيمى الثانى سفارته الأولى إلى مصر للسلطان الناصر محمد بن قلاوون . ورد عليه الأخير بخطاب مؤرخ فى ١٣ شوال سنة ٦٩٩هـ / ٦ أبريل ١٣٠٠م أجابه فيه لطلباته بتأمين تجار بلاده داخل بلاد السلطان ، وتبادل التجارة مع أراجون ، وتمكن رعايا أراجون من زيارة بيت المقدس «آمنين مطمئنين»[١٥٠].

ويتضح من أخبار هذه السفارة أن رد المماليك على ملك أراجون كان يوم ٦ أبريل ١٣٠٠ م ، وأن سفارة وخطاب ملك أراجون لغازان خان كانا فى يوم ١٨ مايو من نفس العام . وهذا يعنى أن جيمى الثانى راسل الطرفين وأراد أن يضمن لبلاده ، مركزا تجاريا مأمونا فى شرق البحر المتوسط ، ولرعاياه حرية وسهولة دخول الأراضى المقدسة مع القوتين المتصارعتين عليها ، حتى إذا ما انتصرت قوة على أخرى يكون مع الكفة الراجحة !

وعموما لم يحدد الدكتور عزيز سوريال عطيه» - باعتباره ناشرا لوثائق سفارات أراجون مع مصر - متى خرجت السفارة الأولى لجيمى الثانى متجهة إلى مصر ، ولكنه يحدد تاريخ الرد عليها بالسادس من أبريل ١٣٠٠ . ومن المؤكد أن أنباء هزيمة المماليك فى موقعة حمص الثانية (٢٣ ديسمبر ١٢٩٩) لم تصل لغرب أوروبا عامة ولملك أراجون خاصة قبل أول مارس عام ١٣٠٠ ومن الواضح أن جيمى الثانى أرسل سفارته إلى المماليك قبل هذا التاريخ : أى قبل أن يعلم بانتصار المغول على المماليك واحتلالهم بلاد الشام . ولكن عندما وصلته الأنباء اعتقد أنه الانتصار الحاسم للمغول وأنهم أصبحوا سادة الشام . ولهذا اختار أن يتقرب اليهم ، لأنه لو استمر هذا الوضع طويلا - فان المماليك لم يعد فى استطاعتهم تأمين تجارته ولا تأمين دخول رعاياه للأراضى المقدسة التى أصبحت فى يد المغول .

وإذا كان ملك أراجون قد اختار التعامل مع المغول باعتبارهم السادة الجدد للأراضى المقدسة ، وأنه قد طلب منهم خمس هذه البقاع وما سيفتحونه مستقبلا نظير مساعدتهم بقوات رمزية فى حين أن مطالبه للمماليك كانت متواضعة جدا وهى مجرد السماح لرعاياه بزيارة الأماكن المقدسة وتأمين تجار بلاده ، فذلك لأن المماليك لم يكونوا فى حاجة لمساعدته العسكرية ضد المغول .

وإذا كان خطاب جيمى الثانى لغازان خان قد كتب فى ١٨ مايو عام ١٣٠٠فان القوات المغولية قد طردت من بلاد الشام فى نفس هذا الشهر ، ولهذا فلم يكن له أى أثر على مجريات الأحداث فيما بعد . ومن المؤكد أيضا أن المماليك لم يعلموا بأمر هذه الاتصالات بين جيمى الثانى والمغول ، وذلك لأن الملك الأراجونى سرعان ما أرسل سفارته الثانية للقاهرة بخطاب مؤرخ فى الأول من يونيه عام ١٣٠٣ . وقد قوبلت هذه السفارة بترحيب بالغ من المماليك وأجيب إلى طلباته [١٥١]. ولو أن المماليك قد علموا بما تقدم لكان رد فعلهم عنيفا تجاه جيمى الثانى وسفرائه وتجار بلاده فى الموانى المصرية .

ومهما يكن من أمر ، فقد أرسل غازان سفارته الثانية للغرب الأوروبى بقيادة بوسكاريللو جيزولفو - السفير السابق لأرغون - عام ١٣٠٢م . ويروى أن أعضاء هذه السفارة من المغول قد تنصروا فى روما . وأن البابا أرسل معهم تاجا من الذهب إلى غازان «لغفران الملك من ذنوبه ، ولأنه قد أعاد إقامة التراتيل المسيحية فى الأراضى المقدسة » [١٥٢]. وكان غازان قد اشار للبابا فى رسالته المؤرخة فى أبريل من ذلك العام لمراسلات أسلافه بالغرب الأوروبى ، وحث بونيفاس الثامن على إعداد قوات لمهاجمة المماليك معا . وقد ظهر السفراء المغول فى لندن فى مارس عام ١٣٠٣ .

وإذا كان خطاب الخان المغولى للملك الانجليزى لم يعثر عليه بعد ، فان رد إدوارد الأول فى ١٢ مارس يوضح محتوياته ، ويبدو أن غازان قد اشتكى من طول الفترة التى لم يحاول فيها «الفرنجة» الاتصال بالمغول للتعاون معهم لاسترداد الأراضى المقدسة ، وذلك لأن الملك الانجليزى يبلغ غازان بأن الممالك المسيحية كانت فى حالة حرب مع بعضها وأن السلام بدأ يسود فى أوروبا وأن هذه الممالك سوف تتحد مرة ثانية لاسترداد الأراضى المقدسة . وعدا ذلك فلم يحمل السفراء المغول وسفراء إدوارد الأول المرافقين لهم لغازان خان أية ردود عملية ، لأن الملك الانجليزى كان مشغولا بمشكلة اسكتلندا ، والملك الفرنسى كان فى نزاع مرير مع البابا بونيفاس الثامن[١٥٣] ذلك النزاع الذى نتج عنه نقل البابوية من روما إلى مدينة أفينون الفرنسية بعد ذلك بأقل من عامين .

ونظرا لأن الموقف فى بلاد الشام لم يكن قد حسم بعد بين الطرفين المتصارعين عليها ، فان غازان قد أرسل جيشه مع حلفاء المغول الطبيعيين من الأرمن ومن جورجيا المسيحية ، حيث تقابلت قواته مع قوات المماليك فى موقعة مرج الصفر (شقحب) بجوار حمص في رمضان ٧٠٣ هـ / أبريل ١٣٠٣ م . وحلت الهزيمة الفادحة بالمغول و حلفائهم و قضي علي أغلب جيشهم في هذه المقعة قتلا وأسرا[١٥٤]. و توفي غازان في مايو عام ١٣٠٤ . و بموته انتهت أخر جولة في الصراع بين مغول فارس و المماليك بهزيمة المغول للمرة الرابعة . ولم يحاول مغول فارس بعد ذلك خوض هذه التجربة المريرة ، اذ تأكدت السيادة المملوكية في شرق البحر المتوسط بصفة نهائية لمدة قرنين من الزمان تقريبا .

عهد أولجايتوخان (١٣٠٤- ١٣١٦م)

أوفد أولجايتوخان (أوخدابندا و معناها عبد الله باللغة الفارسية) فور ا عتلائه العرش بعد محمود غازان – سفارة للمماليك تحمل خطابا يؤكد حرصه علي توثيق روابط الصداقة بين الطرفين ، و سأل الناصر محمد بن قلاوون اخماد الفتنة و احلال الصلح بين الطرفين . وقال في نهاية رسالته « عفا الله عما سلف ، و من عاد فينتقم الله منه » . و قد قابل المماليك هذه السفارة بترحاب وردوا عليها بالمثل[١٥٥].

و لكن ظهرت بعض الخلافات التي عكرت صفو هذا السلام بين الطرفين ، فتوتر العلاقات بين مغول روسيا –أصدقاء المماليك الدائمين –وبين مغول فارس ، و طلب طقطاي بن منكوتمر ملك القفجاق (١٢٩١-١٣١٢ م) عن طريق سفارته للناصر محمد عام ١٣٠٥ التحالف معه ضد مغول فارس –قد بذر الاشواك في طريق السلام.فضلا عن أن اولجايتو كان شيعيًا متطرفا ضد أنصار المذهب السني ، و هذا أساء للمماليك بأعتبارهم حماة الخلافة ا لعباسية السنية بالقاهرة كما أن إغارة المماليك علي أرمينيا الصغري قد أغضبت الخان المغولي في فارس . فضلا عن ايواء المماليك للهاربين من أولجيتو و المتمردين عليه[١٥٦] .و قد دفعت هذه الاسباب الخان المغولي الي البحث عن حلفاء جدد ضد المماليك و هم الاوروبيين جريا علي سياسة أسلافه .

و يتضح من خطاب أولجايتو لملوك غرب أوروبا –و الذي عثر علي نسخة منه في الارشيفات الفرنسية –أن التجار الإيطاليين في فارس قد اقنعوه أن الأحوال السياسية في أوروبا حينئذ مستقرة ، و هذا ما شجعه علي إرسال سفارته عام ١٣٠٥ .

ففي هذا الخطاب المؤرخ في صيف عام ١٣٠٥ ، يذكر أولجايتو فيليب الرابع بالعلاقات الودية بين أسلافهما ، و يخبره أن أحفاد جنكيز خان ليس بينهم حروب و لكن السلام و التفاهم و يطلب من الملك الفرنسي تبادل السفراء وتكثيف الاتصالات بين الطرفين لانه لما الي علمه «أنكم يا سلاطين الفرنجة متفاهمون جميعا مع بعضكم ،وليس هناك أفضل من التفاهم ، فسنقف -بقدرة السماء - صفا واحدا في وجوههم ، والسماء شاهدة علي ما نقوله » (١٥٧).

و رغم أن هذا الخطاب لا يحمل أية أشارة لطلب التعاون المشترك ضد المماليك ، فان بعض المؤرخين يعتقدون أن الجملة المترجمة نصا بعاليه تحمل هذا المعني - دون التصريح به . فضلا عن ذلك ، فان النسخة الاصلية لهذا الخطاب - الموجودة حتي الان بالارشيفات الفرنسية - يوجد بها ترجمة إيطالية لهذا الخطاب قام بها توماس أوجي السيني-Thomas Ugy of Siena أحد سفيري أولجايتو . ولاحظ الباحثون الذين اطلعوا علي هذه النسخة عبارة باللغة الايطالية تفيد أن السفيرين تومان (أي توماس) و مالغ سوف يشرحان للمرسل إليهم كثيرا من التفاصيل شفاهة (١٥٨).

و من ثم فليس معروفا - حتي الان علي وجه اليقين - هل هذه العبارة الايطالية أضافها السفير المغولي- و هو إيطالي أيضا - من عند ياته كجواز مرور للمبالغات التي نقلها لقادة الغرب الاوروبي عن استعدادات سيده للتحالف معهم ضد المماليك دون الاشارة إليها في الخطاب الرسمي للخان المغولي ؟ أم أن هذه الاقوال صرح بها اولجايتو نفسه ؟ و إذا كان الامر كذلك فلماذا لم يتضمنها الخطاب الاصلي ؟ و هل خوف الخان المغولي من وقوع السفراء في يد المماليك - الذين كانو يسيطرون علي السواحل الشامية و لهم علاقات ودية مع بيزنطة - وحرصه علي أستمرار السلام معهم هو الذي جعله يكتب رسالته الرسمية بحرص بالغ دون الاشارة لهم أو للعداء معهم أو طلب التحالف ضدهم و طلب من سفيره ترجمة هذا الخطاب في أوروبا للايطالية و إضافة ما كان يريدأن يقوله ؟

عموما واضح أن الملك الفرنسي لم يرد علي هذا الخطاب لان الاراضي المقدسة لم تعد تعنيه فى شيء .

و قد وصلت هذه السفارة لانجلترا في أكتوبر عام ١٣٠٧ بعد وفاة إدوارد الاول -(في ٧ يولية ١٣٠٧) و إعتلاء ابنه إدوارد الثاني العرش الانجليزي (١٣٠٧-١٣٢٧) . وقد عثر علي خطابين من إدوارد الثاني للخان المغولي ردا علي هذه السفارة .وتضمن الخطاب الاول

المؤرخ في السا دس عشر من أكتوبر عام ١٣٠٧ من ساوثميتون رغبة العاهل الانجليزي في استمرار الصداقة مع الخان المغولي[١٥٩] و لكنه لم يحدد أية التزامات أو تعهدات جديدة .

و من الواضح أن سفيري أولجايتو قد تناقشا مع الملك الإنجليزي و مستشاريه في الاحوال الداخلية لا يلخانية فارس . و لكن من المؤكد أنهما لم يبلغا ادوارد الثاني و غيره باعتناق اولجايتو للاسلام . ويبدو أن هذا الامر كان بتعليمات من الخان نفسه ، لان عبارات رسالته لقادة غرب أوروبا تخفي إسلامه تماما حتي أن عبارات بوذية مثل «بقدرة السماء -السماء وهبتنا الراي -بفضل السماء - كتب هذا الخطاب في عام الحية (أي عام ١٣٠٥) قد تضمنتها رسالته للاخفاء و التمويه عن اعتناقه الاسلام [١٦٠].

و اعتقاداً من إدوارد الثاني بأن اولجايتو مسيحي ،او يميل للمسحيين او علي الاقل ليس مسلما ، فانه في خطابه الثاني المؤرخ في ٣٠ نوفمبر عام ١٣٠٧ يهاجم العقيدة المحمدية و يصف نبي الاسلام (ص) بصفات تدل علي جهله التام بمجريات الامور في ايلخانية فارس في ذلك الوقت . فيطالب اولجايتو بالتخلص من المسلمين و من كل أتباع محمد و كتبه ، و يبلغه أنه لولا بعد المسافة بينهما و عوائق اخري لما تأخر عن مساعدة الخان المغولي في تخليص وجه الارض منهم ! و يبلغ الاخير أن نخبة من هيئة الفرنسسكان ستصل لبلاده رفق سفارته كي تنتشر العقيدة المسيحية الكاثولكية «و بدونها لن ينجي احد من الهلاك » و يطلب من الخان المغولي حسن استقبالهم و رعايتهم و حمايتهم و كتب إدوارد الثانى - فى نفس الوقت - خطابين بشأن هذه البعثة التبشيرية للبابا وللملك أرمينيا الصغرى . وليس هناك أية دلائل تفيد ذهاب هذه البعثة مع سفارة اولجايتو أو بعدها . ولكن هذا الرد يدل على إفلاس الملك الانجليزى - وهو الوحيد الذى تعتمد عليه البابوية لاسترداد الأراضى المقدسة سياسيا ، فأراد تعويض ذلك بمحاولة تحويل المغول والمسلمين معا للمسيحية، ولم يعلم أن عكس ما يريد قد حدث فى ايلخانية فارس .

وقد استدعى البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤) فى تلك الأثناء هيتون ابن أخى الملك الأرمنى هيثوم الأول- الذى كان موجودا فى فرنسا حينئذ - لكتابة تقرير مفصل عن مميزات ومخاطر التعاون مع التتار باعتبار أنه قد شارك بالفعل مع جنوده الأرمن فى بعض المعارك ضد المماليك - التى كان المغول طرفا فيها - ومن ثم فانه على دراية كاملة بالظروف والملابسات السياسية فى الشرق الأدنى، وقد سلم هيتون تقريره المعنون بـ «زهرة تو اريخ الشرق LaFlor des Estoires de la Terre d` Orient للبابا فى أغسطس عام ١٣٠٧م[١٦١].

ولهذا فعندما رجعت سفارة اولجايتو من انجلترا ووصلت إلى روما فى بداية عام ١٣٠٨، فان البابا قد كتب رسالة إلى الخان المغولى مؤرخه فى الأول من مارس من ذلك العام (١٦٢). ويقول البابا فى رسالته لاولجايتو أنه تلقى سفارته وخطاباته بسعادة وسرور بالغين ، وعلم ما فى خطاباته ومن أقوال السفيرين نيابة عنه أن الخان سيعد مائتى ألف حصان ومائتى ألف كيس من القمح فى مملكة أرمينيا الصغرى لزوم إمداد وتموين الجيوش الأوربية حين قدومها «لتحرير» الأراضى المقدسة ، بالإضافة إلى أن الخان سيكون بنفسه على رأس مائة ألف فارس لتدعيم هذه القوة لطرد المسلمين من الأراضى المقدسة . ويقول أن هذا العرض السخى من الخان «قد قوى عضدنا مثل الغذاء الروحى تماما» ويبلغ البابا المرسل إليه بأنه حالما يأتى موسم مناسب لعبور البحر فانه سيبلغه عن طريق سفارة من لدنه بموعد وكيفية وصول قوات الأوربيين للشرق . ويلح كليمنت الخامس على الخان المغولى أن يواصل مساعيه وجهوده من ناحيته لتخليص البقاع المقدسة « من أعداء الرب الذين دنسوها » . وفى نهاية رسالته ، يقول البابا للخان أنه والكنيسة الرسولية سوف يسعدوا بنجاحه ومجده فى الدنيا والأخرة (١٦٣).

والرأى عندى أن العروض الخيالية بتوفير هذا العدد غير المعقول من الخيول وأجولة القمح والفرسان لخدمة الجيوش الأوربية لاسترداد الأراضى المقدسة كانت محض مبالغات من أفواه السفير الإيطالى الأصل . لأن خطاب اولجايتو الرسمى الذى يحمل خاتم وتوقيع الخان لم يتضمن كلمة واحدة عن هذا الأمر . ثم أن أرغون نفسه - وكان بوذيا وفى قمة حاجته ولهفته للتحالف مع الأوربيين - عرض عليهم إمدادهم بعشرين ألفا من الخيول بأسعار معتدلة ، فكيف يعرض عليهم اولجايتو عشرة أضعاف هذا الرقم ومثله من أجولة القمح ومائه ألف من الفرسان (مجانا) وهو مسلم وكان فى حالة صلح مع المماليك ولايحتاج لأية مُساعدة عاجلة أو تحالف مُلح مع الأوربيين ؟ !

ويرى الباحث أيضا أن المستشارين الأوربيين لخانات مغول فارس - وغالبيتهم من التجار الإيطاليين المغامرين - هم الذين ورطوهم فى إرسال العديد من السفارات لأوروبا وذلك باقناعهم باستجابة الأوربيين للتحالف معهم حالما تسمح ظروفهم بذلك . وكان يهم التجار الإيطاليون - الذين اختارهم المغول سفراء لهم - أن يتنقلوا بين فارس وبلادهم على نفقة وتحت حماية أسيادهم المغول وفى نفس الوقت يحملون معهم البضائع جيئة وذهابا . وفى نفس الوقت ، كانت المدن التجارية الإيطالية حريصة على أن يتم هذا التحالف فعلا لأن نقل آلاف الفرسان

والمشاة من أوربا لميدان المعركة فى بلاد الشام سيكون على سفن تابعة لهذه المدن وكذلك تموينهم وإعدادهم بضرورات الحياه ، فضلا عن حصولهم على امتيازات تجارية واسعة فى السواحل الشامية ، وذلك لمعرفتنا أن المدن الايطالية كانت هى الرابح الوحيد - تقريبا - فى أوربا من الحملات الصليبية السابقة ، بل ويرجع غنى وازدهار جنوة والبندقية وبيزا لهذا الأمر بصفة أساسية . وكان يهم التجار الايطاليون فى فارس أيضا السيطرة على طرق التجارة المارة بفارس والخليج العربى لحرمان التجار المسلمين من دور الوسيط فى نقل سلع الشرق الأسيوى للغرب الأوربى ولتعويض خسائرهم الفادحة فى هذا المجال والناجمة عن سقوط الموانى الصليبية فى أيدى المسلمين حتى عام ١٢٩١م .

ومهما يكن من أمر ، فحتى تلك العروض الخيالية المنسوبة للخان المغولى لم تحرك الأوربيين لإرسال حملة صليبية لانشغالهم بمشاكلهم الإقليمية واهتماماتهم الجديدة .

ومن المعروف أن هذه الفترة قد شهدت ظهور العديد من المنظرين والفلاسفة من رجال السيف والقلم فى غرب أوروبا الذين كتبوا التقارير والمذكرات والخطط وعرضوها على البابوية وملوك وأمراء بلادهم يوضحون فيها أسباب فشل الصليبيين فى الاحتفاظ بمواقعهم فى الأراضى المقدسة ، وأنسب الطرق لاسترداد هذه البقاع . فمنهم من اقترح ضرورة القضاء على المماليك بحصارهم اقتصاديا ، واقترح فريق ثان تنصير المغول والمسلمين معا لكسبهم إلى جانب الأوروبيين تحت لواء البابوية . وطالب فريق أخر بتوحيد كافة القوى السياسية فى أوروبا وكذلك المدن التجارية الايطالية والهيئات الدينية والعسكرية تحت لواء البابوية وتحت راية الصليب [١٦٤]. وهذه التقارير النظرية لم تؤت ثمارها لأنه كان يصعب تطبيقها عمليا فى ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية فى أوروبا وفى الشرق العربى الإسلامى مختلفة تماما عما كان عليه الحال فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى .

عهد أبو سعيد (١٣١٦-١٣٣٥م)

إذا كان الغرب الأوروبى قد تجاهل عروض ملوك مغول فارس السابقة بالتعاون المشترك معهم ضد المماليك ، فان بعض قادته قد أحسوا فى عام ١٣٢٠م بالحاجة الماسة لهذا التعاون ولكن بعد فوات الأوان .

إذ أن مفاوضات الصلح كانت قد بدأت بين المماليك وبين أبو سعيد فور اعتلاء الأخير العرش المغولى (١٣١٦-١٣٣٥م) عن طريق التاجر أبو المجد السلامى . وفضلا عن اعتناق

خانات المغول للدين الإسلامى ، فان مفاوضات الصلح الجدية مع المماليك منذ عهد اولجايتو قد جعلت مملكة أرمينيا الصغرى فى موقف لاتحسد عليه ، وقد انتهز المماليك هذه الفرصة وأرسلوا القوات للإغارة على تلك المملكة حيث عاثت فيها قواتهم فسادا وتخريبا ، فضلا عن أسر حوالى عشرين ألفا من سكانها عام ١٣٢٠م . ولهذا أرسل ملكها أوشين الأول (١٣٠٨-١٣٢٠) رسالة استغاثة للبابا حنا الثانى والعشرين (١٣١٦-١٣٣٤م) فى يونيه عام ١٣٢٠ يوضح فيها مدى الخراب والدمار الذى لحق ببلاده ، ولكن الأخير رد عليه بأن ملوك أوروبا فى حالة حرب مع بعضهم البعض ، ولهذا فهو لايستطيع أن يساعده إلا عن نفسه فقط ، ومن ثم أرسل له ثلاثين ألف قطعة ذهبية ، وأرسل خطابا لكل قادة غرب أوروبا لمديد العون للأرمن ، ولكن لم يستجب له أحدا (١٦٥).

ولهذا أرسل البابا خطابين فى ١٢ ، ١٣ يوليه عام ١٣٢٢م للخان المغولى أبوسعيد ، وفى الخطاب الأول يدعوه لاعتناق المسيحية ، ويذكره بالعلاقات الودية بين البابوية وأسلافه ، ويطلب منه إعادة سفرائه لروما والاتصال بالملك الفرنسى (١٦٦).

ويركز البابا اهتمامه فى الخطاب الثانى على المسألة الأرمينية ، فيوجه نظر أبو سعيد إلى أن الأرمن كانوا حلفاء دائمين لأسلافه ضد عدوهم المشترك : المسلمين ، وأنه من العدل أن يناصرهم ضد «الأتراك» أى المماليك الذين خربوا بلادهم . ومن ثم فقد حث حنا الثانى والعشرين أبو سعيد على تقديم العون العاجل للأرمن (١٦٧).

ولكن مفاوضات الصلح بين أبو سعيد والناصر محمد بن قلاوون قد نجحت فى إحلال السلام والمودة محل الحروب والمنازعات فى عام ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م. واتفق الطرفان على عدم إيواء المتمردين أو الفارين من وجه أحدهما للأخر أو التحالف ضد أحدهما الأخر ، وعلى فتح طريق التجارة وتأمين التجار بين البلدين ، وذكر اسم أبو سعيد مع اسم الناصر محمد على منابر مكة . واستقرت الأمور بين الطرفين خاصة وأن أبو سعيد كان سني المذهب أيضا (١٦٨).

ولا عجب أن أبو سعيد لم يرد على سفارة البابا ، لأنه لم يعد فى حاجة له أو لغيره . فالضرورة التى جعلت أسلافه يراسلون الغرب قد انتهت حينئذ بعقد صلح دائم مع المماليك .

ولكن إذا كانت العلاقات السياسية قد توقفت مع الغرب الأوربى منذ ذلك الحين بسبب الصلح مع المماليك ، فهذا لايعنى انقطاع الصلات بين مغول فارس وأوربا ، بل استمرت البعثات التبشيرية الكاثوليكية تؤدى مهامها فى ايلخانية فارس وازدادت انتشارا وكثافة فى

عهد أبو سعيد لأنه كان مثل معظم أسلافه غير متعصب مع أو ضد أى عقيدة أو ملة . واستمر التجار الإيطاليون فى الإيلخانية فترة من الزمن (حتى بعد وفاة أبو سعيد وانتهاء دولة الإيلخانية بموته دون وريث) وكانت لهم امتيازاتهم ومعاهداتهم المقررة مع مغول فارس كما سنرى فى الفصلين القادمين من هذا البحث .

أسباب فشل التحالف المغولى – اللاتينى ضد المماليك

نستطيع من الدراسة السابقة الخروج بعدة ملاحظات :

أولا : أن الاتصالات بين مغول فارس واللاتين بدأت بسفارة من بطريرك مملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا عام ١٢٦٠ قبيل موقعة عين جالوت لجس نبض موقف هولاكو منهم ولم يكن لها أية دوافع أخرى بدليل أن شخص السفير وهو ديفيد الأشبى كان راهبا ، ولكن كانت أول سفارة لطلب التحالف بين الطرفين ضد المماليك من جانب مغول فارس فى عام ١٢٦١م بعد هزيمتهم فى عين جالوت وتورطهم فى حرب مع مغول روسيا .

ثانيا : كان قادة الغرب الأوربى يطلبون فى جميع ردودهم على ايلخانات فارس أن يعتنقوا المسيحية على المذهب الكاثوليكى قبل تنفيذ هذا التحالف ، وكانت ردود الايلخانات أنهم يقومون بحماية المسيحيين والبعثات التبشيرية التى أرسلها الغرب وكنائسهم واعفائهم من الضرائب .

ثالثا : لم يفكر الغرب الأوربى – لظروف سياسية ولأسباب أخرى – جديا فى مشروع التحالف مع المغول إلا فى أغسطس عام ١٢٩١ أى بعد سقوط عكا وما تبعها من البقية الباقية من ممتلكات الصليبيين فى بلاد الشام أى بعد فوات الأوان ، رغم أن أرغون وحده أرسل لهم أربعة سفارات وحدد معهم موعد ومكان ذهاب قواته لبلاد الشام انتظارا لهم . وقدم حلولا ميسورة لمشاكل الإمداد والتموين للقوات الأوربية ، ورغم أنه نسب لاولجايتو تقديم عروض لتسهيل وجود الجيوش الأوربية فى الشرق الأدنى تسيل لعاب العسكريين . ولكن ذلك كله لم يكن حافزا للغربيين للذهاب للشرق حتى لو كان فى ذهابهم إليه إنقاذاً لبقايا الصليبيين الذين كانوا يلفظون انفاسهم الأخيرة تحت سيوف المماليك .

رابعا : كان لبعض القوى الصليبية فى الشرق الأدنى دوراً ما – وإن كان هامشيا – فى مرتين فقط من أربعة معارك حدثت فى بلاد الشام بين مغول فارس والمماليك . وكانت

ردود فعل الأخيرين ضربة قاضية لهم . فقد اشترك بوهيموند السادس حاكم انطاكية بقواته مع المغول فى عامى ١٢٥٩، ١٢٦٠م ، وكانت النتيجة هى استيلاء المماليك على انطاكية عام ١٢٦٨م والانتقام من سكانها بالقتل والأسر ومن المدينة نفسها بتسويتها بالأرض، وفى عام ١٢٨١ تحالف اسبتارية المرقب مع المغول فى موقعة حمص الأولى ضد المماليك وفى المرة الثالثة (١٢٩٩م) طلب غازان من القوى الصليبية فى قبرص الاشتراك معه فى قتال المماليك ، ولكنهم رفضوا. ورغم ذلك فانه بعد انتصار غازان واحتلاله بلاد الشام توهموا أن المغول كانوا يحاربون معركتهم من أجل أن يستردوا لهم القدس !! وفى المرة الرابعة والأخيرة (١٣٠٣م) لم يدعوا ولم يشتركوا. وغنى عن القول أن المغول انتصروا فى مرة واحدة فقط (عام ١٢٩٩) ولم يستفيدوا من هذا النصر لانسحابهم من بلاد الشام بعد ذلك بعدة شهور وهزيمتهم بعد ذلك بأربعة أعوام .

خامسا : المرة الوحيدة التى طلب فيها من مغول فارس تنفيذ تعاونهم المشترك مع اللاتين ضد المماليك كانت أثناء وجود حملة الأمير إدوارد الانجليزى عام ١٢٧٠ فى عكا ولانشغال قوات أبغا على حدوده الشرقية فانه أرسل نائبه فى دولة سلاجقة الروم لبلاد الشام ولكن قواته انسحبت فور علمها بتقدم قوات المماليك دون الالتحام معها أو مع قوات حملة ادوارد .

وهكذا لم يخرج مشروع التحالف المشترك لحيز التنفيذ بالصورة المرجوة لأسباب ترجع للطرفين معا وللمغول أنفسهم وللقوى اللاتينية من ناحيتها وأخيرا لأسباب ترجع للطرف الثالث المتحالف ضده وهو المماليك كما يلى : -

أولا : بالنسبة للطرفين معا : كانت هناك اختلافات فى اللغة والدين والهدف من التحالف بين المغول والأوربيين . فضلا عن صعوبة الاتصال بين طرفين يفصلهما الآلاف من الأميال وليس بينهما حدود مشتركة فى وقت كانت الدواب براً والشوانى بحراً هى وسيلة المواصلات . إذ أن السفارة من فارس لانجلترا أو العكس كانت تستغرق عامين فى المتوسط جيئة وذهابا ، أى أن صعوبة وبطء الاتصال بين الطرفين مكانيا وزمنيا قد أثر على سرعة التفاهم والاستجابة بين الطرفين . المعنيين بالتحالف . يضاف إلى ذلك أن وجود المماليك بين المغول وبين الصليبيين - خاصة بعد الاستيلاء على أنطاكية - قد منع الاتصال البرى المباشر بين الطرفين كما أن السيطرة التامة للماليك على بلاد الشام منذ عام ١٢٩١م جعلت الاتصال بين المغول واللاتين عملية معقدة تماما .

ثانيا : بالنسبة لمغول فارس : فلاشك أن انشغالهم بالحروب سنوات طويلة مع مغول روسيا من ناحية ، ومع مغول التركستان من ناحية أخرى ، فضلا عن كثرة الخلافات والمنازعات حول السلطة بين ورثة هولاكو ، وتمرد كثير من المدن العراقية على حكم الايلخانات وفرار كثير من القادة المغول والمسلمين معا لمعسكر المماليك وعدم استقرار كرسى الوزارة لدرجة أن جميع وزراء الإيلخانية قد ماتوا قتلا عدا واحد فقط ، كل ذلك حال دون تفرغ ايلخانات فارس للاستيلاء على الشام فترة طويلة وتثبيت حكمهم فيه أو تنفيذ خطط التحالف مع الأوربيين ضد المماليك. وكان أيضا غزو المغول لأوربا فى الفترة من ١٢٣٧ حتى ١٢٤٢ وغزو مغول روسيا لشرق أوروبا عدة مرات بعد ذلك جعل الأوربيين يكرهون المغول عامة ويترددون فى التعاون معهم لأنهم ظلوا برابرة فى نظرهم .

ثالثا : بالنسبة للغرب الأوربى عامة فيقع عليهم المسئولية الأولى لعدم الاستجابة لمغول فارس فى التعاون المشترك معهم ضد المماليك . وإذا كان هذا التعاون من جانب الغرب الأوروبى يعنى قبل عام ١٢٩١م مساندة القوى الصليبية فى بلاد الشام ضد المماليك أو مساعدتهم على البقاء بجوار عدو يملك كل مقومات القوة ، فانه يعنى بعد هذا التاريخ استرداد الأراضى المقدسة من المماليك وعدم الاستجابه لهذا التعاون يعنى فتور الحماسة الصليبية للاتين وفشل البابوية فى قيادة الغرب الأوربى لعدة أسباب منها :-

أ- تداعى هيبة البابوية وسلطتها فى تلك الفترة الزمنية . وذلك لأنها أساءت للمثال الصليبى بانفاق ضريبة العشور الصليبية وغيرها من الموارد البابوية على مؤيديها وضد أعدائها من الأمراء العلمانيين . كما حدث ضد أسرة الهوهنشتاوفن وكما حدث فى مشكلة صقلية (١٢٨٢-١٣٠٢م) وتوجيه الحملات الصليبية ضد أراجون وضد البندقية (١٣٠٩م) وغيرهما ، وكذلك ضعف بابوات أفينون (١٣٠٥-١٣٧٨م) وارتمائهم فى أحضان الملكية الفرنسية التى وجهتهم لمصالحهم . وهذا كله جعل البابوية فى نظر العامة والخاصة غير جديرة بقيادة جموعهم خاصة مع وجود الظروف الأتى ذكرها فيما بعد .

ب- الظروف الاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا بدءا من النصف الثانى للقرن الثالث عشر كانت مختلفة عن تلك الظروف التى حركت عشرات الألاف من الدهماء والعامة

والفرسان والنبلاء لحمل الصليب إلى الشرق فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد أدى فشل العديد من الحملات الصليبية على مصر والشام وتونس قد أحبط الأوروبين عن الذهاب للشرق. وفضلا عما تقدم ، فان ظهور الانتماءات القومية والاهتمامات الفردية للأوربين بتأثير نشأة الجامعات ونهضة القرن الثانى عشر وظهور مقدمات عصر النهضة الإيطالية جعل اللاتين يبحثون عن مصالحهم الشخصية فى أوطانهم ، وأهم من هذا وذاك ظهور الأوبئة والمجاعات وأمراض الطاعون أثرت على الموارد البشرية للغرب الأوربى مما أدى لارتفاع تكلفة الفرسان والإنفاق عليهم وقلة عددهم ... كل هذه العوامل جعلت الاستجابة لنداءات البابوية فاترة .

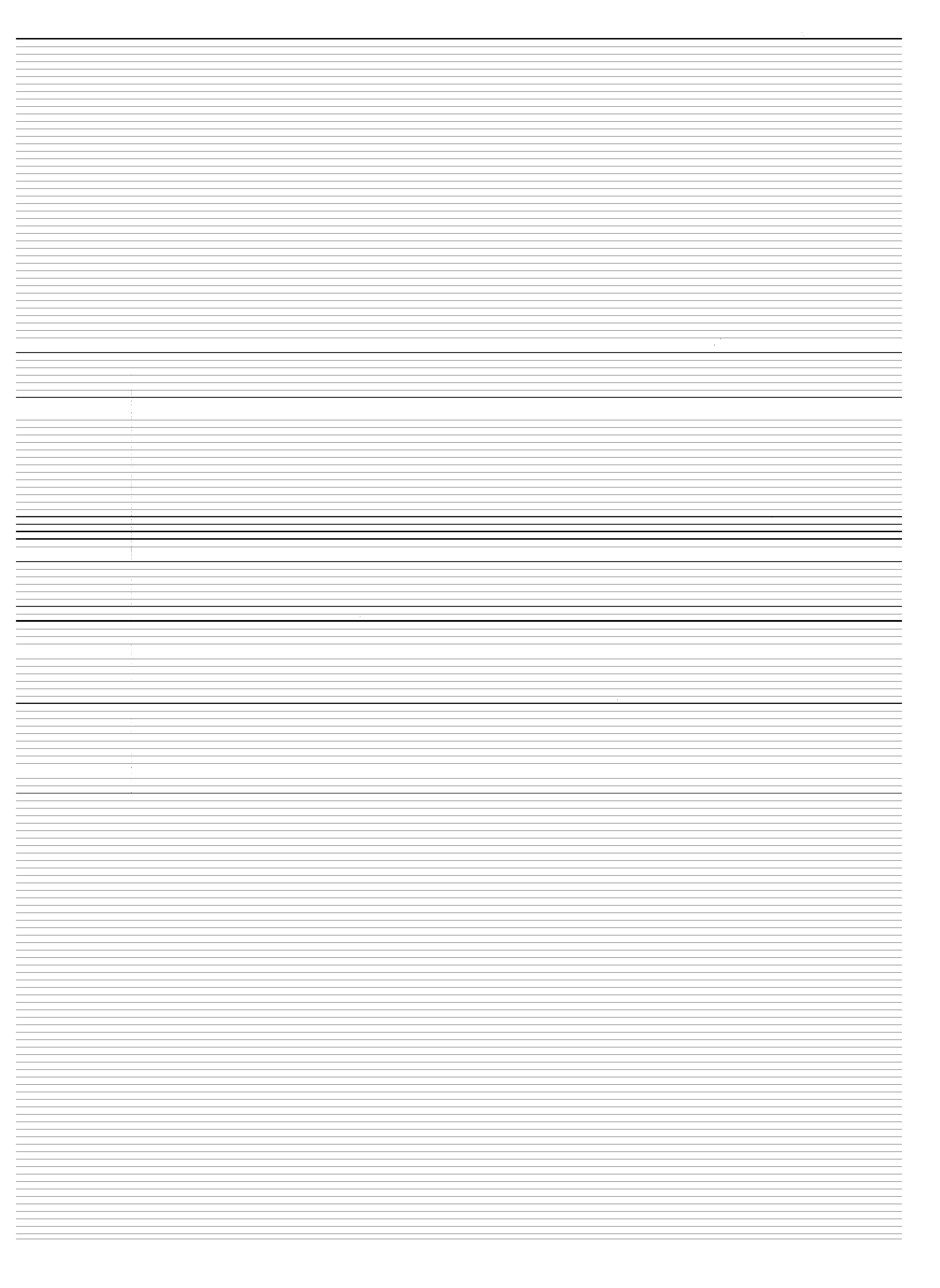
جـ- الأوضاع السياسية فى غرب أوروبا كانت غير مهيأة لتنفيذ مشروع التحالف مع المغول، فملوك انجلترا شغلوا بالحرب مع ويلز واسكتلندا ، وملوك فرنسا -بعد لويس التاسع- شغلوا بالحروب ضد قشتالة وأراجون وفى المشكلة الصقلية . أما عن الامبراطورية الرومانية المقدسة فقد حطمتها البابوية وأعوانها بالقضاء على أخر أباطرة الهاهنشتاوفن عام ١٢٦٦م ، وانشغل ملوكها الضعاف من أسرة الهابسبورج بحروب اقليمية فى المجر وبوهيميا وتدعيم سلطاتهم وفقدوا اهتمامهم بالشرق . أما قشتالة وأراجون فكانت لهما مشاكلهما مع فرنسا والبابوية وانشغالهما فى تصفية الوجود الإسلامى فى الأندلس . أما المدن التجارية الإيطالية فكانوا يهتمون بمصالحهم أينما كانت . فالجنوية هم الذين كانوا ينقلون الرقيق - وهم عصب الجندية المملوكية - من موانى البحر الأسود للماليك ، وكان البنادقة ينقلون التوابل وسلع جنوب أسيا وشرقها من الاسكندرية وبذلك ساهما فى تقوية الاقتصاد والجيش المملوكى ، ورغم نداءات البابوية والمجامع المسكونية بتحريم التجارة مع المماليك فان استجابة هذه المدن التجارية لمصالحها التجارية كانت أقوى .

د- ضعف الكيان الصليبى فى الأراضى المقدسة على الأقل منذ رحيل لويس التاسع من الشام عام ١٢٥٤م وانهياره نهائيا عام ١٢٩١م كان من العوامل الهامة لإحجام القوى الأوربية عن محاولة المساعدة أو النجدة أو مساعدة المغول ضد المماليك ومن أسباب هذا التداعى : الخلافات التى وصلت إلى الصدام المسلح بين تجار المدن الإيطالية فى الأراضى المقدسة ، وكذلك الصدام بين الهيئات العسكرية ، وأيضا الخلافات المذهبية

بين المسيحيين الشرقيين وبين الكاثوليك ، وعدم وجود قيادة مركزية يخضع لها كل الصليبين فى الشام لدرجة أنه وجدت سبعة عشر قيادة فى مدينة عكا إبان سقوطها فى يد المماليك عام ١٢٩١م . ولأن الوجود الصليبى كان يعتمد على الظهير الأوربى فى الإمدادات العسكرية والاقتصادية فان انقطاع هذه الامدادات للظروف الموضحة بعاليه جعل بقايا الصليبيين فى الشرق - خاصة بعد توحد مصر والشام تحت حكم المماليك بعد نصر عين جالوت - فى موقف لايحسد عليه ومن ثم سقطت المدن والقلاع الصليبية واحدة تلو الأخرى دون تدخل أو مساعدة حاسمة من المركز الأم فى أوروبا . وكان لسيطرة المماليك على كل سوريا منذ عام ١٢٩١م أكبر الأثر فى إحباط القوى الأوربية عن مساعدة المغول ضد المماليك حتى لو كان ذلك معناه استرداد الأراضى المقدسة أو جزء منها مرة ثانية .

رابعا : كان المماليك من أهم عوامل فشل التحالف المغولى الصليبى . فقد استطاعوا هزيمة مغول فارس أربعة مرات (فى عين جالوت عام ١٢٦٠، ابلستين فى الأناضول ١٢٧٦، موقعة حمص الأولى عام ١٢٨٢ ، وفى مرج الصفر عام ١٣٠٣) واستطاعوا توجيه الضربات المتلاحقة لمملكة أرمينيا الصغرى ، وأهم من أنهم ذلك تمكنوا من إنهاء الوجود الصليبى فى بلاد كما أنهم صمدوا للحصار الاقتصادى الذى فرضته عليهم البابوية فى النصف الأول للقرن الرابع عشر ، بل ونجحوا فى تكوين علاقات سياسية واقتصادية مع كثير من القوى الأوربية . وهكذا كان التخويف المستمر لبقايا الصليبيين زمن بيبرس وقلاوون ثم إنهاء الوجود الصليبى نفسه زمن الأشرف خليل ، خصما من قوة أحد طرفى التحالف لحساب عدو التحالف. كما أن محاولات التحالف جرت فى وقت كانت فيه دولة سلاطين المماليك فى طور صعودها ، عسكريا واقتصاديا وسياسيا ، فهى تقود العالم الإسلامى ، وتشهد رواجًا اقتصاديا ونموا سكانيا وصحوة ثقافية وتوجه أمور السياسة فى المنطقة . وهكذا لم يكن الأمر وقفا على قدرات الغرب والمغول وإرادتهم فقط ، وإنما كان مرهونا أيضا بالسبب التاريخى لوجود دولة سلاطين المماليك نفسها وهو التصدى للمغول وتصفية الوجود الصليبى.

ولهذه الأسباب مجتمعة لم يخرج مشروع التحالف المغولى - اللاتينى ضد المماليك لحيز التنفيذ بالصورة التى أرادها له المغول والأرمن واللاتين على حد سواء .



الهوامش

1- Sirarpie der Nersessian , " The Kingdom of Cilician Armenia" in A History of the Crusades , vol . II , ed . by R. Wolff Harry Hazard and K.M. Setton. Philadelphia 1962 , p. 652 .

٢- فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ١٢٥٠-١٣٧٥م ٦٤٨ - ٧٧٦ هـ (رسالة دكتوراه غير مطبوعة مقدمة لكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، أبريل ١٩٨٠) ص٨٢ ، ٨٤ .

3- Grigor Akanc : History of the Nation of the Archers (The Mongols) . Eng . trans by. P.R.P . Blake & R.N. Frye . Cambridge , 1954 , pp. 46 , 47 .

4- Ibid , pp. 55 , 57 .

5- Boyle , John Andrew (trans . & ed.), "The Journey of Hettum , King of Little Armenia , to the Coort of the Great Khan : "Mongke" , Central Asiatic Journal , IX 1964 , pp. 177-181. , فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص٨٦ ، ٨٧

٦- فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص٧٤ .

٧- المرجع السابق ، ص٩١ -٩٤ .

٨- المرجع السابق ص٩٥ .

٩- للتفاصيل أنظر : ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، الجزء الأخير ؛ رشيد الدين فضل الله الهمدانى: جامع التواريخ : تاريخ المغول ، المجلد الثانى ، الجزء الأول : الايلخانيون . ونقله إلى العربية محمد صادق نشأت ، ومحمد موسى هنداوى ، وفؤاد عبد المعطى الصياد ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول . القاهرة ، ١٩٤٩ ، محمد صالح داودد القزاز : الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية ، بغداد ١٩٧٠ ، فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى ، القاهرة د.ت .

١٠- محمد صالح داودد القزاز : الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية ص٧٠ ، ٧١ .

١١- رشيد الدين الهمدانى : المصدر السابق م٢ جـ١ ، ص٢٦٧-٢٩١ ، انظر أيضا : القزاز : المرجع السابق ص٩٧-١٠٧ .

١٢- المقريزى: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القسم الثانى صفحات ٤١١،٤١، ٤٢٢ .

13- Runciman , S., " The Crusader States , 1243 - 1291 " in Setton (ed) A History of the Crusades , II , p. 572 .

١٤- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦ ص٣٢٤ .
Runciman , op . cit ., p. 572

١٥- فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص١٠٥ ؛ Runciman , op . cit , p. 572 .

16- Runciman , p. 572 ; Peter Jackson , " The Crisis in the Holy Land in 1260 " , English Historical Review , 1980 , pp. 490-492 .

17- Runciman , op . cit , p. 572 ; Jackson , op .cit ., p. 492 .

18- Runciman , op . cit ., p. 573 ; Jackson , op . cit ., pp. 499 , 500 .

19- Jackson , op . cit ., p. 507 .

20- I bid , pp . 495 , 6 .

21- Jackson , Peter , " The Dissolution of the Mongol Empire "Central Asiatic Journal , XXII , Vols . 3-4 , 1978 . p. 236 .

22- Rachewiltz : Papal Envoys to the Great Khans , p. 150 . Connell : Western Views of the Tartars , p. 161 .

٢٣- ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٤٨٨ .

٢٤- المصدر السابق ، ص٤٨٦ .

٢٥- جامع التواريخ م٢ جـ١ ص٣١٥ .

٢٦- المقريزى : كتاب السلوك ، جـ١ ق٢ ص٤٢٨ ، القلقشندى ، صبح الأعشى جـ٨ ص٦٤،٦٣ .

٢٧- رشيد الدين الهمذانى : المصدر السابق ص٣١٠-٣١٦ ، المقريزى : المصدر السابق ، ص٤١٩-٤٣٤ ، فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص٤٩-٥٩ .

٢٨- من نتائج هذه الموقعة أنها ثبتت دعائم دولة المماليك الناشئة فى مصر أولا ثم فى الشام ثانيا نظرا لتداعى الأمراء الأيوبيين فى الشام أمام المغول سواء بالدخول فى طاعتهم أو بالفرار أمامهم.

ومن ثم فان المماليك استطاعوا - فور طرد فلول المغول من بلاد الشام بعد انتصار عين جالوت - توحيد هذه البلاد ولأول مرة منذ وفاة صلاح الدين الأيوبى مع مصر تحت حكمهم . وكان لهذا الأمر أكبر الأثر فى التعجيل بانهيار بقية الامارات الصليبية فى الشام لتطويق المماليك لهم من ثلاثة جوانب وكان انتصار المسلمين على المغول ضربة قوية لبعض قوى المسيحيين الشرقيين الذين انتهزوا فرصة اكتساح المغول للعراق والشام باحداث أضرار بالغة ضد المسلمين إبان هذه الفترة وبالإضافة إلى ذلك فان هذا الانتصار أنقذ بلاد الشام ومصر وربما بقية العالم الإسلامى من الاحتلال المغولى أنتج هذا النصر الحاسم أيضًا وتحول القوة الإسلامية من الدفاع إلى الهجوم وقضى على الاعتقاد بأن المغول قوم لايغلبون . كما أن انتصار عين جالوت قد مكن المماليك من توجيه الضربات المتتالية للكيان الصليبى فى الشام للتخلص منه خشية تحالف بعض أمرائه (مثل أمير انطاكية) أو جميعهم مع المغول ضد المسلمين

J. J. Saunders : Muslims and Mongols . University of Canterbury , 1977 , pp. 67-68 ;

فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص٥٥ ، ٥٦ .

29- Jackson , " The Crisis in the Holy Land " , op . cit ., p. 506 .

30- Loc . cit . ; Runciman , op . cit , p. 573 .

31- Cf . "The Crisis in the Holy Land in 1260 " , op . cit ., p. 507 .

ولكن المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه يعتقد أن حملة هولاكو على سوريا كانت Une croisade nes-torienne ، وأن الصليبيين فى عكا كانوا قصار النظر فى عدم التحالف مع المغول ضد المسلمين وأنهم ضيعوا على أنفسهم هذه الفرصة وأنهم بتعاونهم مع المصريين أو بحيادهم فى هذا الصراع قد مكنوا الأخيرين من تحقيق نصر على المغول كان نقمة عليهم بعد ذلك ، ولكن هذا الرأى ينهار أمام الأدلة السابقة وأمام حقيقة أن الصليبيين فى عكا كانوا أضعف من أن يتخذوا هذا القرار .

Cf . R . Gerousset : Histoire des Creisades , III , pp . 580-600 .

٣٢- رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ م٢ جـ١ ص٣١٧ ، Peter Jacksen ," The Dis-solution" of the Mongol Empire" pp . 186-244 .

٣٣- رشيد الدين الهمذانى المصدر السابق ص٣٣٦ .

٣٤- فايد حماد عاشور : المرجع السابق ص٧٦ ، Jacksen , op , cit , pp . 224 , 229 .

٣٥- رشيد الدين الهمذانى : المصدر السابق ص٣٣٦ .

٣٦- ماركو بولو : رحلاته، ترجمها للعربية عبد العزيز جاويد، القاهرة ، د .ت - ص ٣٦١-٣٦٤،
فايد عاشور : المرجع السابق ص٧٦ .

٣٧- جامع التواريخ م٢ جـ١ ص٣٣٢ ، Saundrs , op . cit , p. 69 ;
Jackson , op . cit , pp. 226 , 227 .

٣٨- رشيد الدين الهمذانى : المصدر السابق ، ص٣٣٢-٣٣٥ .

٣٩- فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، صفحات٧٧ ، ٢٠٨ ، ٢٧٨ .

40- Jackson , " The Dissolution of the Mongol Empire" , op . cit , p. 236 ; Connell , op . cit , pp . 132 - 140 .

٤١- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص١٣٠ - ١٤٠ ، فايد عاشور : المرجع السابق ص٢٠٥ .

٤٢- فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص٩٢-٩٥ ، Saunders , op . cit ., p. 73 .

٤٣- الرواض الزاهر ، ص١٣٧-١٣٩ ، أيضا Cf . Jackson , op . cit ., p. 237 .

٤٤- شرع الظاهر بيبرس منذ توليه سلطنة المماليك فى تنفيذ سياسة داخلية وخارجية لتدعيم نفوذ المماليك فى الحكم ولحشد كل الجهود السياسية والعسكرية لمواجهة مغول فارس والصليبيين معا منها أولا : فى إطار صبغ الشرعية على حكمه فى نظر الرعية عامة ورجال الدين خاصة فانه أعاد إحياء الخلافة العباسية وجعل مقرها بالقاهرة (١٣ رجب ٦٥٩هـ / يونية ١٢٦١م) كى يوحد العالم الإسلامى تحت لواء الخليفة العباسى صوريا ويكون بيده عمليا مقاليد الأمور السياسية والعسكرية ، ثانيا : فى إطار تعويق تقدم مغول فارس لسوريا فانه أمر نوابه فى المنطقة من نهر الفرات لحدود حلب بحرق الأعشاب والمروج لأن فى ذلك إضرار مباشر بالغزاة الذين يعتمدون على الخيول فى جميع تنقلاتهم وحروبهم وأمر أيضا بتقوية القلاع والحصون والمغاور فى شمال بلاد الشام وشرقها ، وتجنيد البدو والعربان والإكثار من استيراد الرقيق لاستخدامهم فى الجيش ، وتوزيع الإقطاعات على مقدمى العساكر ، واستيراد العدة والعتاد اللازمين للأسلحة والإمداد والتموين لجيوشه ، ثالثا : قام بعقد العديد من معاهدات التحالف مع مغول القفجاق وسلاجقة الروم للتحالف معهما ضد مغول فارس والأرمن ، وعقد معاهدات صداقة مع أباطرة

بيزنطة منذ عام ١٢٦١ لضمان مرور السفارات والتجارة عبر أراضيهم ، ومع حكام مملكة صقلية ليعرف منهم تحركات الأوربيين ضد المسلمين كما كان يفعل الأيوبيين معهم . رابعا : قام بيبرس بتأمين طريق التجارة فى البحر الأحمر لضمان وصول موارد أساسية للاقتصاد المصرى . والحقيقة أن نجاح بيبرس فى تحقيق هذه السياسة جعل المماليك القوة الأولى فى المنطقة ، واستطاع توجيه الجيوش - فى فترة انشغال المغول عنه - لضرب المدن والقلاع الصليبية فى الشام ومملكة أرمينيا الصغرى ، كذلك تمكن من هزيمة المغول بالتحالف مع سلاجقة الروم . للمزيد من التفاصيل أنظر أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص١٧٩ - ١٩٣ ، ٢٠٢ - ٢٢١ ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس فى مصر . القاهرة ١٩٦٠ ص٤٩ ، ٥٠ .

45- Jean Richard , "The Mongols and the Franks " , Journal of Asian History , III , 1969, pp. 52 , 3 ; Boyle , J . A . , The IL - Khans of Persia and the Christian West., " History Today , XXIII , 8 , 1973 , pp. 556 , 7 .

46- G . Borghezio, "Un Episodio delle relazioni tra la Santa Sende ei Mongoli(1274)" in Rome , vol 14 . 1936, p. 370 .

نشر هذا الباحث ذلك التقرير بلغته اللاتينية ولم يترجم حتى الأن حسب علمى - لأية لغة معاصرة، وقد تفضل علىّ البروفيسور الألمانى فرنزكوا دلباور بترجمته لى إلى اللغة الألمانية ، وقمت بترجمته إلى اللغة العربية ، ولأهميته البالغة نشرته ضمن ملاحق هذا الكتاب . .

47- Ibid , pp . 370 , 371 ; Richard , op . cit . III , p. 53 .

48- Paul Meyvaert , " An Unknown Letter of Hulagu , IL - Khan of Persia to King Loius IX of France , " Viator , xi , 1980 , pp. 245-249 .

49- Borghezio , op . cit ., p . 372 .

50- Boyle op . cit ., p. 556 ; Richard , op . cit ,. p . 53 .

51- Paul Meyvaert , " An Unkown Letter . " , op . cit ., pp . 240 , 249 .

٥٢- أورد هنرى هوارث الترجمة الانجليزية لهذه الرسالة ولكنه أخطأ فى تاريخها واسم الراسل وذكر أنه عام ١٢٦١ وأن الراسل هو البابا الكسندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦٣) وهذه المعلومات تم تصحيحها بعد اكتشاف Meyvaert لخطاب هولاكو .

Cf . H . Howorth : History of the Mongols . Vol , III , London, 1888, p. 210 .

53- Howorth , op . cit . III , 210 .

٥٤- رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، م٢ جـ١ ص٣٣٧ ، ٣٤٠ .

٥٥- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص٢٣٠-٢٣٣ ، المقريزى : السلوك ص٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٤٦ .

Stevenson , W.B. The Crusaders in the East , Beirut , 1968 , pp . 339 , 340 .

٥٦- ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ص٢٦٩ ، ٢٧١ ، فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص١١٣ - ١٢٠ .

57- Howorth ; History of the Mongols , III , p. 278 ; Boyle , " The Il - Khans of Persia and the Christian West, " op . cit ., p. 556 .

58- Howorth (trans.) op . cit ., pp . 278 , 9 ;

Boyle , op . cit . pp . 556 , 7 ; Connell , op . cit ., pp. 164 , 5 .

59- Connell , op . cit ., p . 165 .

٦٠- الروض الزاهر ، ص٣٠٨ ، وكذلك المقريزى : كتاب السلوك جـ١ ص٥٦٧ .

٦١- الروض الزاهر ، ص٣٢٤ .

٦٢- المصدر السابق ص٣٢٧ - ٣٢٩ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤٩٩ ، ٥٠٠ ؛

Grigor of Akanc , op . cit , pp . 359 , 60 , 371 ,372 .

63- Tisserant , E ., " Une Lettre de L`Ilkhan de Perse, Abgha adressee en 1268 au Pape Clement IV " , in Le Museon , 59 , 1946 , pp . 547- 556 ; also cf Richard , op . cit p. 53 no 33 ; Meyvaert , op . cit ., pp . 250 , 251 .

64- Boyle , op . cit ., p. 557 ; Connell , op . cit ., p . 166 .

٦٥- تشير أصابع الاتهام لانقياد الملك الفرنسى لرأى أخيه شارل الأنجوى - ملك صقلية حينئذ - الذى أراد تأديب الحفصيين حتى لايؤوا المتمردين عليه وحتى يدفعوا له الجزية التى كانوا يدفعونها لأسلافه من قبل. وليس متصورا أن الملك الفرنسى - الذى كان له تجربة سيئة فى مصر من قبل - كان من السذاجة التى جعلته يعتقد أن غزو مصر سيكون سهلا من تونس التى يفصلها عن مصر صحراء طويلة قاحلة .

Powecke , F . M . : King Henry للمزيد من التفاصيل انظر III and the Lord Eduward . vol . II . Oxford , 1976 , pp. 597 - 599 , Strayer , J ., "The Crusades of Louis IX , " in Setton (ed .) A History of the Crusades , II , pp . 513-516 .

66-Powicke , op .cit . , pp. 599 , 600 .

67- Lockhart L . , " The Relations Between Edward I and Edward II of England and the Mongol IL - Khans of Persia " in Iran Journal of Persian Studies , VII , 1968 , p . 24 .

68- Powicke , op . cit . , p. 602 ; Denis Sinor , " The Mongols and Western Europe " , in Setton , A History of the Crusades , III , p . 531 ; Boyle , op . cit ., p. 558 .

69- Cf . King Henry III and the Lord Edward , vol . II , p. 602 .

70- Loc . cit ., Runciman , " The Crusader States 1243 - 91 " in Setton (ed) A History of the Crusades , II , pp . 582 , 583 .

٧١- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ؛ ص٣٣٩ - ٣٤٢ ، ٤٠٥ - ٤٠٨ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ق٢ ص٥٩١ ، ٥٩٤ .

72- Borghezio , op . cit . pp . 361 - 372 . انظر الترجمة العربية لهذه الرسالة فى الملحق الثانى

73- Ibid , pp. 365 , 366 ; Howorth , op . cit ., p . 280 .

74- Borghezio , op . cit ., p. 366 .

75- Howorth (trans.) History of the Mongols , III , p . 280 .

76- Borghezio , op . cit ., p . 366 .

77- Setton : The Papacy and the Levant , vol . I , pp . 126 - 128 ; Throop , Balmer ; A Criticism of the Crusade . Philadelphia 2 nd . ed 1975 , pp . 273 -276.

٧٨- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ص٤٣٢ .

٧٩- رشيد الدين : جامع التواريخ ، جـ٢ م٢ ص٦٢ ، ٦٣ ، ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ص٤٥٣، ٤٧١ .

80- Howorth , op . cit ., p . 281 ; Connell , op . cit ., 170 .

81- Riley - Smith , J . : what were the Crusades ? London , 1977 , p. 45 .

82- The Chronicle of Bury St Edmunds 1212 - 1301 . Ed & trans .

Antonia Gransden , London , 1964 , p. 63 .

83- Howorth , op . cit ., p. 281 .

84- Cf . A Criticism of the Crusade , p. 280 .

85- Connell : Western Views of the Tartars , p. 171 .

٨٦- الكرج : إشارة إلى سكان مملكة جورجيا المسيحية وفى إقليم القوقاز الأن ، وخضعت لحكم المغول منذ عام ١٢٢٦ م . وكان ملكها هو ديمترى الثانى (١٢٦٩-١٢٨٨) . فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص١٣٧ حاشية ٢ .

٨٧- المقريزى : كتاب السلوك جـ١ ، ق٣ ص٦٩٢ .

٨٨- جامع التواريخ ، م٢ جـ٢ ص٨٣ ، ٨٤ .

٨٩- تاريخ مختصر الدول ص٥٠٤ .

90- Joseph De Cancy , " A Crusader Letter from the Holy Land " in Palestine ' Text Society . vol . v , part III , p. 12 .

91- The Chronicle of Bury st Edmunds , p. 77 .

٩٢- للتفاصيل أنظر ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ص٧٥ - ٨٠ .

٩٣- أبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر جـ٤ ص١٥ ، ١٦ ، المقريزى : السلوك ص٦٩٠-٦٩٩ .

94- Joseph De Cancy , op . cit , p. 11 .

٩٥- نشر الباحث الفرنسى شابو Chabot الأصل اللاتينى لهذا الخطاب مع بقية الخطابات المتبادلة بين أرغون خان والغرب الأوربى Cf . Chabot , J.B.

"Notes sur les relations du roi Argun avec L'Occident , " Revue de L'orient Latin , II , 1894 , pp. 569 - 71 ;

وقد نشر الترجمة الانجليزية الكاملة لهذا الخطاب A.C. Moule

Cf . Christians in China Before the Year 1550 . London , 1930 , pp. 105-107 .

96- For details cf . Runciman , Steven ; The Sicilian Vespers. Cambridge , 1958 ; Setton The Papacy and the Levant , I , pp . 134 - 143 , 146 .

٩٧- ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، ص٣٠ ، ٣١ .

٩٨- المصدر السابق ، ص٩٢-١٠٣ .

٩٩- رابا صاوما معناها الحبر الصائم (حوالى ١٢٢٥-١٢٩٤) ولد فى مدينة بكين بالصين وكان نسطوريا . وقد تعلم ودرس كثيرا من الكتب الكنسية . وعندما بلغ العشرين من العمر ، وزع كل ممتلكاته على الفقراء وارتدى لباس الرهبان وعاش حياة متقشفة ، وقد حضر هو وصديقه مارك (مارجبلاها فيما بعد أسقف النساطرة فى بغداد) من الصين إلى بغداد فى رحلة طويلة شاقة بوسائل بدائية فى الترحال وذلك للحج للمدينة المقدسة . ولكنهما استقرا فى فارس منذ عام ١٢٧٩ . واختير مارك لمنصب بطريق النساطرة فى بغداد تحت اسم Jahballah III وعين صاوما فى عام ١٢٨٠ زائرا متجولا لكل الكنائس النسطورية فى أسيا . واختاره أرغون بناء على توصية بطريق النساطرة ليكون سفيره لأوربا عام ١٢٨٧م .

100- Ryan , J . D . : The Interrelation of the Oriental Mission and Crusade Activities of the Papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 . Unpablished Ph . D . Dissertation . New York University , 1972 , pp. 16 , 18 .

101- The Monks of Kublai Khan ... or the History of the Life and Travels of Rabban Sawma . Eng . trans . by wallis Budge . London , 1928 , pp. 172 - 181 .

102- Ibid , pp. 182 , 183 .

103- Ibid , pp. 183 ,185 .

104- Rabban Sawma , Cf . The Monks of KubLai khan , p. 188 .

105- Ibid , pp. 189 , 190 ; Ryan , op . cit . pp . 18-39 .

١٠٦- وقد نشر J. B. Chabot جميع هذه الخطابات (التسعة) نقلا عن السجلات البابوية فى مقاله الوثائقى المشار إلى عنوانه سابقا Cf . R.O.L. II , 1894 , pp. 575-592 .

وقد ترجم A.C.Moule ثلاثة من هذه الخطابات للغة الانجليزية .

Cf. Christians in China Before the Year 1550 , pp. . 112-115 .

١٠٧- انظر الفصل الثالث من هذا البحث .

108- Chabbot , op . cit .p. 584 ; Moule (Trans.) op . cit ., p. 114 .

109- Cf . The Monks of Kublai Khan , p. 165 .

110- Ryan : The Interrelation of the Oriental Mission and Crusade Activities of the Papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 ; pp . 22-24 .

١١١- انظر ما يلى صفحات ١٦٨، ١٦٩ ، ١٨٣ - ١٨٨ ، ١٩٣ - ١٩٨ .

112- Howorth : History of the Mongols , III , p. 352 .

١١٣- لم تشر المصادر الفارسية من قريب أو بعيد للسفارات المتبادلة بين ايلخانات المغول والغرب الأوربى . والإشارة الوحيدة للاتصالات بين أرغون والغرب جاءت - باستثناء مذكرات صاوما نفسه - فى حولية ابن العبرى فى النسخة السريانية التى أكملها مؤلف مجهول والتى روت « بينما كان أرغون على قيد الحياة فان سفراء الفرنجة اعتادوا على الحضور له من بابا روما والملوك الأخرين ، ونقلوا له أنه ينبغى أن يقف المغول والفرنجة يدا واحدة ضد المصريين .. وأن أرغون نفسه أرسل الحبر بار صاوما وهو راهب يغورى كسفير عنه للبابا ... وأن الأخير أرسل معه مواثيق وتأكيدات أنهم سيهاجمون العرب معا ويدمروا دينهم . وما حدث بعد ذلك هو عكس حساباتهم تماما » .

Cf . The Chronography of Gregory Abu`L - Faraj , Ed & trans . by W . Budge . London; 1979 , p. 492 .

١١٤- انتهز المنصور قلاوون فرصة اندلاع الحرب بين تجار جنوه وبيزا عام ١٢٨٧ فى الموانى الصليبية ودعوة البنادقة له للاستيلاء على طرابلس - نكاية فى منافسيهم الجنوية فى الاستيلاء على طرابلس ، حيث حاصرها بقوات مكونة من عشرة آلاف فارس وثلاثين ألفا من المشاة وتسعة عشر منجنيقا وألف وخمسمائة من الحجارين . وسقطت هذه المدينة بعد أربعة وثلاثين يوما فقط من الحصار فى ربيع الأخر ٦٦٨٨هـ / أبريل ١٢٨٩ ، بعد أن قتل المماليك كثيرا من سكانها وأسروا من لم يستطع الفرار لقبرص للتفاصيل انظر : أبو الفداء : المختصر جـ٤ ص٢٣-٢٤ ، المقريزى السلوك جـ١ص٧٤٦-٧٤٨، Runciman , "The Crusader States ," op. cit . III , pp. 590

١١٥- كان بوسكاريللو فارسا فى البقاع الصليبية فى الشام فضلا عن أنه تاجر جنوى ولكنه سافر للعمل فى خدمة المغول واستخدم أرغون مواهبه العسكرية لحراسة قصره .. Cf . Ryan , op , cit ., 82 , 83 .

116- Chabbot , op . cit ., 614 ; Ryan , op . cit ., 85 .

117-Haenisch , Erich , " Zu den Briefen der Mongolischen IL- Khane Argun und Oljectu an den Philipp den Schonen von Frankreich 1289 u .1305" , Oriens , II , 1949 , p. 220;

Mostaert , A. & F . W. Cleaves, "Les Lettres de 1289 et 1305 " dans Harvard Yenching Institute Scripta - Mongolica : Series I Cambridge , Mass, 1962 , pp . 17 ,18 ;

انظر الترجمة العربية لهذا الخطاب فى الملحق رقم ٣ .

118- Chabbot , op . cit ., pp . 612 , 613 ; Howorth , op cit., pp. 551 , 552 ; Ryan , op . cit., pp . 87 - 89 .

119- Sylvia Schein , " Philip IV and the Crusade : A Reconsideration" in Edbury , Peter W. (ed.) Crusade and Settlement . Univ . College Cardiff press, 1985 , pp . 121 , 122 .

120- H . Turner " Unpublished Notices of the Times of Edward I , Especially of his Relations with the Moghul Sovereigns of Persia , " in the Ar chaealogical Journal . London, 1851 , vol. . VIII, pp. 48, 49; also cf. Chabbot , op . cit., pp ., 615, 6 ; Howorth, op . cit ., p. 353; Ryan , op . cit ., pp. 90, 91Sinor, op .cit ., p. 534 .

121- Runciman , op . cit , pp. 594; Ryan , op . cit ., p. 80,81 .

122- Sinor " The Mongols and Western Europe " , op . cit ., III p. 534 .

١٢٣- المقريزى كتاب السلوك ، جـ١ ص٧٥٣ ، ٧٥٤ ، وأيضًا

Runciman , The Crusader States , " op . cit , II , p. 594 .

124- Ryan, op. cit., pp. 120 , 121 .

125- Chabbot , op . cit . p. 617 ; Turner , op . cit ., p. 48 ; Howorth , op . cit ., III , p.352; Ryan , op . cit ., pp. 117 , 118 .

126- Chabbot , op . cit ., p. 618 .

127- The Interrelation of the Oriental Mission , p. 118 .

128- Chabbot , op . cit . p. 619 .

129- The Chronicle of Bury St Edmunds , p. 97 .

130- Powicke : King Henry III and the Lord Edward , II , pp . 727 , 728 .

131- Bar Hebraeus : The Chronography , p . 486 .

132- Richard , Jean , " European Voyages in the Indian Ocean and Caspian Sea (12 th - 15 th Centuries) , " Iran Journal of Persian Studies , vol . VI , p. 49 .

١٣٣- للتفاصيل انظر: أبو الفدا : المختصر جـ٤ ص٢٢،٢٥، المقريزى : السلوك جـ١ ص٧٥٤ ، ٧٦٤ .

Runciman : A History of the Crusades , III , pp . 410 - 23 .

134- Howorth, op. cit., III, p. 353; Chabbot, op. cit., p. 619 ; Boyle , op . cit . p. 561 , Ryan , op . cit ., pp . 135 , 6 .

135- Chabbot , op . cit , pp . 619 , 20 ; Howorth , op . cit ., III, pp . 353 , 4, Boyle , op . cit , p. 561 ; Ryan , op . cit ., pp 136 , 137 .

136- For details cf . Turner , " Unpublished Notices of the Times of Edward I , " op. cit., p .49 ; Powicke : King Henry III and the Lord Edward , vol . II , pp . 733 , 35 .

١٣٧- انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب صفحات ١٨٩-١٩٣ .

١٣٨- تولى الأشرف خليل السلطنة من نوفمبر ١٢٩٠ حتى قتله بيدرا ولاجين فى ديسمبر عام ١٢٩٣م . ثم تولى شقيقه الناصر محمد بن قلاوون - وكان طفلا صغيرا - السلطنة بالاسم فقط من ١٢٩٣ حتى ١٢٩٤ م ثم نفاه قادة المماليك لإمارة الكرك . وتولى كتبغا من ديسمبر ١٢٩٤ حتى نوفمبر ١٢٩٦ م ، ثم دبر بعض قادة المماليك مؤامرة لإقصائه إلى الشام ، وتولى حسام الدين لاجين من نوفمبر ١٢٩٦ حتى قتله بعض المماليك فى يناير ١٢٩٩ ، واستدعوا الناصر محمد من منفاه الاختيارى لتسلم السلطنة فى فبراير عام ١٢٩٩م .

١٣٩- للتفاصيل انظر : فايد حماد عاشور العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص١٤٥-١٤٦ .

140- Riley - Smith , J. The Knights of St . John in Jerusalem and Cyprus (1050 - 1310) , pp . 198 , 199 ; Sinor , op . cit , III pp. 533 , 36 .

١٤١- فايد عاشور : المرجع السابق ، ص١٤٩ ، ١٥٨ .

142- Riley - Smith , op . cit ., p. 199 .

١٤٣- كتب دوج البنادقة فى ١٩ مارس عام ١٣٠٠ رسالة للبابا بونيفاس الثامن يبلغه فيها الأنباء التى حملها له التجار البنادقة من قبرص أن المغول قد استولوا على كل الأراضى المقدسة ، وأن هيثوم الثانى ملك الأرمن كان قائدهم ، واعترافا بجميله ، فان المغول قد أرجعوا تلك البقاع لحوزة المسيحيين ، وينهى الدوج خطابه بتهنئة البابا بأن فترة بابويته قد عاصرت استعادة الأراضى المقدسة ! ويقدم الدوج خدماته للبابا بقوله أنه مستعد كأسلافه لتقديم العون لتلك البقاع ، وأنه منتظر تعليماته فى هذا الشأن .

وفى ١٤ فبراير عام ١٣٠٠ أيضا كتب أحد الرهبان الفرنسسكان بقبرص خطابا لزملائه فى انجلترا ويروى لهم تفاصيل استعادة الأرض المقدسة . وفى روايته أن دوافع غازان لذلك كانت للانتقام من دماء المسيحيين فى عكا عام ١٢٩١ م وأن العديد من أفراد الجماعات والهيئات الدينية والعسكرية فى قبرص سيرجعون لمراكزهم الأصلية فى سوريا. Cf . Sylvia Schein , " Gsta. Dei per Mongols 1300 , the genesis of a non - event , " in the English Historical Journal , Oct , 1979 ,.pp. 814 . 16

144- Ibid , p. 815 .

145- Loc . cit ., Sinor , op . cit ., p . 536 .

146- Sylvia Schein , op . cit ., p. 813 .

١٤٧- من ذلك حولية Bury st Edmunds (p. 155) التى نقلت تحت حوادث عام ١٣٠٠ أن الملك غازان قد جعل ملك أرمينيا رئيسا وقائدا لجيشه ، وتصف هزيمة المماليك بصورة مبالغ فيها وتقول " وعجبا فعندما تم تدمير أعداء المسيحيين وشردوا فان الخان العظيم قد أرجع للمسيحيين كل الأراضى التى كانت بحوزتهم من قبل »وقد تتبعت الباحثة سيلفيا شاين Sylvia Schein هذه الإشاعة فى العديد من الحوليات اللاتينية المعاصره ، وتنقل عن حولية قولها وأنه قد غزا الأراضى المقدسة ، وأن غازان قد حرر كل الأسرى المسيحيين الذين اسرهم المماليك من قبل . وتقرر حولية ثانية أن غازان قد كتب للبابا من القدس يطلب منه إرسال أساقفه وفلاحين ليستقروا فى الأرض المقدسة ، وتروى حولية ثالثة بأن الخان المغولى طلب جنودا للدفاع عن الأراضى المقدسة ، وقد أشارت بعض الحوليات الألمانية والايطالية إلى أنه قد حدثت بالفعل هجرات سلمية

من أوروبا للاستقرار فى الأراضى المقدسة تحت الحكم المغولى .CF.Ibid, pp . 805 - 808

148- Howorth (trans) . History of the Mongols , III , p. 488 ; Connell : Western Views of the Tartars 1240 - 1340 , pp . 180 , 181 ; Sylvia Schein , op . cit., pp . 818 , 19 .

١٤٩- ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص١٦٠ وقد أورد بقية نصوص هذه المعاهدة ونسخة اليمين التى حلف عليها الطرفان ص١٥٦ ، ١٦٤ .

150- Atiya , Aziz Suryal : Egypt and Aragon ; Embassies and Diplomatic Correspondence Between 1300 and 1330 A. D . Leipzig , 1938 , pp . 17 , 18 .

151- Atiya ; Egypt and Aragon , pp. 20 - 25 .

ولم يشر الدكتور عزيز سوريال لأمر الاتصالات بين جيمى الثانى وغازان خان .

152- Turner , op . cit , pp . 50 , 51 Howorth , op . cit . p. 489 .

153- Howorth , op . cit ., p. 489 ; Lockhart , op cit ., p. 29 .

١٥٤- للتفاصيل انظر فايد عاشور : المرجع السابق ص١٦٥ ، ١٧٣ ، فايز اسكندر : المرجع السابق: ص١٨٧ ، ١٩٠ .

١٥٥- فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص١٧٤ ، ١٧٥ .

١٥٦- المرجع السابق ، ص١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١٢ .

157- Haenisch , op . cit ., pp . 229 , 230 ; Mostaert & Cleaves , op . cit ., pp. 56 , 57 ; Howorth , op . cit ., III , pp . 574 , 575 .

158- Sinor , op . cit ., p. 537 ; Boyle , op cit . , p . 563 .

159- Howorth (trans) History of the Mongols , III , p . 575 ; also cf . Lockart , op . cit ., p. 30 , Connell , op . cit ., p. 182 .

١٦٠- كذلك فعل غازان خان فى مراسلاته مع قادة الغرب الأوربى ومن ثم لم يعرف أحداً منهم خبر اعتناقه الإسلام إلا بعد وفاته بوقت طويل .

161- Howorth , op . cit ., III , pp . 579 , 80 ; Sinor , op . cit ., pp. 528 , 9 ;

فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينيا الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ، ص٥ ، ٦ .

162- Howorth (trans) History of the Mongols , III , pp . 576 , 577 .

163- Loc . cit ., also cf . Boyle , op cit ., p. 563 ; Sinor , op . cit ., p. 538 , Connell , op . cit ., p. 181 .

164- Atiya , A.S., " The Crusade in the Fourteenth Century , " in Setton (ed) A History of the Crusades , III , pp. 3-26 .

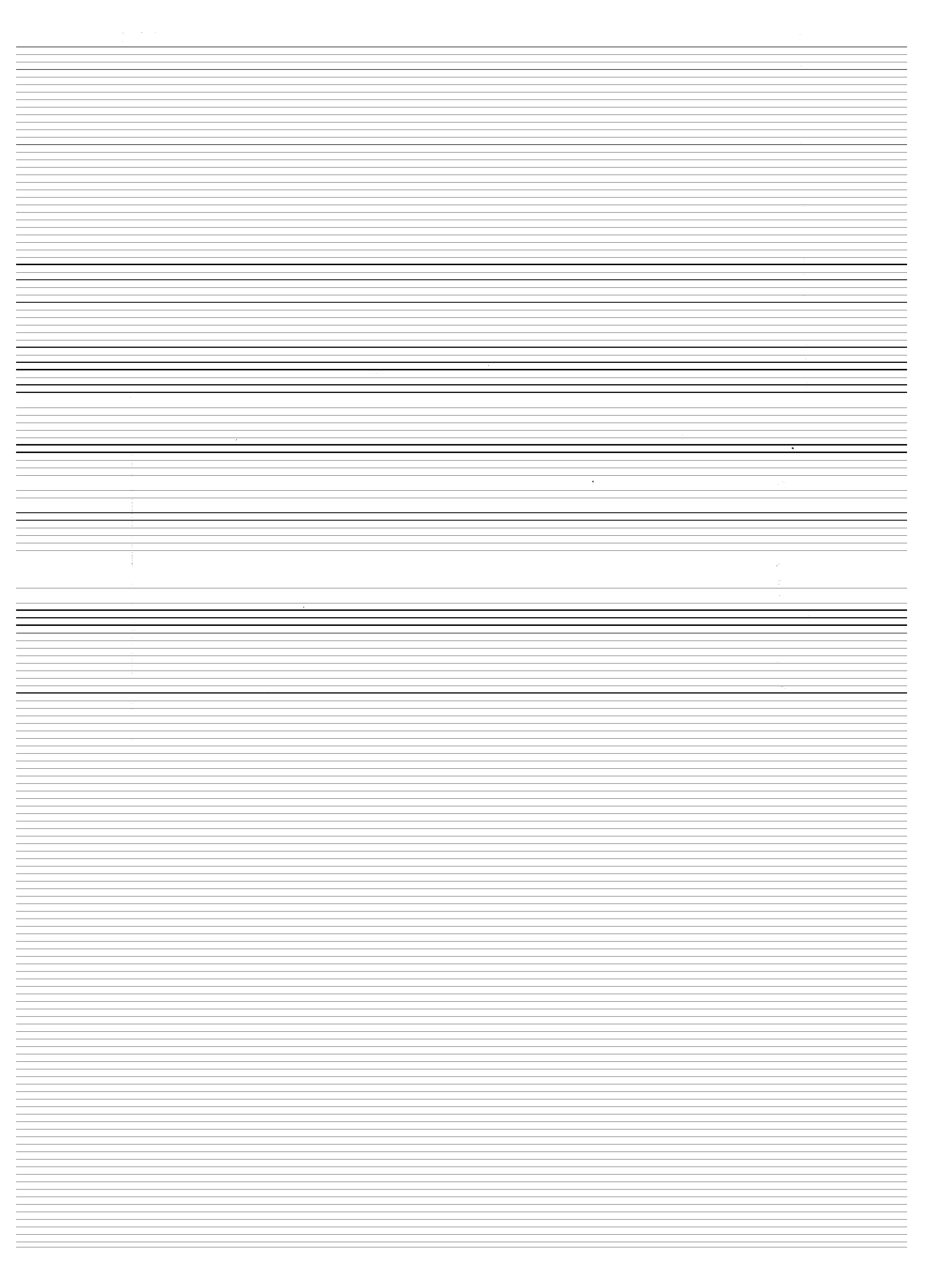
165- Howorth , op . cit ., III , pp. 602 , 603 ; Connell , op cit ., p. 184 ;

فايز نجيب اسكندر ، المرجع السابق ص١٩٧ حاشيه ٣ ،

166- Howorth , op . cit ., III , p. 603 .

167- Loc . cit ., Sinor ," The Mongols and Western Europe " op . cit ., III , p. 543
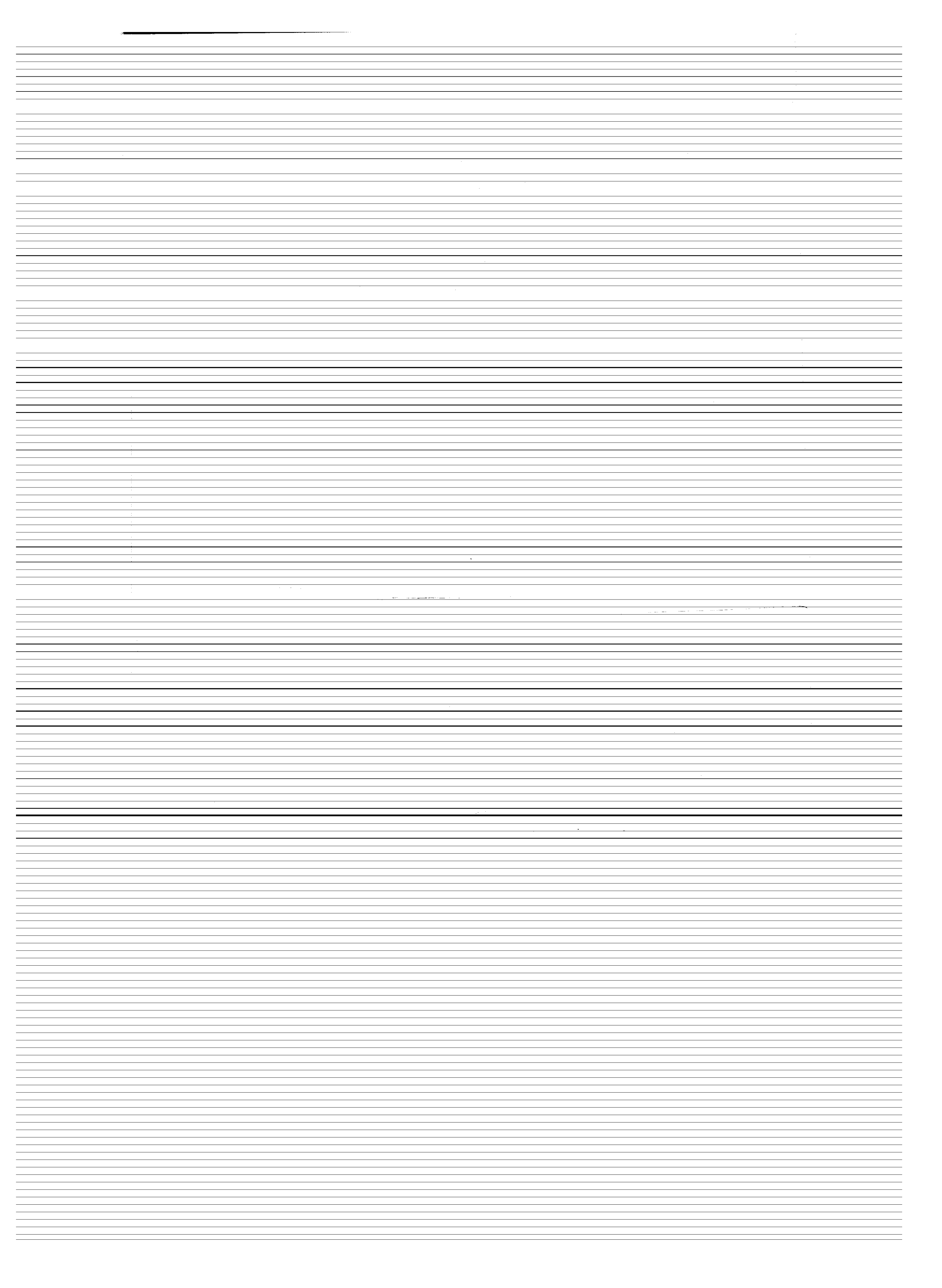
١٦٨- فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص١٨٧ ، ١٩٠ .



الفصل الثالث
السياسة الدينية للمغول و جهود البابوية لتنصيرهم

العناصر :

- معتقدات المغول و سياستهم مع الأديان المختلفة .
- جهود البابوية لتنصير قادة المغول (١٢٤٥ - ١٢٥٤).
- سياسة هولاكو مع المسلمين و المسيحين
- علاقات الايلخانيين البوذين برعاياهم المسلمين .
- محاولات الغرب الكاثوليكي تنصير مغول فارس البوذيين .
- سفارة صاوما للغرب و تبعية كنيسة النساطرة لكنيسة روما .
- بعثة جون مونت كورفينو للمغول .
- جهود الراهب ريكولد مونت كروسي التبشيرية .
- اعتناق غازان الإسلام و أثره علي أهل الذمة .
- البعثات التبشيرية في عهد الإيلخانيين المسلمين .
- تقييم إنجازات الرهبان الفرنسسكان و الدومنيكان .
- أسباب فشل البعثات التبشيرية في تنصير المغول .



معتقدات المغول و سياستهم مع الاديان المختلفة : -

كانت الشامانية Shamanism هي الديانة القديمة للمغول الذين كانوا - علي الرغم من أعترافهم بإله عظيم قادر لا يؤدون له الصلاوات يعبدون طائفة من الآلهة الدنيا و بخاصة تلك الالهة الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين و الضحايا لما كانو ا يعتقدونه فيها من السلطان و القدرة علي إيذائهم . كما كانو ا يعبدون أرواح أجدادهم القدامي التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم علي حياة أعقابهم . و لكي يوفق المغول بين هذه القوي السماوية و العالم السلفي ، فانهم كانو يلجئون الي الكهنة و هم الشامان Shamans و السحرة أو إلي رجال الطب الذين كانو يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي و سلطان علي عناصر الموتي وأرواحهم وعندما خرج المغول لغزو الشعوب المجاورة في عهد جنكيز خان (ت ١٢٢٧) فإنهم تأثروا بمدنيات هذه الشعوب ، و خرجوا عن بداوتهم الأولي حين وجدوا انفسهم جنبا إلي جنب مع أصحاب الديانات السماوية [١].

وقد اتفق أن كانت الشعوب التى اختلط بها المغول على أثر غزواتهم تضم بين أفرادها عددا كبيرا من المسلمين والبوذيين والمسيحيين [٢]. وتنافس أتباع هذه الديانات الثلاث الكبرى فى تحويل أولئك الغزاه إلى دينهم . ولما هدأت ثائرة المغول الذين كانوا يدينون بالشامانية وتركوا التخريب والتدمير ، ظهروا بمظهر التسامح مع أهالى الديانات الأخرى ، فأعفوا رجال الدين منهم من الضرائب ، كما منحوهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية، بل واعتاد الخانات العظام للمغول حضور الاحتفالات الدينية الخاصة بالمسلمين والمسيحين والبوذيين ضمانا لالتفاف الجميع حولهم وتأييدهم لهم [٣].

ولقد قامت منافسة حامية بين المبشرين والدعاة من أتباع هذه الديانات لاكتساب المغول إلى دينهم . وكان رجال الدين المسلمون والمسيحيون والبوذيون يقومون بمناظرات دينية مع بعضهم البعض فى حضرة هؤلاء الخانات وقادتهم ، لدرجة أن أتباع كل ديانة كانوا يعتقدون أن هذا الخان أو ذاك قد اعتنق عقيدتهم أو أنه على وشك التحول إليها [٤].

ويذكر ماركو بولو - تأييدا لما سبق - أن قوبيلاى خان (١٢٥٩-١٢٩٤م) كان يحتفل مع المسيحيين بعيدى الميلاد والقيامة فى عاصمتهم بكين ، وأنه كان يفعل نفس الشئ فى أعياد المسلمين واليهود والوثنيين [٥]. وأن هؤلاء جميعا كانوا يحتفلون بعيد ميلاد الخان الذى كان بوذيًا وفى ذلك اليوم - على حد قوله : « يرفع جميع النصارى والوثنيين والمسلمين ومعهم

بقية الناس وجميع الأصناف والأوصاف الصلوات الحارة الصادقة كل إلى ربه أو وثنه أن يبارك المليك ويهبه طول العمر والعافية والرفاهية» [٦].

ومن ثم لم يكن المغول مع ديانه معينة ضد أخرى ، فقد دمروا المساجد ودور العلم الإسلامية فى أسيا مثلما خربوا الكنائس والأديرة فى شمال أوربا وشرقها . ولكن لأن الخوارزميين هم أول قوة كبيرة يصطدم بها المغول ، فان المسلمين قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذى صحب غزوات المغول . ولهذا فان معظم المدن الإسلامية فى وسط أسيا قد أضحت أطلالا ، حتى أن الفقهاء والأئمة المسلمين كان نصيبهم إما القتل أو الأسر . حقيقة كان هناك من بين حكام المغول - الذين عرفوا بتسامحهم نحو كافة الأديان - جماعة كانت تظهر الكراهية للمسلمين على درجات متفاوته لأن طريقة الأخيرين فى ذبح الحيوانات والوضوء من المياه الجارية مخالفة لتعاليم جنكيز خان . وفى أحيان أخرى خضع بعض الخانات لتوجهات بعض وزرائهم أو زوجاتهم من القبائل المسيحية . ولكن هذا كله لايعدو أن يكون أمرا استثنائيا لأنهم استوزروا المسلم والبوذى والمسيحى دون تفرقة بين أحد منهم . وعلى سبيل المثال كان مانجو خان (١٢٥٤-١٢٥٩) يحكم كل منطقة حسب لغتها ودينها ، وكانت أوامره تكتب لكل إقليم باللغة السائدة فيه [٧] .

جهود البابوية لتنصير قادة المغول (١٢٤٥-١٢٥٤):

ولما كانت سياسة البابوية منذ جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١) قائمة على إرسال البعثات التبشيرية من الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان لكل من المسلمين والإغريق والبلغار والجورجانيين والأرمن والنساطرة لتحويلهم للمسيحية على المذهب الكاثوليكى ، فان خليفته انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) قد ارسل - كما سبق الإشارة - حنا الكاربينى ولورانس البرتغالى من جماعة الفرنسيسكان وآسيلين اللوباردى وأندريه لونجيجيموه من الدومنيكان فى بعثات للشرق الأسيوى من أهدافها دعوة حكام المغول ورعاياهم لاعتناق المسيحية ، وكذلك حث رجال الدين النساطرة والاغريق والأرمن والجورجانيين لتوحيد كنائسهم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية الأم فى روما [٨]. وقد اتضح من دراسة الرسائل المتبادلة بين قادة المغول والبابوية وكذلك تقارير هؤلاء الرهبان مدى الفجوة بين الطرفين ، لأن كلا منهما كان يدعى السمو على الجانب الآخر والسيادة العالمية وكلاهما يدعى أنه ممثل السماء على الأرض وأن قرارته لها صفة القداسة .

وقد حاول لويس التاسع فترة وجوده بالشرق العربى أن ينجح فيما فشلت فيه البابويه . ففى نهاية عام ١٢٤٨ م أرسل سفيره الراهب أندريه لونجيجيمو لقادة المغول ردا على سفارتهم له . ويقول جوانفيل مؤرخ لويس أن الأخير " حملته رغبته اجتذاب التتار إلى ملتنا على إصدار أمره بتصوير جميع تعاليم ديننا على كنيسة صغيرة أمر بأن تكون قرمزية ، وأعنى بذلك بشارة الملائكة بالولادة ، والميلاد ، والتعميد ، وجميع الأحزان ، ونزول الروح القدس . وأرسل كذلك مع المحراب مجموعة من الأكواب والكتب وجميع الأشياء اللازمة لترتيل القداس ، واثنين من الإخوة المبشرين لتلاوة القداس أمام التتار [٩]. ولكن المغول سخروا من هذه السفارة ولم يستجيبوا لدعوة الملك الفرنسى باعتناق المسيحية ، بل أرسلوا له خطابا للحضور لتقديم فروض الولاء والطاعة لهم . ومن ثم فان لويس التاسع « ندم أشد الندم على إرساله رُسلاً إليهم» على حد قول جوانفيل نفسه [١٠].

وقد استطاع الراهب الفرنسيسكانى وليم روبروك (١٢٥٣-١٢٥٥) التوغل بين ظهرانى المغول فى روسيا حتى وصل للعاصمة قراقورم فى منغوليا لحث قادة المغول على التنصر . وكان يحدوه الأمل فى أن يسمحوا له بالبقاء بين ظهرانيهم للتبشير بالإنجيل . وقد شرح هذا الراهب للمنجوخان بأن من واجباته «تعيم الناس بأن يعيشوا وفقا لشريعة الرب . .» وقال له أيضا . وأنت رجل قد أعطاك الرب ممالك شاسعة على الأرض ، ولهذا فنحن نرجو أن تعطف علينا بالسماح لنا بالبقاء هنا فى بلادك كى نقوم بخدمة شئون الرب نيابة عنك وعن زوجاتك وأولادك . ونحن لانملك ذهبا ولافضة ولامعادن نفيسه لنقدمها هدية لك ، ولكننا نملك فقط أنفسنا التى نقدمها لخدمة الرب والدعاء له من أجلك» [١١].ومع ذلك فان الخاقان المغولى رفض السماح للراهب الفرنسيسكانى بالبقاء فى مملكته ، وطلب منه الرجوع من حيث أتى بعد أن زوده بخطاب للملك الفرنسي لايختلف فى لهجته المتعالية الآمرة عن خطابات سابقيه للأخير وللبابوية [١٢].

سياسة هولاكو مع المسيحيين والمسلمين إبان غزوه لغرب آسيا :

ولكن نتيجة الدور الذى لعبه ملك أرمينيا الصغرى لصالح المسيحيين الشرقيين وحصوله على امتيازات لهم من السادة الجدد لآسيا ، فان هولاكو فى الفترة الأولى لوجوده بغرب آسيا- لإخضاع الخلافة العباسية والشام لحكم المغول - كان يعطف على المسيحيين . وتمثل ذلك فى حمايتهم والابقاء على كنائسهم ، أى أنه لأول مرة فى الحملات المغولية يبدو العامل الدينى مؤثرا فى سير الأحداث وذلك لعدة أسباب منها :

أولا : أن زوجة هولاكو « دوقوز خاتون » كانت طبقا لرواية رشيد الدين الهمذانى « تتمتع عنده بمنزله كبيرة ، كما كانت قوية الشخصية وكانت من أقوام كريت المسيحيين ، وكانت تعمل دائما على مؤازرة المسيحيين ، وفى عهدها قوى حال تلك الطائفة ، وكان هولاكو خان يرعاهم ويعزهم إرضاءا لها . وقد بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يقيمون الكنائس فى جميع الممالك . كما كانت هناك كنيسة داخل خيمة هذه الزوجة فى جميع رحلاتها » (١٣).

ثانيا : أنه بمقتضى الامتيازات المكتوبة التى حصل عليها هيثوم الأول من الخاقان الأعظم عام ١٢٥٤م بحماية المسيحيين وكنائسهم وإعفاء رجال الدين منهم من الضرائب (١٤)، كان طبيعا أن يضع هولاكو هذه الأمور بعين الاعتبار عند تعامله مع هذه الطائفة ومتعلقاتهم .

ثالثا : وجود قوات من الأرمن والجورجانيين وكذلك من المسيحيين النساطرة من الصين ومنهم كثير من قواد جيش هولاكو - ومنهم كتبغا قائد الأخير فى عين جالوت - يقاتلون جنبا إلى جنب مع المغول ضد المسلمين . ولكل هذه العوامل فان هولاكو وقواده مالأوا المسيحيين على حساب المسلمين .

ويروى أن هولاكو قبل وصوله إلى بغداد قد أرسل إلى رجال الدين المسيحيين فى غرب اسيا رسالة جاء فيها : لدينا أعداد كبيرة من المسيحيين بين عشائرنا . وقد جئنا بقوتنا وسلطاتنا معلنين ضرورة تحرير جميع المسيحيين من العبودية ، ومن الضرائب التى فرضها عليهم المسلمون . ومعلنين ضرورة معاملة المسيحيين معاملة تليق بهم ، فلا يعتدى عليهم ولاعلى تجارتهم . ونحن نصرح باننا سنعيد بناء جميع الكنائس التى خربها المسلمون » (١٥).

وإذا صحت نسبة هذه الرسالة لهولاكو ، فيبدو أنها بإيعاز من ملك أرمينيا الصغرى لاستمالة النساطرة واليعاقبة المتواجدين بأقليات لها وزنها فى إيران والعراق وسوريا لصفوف الغزاة ضد المسلمين .

ويقرر ابن العبرى فى النسخة السريانية لحوليته ، أن جاثليق النساطرة فى بغداد قد جمع مسيحى المدينة - أثناء عبث جنود هولاكو بها وقتلهم لأهلها- فى الكنيسة ولم يتعرض لهم أحد بسوء (١٦). ويؤكد ذلك أيضًا ابن الفوطى البغدادى المعاصر لهذه الأحداث ، ويضيف أن جاثليق النساطرة كان أحد الذين تفاوضوا مع هولاكو نيابة عن الخليفة للجلاء عن المدينة

ولكن الغزاة «قتلوا الرجال والنساء والصبيان والأطفال فلم يبق من أهل البلد – (بغداد) – إلا القليل ماعدا النصارى فانهم عين لهم شعان (أى حراسة) وحرسوا بيوتهم» [١٧]. ونكاية فى المسلمين فان هولاكو أعطى بطريق النساطرة دار وزير الخليفة العباسى على شاطئ نهر دجله فسكنها «ودق الناقوس فى أعلاها وأمر بهدم الكتابة على دار الفلك وكتب عوضا عنها بالسريانى» [١٨].

ولقد استشرت سياسة تأليب المسيحيين على المسلمين فى حملة المغول على الشام عامى ١٢٥٩ / ١٢٦٠ م .فبعد سقوط مدينة حلب فى يد الأخيرين فانهم لم يتعرضوا لكنيسة اليعاقبة بها فى حين حرص هيثوم الأول على إحراق جامع حلب بيديه . وبعد تسليم دمشق طواعية للغزاة فان هيثوم الأول وبوهيموند السادس طلبا من كتبغا – القائد المغولى النسطورى – إغلاق مساجد دمشق وتحويل بعضها إلى كنائس [١٩]. ويروى المقريزى فى هذا الشأن : «واستطال النصارى بدمشق على المسلمين وأحضروا فرمانا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم ، وإقامة دينهم فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات وصبوه على أبواب المساجد . وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام (لهم) إذا مروا بالصليب عليهم . وأهانوا من أمتنع عن القيام للصليب ، وصاروا يمرون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم ويخطبون فى الثناء على دينهم ... فقلق المسلمون من ذلك وشكوا أمرهم لنائب هولاكو (كتبغا) فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظم قدر قسوس النصارى ، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم» [٢٠].

ومن المؤكد أنه من أسوأ الآثار التى أحدثها المغول فى غرب آسيا – بعد القتل والدمار الذى أحدثوه فى كل مكان نزلوا به – هو إشعال الفتنة بين المسلمين والمسيحيين بتحريضهم للأخيرين ضد المسلمين . لأن المسلمين لم ينسوا ما فعله المسيحيون بهم فترة الغزو المغولى ولهذا فبمجرد علم أهل دمشق بهزيمة المغول فى عين جالوت فانهم « بادروا إلى دور النصارى فنهبوها ، وخربوا ما قدروا على تخريبه ، وهدموا كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم وأحرقوهما وقتلوا عدة من النصارى » [٢١]. وسنرى فيما بعد أن الأغلبية المسلمة قد كالت الضربات للمسيحيين كلما لاحت لهم الفرصة سواء فى فترات ضعف حكام المغول أو تراخى قبضتهم المركزية أو بعد اعتناقهم الإسلام .

ومع ذلك فإنه ينبغى عدم المبالغة فى تصوير تحيز هولاكو للمسيحيين على حساب المسلمين فبالإضافة إلى أنهم كانوا أقلية - بدليل أن كل مسيحى ببغداد تم جمعهم فى كنيسة واحدة فقط فترة عبث جنود هولاكو بالمدينة فى حين أن المغول قد قتلوا قرابة مليون مسلم - فإن هولاكو لم يكن بحاجة عسكرية لهم . وأيضا لم يكونوا وحدهم هم الذين مالأوا هولاكو ضد الخليفة فى ضوء معرفتنا أن زعماء الشيعة وغيرهم من قادة الإمارات الإسلامية فى إيران والعراق وبلاد الشام قد ساعدوا هولاكو - لسبب أو لآخر - ضد الخلافة . وفضلا عما تقدم فإن هولاكو قام بتعيين شخصيات إسلامية مثل ابن العلقمى وفخر الدين الدامغانى وعلاء الدين عطا ملك الجوينى ونصير الدين الطوسى ، وغيرهم فى المناصب الرئيسية فى الديوان والوزارة والخراج والأوقاف[٢٢]. وكان بإمكانه تعيين شخصيات مسيحية لو كان متحيزا ضد الإسلام لأسباب دينية ، وفوق هذا وذاك، فإن هولاكو - المعروف عنه أنه كان بوذيًا - لم يكن موجوداً ببلاد الشام إبان اعتداءات المسيحيين على المسلمين . ويروى أبو شامة أنه ما إن علم بحرق الأرمن لجامع حلب حتى قتل كثيرا منهم جراء ما اقترفت أيديهم [٢٣].

علاقة الإيلخانيين البوذيين برعاياهم المسلمين :

وقبل دراسة علاقة ايلخانات فارس البوذيين بالمسيحيين عامة والبعثات التبشيرية الكاثوليكية خاصة يجدر الإشارة فى إيجاز شديد لأبرز ملامح علاقاتهم بالمسلمين الذين كانوا يشكلون الأغلبية الكاسحة من الرعية، وذلك لفهم الصورة الكاملة للموقف ودوافعهم من ذلك.

فلأول مرة فى التاريخ الإسلامى يتعرض جزء كبير من العالم الإسلامى (ممثلا فى العراق وإيران وآسيا الصغرى وبلاد ما وراء النهر) للخضوع لحكام غير مسلمين . وهؤلاء كانوا يشكلون مع قوادهم وجيوشهم طائفة قليلة من السكان . ولأن المغول لم يكن لهم ديانة سماوية فإنهم لم يتدخلوا فى معتقدات الرعايا . بل تركوا لكل طائفة حريتها الدينية ، ونظرا للتفاوت الحضارى الكبير بين بداوة الحاكمين ومدنية المحكومين ، فقد نشأ عن ذلك أن بقى المغول يمثلون طبقة عسكرية حاكمة منعزلة - فى كل بيئة تعيش فيها- عن المحكومين الذين لايهمهم منهم سوى الطاعة ودفع الضريبة .

ولقد سعى هولاكو لكسب رضاء المسلمين بعد استقراره فى الحكم ، فأمر بإعادة الوظائف الدينية إلى سابق عهدها كالقضاء وتعيين الأئمة والخطباء فى المساجد ، وتطبيق أحكام

الشريعة الإسلامية فى المعاملات كما كان متبعا فى عهد الخلافة ، وفوض شئون الأوقاف إلى النصير الطوسى الذى استعان به للعمل على تأكيد شرعية الحكم المغولى فى نظر الرعية، وأبقى على الشهادتين على أحد وجهى العملة ، ووضع اسم الايلخان والخاقان على الوجه الآخر (٢٤).

واستمر ابنه وخليفته أبغا (١٢٦٥-١٢٨٢م) على سياسة المهادنة والاعتدال التى اتبعها أبوه فى سنواته الأخيرة ، فقد منح ثقته لوزير أبيه الجوينى شمس الدين ، وفوض أخاه عطا ملك حكم العراق ، وأطلق يده فى إعماره ، واندفع الأخير بدوره لتنفيذ ذلك مستغلا تفويض الايلخان . فخفف عن الرعية ، واهتم بكل ما يؤدى إلى تقوية الإسلام من إعمار بيوت الله وتأمين طريق الحجاج ودعوة الناس إلى الحج ، ومحاربة الزندقة ودعاة الإلحاد ، والإنفاق على العلماء ، الأمر الذى أدى إلى عجز ميزانية العراق من جراء هذه الأعمال (٢٥).

وقد استعاد المسلمون مكانتهم فى عهد تكودار أحمد (١٢٨٢-١٢٨٤) الذى كان أول ايلخان مغولى من ورثة هولاكو يعتنق الإسلام ، والذى وقف المسلمون إلى جانبه فى صراعه على العرش مع ابن أخيه : أرغون . وبالرغم أن الايلخان الجديد لم يكن قادرا على جعل الإسلام دينا رسميا للدولة ، إلا أنه سعى لتطبيق تعاليمه وتثبيت قواعده . وكان أول عمل قام به بعد توليه السلطة أن بشر أهل بغداد فى رسالة وجهها إليهم « بأنه مسلم مثلهم ، وأنه سيعمل على تطبيق قواعد الإسلام وأن عليهم أن يفرحوا وينشروا ذلك بين الناس » (٢٦).

وقد أظهر السلطان تكودار أحمد نتيجة إسلامه رغبته فى أن يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ، ونبذ الخصام والشقاق مع المماليك وتبودلت السفارات بين الطرفين (٢٧). وربما ترجع الخطوة الأخيرة لأهداف سياسية تأمينا لحدوده الغربية ليتفرغ لخصومه فى الداخل ولكن مقتله على يد ابن شقيقه أرغون أوقف مشروع الصلح مع المماليك وأجل مؤقتا انتشار المد الاسلامى بين صفوف القوات المغولية .

ولقد تعرض المسلمون للاضطهاد فى عهد ارغون (١٢٨٤-١٢٩١) بسبب تحزبهم والتفافهم حول منافسه تكودار أحمد ، وبسبب انتصارات قوات المماليك المسلمين على جيوش والده عدة مرات وكذلك لتأثير الحاشية المسيحية واليهودية المسيطرة على بلاطه ودفعها إياه للانتقام من رعاياه المسلمين ، خاصة وقد أرسل هذا الايلخان أربعة سفارات للغرب الأوربى لطلب عون قادته ضد المسلمين .

وقد بدأ أرغون بآل الجوينى ، فقتلهم وجميع أبنائهم وأحفادهم وكل من كان متصلا بهم ، وذلك لأن شمس الدين الجوينى كان يشغل وظيفة صاحب الديوان فى عهد سلفه ومنافسه تكودار أحمد (٢٨). وبدأ أرغون يصفى المسلمين ، فلم يبق أحدا منهم فى البلاط ثم لاحقهم فى دوائر الدولة الأخرى واستبدلهم بآخرين من المسيحيين واليهود ، حتى أنه استوزر يهودا من تفليس- باقليم جورجيا الصغرى - للإشراف على تركات المسلمين ، وهى وظيفة اسلامية. وكانت خطوته الثانية التشكيك فى الإسلام ، فبينما كان نوابه فى العراق يقومون بتعطيل المدارس والمساجد وهدمها لاستخدام أحجارها فى بناء قصورهم تشجع بعض أهل الذمة المتسترين فى الإسلام على التأليف للطعن فى الإسلام حيث قام ابن كمونه اليهودى بتأليف كتابه فى العلل الثلاثة (٢٩). ثم جاءت الخطوة الأخيرة لمحاولة تحويل المسلمين إلى عبادة الفرد عندما أقنعه وزيره اليهودى سعد الدولة بنبوة جنكيز خان وبوراثة أرغون لهذه النبوة وبوجوب الطاعة لأوامره وعبادة الناس له وتوجيههم نحو الإخلاص للايلخانية (٣٠). وقد تعرض أرغون ووزيره اليهودى لكراهية مطلقة من الرعية المسلمين وتناقلوا ذلك فى أشعارهم(٣١).

وعندما مرض أرغون مرضا لا شفاء منه فان سعد الدولة حاول التقرب من المسلمين بعمل إصلاحات عاجلة لرأب ما تصدع فى علاقتهم به ، ولكن خصومه نجحوا فى قتله فى ٩ مارس عام ١٢٩١م قبيل وفاة ارغون نفسه بعدة أيام ، وتبع ذلك قيام المسلمين بالتنكيل باليهود فى أنحاء الايلخانية حتى أن مائة من زعمائهم قد قتلوا فى بغداد وحدها وأنشد أحد الشعراء المسلمين قصيدة للتشفى منهم بهذه المناسبة (٣٢).

وانتعش المسلمون بوفاة أرغون واستعادوا قوتهم وتأثيرهم على الحاكمين الذين أعقباه بالرغم من بقائهما على وثنيتهم . فقد اقتفى كيخاتو (١٢٩١ - ١٢٩٤م) سياسة والده ابغا فى الاعتدال بين طوائف الرعية ، وأعاد المسلمين إلى الوظائف ، وجعل الوزارة فى أيديهم . وأعفى العلماء ورجال الدين وآل البيت من الضرائب ، ووزع الأموال والصدقات على المحتاجين ، حتى أن فقهاء من المسلمين اجتمعوا مع بقية رجال الدين من الطوائف الأخرى وصلوا من أجله ودعوا له بالشفاء عندما سقط مريضا (٣٣).

ولم يكن هوى بايدو ١٢٩٥٠م) مع المسلمين . ولكن قوتهم وانتشار الإسلام بين المغول فرض عليه التزام جانب الحذر فى علاقته بهم ، فأبقى الوزارة فى أيديهم واضطر للتظاهر بحبه للمسلمين ولكن بيته كان مسيحيا متعصبا ، واضطر فى بعض الأحيان إلى منع الوعاظ

المسلمين من ممارسة عملهم بين المغول الأمر الذى أوقعه فى نزاع مع أمراء المغول المسلمين(٣٤) الذين انتهى بهم الأمر إلى الالتفاف حول غازان بن ارغون وقيامهم على بايدو ، فكان مقتله عام (١٢٩٥م) نهاية لوثنية الحكم المغولى .

محاولات الغرب الكاثوليكى لتنصير مغول فارس البوذيين:-

أنفذ البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) أول بعثة تبشيرية من الرهبان الفرنسسكان إلى بغداد عام ١٢٣٣م . وفى نفس العام أصدر عدة قرارات بشأن التبشير بالعقيدة المسيحية فى العراق وآسيا الصغرى والشام ومصر وجورجيا المسيحية والمغرب(٣٥) .

ويروى الراهب «وليم روبرك» فى مذكراته التى كتبها عن رحلته فى المملكة المغولية (١٢٥٣-١٢٥٥) : أنه تقابل فى إقليم جورجيا الصغرى مع عدة رهبان منهم راهب دومنيكانى يدعى برنارد القطلانى Bernard The Catalan وفهم من الأخير أنه يعمل مع رفيق له من المجر فى مدينة تبريز الفارسية وأنه يعرف قليلا من لغة التتار (٣٦). ولم يوضح وليم رويروك ما إذا كان الأخيران حضرا إلى تبريز من غرب أوروبا للتبشير بالعقيدة المسيحية أم أنهما من الأسرى الأوربيين الذين أسرهم المغول من أوروبا فى الفترة من ١٢٣٧-١٢٤١ وقام قادة المغول بتوزيعهم على قادة المغول فى آسيا .

ومهما يكن من أمر فانه أثناء وجود هولاكو ببلاد الشام عام ١٢٦٠ م أرسل بطريرك بيت المقدس فى عكا الراهب الانجليزى الدومنيكانى ديفيد الأشبى David of Ashby لمعرفة نواياه تجاه الصليبيين ودعوته لاعتناق المسيحية . وتوضح الوثيقة التى قرأها سفير ابغا خان فى مجمع ليون المسكوتى عام ١٢٧٤ م أن هولاكو قد احتجز هذا الراهب ورفاقه فى بلاطه حتى وفاته ، وأنهم ظلوا فى حضرة أبغا عام ١٢٧٤م ، وأن هولاكو كان «يبوح بأسراره إلي هذا الراهب ديفيد صديقه الحميم . ولم يكن يبوح بمثل ذلك لأى إنسان آخر مثل اعتناقه للدين المسيحى وحصوله على التعميد » (٣٧).

وقد سبق الإشارة إلى أن إدعاء تعميد هولاكو على يد ديفيد الأشبى كان مبالغة مقصودة من هذا الراهب لجذب تأييد الغرب الأوربى إلى خليفته . وسواء كانت هذه الإدعاءات من جانب هذا الراهب أو بأوامر من ابغا نفسه ، فان هذا الأمر كان سياسة ثابتة لخلفاء هولاكو بايهام الغربيين باعتناقهم المسيحية أو على وشك ذلك نظرا لإلحاح قادة الغرب الكاثوليكى

بضرورة تعميد حكام المغول كشرط للتعاون العسكرى معهم حتى أن الإيلخانيين المسلمين (١٢٩٥-١٣٣٥م) قد بذلوا جهدهم لإخفاء حقيقة معتقداتهم الدينية عن الغرب. ومن ثم ظل الأخيرون يلحون فى تنصر هؤلاء الايلخانيين حتى بعد ربع قرن من اعتناق غازان الإسلام وإعلانه الإسلام الدين الرسمى لدولته .

وتؤكد الوثيقة السابقة أن هولاكو وخليفته قد ضمنا للمسيحيين فى ايلخانية فارس العيش فى سلام ، وأنهما أمرا باعفاء كل رجال الكنائس من الضرائب والاتاوات وضمنا كذلك لجميع الكنائس حريتهم [٣٨]. وهذه أمور يوكدها ابن العبرى ورشيد الدين أيضا .

ولا مراء أن المسيحيين قد تمتعوا تحت حكم الايلخانيين البوذيين بحرية لم يعهدوها من قبل. وقد عاملهم المغول على قدم المساواة مع المسلمين ، بل وفضلوهم عى الأخيرين فى بعض الوظائف فى بعض الفترات مثل الفترة الأولى لحكم هولاكو وطوال عهد أرغون خان وأصبحت الحاشية الايلخانية تضم عددا كبيرا من أهل الذمة ، وكان الايلخانيون كثيرا ما يستدعون رؤساءهم ويشركونهم فى مجالسهم الخاصة ، ويناقشونهم فى شئونهم الدينية مظهرين لهم الاحترام . وقد ساهم بعض الايلخانيون أو ممثلوهم فى تنصيب رئيسهم الأعلى (الجاثليق) فى احتفالات رسمية تقم تحت رعايتهم ، وهذا يزيد كثيرا عما كان عليه الحال فى عهد الخلافة العباسية حيث كان البطريق يتسلم مرسوم توليه من الوزير نيابه عن الخليفة وكان يتضمن رأى الإسلام فى ديانتهم ومكانتهم من المسلمين[٣٩].

ويعلل البعض هذه الرعاية إلى تأثير نساء الايلخانيين المسيحيات اللواتى كن يفرضن هذه الحماية لمصلحة المسيحيين ، فقد كان هولاكو يستمع إلى نصائح وتوجيهات زوجته النسطورية «دوقوز خاتون» والتى استمر نفوذها فى عهد ابغا الذى يعترف بفضلها عليه فى وصوله إلى العرش ، وخضع الأخير بالإضافة إلى ذلك لتأثير زوجته ماريا ابنة الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس التى كانت قد خطبت لهولاكو قبيل وفاته وتزوجها أبغا عند وصولها[٤٠]. ولكن من الواضح أن المصلحة السياسية - وليست العاطفة - هى التى كانت تملى هذا السلوك المغولى وتخطط له ، وذلك لأن مجاملة الايلخانيين للمسيحيين كانت تنتهى عندما تتعارض مع مصالحهم .

وقد فهم البابا من جون الهنغارى - سفير هولاكو للغرب الأوربى عام ١٢٦٢م - أن الايلخان يرغب فى اعتناق الدين المسيحى ، ومن ثم فهو بحاجة لشخص ذى حيثية لتعميده.

ويبادر اوربان الرابع بمباركة هذه الخطوة مؤكدا لهولاكو أنه وكل رعاياه «الذين سيتبعونه سوف ينالوا المثوبة فى الآخرة إذا ما نالوا المعمودية» (٤١)، ولكن هولاكو لم يتقدم خطوة واحدة نحو طلب المعمودية كما هو معروف .

وفى خطوة جديدة فى العلاقات بين الشرق المغولى والغرب الأوربى ، يطلب قوبيلاى خان عام ١٢٦٩م من البابوية إرسال مجموعة من رجال الدين لبلاده ، ويصف ماركو بولو تفاصيل سفارة الخان الأعظم للمغول ومفادها أن نيقولا بولو وما فيو بولو - والد ماركوبولو وعمه كانا فى بكين فى خدمة قوبيلاى خان (١٢٥٩-١٢٩٤م) منذ فترة طويلة حين طلب الأخيرمنهما أن يصحبا أحد رجاله المدعو خوجلتال فى بعثه للكرسى البابوى بروما لتقديم «التماس للبابا بارسال مائة من رجال العلم الذين أوتوا المعرفة التامة بمبادئ الديانة المسيحية » (٤٢).

وعندما وصل نيقولا ومافيو بولو لعكا فى أبريل عام ١٢٦٩ علما بوفاة البابا كليمنت الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨) . وعند ارتقاء جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦) للكرسى البابوى فانه أعاد إرسالهما برسائل من لدنه مع راهبين من الفرنسسكان على درجة عالية من التعمق فى اللاهوت هما نيقولودا فكينزا Niccolo de vicenza ووليم الطرابلسى - William of Tripoli وأعطى البابا للأخيرين الرخصة والسلطة لرسم القسس والتبشير بالعقيدة بين المغول، وزودهما بهدايا ثمينة للخاقان المغولى فى بكين . ولكن عند وصول هؤلاء الرهبان بصحبة آل بولو لأرمينيا الصغرى فانهم وجدوا أن قوات المماليك قد ألحقت بها الدمار والخراب ، ومن ثم خشى الراهبان على حياتهما وفضلا البقاء فى أرمينيا (٤٣). فرحل آل بولو إلى بكين لمقابلة قوبيلاى حيث استقروا هناك سبعة عشر عاما أخرى (١٢٧٥-١٢٩٢م) . وهكذا ضاعت على البابوية فرصة كبيرة للتبشير بالمسيحية بين المغول فى شرق اسيا تحت حماية الخاقان الأعظم وإشرافه ، ويلقى ماركوبولو اللوم على البابا بقوله «لو أن البابا أرسل أشخاصا ذوى قدرة وافية على التبشير بالانجيل ، لاعتنق الخان الأعظم المسيحية »(٤٤) .

ولكن هذا الطلب من قوبيلاى خان لم يكن مرجعه الرغبة فى اعتناق المسيحية أو انتشارها بين رعاياه . ولكنه يرجع لدوافع سياسية بحتة . فقوبيلاى خان الذى كان بوذيا ومات كذلك ، أوضح لآل بولو أنه يقدم الاحترام والتكريم لإله كل المسلمين والمسيحيين واليهود والوثنيين دون تفرقة بين أحد منهم « وادعو لتجدنى أيهم كان فى السماء هو الأعلى حقا »(٤٥). بالإضافة إلى ذلك فان ماركو بولو يكشف عن سبب تعلق الخاقان المغولى باستقدام الأجانب

لقصره بقوله : «وينبغى أن يفهم أن الخان الأعظم - نظرا لأنه لم يحصل على السيادة فى كاثاى (الصين) بأى حق قانونى ولكن بحد السيف وحده - كان عديم الثقة بالسكان ، ومن ثم أسلم جميع وظائف الحكم فى الولايات وجميع الرياسات للتتار والمسلمين والمسيحيين وغيرهم من الأجانب ممن يدينون بالولاء والانتماء لأسرته وقصره وهم من يمكنه أن يثق فيهم ، ونتيجة لذلك امتلأت قلوب السكان كافة بالكراهية لحكومته .. » [٤٦]. ولهذا قان قوبيلاى - الذى جرب مهارة آل بولو فى العمل لديه - أراد استقدام مائة موظف جديد من أوربا لتدبير شئون ملكه وكونهم من الرهبان ليجمعوا قلوب رعيته حوله .

وينطبق هذا إلى حد ما على مغول فارس الذين لم يثقوا فى رعاياهم المسلمين ، ولكن لأنهم لايستطيعون تسييرالجهاز الإدارى للايلخانية المترامية الأطراف كانوا مضطرين للاستعانة بخاصة المسلمين فى تولى أعمال الوزارة والدواوين ، ولعدم ثقتهم فيهم فان جميع الوزراء - عدا واحدا فقط هو على باد شاه فى عهد أبى سعيد - قد ماتوا مقتولين [٤٧].

وفى أحيان كثيرة كانوا يقتلون أبناءهم وأحفادهم وجميع من ينتمى إليهم، وكان منهم وزيرهم رشيد الدين الهمذانى الذى تولى الوزارة لثلاثة إيلخانيين ، وهذا يفسر استعانة كثير من الايلخانيين البوذيين بالمسيحيين واليهود فى الوظائف الهامة ، وفتحوا بلادهم أيضا للرهبان الكاثوليك وللتجار الإيطاليين للاستعانة بهم فى إحداث التوزان مع الأغلبية المسلمة. وقد مر بنا أن أرغون خان كان يستخدم أحد الجنويين لحراسة قصره وكان يستشيره فى المسائل العسكرية نظرا لعدم ثقته فى رعاياه .

ويهمنا من أمر سفارة أبغا خان لمجمع ليون عام ١٢٧٤ م أنها كانت مكونة من ستة عشر عضوا على رأسهم الراهب ديفيد الأشبى . وأنه فى يوم ٧ يولية وفى نهاية الجلسة الرابعة لأعمال هذا المجمع فان البابا قدم سفراء الخان المغولى للحاضرين حيث تليت رسالة الأخير أمام الحاضرين باللغة اللاتينية ، وأن ثلاثة من سفراء المغول قد طلبوا من البابا تعميدهم ، وقد قوبل هذا التصرف «الاعلامى» المقصود بترحيب عام من ممثلى كنائس أوروبا بل وتشير إحدى الحوليات الايطالية إلى أنه قد سرت إشاعة - حينئذ - مفادها أن أبغا خان سيحضر لروما للتعميد على يد البابا وتلقى التاج من الأخير شخصيا [٤٨].

وقد أرسل البابا نيقولا الثالث (١٢٧٧-١٢٨١) في عام ١٢٧٨ خمسة من الرهبان الفرنسسكان فى بعثة تبشيرية للمغول ومعهم خطابات للايلخان المغولى فى فارس وعمه

قوبيلاى خان فى بكين لتعميدهما بناء على معلومات وصلت البابوية من سفارة لأبغا عام ١٢٧٦م بأنهما يرغبان فى اعتناق المسيحية . ويكرر البابا العبارات المتداولة فى خطابات أسلافه وخلفائه لقادة المغول بأنه أرسل لهما هؤلاء الرهبان لضمان خلاصهما ومثوبتهما فى الآخرة ، ويطلب منهما السماح للأخيرين بالتبشير بين الرعية (٤٩). وفى خطاب لهؤلاء الرهبان فان نيقولا الثالث يخولهم كل الصلاحيات فى التعميد وحل جميع المقطوعين من رحمة الكنيسة والراغبين فى العودة لحظيرة الطاعة - ويقصد النساطرة واليعاقبة - وقبول اعتراف المذنبين والتائبين وحلهم من ذنوبهم فى حالة تقديم الترضية للكنيسة أو للأديرة الكاثوليكية أو للأشخاص الذين أضيروا منهم . ويعطيهم البابا أيضا سلطات إنشاء الكنائس فى كل مكان داخل المملكة المغولية وإقامة القداس وسائر التراتيل والخدمات الدينية «والقيام بكل عمل من شأنه تمجيد اسم الرب ونشر العقيدة» (٥٠).

وليس معروفا على وجه التحديد ما إذا كانت هذه البعثة التبشيرية قد وصلت إلى ايلخانية فارس من الأصل أم لا ولكنه تأكد على وجه اليقين أنها لم تصل للصين فضلا عن أن ابغا وعمه لم يعتنقا المسيحية أبدا .

سفارة صاوما للغرب وولاء بطريق النساطرة لروما :-

لقد كانت سفارة رابان صاوما للغرب الأوربى (١٢٨٧-١٢٨٨م) نائبا عن أرغون خان إحدى الفرص الفريدة من نوعها فى تاريخ العصور الوسطى للتقارب الدينى بين المسيحيين الشرقيين وبين البابوية باعتبارها ممثلة للعالم الكاثوليكى . ورغم أن الايلخان المغولى قد أرسل هذا الراهب النسطورى لأهداف سياسية بحتة إلا أن البابوية حاولت أن تستفيد من هذه السفارة فى ضمان ولاء الكنيسة النسطورية لها وهو هدف طالما سعت البابوية لتحقيقه (٥١).

فقد كان السفير المغولى الرجل الثانى فى الكنيسة النسطورية ببغداد التى يدين لها النساطرة فى كثير من ربوع آسيا بالولاء الدينى . ومن ثم كان على دراية كاملة بمذهبه الدينى. وكان وجوده فى روما فرصة كبيرة لمناقشات لاهوتية طويلة مع الكرادلة حول الفروق الجوهرية بين النحلتين : النسطورية(٥٢) والكاثوليكية . وكان صاوما قد حمل معه خطابات من بطريك النساطرة للبابا ، مما جعل البابوية تتعامل معه على أنه حضر لتقديم فروض الولاء والطاعة لها من الكنيسة النسطورية نيابة عن بطريقها جبلاها الثالث Jabalaha III (١٢٨١- ١٣١٧) وقد فعل صاوما ذلك فعلاً . فكما كتب هو نفسه فى مذكراته ، فانه

قد أدى فروض الولاء للبابا وركع أمامه كأنه أحد الكاثوليك وقبل منه العشاء المقدس واعترف له بذنوبه وطلب منه البركات الرسولية له ولأسلافه وطلب منه بعض الرفات الكاثوليكية لوضعها فى بطريركية النساطرة فى بغداد . وأهم ما فى الأمر أن البابا قد أعطى صاوما خطابات له ولبطريرك النساطرة وتاجا من الذهب وملابس كهنوتية للأخير (٥٣)، لتأكيد أنهما قد خضعا لكنيسة روما وأن بطريق النساطرة قد تلقى منصبه من البابا .

ومن الواضح أن صاوماكان لايمانع فى الاعتراف بسمو كنيسة روما وعالميتها – طالما أن ذلك يحقق الهدف السياسى لسفارته ، ولكنه لم يتخل عن نحلته النسطورية . ويشهد على ذلك محاوراته العنيفة مع الكرادلة حول طبيعة المسيح . وفضلا عن ذلك فانه طلب من البابا أن يسمح له بأداء شعيرة القربان المقدس أمامه . ويحكى لنا أنه فى اليوم المحدد لذلك توافد الآلاف من روما لمشاهدة كيفية احتفال السفير المغولى بهذه المناسبة . وبعد الانتهاء من ذلك فان البابا نيقولا الرابع أبلغه « أن الاختلاف فى اللغة ولكن الممارسة واحدة » (٥٤).

ولكن هذا لاينفى أن البابوية قد ظلت على رأيها فى أن المذهب الكاثوليكى هو الصحيح وما عداه من مذاهب هرطقية ، ويؤكد ذلك خطابات نيقولا الرابع لصاوما ولبطريق النساطرة وللأسقف ديونيسيوس أسقف اليعاقبة فى تبريز والتى حملها صاوما معه حين عاد لبلاده. ففى هذه الخطابات يطلب البابا من الأسقفين أن يعلّما شعوبهم العقيدة المسيحية «الصحيحة» طبقا لممارسات الكنيسة الأم فى روما . بل ويذيل البابا خطاباته لأساقفة الشرق بصيغة الإيمان المسيحى من وجهة النظر الكاثوليكى (٥٥).

ومن اليسير الحكم على دوافع البطريق النسطورى فى قبول تبعية كنيسته لروما بعد تسعة قرون تقريبا من القطيعة والشقاق . فالبطريق جبلاها الثالث كان مقربا من أرغون خان . وهو الذى رشح له صاوما ليكون سفيره للغرب الأوربى فى مهمه واضحة المعالم وهى طلب التعاون العسكرى ضد المماليك . ولما كان أرغون على غير دراية بالمذاهب المسيحية وأوجه الخلاف بينهما ، فانه لم يكن يهمه من قريب أو بعيد أن يكون رعاياه المسيحيون يعتنقون المذهب النسطورى أو الكاثوليكى أو غيرهما ، فكل ما يشغله هو نجاح سفيره فى مهمته السياسية ، ولذلك فمن المحتمل أن ترتيبات إعلان خضوع الكنيسة النسطورية لروما جاء بالاتفاق بين صاوما وبين البطريق فقط حتى دون أخذ رأى بقية رجال الدين النساطرة ، وذلك لجذب ثقة وتأييد البابوية ورعاياها الأوروبيين لمشروع أرغون السياسى ، لأن فى نجاحه تدعيما وتوطيدا للمسيحية والمسيحيين بين المغول أيضا .

ويروى الراهب الدومنيكانى ريكولد مونت كروس Ricold of Monte Croce الذى زار بغداد عام ١٢٩٠م أن البطريق أخبره أنه تبرأ من نحلة نسطور . ولكن ريكولد يؤكد على أنه غير صادق فيما يقول ، ويضيف أيضًا أن بقية الأساقفة النساطرة قد تمردوا عليه(٥٦). وهذا يدل على أن الوحدة مع كنيسة روما كانت بمبادرة شخصية من البطريق .

ومهما يكن من أمر فان البابوية - التى كانت قد حصلت على ولاء كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية فى مجمع ليون الرابع عشر عام ١٢٧٤م . بصرف النظر عن دوافعه السياسية وقصر مدته(٥٧) كانت حريصه على ضمان ولاء الكنائس الآسيوية لسيادتها لتأكيد ادعاءاتها بالسمو والعالمية ، ومن ثم فانه بعد رحيل صاوما من روما عام ١٢٨٨ م تلقى بطريق النساطرة لعديد من الخطابات من البابوية وبعض القادة العلمانيين فى غرب أوروبا ، وكلها تؤكد على أن جبلاها الثالث ممثل البابوية فى آسيا وأنه أحد الأساقفة الكاثوليك . ولقد استمر هذا التصور من جانب الغرب الكاثوليكى حتى وفاة البطريق عام ١٣١٧م، وحينئذ قام البابا بانشاء أسقفية فى السلطانية - عاصمة ايلخانية فارس منذ عهد اولجاتيو - ورسم لها أسقفًا دومنيكانيا، كما سيأتى ذكره فيما بعد .

والمهم أنه فى ١٨ مايو عام ١٣٠٤م كتب هذا البطريق خطابا للبابا من مدينة مراغة. وتدل عباراته الواضحة أن الأول قد أذعن للأخير بالولاء والطاعة بلا قيود . فيخاطب البابا بقوله «نائب المسيح على الأرض ..» ، «ونحن نؤمن بحبر روما المقدس والأب العالمى لجميع المؤمنين بالمسيح ، ونؤمن أنه خليفة بطرس المبارك النائب العالمى للمسيح عيسى فوق كل أبناء الكنيسة من الشرق إلى الغرب .. ونحن ندين له بالولاء، ونطلب منه البركات ومستعدون لتلبية جميع أوامره ...» (٥٨).

ومن الواضح أن تأكيد الإذعان للبابوية والوحدة الدينية مع روما جاء لدوافع سياسية هذه المرة أيضا ولكنها لم تكن بهدف تعضيد التحالف مع المغول ولكن بقصد تدخل البابوية وملوك الغرب الأوربى لدى حكام المغول لرفع الظلم والاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون فى إيران والعراق والذى ذاق مرارته البطريق شخصيا منذ اعتلاء غازان العرش واعتناقه الإسلام والذى ترتب عليه إعلان الإسلام ديانة رسمية لدولته . ومن ثم يلتمس البطريق من البابا المساعدة فى المحنة التى يتعرض لها «إخوته وأبناؤه فى المسيح الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكى». وفى العبارة الأخيرة تأكيد من البطريق للبابا أن رعايا الكنيسة النسطورية قد تحولوا للمذهب الكاثوليكى ، ولكن هذا لم يحدث البته لأن البطريق لم يستشر أحدا حتى من رجال الدين

النساطرة [٥٩]. ومن الواضح أن هذا الإذعان كان رهن الحاجة لمساعدة الغرب الأوروبى وعندما لم تصل هذه المساعدة فان الوحدة الدينية مع اللاتين قد انتهت لانتهاء الظروف المسببة لها هذا على افتراض أنها خرجت إلى حيز التنفيذ فعلا خارج إطار البطريق شخصيا .

والمهم أن «نيقولا الرابع» - الذى كان مقدما لجماعة الرهبان الفرنسسكان قبل أن يعتلى الكرسى البابوى - كان يهمه نشر العقيدة المسيحية بين المغول ، ولهذا فقد أرسل مع صاوما- خطابين لارغون خان بهذا الشأن .

ويكرس البابا - خطابه الأول للايلخان المغولى : أرغون خان لاقناعه باعتناق العقيدة المسيحية وجاء فيه:

... وقد فرحنا كثيرا وابتهجنا للرب الذى يملك قلوب ملوك الأرض بين يديه لأنه سبق وأنعم عليك راحما بانعاماته ، وأضرم فؤادك بمحبته حتى نشأت فى قلبك رغبة ملحة فى توسيع تخوم البلاد المسيحية كما اتضح من نص الرسالة وأقوال المندوبين أنفسهم ،حتى أخذت تعامل باللطف والحسنى جميع النصارى المقيمين فى البلاد الخاضعة لك ... ونحن نقدم لجلالتكم أجمل آيات الشكر ... (ويعد ذلك شرح لرسالة المسيح الذى تنازل وعاش بين البشر وبعد قيامته ترك لبطرس وخلفائه سلطان الحل والعقد على الأرض فى السماء) .

ونحن نحب أن يعيش المسيحيون حسب مذهبهم السامى(أى الكاثوليكى) ويتخلى غير المسيحيين عن الضلال ويتنصروا لأن هذا هو الدين الحق الذى به النجاح والخلاص . وأنت أيها الملك حسنا تفعل لو قررت أن تتنصر وكم تكون فرحة الكنيسة والشعب عظيمة لو تم ذلك !

فهيا فكر فى الأمر مليا ولاتنس الموت الذى يأتى كاللص فى كل مكان وزمان واعتنق الدين المسيحى وتنصر واعمل على انتشار هذا الدين فى بلادك فتنال عند وفاتك أعظم ثواب[٦٠].

وفى رسالته الثانية للإيلخان المغولى المؤرخة فى ٤ ابريل (١٢٨٨م) يكرر البابا المعانى السابقتويلع عليه أن «يسرع لنيل المعمودية ... لتمجيد الرب ولنيل الخلاص»[٦١].

وفى محاولة من البابا للتأثير على أرغون لاعتناق المسيحية فانه أرسل خطابات مماثلة لعديد من الشخصيات المؤثرة فى بلاطه . ففى خطاب لوالدته ، فان نيقولا الرابع يبعث لها بالتهنئة لاعتناقها المسيحية ويحثها على نشرها بين أتباعها ويطلب منها أن تكون قدوه فى كل تصرفاتها حتى تتسع تخوم المسيحية [٦٢].

وبالإضافة إلى ذلك ، فان نيقولا الرابع أرسل خطابا قصيرا موجها إلى تسعة من العلمانيين الأوربيين – وأغلبيتهم من الإيطاليين الذين يعملون فى خدمة ارغون يمتدحهم فيه على تمسكهم بدينهم «السامى» ويطلب منهم أن «يكونوا قدوة لغيرهم وأن يساعدوا الأخيرين على النجاة بأرواحهم باعتناق المسيحية» (٦٣).

ويؤكد البابا فى خطابه لرجال الدين الشرقيين – فضلا عما سبق ذكره – على أهمية حمايتهم ورعايتهم للرهبان الكاثوليك فى بلادهم ، والتعاون معهم وتسهيل جميع الصعاب لهم وإزالة العوائق من أمامهم «كى يزرعوا بذور الخلاص من الخطايا وكى يقودوا جميع السكان للعقيدة الكاثوليكية» (٦٤) .

وهكذا أعطت البابوية جل اهتمامها لمسألة اعتناق أرغون ورعيته للمسيحية ولم تول الهدف السياسى لسفارة صاوما الاهتمام المطلوب .

وبعد وصول صاوما لعاصمة أرغون محملا بهدايا وخطابات الغرب الأوربى له قان الايلخان أقام حفلا كبيرا حضره جميع المسيحيين – ومنهم الأوربيين – فى عاصمته . ولما كان ارغون يعد لإرسال سفارة أخرى لأوروبا بخطط محددة لمشروع التعاون العسكرى المشترك ضد المماليك ، فانه أحضر طفله خد ابنده (الخان اولجايتو فيما بعد) فى هذا الاحتفال وطلب من كبير الرهبان الكاثوليك تعميده بحضور جميع الأوربيين بعاصمته فضلاً أنه طلب كنيسة على هيئة خيمة تلحق بقصره ويقوم على أمرها صاوما نفسه . ووزع الأعطيات على المسيحيين بسخاء ، وأقنع عددا من رجال بلاط المغول باعتناق المسيحية (٦٥). وهذا كله بغرض إفهام الأوربيين فى قصره - ومنهم سفراؤه لأوربا – بحبه للمسيحية ورعاياها وأنه فى الطريق لاعتناق المسيحية لو استجاب الغربيون للتعاون معه ضد المماليك ، وقد تحدث سفراؤه الايطاليون فى العواصم الأوربية فيما بعد (١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩٢م) عما وصلت إليه علاقة الايلخان بالمسيحية والمسيحيين . أى أن ارغون لم يفعل ذلك لدوافع دينية كما ورد فى مذكرات صاوما ولكنه كان يخاطب – من خلال التقرب من المسيحيين– مشاعر البابوية ورعاياها لجذب تأييدهم السياسى (٦٦).

بعثة جون مونت كورفينو للمغول John of Monte Corvino

يعد هذا الراهب الفرنسسكانى من أهم المبشرين بالعقيدة المسيحية بين المغول بل وأكثرهم شهرة فى هذا المجال .

فبعد عام واحد من رحيل صاوما من روما ، أعاد البابا نيقولا الرابع إرسال جون مونت كورفينو على رأس بعثة تبشيرية تضم خمسة من الرهبان الفرنسسكان للشرق (٦٧). وزوده بعشرة خطابات لارغون خان وللخاقان المغولى : قوبيلاى خان فى بكين ولأمرائهما وكبار رجال الامبراطورية المغولية وللملك أرمينيا الصغرى ، وجميعها مؤرخة فى يولية عام ١٢٨٩م (٦٨).

ففى خطابه لهيثوم الثانى (١٢٨٩- ١٣٠١م) نقرأ عبارات البابا التى يحث بها الملك على الانضواء تحت لواء كنيسة روما ، وحماية المبشرين الكاثوليك فى مملكته . وكانت خطابات نيقولا الرابع لحكام المغول أيضا ذات طابع دينى بحت لحثهم على سرعة التنصر وحماية الرهبان الفرنسسكان والدمنيكان فى بلادهم ورعايتهم، ونشر الدين المسيحى بين رعاياهم ، وتوسيع تخوم المسيحية فى آسيا (٦٩). ويتضح أن البابا قصد تحقيق أهداف دينية بحتة من هذه السفارة . وقد يكون من دوافعها أيضا ما هو سياسى وهو توسيع نفوذ البابوية فى العالم والتضييق على المسلمين أينما كانوا ، ووضح تماما أن نيقولا الرابع كان حتى ذلك الحين يتغاضى عما يحدث للكيان الصليبى فى الشام من تصفية المماليك له بصورة خطيرة .

ومن المهم أن نشير بايجاز لأهم ملامح جهود جون مونت كورفينو فى التبشير بين المغول . فقد استقر جون لعدة شهور فى تبريز فى دير يضم الرهبان الفرنسسكان والدومنيكان معا لممارسة دوره التبشيرى بعد أن قام بتسليم رسائل البابا للمرسل إليهم فى ايلخانية فارس . وفى عام ١٢٩١م ترك تبريز متجها إلى الشرق لتسليم رسالة البابا لقوبيلاى خان . وكان يصحبه فى هذه الرحلة الشاقة الطويلة راهب دومنيكانى يدعى نيقولا أوف بستويا Nicolas of Pistoia وتاجر إيطالى يدعى بيتر لوكالونجو Peter of Lucalongo وتوفى الراهب الدومنيكانى بالطريق ، ووصل جون ورفيقه إلى خان بالق (أو بكين الحالية) عام ١٢٩٤م بعد وفاة قوبيلاى خان بشهور قليلة وبعد عامين من رحيل ماركو بولو من الصين . وقام بتسليم رسالة البابا لحفيد قوبيلاى وخليفته فى الحكم تيمور اولجايتور (١٢٩٤-١٣٠٧) فى مايو من ذلك العام حيث قوبل بحفاوة بالغة وسمح له بالتبشير بالمسيحية (٧٠). تحت حماية الخاقان الجديد الذى اقتفى أثر سياسة سلفه فى حسن معاملة الأجانب .

ولما كان جون مونت كورفينو هو أول راهب كاثوليكى يدخل الصين حيث الأغلبية الساحقة من الوثنيين والبوذيين وحيث الأقلية من المسلمين والمسيحيين (النساطرة والإغريق والأرمن) (٧١)، فإنه أراد الاستعانة بأمير مقاطعة تندوك - فى إقليم منغوليا الحالى وهو

الكاثوليكى، فان المئات من رعيته اقتفوا أثره ومن ثم بنيت أول كنيسة كاثوليكية هناك تحت إشراف الراهب الفرنسسكانى . ولكن هذه التجربة لم تدم طويلا لوفاة الأمير جورج عام ١٢٩٨م وبوفاته ارتد الكاثوليك لنسطوريتهم [٧٢].

ومن ثم رجع جون للعاصمة بكين حيث قام بالتبشير بين الأرمن والجورجانيين الذين كانوا أو آباؤهم - يعملون فى جيش الخاقان منذ احتلال المغول للصين أو أنهم من أسرى الحرب وكانوا من نصيب قوبيلاى فى الغنائم ، وساعده على أداء مهمته إجادته للغتين الفارسية والأرمينية التى تعلمهما فترة وجوده بالشرق الآسيوى منذ عام ١٢٨٠م . وتعلم جون أيضًا اللغتين التركية والمغولية فترة وجوده بالصين ، بل واستطاع أن يترجم الإنجيل وبعض الكتب المقدسة إلى اللغة التركية (اليغورية) .

وفى أول تجربة من نوعها للتغلب على مشكلة عدم وجود رهبان كاثوليك لمساعدته فى مهمته فان الراهب جون اشترى مائة وخمسين طفلا من الأرقاء الصينيين بين عمر السابعة والحادية عشر بمساعدة صديقه التاجر الايطالى ، وقام بتعميدهم وتنشئتهم وفقا للتربية المسيحية وذلك فى الكنيستين اللتين قام ببنائهما فى بكين . وهؤلاء كانوا خير عون له فى التبشير لحوالى ستة آلاف من السكان[٧٣] - ومعظمهم من المسيحيين الشرقيين القاطنين فى الصين .

ولما كان جون مونت كورفينو لايستطيع ترسيم القسس لممارسة شئون العقيدة لأنه لم يخول الصلاحيات الكنسية بذلك من البابا ، فانه بعد أحد عشر عاما من وجوده بالصين أرسل رسالتين إلى مقدم الفرنسسكان فى أوربا وللبابوية طالبا منهما إرسال العديد من الرهبان والكتب الدينية وترسيم رجال دين لشئون الكنائس فى الصين . وقد وصلت هاتان الرسالتان للغرب عام ١٣٠٧ ، وعلى أثر ذلك قام البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤) باصدار مراسيم بابوية بتقليد جون منصب رئيس أساقفة خان بالق (بكين) ومنحه صلاحيات البطريرك فى كل الامبراطورية المغولية[٧٣] وأرسل له سبعة من الرهبان الفرنسسكان لمعاونته . وقد وصل ثلاثة منهم إلى بكين عام ١٣١٣م . وعلى الفور قام جون مونت كورفينو بانشاء أسقفية فى مدينة الزيتون - وهى أشهر ميناء تجارى فى جنوب الصين حينئذ فى مواجهة جزيرة تايوان (فرموزا) الحالية ، كما أسس أديرة وكنائس فى مناطق شيكيانج Checkiang وهانجشو Hangchow ويانجشو Yangchow وعندما توفى جون مونت كورفينو عام ١٣٢٨م كان قد

ترك عدة آلاف من الكاثوليك فى الصين والعديد من الأساقفة والرهبان الفرنسسكان يعملون فى جد ودأب فى مجال التبشير بالمسيحية فى الشرق الأقصى على مدى عقود من الزمان(٧٥).

جهود الراهب الدومنيكانى ريكولد مونت كروسى فى ايلخانية فارس :

على الرغم أن كتابات ريكولد مونت كروسى Ricold of Monte Croce(٧٦) لاتشرح لنا الكيفية التى أنجز بها مهامه التبشيرية ، أو تقدم لنا المعلومات عن نتائجها فى ايلخانية فارس فى الفترة من ١٢٨٨م حتى ١٣٠١م ، فانها توضح أنه وصل إلى مدينة تبريز حيث استقر بها عدة شهور ثم انتقل منها لكثير من المدن العراقية وأهمها الموصل وبغداد وتكريت(٧٧). وأنه استقر بالمدينة الأخيرة عدة سنوات منقطعا عن العالم الكاثوليكى . وقد قام بالتبشير بالكاثوليكية بين اليعاقبة والمارونيين - وهم أغلبية فى هذه المنطقة - وأتقن اللغة العربية التى ساعدته على دراسة القرآن الكريم والأحادث النبوية وكثيرا من كتب الفقه وذلك ليتمكن من مجادلة رجال الدين المسلمين والرد عليهم . وقد سمح له حاكم الموصل - وكان نسطوريا - بالتبشير علانية بين النساطرة شريطة ألا يجلب على نفسه المتاعب بالتعرض لغيرهم(٧٨) . وشجعه على ذلك أن أرغون فى سنواته الأخيرة قد أطلق العنان للرهبان الكاثوليك للتحرك بين رعاياه بحرية تامة وتحت حمايته ، وفضلا عن ذلك فان بطريق النساطرة نفسه كان يدين بالولاء - نظريا على الأقل -لكنيسة روما ، ولهذا قدم لريكولد ولغيره من الدومنيكان كثيرا من المساعدات رغم أن الأخير يقرر أن نساطرة بغداد قاموا بطرد الرهبان الكاثوليك منها وكادوا يفتكون بهم (٧٩).

ولما كانت الفترة من ١٢٨٩ حتى ١٢٩١ هى مرحلة سقوط المدن والقلاع الصليبية الباقية فى الشام ، فان تجار الرقيق كانوا يبيعون مئات الأسرى الصليبيين فى أسواق بغداد وغيرها من المدن العراقية ، وكان من بينهم العديد من الرهبان الدومنيكان ، ومن ثم استطاع ريكولد تقديم الخدمات الدينية لهؤلاء الوافدين الكاثوليك الجدد بل وتمكن بمساعدة من التجار الايطاليين من شراء بعضهم ، واستعان بالدومنيكان منهم فى إنشاء أديرة ومراكز كاثوليكية بالايلخانية ، وقد كانت هذه الظروف مناسبة له للاستماع من شهود العيان اللاتين للعديد من الروايات عن سقوط أخر المعاقل الصليبية بسواحل فلسطين مما ساعده على كتابة مذكراته التى قدمها فى هذا الشأن إلى البابا عام ١٣٠١ م (٨٠).

ويصف ريكولد مدينة بغداد بأن سكانها حوالى مائتى ألف نسمة ، وأن أهلها يجاهدون لإعادتها لما كانت عليه حالها - قبل مذبحة هولاكو- كمركز دينى كبير ، ويثنى ريكولد على

المسلمين بقوله «استولت علينا الدهشة ، كيف أن أعمالا تتصف بمثل هذا الكمال أن تحيا فى ظل شريعة تصطبغ بمثل هذه النزعة ... لهذا نستعيد الآن فى إيجاز أعمال العرب تلك المتصفة بالكمال ... من ذا الذى لايعجب إذا تأمل جيدا أية عناية فائقة بالدراسة يمكن أن توجد بين العرب ، أى اخلاص فى الصلاة ، وأية رحمة بالفقير ، وأى تبجيل لاسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة ، وأى وقار فى أخلاقهم ، وفى معاملتهم للغرباء ، وأية مودة تربط بين جنسهم[٨١] ؟ » . ومع ذلك فان ريكولد يهاجم العقيدة الإسلامية فى القضايا الهامشية التى دأب المستشرقون الأوربيون فيما بعد على طعن الإسلام بها [٨٢].

ولأن ريكولد قد عاصر جانبا هاما من عهد غازان خان وما حدث للمسيحيين فى دولته من اضطهاد فان تقريره عن مستقبل البعثات التبشيرية بين المسلمين جاء متشائما ، وأوضح أنه من العسير إقناع المسلمين بالتحول للمسيحية [٨٣].

والجملة الأخيرة تقودنا لتوضيح الطوائف التى كان يعمل الرهبان الكاثوليك بينهم فى ايلخانية فارس .

حقيقه أن البابوية كانت دائمة الحلم بتحويل كل العالم – بما فيه المسلمون – للمسيحية على المذهب الكاثوليكى . وظهر للوجود فى بداية القرن الثالث عشر جماعة الرهبان الفرنسسكان وتبعهم الدومنيكان للتبشير بالانجيل بين غير الكاثوليك . حتى أن الراهب فرنسيس الأسيسى (ت ١٢٢٦م) مؤسس جماعة الفرنسسكان قد حضر مع الحملة الخامسة على مصر لاعتقاده أنه من السهل أن يقنع السلطان الأيوبى بالتنصر وفى ذلك حقنا لدماء الصليبيين كما صور له خياله وقد ذهب بنفسه للقاء الكامل الأيوبى وعرض عليه أفكاره ولكن الأخير أعاده بسلام لمعسكر الفرنجة فى دمياط قبل أن تتلقفه سيوف المسلمين[٨٤] وأرسلت البابوية أندريه لونجيجيموه عام ١٢٤٥م للأمراء المسلمين فى سوريا والعراق لتحويلهم للمسيحية[٨٥] . وهذا يوضح جهل الغرب الأوربى بحقائق الحياة فى هذه المناطق من ناحية والغرور والعنصرية الاستعلائية التى تتسم بها الحضارة الغربية من ناحيةأخرى .

ويبدو أن الرهبان الكاثوليك لم يتواتوا عن هذه المحاولة فى إيران والعراق اللتين كانتا تقودان العالم الإسلامى سياسيا ومنهما خرج كثير من أئمة الفقه وعلوم الدين والفلسفة الإسلامية ، أى أن البيئة كانت إسلامية قلبا وقالبا . ولهذا يتعامل المسلمون بحساسية شديدة مع الذين حاولوا إثنائهم عن عقيدتهم أو إقناعهم بقبول ديانة أخرى . ولهذا تعرض اثنان من

الرهبان الفرنسسكان للقتل فى تبريز عام ١٢٨٤م ، وتبعهما عدد آخر من نفس المدينة فى أوائل القرن الرابع عشر لأنهم أثاروا المسلمين بالتبشير بينهم [٨٦]. وفى عام ١٣٢٣ قتل ثلاثة رهبان فرنسسكان فى مدينة تانا Tana الهندية بأمر من القاضى المسلم بعد أن قاموا بسب الرسول ﷺ علانية[٨٧] وفى عام ١٣٣٩ م قتل سبعة رهبان فى إقليم التركستان لإثارتهم عامة المسلمين [٨٨]. بل أن الإشارة الوحيدة لوجود بعثات تبشيرية فى الوثائق الشرقية كانت فى الحولية السريانية لابن العبرى إذ يقرر هذا الكاتب أنه فى شهر يولية من عام ١٢٩٠ م قدم أحد الرهبان لإحدى المدن العراقية للتبشير بين سكانها ، ولما ذاع أمره فان جموعا من المصلين قد تعقبوه والمسيحيين الشرقيين بذات المدينة حتى قتلوه ومن قام بحمايته ودمروا الكثير من ممتلكات المسيحيين بالمدينة حتى لم يستطيع أى من الأخيرين الخروج إلى أسواق المدينة لمدة شهر كامل [٨٩]. وقد حدث ذلك فى نهاية عهد ارغون رغم كل أساليب القهر والضغط التى تعرض لها المسلمون هناك ورغم الحماية التى أعطاها الايلخان وقواده ونوابه (المسيحيون واليهود) للمسيحيين عامة والكاثوليك منهم خاصة .

والحقيقة أن حساسية المسلمين من البعثات التبشيرية لم تكن وقفًا على ايلخانية فارس بل كانت ظاهرة عامة صادفها جميع الرهبان الكاثوليك فى المجتمع الإسلامى ؛ وفيهم الفرنسسكانى الشهير رامون لول Ramon Lull الذى قتله جموع المسلمين الغاضبين فى الجزائر عام ١٣١٦ م[٩٠] .

وفضلا عن ذلك ، فان شهادة الأسقف الفرنسسكانى لمدينة الزيتون الصينية عام ١٣٢٣ يؤكد فيها أنه وزملاءه لم يستطيعوا تحويل أى مسلم أو يهودى للمسيحية[٩١] هذا بالرغم أن الأخيرين كانوا أقليات ضئيلة فى الصين بعكس الأغلبية الساحقة للمسلمين فى إيران والعراق. وفوق هذا وذاك فان تقرير الراهب الدومنيكانى جوردان القطلانى Jordan of Catalan عام ١٣٢٨ يوضح أن كل الذين نجح المبشرون الكاثوليك فى تحويلهم لمذهبهم كانوا من المسيحيين «المنشقين» [٩٢]، أى النساطرة واليعاقبة . وهذا يوضح أن الرهبان الكاثوليك كانوا يحاولون جاهدين اكتساب المغول - وهم بلا دين سماوى - لعقيدتهم ، وكانوا أيضًا يعملون بين المسيحيين الشرقيين - وأغلبيتهم الساحقة من النساطرة - الذين كانوا يؤمنون بعقيدة نسطور الذى اعتبره مجمع افسوس عام ٤٣١ هرطقيا منشقا ، ومن نافلة القول أن نذكر أنه كان من اليسير على الرهبان الكاثوليك التبشير بين هؤلاء المسيحيين لأن تحويلهم لمذهب آخر

كان أمرا يسيرا ، ومع ذلك فان الانجازات كانت محبطة للغاية - كما سنوضح فيما بعد - ويبدو أن النساطرة كانوا مثل الأرثوذكس من الصعب اقناعهم بصيغة الإيمان الكاثوليكي والولاء لكنيسة روما .

ومهما يكن من أمر ، ففي عام ١٢٩٥م طرأت أحداث سياسية هامة في العاصمة المغولية الفارسية لم تكن في حسبان الغرب الأوربي وكان لها أثرها المباشر سواء على حركة التبشير بالكاثوليكية في ايلخانية فارس أو على وضع المسيحيين الشرقيين في الدولة . ومنها وصول غازان خان إلى كرسى الحكم في ذلك العام .

اعتناق غازان الإسلام وأثره على أهل الذمة :

لقد كان تكودار أحمد أول ايلخان مغولي في فارس يعتنق الإسلام . وقد سبقه في ذلك بركه خان حاكم القبيلة الذهبية في روسيا (١٢٥٦-١٢٦٧)[٩٣] ولم يمنع مقتل تكوادار عام ١٢٨٤م انتشار الإسلام بخطى حثيثة بين المغول في عهد خلفائه . وإذا كان كيخاتو قد حاول إرضاء رعاياه المسلمين باعفاء علمائهم وذرية النبى ﷺ من دفع جميع الضرائب على اختلافها واصدار عمله ورقية «الجاو»[٩٤] تحمل الشهادتين ، فان خليفته بايدو كان يرسل ابنه على للصلاة مع المسلمين مداراة لانحيازه الواضح مع المسيحيين . وقد اعتنق كثير من المغول الإسلام في عهد بايدو وأصبحوا يؤدون فرائضه .

ويتفق المؤرخون على أن غازان كان بوذيا في أول حياته «وأن والده ارغون أرسله أميرا على خراسان حيث التقى بالأمير نوروز المغولي الأصل والمسلم الديانة[٩٥] . ويتفق الذين تناولوا مسألة اعتناقه الإسلام ، أن الأمير نوروز قد شجعه على الثورة على بايدو وعلى اعتناقه الإسلام ، ومما ورد عنه «فاذا اعتنقت الإسلام صرت سيد إيران وأصبح المسلمون وقد رفعتهم من حالة الذل التى يئنون فيها تحت نير التتار الوثنيين - يكرسون - حياتهم لمصلحتك ويبارك الله في أسلحتك ... » ويروى أيضا أن نوروز أخذ وعداً من غازان باعتناقه الإسلام فور وصوله للعرش المغولي . وقد نفذ ما وعد به في اليوم الرابع من شعبان عام ٦٩٤هـ / يونية ١٢٩٥م [٩٦]. وسواء اعتنق غازان الإسلام لمصلحة سياسية أم عن قناعة دينية[٩٧] فانه لم يرتد عنه بل وأصدر قراراته ومراسيمه فيما بعد وفقا للشريعة الإسلامية . وكان دوره في انتشار الإسلام بين المغول - فيما أرى - لايقل عن دور قسطنطين الكبير في انتشار المسيحية في أرجاء الامبراطورية الرومانية .

فلقد كان أول مرسوم أصدره غازان بنص على أن الإسلام هو الدين الرسمى لدولة المغول فى فارس ، وأن الآداب والرسوم يجب أن تجرى طبقا لما تنص عليه الشريعة الإسلامية ، وأنه على الأمراء وكبار المسئولين فى الدولة أن يتوخوا العدالة التامة ويمتنعوا عن إلحاق الأذى والضرر بالرعية . وعلى أثر ذلك غير المغول زيهم ولبسوا العمامة كاشارة على التحول للدين الإسلامى[٩٨] الذى اعتنقه على الفور مائة ألف من أمراء المغول وجنودهم اقتداء بغازان [٩٧].

وليس معروفا على وجه الدقة من هو الذى أصدر أوامره بتدمير بعض الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية هل هو غازان شخصيا أم نائبه نوروز الذى كان مسلما متعصبا ؟ وفضلا عن ذلك فانه تم تحطيم الهياكل والأصنام البوذية ، وحولت كثير من الكنائس إلى مساجد ، وأغرى البوذيون على الدخول فى الإسلام . وأيضا لم يعد المسيحيون ولا اليهود بقادرين على أن يظهروا للناس إلا فى ثياب متميزة ، فكانت علامة النصارى شد الزنار فى أوساطهم ، واليهود خرقه صفراء فى عمائمهم . وبدأت فترة من الاضطهادات لأهل الذمة حتى أن نساءهم فى بعض المناطق كن وحدهن يستطعن الخروج من منازلهن للأسواق لأنهن لايميزن عن نسوة المسلمين[١٠٠] . وفوق هذا وذاك أعيدت ضريبة الجزية على المسيحيين واليهود يوم اعتلاء غازان العرش[١٠١].

وفى خطوة جديدة على الوضع السياسى لايلخانية فارس ، قيام غازان بالغاء مظاهر تبعيته للخاقان المغولى فى بكين مشيرا إلى أن الشخص الذى يعتبر كافرا يجب ألا ينقش اسمه فى المستقبل على عملة بلاده . وأعلن استقلاله الكامل ولقب نفسه بلقب خاقان وكان هذا اللقب مقصورا على الخاقان المغولى الأعظم فى بكين [١٠٢].

وقد كان لاعتناق غازان وخلفائه للدين الإسلامى آثاره الكثيرة يهمنا منها أولا : القضاء على الفجوة الكبيرة التى كانت تفصل بين المغول ورعاياهم المسلمين ، مما ساعد على اندماج المغول فى المجتمع الإسلامى واشتد تأثرهم بالحضارة الإسلامية . ثانيا : وضع هذا التحول حدا لسياسة تفضيل الأقليات المسيحية واليهودية فى مقابل تجاهل الأغلبية المسلمة وبهذا تحددت مكانتهم وصاروا يعاملون كأهل ذمة . ثالثا : بدخول المغول فى الإسلام فانهم كفوا أيديهم عن القتل والغارات وجدوا فى إصلاح ما أحدثه الايلخانيون البوذيون من تخريب وتدمير ، ورفع المظالم عن الرعية ، واتباع الشريعة الإسلامية بدلا من قوانين المغول التى سنها لهم جنكيز خان[١٠٣] . رابعا : ساهم إسلام غازان وخلفائه فى دخول هذا الدين فى مناطق جديدة كانت

تسيطر عليها البوذية فى شرق آسيا وجنوبها . وانقلب المغول من كونهم معول هدم للإسلام . إلى سواعد فتية لنشر هذا الدين سواء لمناطق لم يدخلها من قبل أو فى مناطق لم يكن منتشرا فيها على نطاق واسع (١٠٤).

ومن الواضح أن حالة من الاضطهاد العام قد لحقت بالمسيحيين وممتلكاتهم من قبل المسلمين الذين شعروا بالتخلص من الضغط الذى دام عليهم عشرات السنوات منذ دخول جحافل المغول للبلاد الإسلامية .

فالدار التى كان قد حصل عليها بطريق النساطرة من هولاكو قد أعيدت للمسلمين، وتعرض البطريق نفسه للتعذيب الجسدى من جانب بعض العامة لدرجة أنه علق من رجليه ورأسه يتدلى إلى أسفل لإجباره على التخلى عن دينه . وعندما قاوم ذلك وثبت على إيمانه طلب منه دفع مبلغ عشرين ألف دينار ، ولكنه استطاع الفرار والاختفاء بواسطة أميرة مغولية مسيحية . ويذكر أن سكان مراغة ألزموا بعد فراره بدفع غرامة قدرها ستة وثلاثين ألف دينار(١٠٥).

وقد بلغت الاعتداءات على غير المسلمين درجة اضطر فيها غازان إلى وضع حد لها . وفى هذه الأثناء استطاع البطريق جبلاها الثالث مقابلة غازان فى يولية عام ١٢٩٦ م . وكذلك مقابلة هيثوم الثانى ملك أرمينيا الذى حضر لتقديم الولاء للإيلخان المغولى . وفى تلك المقابلة طلب الملك الأرمنى من غازان التدخل لوقف هدم الكنائس المسيحية . أما المعابد البوذية فقد سمح بالاستمرار فى حرقها (١٠٦). وقد أمكن فى مدينة إربل - وفى اللحظات الأخيرة - منع صدام كاد أن يقع بين المسلمين والمسيحيين . أما التعويضات التى دفعها غازان إلى البطريق فكانت قليلة جداً ومقدارها خمسة آلاف دينار ، ولم تكن تكفى لإعادة بناء الكنائس ومنازل الأساقفة فى بغداد ومراغه وتبريز وهمذان . أما الأموال التى نهبت ، فقد أعيد جزءاً يسيراً منها ولكن أكثرها - كما هو المتوقع لم يعثر عليه (١٠٧).

وهناك فريقان من المؤرخين يتزعمان رأيين مختلفين حول الاضطهادات التى تعرض لها أهل الذمة فى عهد غازان خان . فالرأى الأول من أنصاره المؤرخ الألمانى بارتولد شبولر والمؤرخ المصرى مصطفى طه بدر وملخصه أن غازان نفسه كان وراء هذه الاضطهاد وأنه أصدر أمرا باجبار المسيحيين على ترك دينهم ، وأن رفع هذا الاضطهاد عنهم تم لأسباب سياسية(١٠٨) . والرأى الثانى- ومن أنصاره المستشرق الإنجليزى توماس أرنولد والمؤرخ الانجليزى أيضا ج ج

ساوندرز - مفاده أن غازان كان مسلما مثاليا وأن هذه الاضطهادات كانت من نوروز أو بأوامر منه وأن العامة قد فعلوا ذلك تلقائيا وكان يصعب السيطرة عليهم لما عانوه من عسف وجور طوال فترة الايلخانيين البوذيين [١٠٩]. ويُدلل توماس أرنولد على تسامح غازان « بأنه عندما اكتشف أن عبدة البوذية الذين كانوا قد دخلوا فى الإسلام فى مستهل حكمه (حينما خربت معابدهم) ولم يتحولوا إلى هذا الدين إلا تظاهرا ونفاقا ، سمح لجميع هؤلاء الذين كانوا جد راغبين فى العودة إلى التبت، حيث يستردون حريتهم مرة أخرى بين مواطنيهم البوذيين »[١١٠].

ولكن حولية جبلاها الثالث- التى أكملها شخص ، وثيق الصلة به بعد وفاة صاوما عام ١٢٩٢م - تؤكد أن نوروز هو الذى أصدر قرارات هدم كنائس المسيحيين ، وأن غازان أعطى الترتيبات الكافية للبطريق وأنه منحه تقليدا باعفاء رجال الدين المسيحيين من الضرائب وحرية ممارستهم شئون عقيدتهم ، وأنه أرسل منشورات لقواده بالكف عن نهب ممتلكات المسيحيين وتقديم الحماية الكافية لهم والضرب بشدة على من يجرؤ على التعرض لهم[١١١]. وتؤكد هذه الحولية السريانية أيضا عن لسان بطريق النساطرة أنه بالرغم أن غازان قد تحول عن دين آبائه فانه كان يعطى الاحترام والتقدير الكاملين للبطريق والمسيحيين ، وأن البطريق زاره عدة مرات وأن غازان قد قضى ليلة كاملة فى دير الأخير بمراغة قبيل رحيله للشام للمرة الثانية . فضلا عن أن غازان سمح له ومده بالأموال اللازمة لبناء كنيسة ضخمة فى مدينة مراغة حيث حضر عدد كبير من رجال الدين من كل الطوائف والأديان حفل افتتاحها [١١٢].

وفضلا عن ذلك فإنه عندما ظن بعض العامة فى عام ١٢٩٧ أنهم يستطيعون نهب الكنائس فى تبريز أصدر غازان أوامره بانزال العقوبات بهم . وعندما احتلت قوات المغول دمشق عام ١٢٩٩ / ١٣٠٠ م فان السلطان أصدر أوامره القائلة بأن المسيحيين واليهود الذين يدفعون الجزية لايجوز مضايقتهم [١١٣]. وفوق هذا وذاك فانه بعد قتل نوروز أصبح المسيحيون واليهود يتمتعون بنصيب كبير من الحرية الدينية ، وأوقفت الاضطهادات التى كانت تنزل بهم وإن لم يعودوا إلى المركز الذى كانوا يتمتعون به فى عهد الإيلخانيين البوذيين.

أما اولجايتو (١٣٠٤-١٣١٦) فقد فرض الجزية كاملة على أهل الذمة سنة ١٣٠٦ ولكنه فى سنة ١٣٠٨ استثنى القساوسة منها وأعفى الأديرة فى بعض الأحيان من الضريبة بل واعتبر الضريبة مخصصات لها . وقد بعث بايرادات مدينة إربل إلى البطريق ، ووقف السلطان ضد محاولات المسلمين تحويل كنيسة مسيحية فى مدينة تبريز إلى مسجد ، ولكنه تغاضى فى عامى ١٣٠٧، ١٣٠٨ م عن إحداث الضغط التى وقعت على الأهالى فى أرمينيا

وجورجيا الصغرى للدخول فى الدين الإسلامى (١١٤). وبوفاة البطريق جبلاها الثالث فى ١٣ نوفمبر عام ١٣١٧ فقد المسيحيون فى الايلخانيـة آخر مدافع عنهم فى القرن الرابع عشر خاصة وأنه كانت تربطه صداقة وطيدة مع جميع الايلخانيين الذين عاصروه . وفى عهد أبو سـعـيـد (١٣١٦-١٣٣٥) لم تكن الإدارة المركـزية بالقـوة الكافـيـة لمنع تحرشـات المسلمين بالمسيحيين فى مناطق كثيرة .

البعثات التبشيرية فى عهد الايلخانيين المسلمين :

لم يكن اعتناق حكام مغول فارس للإسلام حائلا دون وصول العديد من البعثات التبشيرية الكاثوليكية للايلخانية . فالغرب الأوربى لم يلاحظ ذلك إلا بعد ربع قرن من حدوثه . ومن ثم استمرت البابوية ومقدموا الأديرة الفرنسسكان والدومنيكان يرسلون هذه البعثات إلى إيلخانية فارس حتى منتصف القرن الرابع عشر تقريبا . وكانت البابوية والملكية الانجليزية دائمتى الإلحاح على حكام المغول بحماية الرهبان وتقديم العون لهم . فضلا عن ذلك فان فترة النصف الأول من القرن الرابع عشر شهدت - لأسباب كثيرة سندرسها فى الفصل التالى - انسياح العشرات من تجار المدن الإيطالية ليس فقط فى ايلخانية فارس بل أيضا فى الهند والصين . وأن هؤلاء اصطحبوا معهم الرهبان أينما حلوا كى يقدموا لهم الخدمات الدينية . بل أن ممثل التجار البنادقة فى تبريز أصر على أن تتضمن المعاهدة بين بلاده وبين أبو سعيد عام ١٣٢٠ نصا عن حرية وحق التجار البنادقة فى اصطحاب الرهبان معهم وفى إقامة الكنائس فى كل مكان يحلون فيه (١١٥). ولأن حكام المغول كان يهمهم اجتذاب التجار الإيطاليين واستقرارهم فى بلادهم - لما يعود عليهم بالنفع - فانهم قدموا الحماية الكافية لهم وللرهبان الكاثوليك معا . ولهذا لا غروا أن فترة الإيلخانيين المسلمين فى فارس كانت من أزهى الفترات للرهبان الكاثوليك والدليل على ذلك ورود العديد من البعثات من الغرب واستقرارها فى المدن التابعة لنفوذ مغول فارس أو عبورها للهند والصين .

ولقد تركزت أديرة الرهبان الفرنسسكان والدومنيكان وكنائسهم بصفة أساسية فى تبريز والسلطانية - العاصمة الجديدة منذ عهد أولجايتو - ومراغة ، وذلك لأن هذه المدن كانت على الطريق التجارى الذى يربط بين تجارة الشرق الآسيوى والغرب الأوربى . وفضلا عن كون أديرة الرهبان بمثابة محطات تجارية للتجار الإيطاليين فى الايلخانية أو الذين ينتقلون فى جنوب وجنوب شرق آسيا فان السلطة المركزية لايلخانية فارس قد تركزت فى هذه المدن وذلك حتى

يكون الرهبان تحت سمع وبصر الخان وقواده وفى ذلك حماية مباشرة لهم من غضب العامة باعتبارهم كانوا عزلا من كل قوة توفر لهم الحماية الشخصية . ولكن هذا فى حد ذاته كان عائقا من احتكاك الرهبان بعامة الرعية داخل البلاد .

ولقد كانت أديرة الرهبان الكاثوليك تعتمد على امدادات البابوية ومقدمى الأديره بأوروبا ، ولكن هذه الاعانات كانت غير ثابتة أو كافية بل أحيانا تعطى للرهبان فقط عند مغادرتهم أوروبا فى طريقهم لإلى اشرق لمواجهة نفقات الطريق . فضلا عن ذلك تلقى الرهبان بعض المنح والأعطيات من حكام المغول أو زوجاتهم أو من أساقفة المسيحيين الشرقيين . ولكن كانت تبرعات التجار الإيطاليين لأديرة الرهبان الفرنسسكان والدومنيكان أهم مورد مالى ، فقد حملت تقارير الأخيرين أن هؤلاء التجار اشتروا لهم - فى بعض الأحيان أراض أو أبنية لاستخدامها كأديرة أو كنائس لهم - فضلا عن أن الرهبان كانوا ينتقلون من منطقة لأخرى مع قوافل التجار الإيطاليين . أى أن الأخيرين زودوهم بوسائل الانتقال اللازمة . ومن المؤكد أن حمايتهم من كثير من الاضطرابات التى عمت الايلخانية قد تم بفضل تدخل هؤلاء التجار لدى حكام المغول . وفى حالة عدم توفر الموارد المالية السابقة أو انقطاعها فان الرهبان كانوا يضطرون لتسول قوتهم اليومى (١١٦). وهو مبدأ كان معمولا به فى أنظمة الرهبنة فى الجماعتين .

وفى تطور جديد على وضع البعثات التبشيرية فى وسط آسيا ، فان البابا كليمنت الخامس Clement V (١٣٠٥-١٣١٦) قد حصل على موافقة أولجايتوخان (١٣٠٤-١٣١٦) بانشاء مطرانية فى عاصمته السلطانية ، ولكن هذه الخطوة لم تخرج إلى حيز التنفيذ إلا فى عهد البابا حنا الثانى والعشرين(١٣١٦-١٣٣٤م) ، عندما أصدر مرسوما فى أول مايو عام ١٣١٨ م بانشاء هذه المطرانية ، ورسم لها الأسقف الدومنيكانى فرنسيس أوف بيروجيا Francis of Perugia للإشراف على الكاثوليك فى ايلخانية فارس وإقليم مغول القبيلة الذهبية فى روسيا وكذلك فى الهند وأثيوبيا . وبعد شهر واحد من هذا المرسوم قام فرنسيس أوف بيروجيا بترسيم ستة من الأساقفة وتعينهم فى أسقفيات أنشئت فى أرمينيا وجورجيا الصغرى وفارس(١١٧) . ونظرا لقلة كتابات الرهبان الدومنيكان فى فارس عن انجازاتهم أو كيفية مواجهة الصعوبات فى مجال عملهم ، فان من تصدوا لدراسة هذا الموضوع لايعرفون سوى أسماء من تولوا منهم مناصب كنسية فى هذه الأسقفيات ووقت تعينهم أو وفاتهم أو إغلاق هذه المراكز الدينية أو نقلها أو بعضها لمناطق أخرى (١١٨).

ولكن إنشاء مطرانية كاثوليكية فى عاصمة ايلخانات فارس لايدل على أن الأمور كانت تسير على ما يرام بالنسبة للرهبان، أو أنهم أحرزوا تقدما كبيرا فى مجال التبشير بالمسيحية، فهذا المرسوم كانت وراءه ضغوط قوية من جماعة الدومنيكان فى أوربا على البابوية ، وذلك لمساواتهم بجماعة الفرنسسكان الذين كانت لهم مطرانية فى بكين منذ عام ١٣٠٧م وحتى لايخضع الدومنيكان فى كل مكان فى آسيا لسلطة المطران الفرنسسكانى فى بكين والذى كانت المسافات الطويلة تمنعه من ممارسة الصلاحيات المخولة له من البابا على كل الكاثوليك فى القارة شرقها وغربها وجنوبها وشمالها .

وعموما كانت البابوية تهدف من وراء ذلك أيضا تشجيع الدومنيكان على كسب أرضية جديدة فى آسيا بمنافسة الفرنسسكان الذين حققوا نجاحا ملموسا فى الصين عبرت عنه خطاباتهم وتقاريرهم التى أرسلوها لمقدميهم وللبابوية تباعا .

وكانت هذه «المطرانية » مقامة فى مبنى صغير اشتراه أحد التجار الإيطاليين فى السلطانية . أما الأبرشيات التى كانت تابعة لها فلم تجد من يشغل أمر الخدمة الدينية بها بعد سنوات قليلة من انشائها ، وذلك بسبب الوفاة وعدم وصول رهبان دومنيكان جدد من الغرب . ويكفى أن نذكر أن الرهبان الفرنسسكان الذين كانوا يشتركون مع نظرائهم الدومنيكان فى مبنى واحد بتبريز - بعد تحويل مبنى الدومنيكان لمدرسة إسلامية عام ١٢٨٥م- لم يعترفوا بسلطة أسقف الدومنيكان فى نفس المدينة ، ومارسوا شعائر عبادتهم منفردين على طريقتهم عام ١٣٣٢م (١١٩).

ويقرر الراهب الدومنيكانى جوردان القطلانى Jordan Catolani عام ١٣٢٨ ، أن شعب أسقفية السلطانية يبلغ خمسمائة شخص ، وأن ألفا من المسيحيين «المنفين» قد اعتنقوا المذهب الكاثوليكى على يد الرهبان فى تبريز ومراغة (١٢٠). ومع افتراض عدم مبالغة الراهب عن انجازاته وزملائه وسابقيهم فان هذا الرقم متواضع جدا ، وذلك لمعرفتنا أن الرهبان الدومنيكان متواجدون فى تبريز منذ عام ١٢٦٠م على الأقل ، وهو العام الذى استقر فيه ديفيد الأشبى فى تبريز حيث سمح له هولاكو بالتبشير هناك . وأن حصاد ثلثى قرن من الزمان هو تحويل ألف وخمسمائة مسيحى شرقى فقط للمذهب الكاثوليكى هو دليل على وجود كثير من الصعوبات التى كانت تعوق عمل هؤلاء الرهبان فى تلك المنطقة خاصة بعد اعتناق غازان للإسلام .

أما عن الرهبان الفرنسسكان فكانت لهم أديرة فى تبريز والسلطانية ولاتوجد مصادر تفيد انجازاتهم . ولكنه معروف أن معظم الفرنسسكان تركزوا فى منطقة أرمينيا حيث برز عدد منهم فى إتقان اللغة الأرمينية وترجمة الأناجيل لهذه اللغة ، وتمثل نجاحهم فى اعتناق الأسقف الأرمنى زخارى Zacharias للمذهب الكاثوليكى (١٢١).

وكان اعتناق بعض الرهبان الفرنسسكان بفكرة روحانية المسيح وحوارييه ، سببا فى ظهور انشقاق فى صفوفهم مما أصابهم بكثير من الأضرار فى فارس . ولما كان البابا حنا الثانى والعشرين قد أدان الروحانيين Spirituals عام ١٣٢٣ م فانه أرسل لأسقف الدومنيكان فى تبريز للتحرى عن الفرنسسكان المنشقين وطردهم من منطقته . وكان على أثر ذلك أن طرد اثنى عشر راهبا فرنسسكانيا عام ١٣٣٤م من ايلخانية فارس للشك فى انتمائهم للمنشقين . وفى عام ١٣٤٤ م أرسل البابا كليمنت السادس (١٣٤٢-١٣٥٢) مرسوما لمطران السلطانية الدومنيكانى باعادة البحث والتحرى عن الفرنسسكان المنشقين فى منطقته . وقد نتج عن هذا كله - وعوامل أخرى - انتهاء وجود الفرنسسكان فى ايلخانية فارس منذ ذلك الحين (١٢٢).

أما عن الرهبان الدومنيكان فقد نجحوا فى الاستمرار بإيلخانية فارس حتى العقد السابع من القرن الرابع عشر . وقد انشأوا أبرشية فى البصرة وأخرى فى بغداد(١٢٣) ولكن لظروف وباء الطاعون الأسود (١٣٤٨-١٣٤٩) ولأسباب أخرى - لم يتبق باقليم فارس منهم سوى ثلاثة من الرهبان ليس من بينهم أسقف واحد بدءا من منتصف القرن الرابع عشر . وبوفاة آخر ايلخان مغولى دون انجاب وريث للعرش عام ١٣٣٥م ، وانقسام الايلخانية بين مجموعة من الأمراء المتصارعين جعل السلطانية وتبريز - حيث المراكز الدينية للدومنيكان - مركزين للصراع والمطاردة بين المتصارعين على السلطة . ولعدم ورود رهبان جدد من أوروبا ليحلوا محل سابقيهم ، فإن المراكز الدينية للرهبان أصبحت شاغرة ، وانتقل الإشراف الدينى عليهم لمركز الدومنيكان فى القسطنطينية عام ١٣٦٣م(١٢٤) وهكذا لم يعد للرهبان الكاثوليك وجود فى ايلخانية فارس .

أما عن المسيحيين الشرقيين فقد كانت الضربات المتلاحقة التى وجهت لهم ولكنائسهم منذ اعتناق غازان للإسلام وحتى وفاة أبو سعيد أثرها الخطير على تناقص أعدادهم بدرجة كبيرة . وقد ساهمت فترة القلاقل التى أعقبت انتهاء دولة الايلخانيين فى إزالة كثير من مراكز المسيحيين وتحويلها إلى مساجد . ومن ثم تركزت البقية الباقية من النساطرة واليعاقبة فى

بغداد وتكريت وأمد وماردين وأربل والموصل . وكان لتدمير قوات تيمورلنك لهذه المدن فى العقد الأخير للقرن الرابع عشر وقتل سكانها - دون تفرقة بين مسلم أو مسيحى - قضاءا مبرما على البقية الباقية من المسيحيين الشرقيين وكنائسهم فى وسط آسيا ، ولم يُسمع عنهم بعد ذلك لعدة قرون(١٢٥). وكان المسيحيون فى اقليم الصين - شرقيون أو كاثوليك - قد لقوا حتفهم عام ١٣٦٨م عندما طردت أسرة منج Ming الصينية أسرة يوان المغولية ، إذ تخلصوا من جميع المسيحيين والمسلمين والبوذيين باعتبارهم من رموز الاحتلال المغولى وركائزه فى البلاد ، وعندما وصلت بعثات الجزويت إلى الصين بعد عام ١٥٥٠م لم تجد مسيحيا واحدا فى هذه البلاد(١٢٦).

تقيم إنجازات الرهبان :

عند تقيم إنجازات الرهبان الفرنسسكان والدومنيكان بين المغول عامة ومغول فارس منهم خاصة لاينبغى أن نتوقف عند الأرقام الهزيلة التى حققوها فى مجال التبشير بالمسيحية الكاثوليكية لمدة قرن كامل من الزمان ، وكذلك فشلهم فى إقناع حاكم مغولى واحد فى كل أنحاء آسيا لاعتناق المسيحية . ومن غير المنطقى أيضا مقارنة المئات القليلة من الذين تحولوا على أيديهم من بوذيتهم أو نسطوريتهم إلى المذهب الكاثوليكي بمئات الآلاف الذين تحولوا فى تلك الفترة أيضا من وثنيتهم للإسلام ، رغم أن الإسلام لايقر الرهبنة ولم يعرف المسلمون - فى ذلك العصر - نظام جماعات دينية منظمة لنشر الإسلام بين من لايدينون به .

«فمشروع» تحويل المغول للمسيحية الكاثوليكية كان أكبر من الإمكانيات البشرية والمادية للرهبان الذين قاموا بتنفيذه . فالبابوية كانت لها أهداف سياسية من دفع حركة التبشير للأمام وذلك لتوسيع نفوذها خارج أوروبا ، وكانت تحلم أيضًا باستخدام المغول - بعد تنصيرهم وولائهم لها - كأداة ضد المسلمين . وكان نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢) أكثر البابوات الذين شجعوا الرهبان لارتياد جنوب وجنوب شرق آسيا وذلك للتعويض عن الإحباط الذى كان يصيب الأوروبيين من تساقط ممتلكات الصليبيين فى فلسطين دون المقدرة على استردادها . وكانت البابوية فى أفينون تتباهى بأن نفوذها قد وصل إلى الصين أى على الشط الغربى للمحيط الاطلنطى لتحسين صورتها - فى أذهان رجال الدين والعلمانيين على حد سواء فى أوربا - التى وصلت للحضيض فى فترة «الأسر البابلى» فى افينون . ولهذا أرى - أنه لو كانت هناك إنجازات من وراء هذه البعثات التبشيرية فى آسيا فترجع إلى الرهبان أنفسهم.

فهؤلاء الرهبان - مثل بلانو الكاربينى وآسيلين اللومباردى ووليم روبروك وجون مونت كورفينو وريكولد مونت كروس وجون دى كورا[١٢٧] John de Gora ووليم آدم[١٢٨]. واودريك البوردنونى[١٢٩] وجون المارجنولى وغيرهم - قد تركوا لنا مذكراتهم وخطاباتهم التى تناولوا فيها بشئ من التفصيل أحوال اسيا واقتصادها وسكانها وعادات أهلها ودياناتهم ، وهى معلومات وافرة ولاتقل أمانة وموضوعية عن تلك التى استقاها كل من ماركوبولو وابن بطوطة من رحلاتهما فى آسيا فى تلك الفترة . ولاشك أن هذه التقارير قد أمدت الأوربيين بمعلومات من الدرجة الأولى عن قارة آسيا أفادتهم كثيرا فى المراحل الأولى للكشوفات الجغرافية لتلك القارة ، بل كانت من أكبر العوامل التى دفعت الأوربيين لمحاولة اكتشافها .

بالإضافة إلى ذلك ، فان نجاح العديد من الرهبان الكاثوليك فى إجادة لغات السكان المحليين - مثل السريانية والأرمينية والعربية والفارسية فضلا عن اللغة المغولية جعلهم على درجة عالية فى فهم ثقافات وأديان وأحوال الشعوب التى تعاملوا معها ، وبعضهم ترجم الكتب المقدسة إلى بعض هذه اللغات المحلية وهم بذلك وضعوا أسس الاستشراق الحديث ، فضلا عن أنهم كانوا وسيلة انتقال بين ثقافات الشرق لأوروبا ، والعكس صحيح أيضًا . وأهم من هذا وذاك ، فإن هؤلاء الرهبان كانوا وسيلة احتكاك وتقارب بين العالم الكاثوليكى وبين المسيحيين الشرقيين فى آسيا . وكانت تجاربهم فى الشرق - بما فيها من نجاح أو فشل - قد ألهبت بعثات الجزويت فى القرن السادس عشر لمحاولة تكملة ما بدأه أسلافهم .

أسباب فشل البعثات التبشيرية الكاثوليكية فى تنصير المغول :

من المنطقى أن نرصد أسباب فشل البعثات الكاثوليكية فى تنصير المغول عامة ومغول فارس خاصة ومنها :

أولا : عدم اعتناق حكام المغول للمسيحية كان من أسباب إحباط الغرب الأوربى عامة والرهبان الكاثوليك الذين ذهبوا لآسيا المغولية خاصة . فالبابوية وملكا فرنسا وانجلترا وجهوا جل اهتمامهم لتنصير حكام المغول ، لأن فى اعتناق الأخيرين للمسيحية تحفيزا لرعاياهم على الاقتداء بهم . ولكن ايلخانات فارس البوذيين دخلوا فى عملية مساومة مع قادة الغرب الأوربى بالتلويح لهم بحسن معاملتهم للمسيحيين وأنهم فى طريقهم للتنصر ، لو أرسل الأخيرون المساعدة العسكرية المطلوبة ضد المماليك . وتعلق الغرب بهذا الأمل الخادع كثيرا حتى أن البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢) أرسل مع عدة

سفارات من قبله ومع سفراء المغول العديد من الخطابات لأرغون ووالدته وزوجته وأمراء دولته والقادة المحيطين به للضغط على الأخير للتنصير ولكنه مات بوذيا . فالمغول – وهم قوم بدائيون– احتلوا مناطق متحضرة، وأهلها كانوا يدينون بالبوذية (فى الصين) أو بالإسلام (فى التركستان وفارس وجنوب روسيا) . وبعد استقرار المغول فى هذه المناطق – وهم أقلية ضئيلة بالمقارنة بأغلبية المحتلين – فانهم لم يريدوا اعتناق ديانة أو مذهب دينى أجنبى عن رعاياهم لأن فى ذلك إثارة لعداء المحكومين . فعندما طلب الأخوان بولو من قوبيلاى خان اعتناق المسيحية ، فانه رد عليهما بقوله إن رعاياه البوذيين يستطيعون بغير صعوبة الإجهاز على حياته [١٣٠].

والمغول اعتنقوا ديانات ومعتقدات رعاياهم لضمان ولائهم لهم واستقرار عروشهم فى الحكم، فاعتنق قوبيلاى خان وخلفاؤه بوذية رعاياه الصينيين ، واعتنق حكام مغول روسيا وفارس والتركستان الإسلام الذى كان دين الأغلبية الساحقة لهذه المناطق قبل احتلال المغول لها[١٣١].

ثانيا : عدم وجود دولة قوية فى آسيا تدين بالمذهب الكاثوليكى لرعاية الرهبان الكاثوليك ودفع حركة التبشير للأمام . فأرمينيا الصغرى لم يعتنق عامة سكانها المذهب الكاثوليكى ولم تستطع حماية المسيحيين الشرقيين من الإضطهادات التى تعرضوا لها من عامة المسلمين سواء قبل اعتناق غازان الإسلام أو بعده ، وذلك لأنها كانت تابعة للمغول وقد ازداد وضعها سوءا بتأثير الضربات المتلاحقة التى وجهها لها المماليك واعتناق حكام المغول للإسلام .

ثالثا : كان بعد المسافة وصعوبة الاتصال بين مراكز الرهبان فى الشرق (فى بكين أو فى الهند أو تبريز) عن مقدمى أديرتهم (فى أوروبا) أو البابوية (فى روما أو افينون) ، فضلا عن عدم وجود وسائل آمنة للإمداد أو التموين أو الحماية لهؤلاء الرهبان من العوائق الجوهرية لانتشار الرهبان فى آسيا ، أو استمرارهم فيها . فالراهب كان يقطع المسافة من افينون لإيلخانية فارس أو للصين فى سنوات طويلة ، فكم من بعثة مات افرادها أو غالبيتهم فى الطريق ، وأدت الجبال الموحشة والصحارى المقفرة والحيوانات المفترسة وبعد المسافة وقلة الزاد والعتاد إلى وفاة العديد من الرهبان العزل من كل حماية طبيعية أو بشرية وخطابات وتقارير الرهبان التى بعثوها للبابوية مليئة بتصوير

هذه العوائق[١٣٢] . فضلا عن قلة عدد الرهبان وسط أغلبية ساحقة من المسلمين (فى وسط آسيا وغربها) والبوذيين (شرقها) .

رابعا : عدم إتقان الرهبان الكاثوليك للغة المحلية للسكان وعدم ترجمة الكتب المقدسة للفارسية أو اللغات الصينية أو الهندية كان حائلا دون استجابة السكان غير الكتابيين للمسيحية الكاثوليكية . فالرهبان كانوا يمارسون طقوس العقيدة باللاتينية (فى أرمينيا) أو السريانية (فى فارس) أو المغولية (فى الصين) وهى لغات غريبة على السكان المحليين . حقيقة أن مجمع فيينا المسكونى فى المرسوم الثانى فى ٦ مايو عام ١٣١٢ م قرر ضرورة تدريس اليونانية والعربية والعبرية والسريانية فى جامعات روما وباريس وأكسفورد وبولونيا وسالا مكنا ، ولكن جامعة باريس هى التى نفذت هذا المرسوم ولعدة سنوات فقط[١٣٣]. ولهذا لم نجد البابوية الرهبان المؤهلين لغويا للتبشير بين السكان الآسيويين ، لدرجة أن البابا يوحنا الثانى والعشرين (١٣١٦-١٣٣٤) طلب من ملك أرمينيا الصغرى أن يأمر رعاياه بتعلم اللغة اللاتينية حتى يسهل على الرهبان الكاثوليك التبشير بينهم[١٣٥] (١١١) وفى هذا المجال يبعث أسقف مدينة الزيتون بالصين رسالة مؤرخة فى٣ يناير ١٣١٨ للبابا ولمقدم دير الفرنسسكان بأوروبا. يقول فيها «حقيقة أن المحصول وافر (فى إشارة لكثرة الراغبين فى التنصر) ولكن العمال (فى إشارة للرهبان) قليلون ولايمتلكون آلات الحصاد اللازمة (أى لغة السكان) وذلك لأن إخوتنا (الرهبان) قلائل وفى أرذل العمر وغير مهرة فى تعلم اللغات (الخاصة بالسكان)[١٣٤] » وبالتاكيد كان لعدم فهم السكان المحليين فى فارس وفى الهند أو الصين للغة الرهبان أو العكس أثره على استجابتهم للتنصر أو استمرارية من تنصر منهم فى الاستمساك بنصرايته وقد أكد هذه الحقيقة الرهبان أنفسهم[١٣٦] فى خطاباتهم التى بعثوها للغرب. وعلى النقيض من ذلك، نجد أن العرب قد حثوا سكان المناطق التى فتحوها- بطريقة أو بأخرى- على تعلم اللغة العربية وعدم ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات المحلية وبذلك ضمنوا فهم الأخيرين للإسلام نصا وروحا وهذا أحد عوامل استمرارية الدين الاسلامى فى المناطق التى دخلها.

خامسا : الخلافات المذهبية بين الرهبان الكاثوليك والمسيحيين الشرقيين حالت دون تعاونهم المشترك وأدت فى أحيان كثيرة لفشل جهود المبشرين الأوربيين ، فالكاثوليك كانوا يعتبرون نسطور وأتباعه هراطقة ملحدين لأن مذهبهم ينكر أن السيدة العذراء «والدة

الرب» وظلوا يتعاملون معهم على هذا الأساس . فالراهب وليم روبروك يتهم رهبانهم وكهنتهم بأنهم مرابون وفاسقون وسكيرون . ويقول عنهم أيضا أنهم كانوا شديدى الجهل وأنهم لم يستطيعوا حتى فهم كتب صلواتهم التى كانت مدونة بالسريانية . وأنهم يتاجرون بالمناصب الدينية ولايبالون إلا بجمع الثروات من وراء تعليم طقوس الكنيسة ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الكنيسة(١٣٧) ويأتى بعد ذلك ماركو بولو بأربعين عاما ليقول عن مسيحى الصين أنهم قوم جهلاء وعديمو الكفاءة(١٣٨) ويؤكد جون المونت كورفينو - مطران بكين الفرنسسكانى- أنه لولا مضايقات النساطرة له وشكاويهم ضده للخاقان وتحريضهم العامة ضده لاستطاع اجتذاب ثلاثين ألفا من السكان (بدلا من ستة آلاف فقط) للكاثوليكية [١٣٩]. وقد رأينا أن نساطرة بغداد طردوا الرهبان الكاثوليك منها متحدين رغبة أسقفهم فى سيادة كنيسة روما عليهم ، وبطبيعة الحال فان انشاء مطرانية كاثوليكية فى السلطانية عام ١٣١٨ قد تقر اليعاقبة والنساطرة من الرهبان الكاثوليك وجعلهم فى موضع المنافسة معهم[١٤٠].

وفضلا عن ذلك كانت المنافسة بين كل من الرهبان الفرنسسكان والدومنيكان التى وصلت لدرجة أن الرهبان الفرنسسكان فى بعض الأحيان لم يعترفوا بسلطة الأسقف الدومنيكانى لتبريز عليهم . كما أن ظهور الانشقاقات بين الفرنسسكان أنفسهم متمثلة فى مذهب الروحين الذى أدانته البابوية وترتب علي ذلك طرد البقية الباقية من رهبانهم من ايلخانية فارس عام ١٣٤٤ ، وحتى الرهبان الدومنيكان انقسموا بين عدة نحل ومذاهب[١٤١] وهذا كله كان له أثاره الهدامة ليس فقط على أسلوب تعاملهم مع غيرهم من فئات وطوائف وديانات مختلفة بل على وجودهم فى بيئة غريبة عنهم بكل المقاييس .

سادسا : ويتعلق بالأوضاع الأمنية بوسط آسيا وشرقها. فلاشك أن فترة «السلام التترى» الناجمه عن تأمين المغول للطرق والبريد وحماية المسافرين منذ عام ١٢٤٠ حتى ١٣٤٠ تقريبا قد شجعت حركة التجارة الداخلية فضلا عن تشجيع كلا من التجار الإيطاليين ومعهم الرهبان الكاثوليك فى ارتياد مناطق جديدة ، كانت مجهولة لهم . ولكن فى أحيان كثيرة لم تتوقف الحروب بين ايلخانية فارس ومغول التركستان أو بين مغول فارس ومغول روسيا أو بين المماليك وأرمينيا الصغرى أو مغول فارس والمماليك وهذا من شأنه سد الطرق وجعلها غير آمنة تماما . فضلاً عن القلاقل الداخلية من المسلمين

سواء ضد الحكام أو ضد المسيحيين عموما كما حدث عدة مرات وفى عدة مناسبات وفى مناطق عديدة بصفة عامة وفى ايلخانية فارس بصفة خاصة وهذا أحدث أشد الأضرار بالرهبان الكاثوليك وأديرتهم وكنائسهم. وبالإضافة إلى ما تقدم، فان وباء الطاعون الأسود الذى اجتاح العالم فى عامى ١٣٤٨-١٣٤٩ قد أفنى عددا كبيرا من السكان ومنهم الرهبان الكاثوليك . ومن ثم ظلت مراكز الأخيرين فى آسيا شاغرة بعد هذا التاريخ . وأيضا تزامن طرد أسرة منج Ming لأسرة يوان المغولية عام ١٣٦٨ التنكيل بكل الأجانب بها وسد الطريق البرى مع غرب آسيا ، وسبق ذلك سقوط دولة الايلخانات فى فارس وتفككها لعدة أجزاء متناحرة فأضاف هذا صعوبات كبيرة ليس فقط لوجود الرهبان الكاثوليك أو مراكزهم ولكن أيضا لوجود المسيحيين الشرقيين أنفسهم .كما أن غزو تيمورلنك لغرب آسيا (١٣٦٩-١٤٠٥) وتدميره لعشرات المدن وقتل كثير من سكانها مسلمين ومسيحيين قد قضى على البقية الباقية من المسيحيين الشرقيين ومراكزهم الدينية ،وفصل آسيا عن أوروبا[١٤٢] وهو الدور الذى أكمله الاتراك العثمانيون بعد ذلك بقليل، ومن ثم أضحت الاتصالات بين غرب أوربا ووسط آسيا وشرقها صعبة جداً لقرنين من الزمان تقريبا .

سابعا :كما أن هناك أسبابا كامنة فى الديانة الإسلامية نفسها هى التى جذبت الآلاف من المغول - ومن قبلهم ومن بعدهم الملايين من الوثنيين وغيرهم من جميع بقاع العالم لاعتناقها ، ومنها بساطة العقيدة الإسلامية وعقلانيتها وتسامحها مع أهل الذمة ، والتأثير البطيء الدائم الذى يحدثه الاتصال اليومى بالحياة الإسلامية والتفكير الاسلامى ، وتأثير حياة الورع والتقوى التى كان يحياها عامة المسلمين على المغول ، ولأن الإسلام دين الفطرة فانه لم يجعل هناك واسطة بين المسلم وربه . فضلا عن إقرار الإسلام لتعدد الزوجات (مع العدل بينهن والميسرة) جعله أكثر اقترابا لحياة المغول الاجتماعية بعكس المسيحية التى قيدت الزواج بواحدة وحرمت زواج الأقارب[١١٤٣]. وهذا يفسر سر اعتناق ثلاثة أرباع المغول فى عالم العصور الوسطى للإسلام دون غيره من الديانات السماوية .

الهوامش

١- أرنولد ، توماس : الدعوة إلى الإسلام ، بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية . ترجمة إلى العربية حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى . القاهرة . د . ت ص١٩١ ، حسن ابراهيم حسن: «انتشار الإسلام بين المغول والتتار» . صحيفة الجامعة المصرية ، ١٩٣٣ ، ص٢٦ .

٢- لقد كانت النحلة البوذية منتشرة بين القبائل التركية فى شرق آسيا حيث جاء أصحابها من الهند وأشاعوها فى الصين والبلاد المجاورة . وبالنسبة للمسيحية فيبدوا أن المبشرين بها قد وصلوا لمنطقة ما وراء النهر قبل عهد قسطنطين العظيم ، واعتنقت بعض القبائل التركية النصرانية على يد الأساقفة النساطرة فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، وتوجد دلائل أثرية مكتوبة بالصينية والسريانية عام ٧٨١م توضح ورود النساطرة للصين منذ عام ٦٣٥م ، ولكن الصينين طردوا النساطرة وغيرهم من الأجانب عام ٨٤٥م . والمهم أن قبيلة الايغور - التى كانت تسكن من جبال قراقوروم حتى جنوبى سمرقند- قد تنصرت واقتدى بها قبيلة الجغتاى وتدعى الخطاى . وفى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى تنصرت أيضا قبيلة الكرايت ، وكان ملوكها نصارى يسمى كل منهم «اونك خان» ومعناه الملك يوحنا . وقيل أن الأساقفة النساطرة كانوا يرسمونهم ملوكا وكهنة معا . ولذلك عرفهم الأوروبيون باسم الكاهن يوحنا Prester John والرابع منهم هو الذى غلبه على ملكه سنة ١٢٠٣ أحد عماله المسمى تيموجين وهو المشهور باسم جنكيز خان . وقد تزوج الأخير ابنة أخى اونك خان وهى نصرانية وأنجب منها ولده منكوخان . لويس شيخو اليسوعى «النصرانية بين قدماء الاتراك والمغول» . مجلة الشرق ، السنة السادسة عشرة ، ١٩١٣ ، ص٧٥٤ - ٧٧٢ .

٣- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص١٩١ ، جوزيف نسيم يوسف ، لويس التاسع فى الشرق الأوسط. ص٢٦١ .

4- William Rubruck , in Dawson : The Mongol Mission , p. 160 .

٥- رحلات ماركو بولو ، ترجمتها إلى الانجليزية وليم مارسدن ، ونقلها إلى اللغة العربية عبد العزيز جاويد . القاهرة ، د. ت . ص١٣٣ ، ١٣٤ .

٦- المصدر السابق ، ص١٥٥ .

٧- المصدر السابق ، ص١٣٤ ، ١٤٧ - ١٥٠ .

Barthold , W : Turkestan Down to the Mongol Invasion . 3 rd . ed . Eng . Trans . by Mrs. T . Minorsky . London , 1968 , pp . 468 - 481 .

٨- انظر ما سبق دراسته عن السفارات المتبادلة بين البابوية والمغول فى عهد البابا انوسنت الرابع وللمزيد من التفاصيل :

Cf . Paul Pelliot " Les Mongol et la Papaute " , R . O . C . Vols . XX 111 XX V111 , Paris , 1922-32 .

٩- القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام . ترجمة حسن حبش ص٢١١ .

١٠- المصدر السابق ، ص٢١٩ .

11- Wiliam Rubruck , in Dawson , op . cit ., p. 155 .

12- Ibid , pp. 202 - 4 .

١٣- جامع التواريخ م٢ جـ١ ، ص٢٢٠ ، ويؤيد هذه الرواية المؤرخ الأرمنى المعاصر

Grigor of Akano Cf . History of the Nation of the Archers , p. 241 .

١٤- فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ، صفحات ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ .

١٥- حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص٢٣٨ .

16- The Chronography of Gregory Abul Faraj , 1225-1286 , p. 431 .

١٧- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة . طبعة بغداد عام ١٣٥١ هـ ، ص٣٢٩ .

١٨- المصدر السابق ، ص٣٣٣ ، ص٣٣٤ .

١٩- فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص١٠٥ .

٢٠- كتاب السلوك ، جـ١ ، القسم الثانى ص٤٢٥ .

٢١- المصدر السابق ونفس الصفحة .

٢٢- محمد صالح داود القزاز : الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية ص٢١٦ - ٢٢٦ .

23- Cf . Jackson ; " The Crisis in The Holy Land " op . cit ., p. 495 .0

٢٤- محمد صالح القزاز : المرجع السابق ، ص٢٨١ ، ٢٨٢ .

٢٥- المرجع السابق ، ص٢٨٣ .

٢٦- المرجع السابق ص٢٨٥ ، عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران ، ص١٦٦ - ١٦٩ .

٢٧- للمزيد من التفاصيل ونص الرسائل المتبادلة بين تكودار أحمد والمنصور قلاوون انظر :

ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، ص٥ - ١٦ ، ٦٢ ، المقريزى: كتاب السلوك جـ١ ، ق٣ ملحق رقم ٧ ص٩٧٧ - ٩٨٤ .

٢٨- القزاز : المرجع السابق ، ص٢٨٨ ، عبد السلام فهمى : المرجع السابق ، ص١٧٣ .

٢٩- ابن الفوطى البغدادى : الحوادث الجامعة ، ص٤٥٤ ، القزاز : المرجع السابق، ص٢٨٨-٢٩٠ .

30- Bausani , A ., "Religion Under the Mongols " , in Cambridge History of Iran , vol . 5 . Cambridge , 1968 , p. 541 ; القزاز : المرجع السابق ص٢٩٠ .

٣١- ينقل المؤرخ الفارسى وصاف الحضرة نماذج من الشعر الذى تناقله العامة أثناء فترة وزارة سعد الدولة اليهودى التى تصور مدى كراهية الرعية له ومنها :

يهـــود هذا الزمـــان قـــد بلغـــو	مـــرتبـــة لاينالهـــا فلك
الملك فـــيـــهم والمـــال عندهـــم	ومنهم المســتــشـــار والملك
يا مـعـشـر الناس قـد نصحت لكـم	تهـودوا قـد تهـود الفـلك
فـانتظروا صـيـحـة العـذاب لهـم	فـعن قليل تراهم هلكـوا

Cf . Browne , Edward : A Literary History of Persia . Cambridge , 1951 , vol , 11, p. 32 .

٣٢- فور مصرع سعد الدولة والتنكيل باليهود ، نظم الشاعر العراقى زين الدين على بن سعيد قصيدة طويلة فى هذا الشأن منها :

نحـمـد من دار باسمه الفلـــك	هذى القرود اليـهود قـد هلكـــوا
وقـارن النحـس سـعـد دولتهـــم	وافـتـضـحـوا فى البلاد وانهتكـوا
وشتت الله شـمـــل ملكهـــم	وبالحسام الصقيـل قد سيكـوا
كم حكمـوا فى البـلاد ولاحكمـوا	وارتكبـوا الموبقـات وانتـهـكـــوا
ابكاهـم اللـــه عاجـــلا أسفـــا	من بعـد مـا فى زمـانهم ضـحكـوا
فـانتم شــــر أمــــة سلفـــت	وأنتم شـــر أمــــة تركـــوا
عـبدتم العـجـــل دون خالقـكـم	فـضـــل ذاك الإيـــاب والنســـك

Cf . Browne , op . cit . 11 , pp. 34 , 35 . (نقلا عن تاريخ وصاف)

٣٣- القزاز : المرجع السابق ص٢٩٠ ، ٢٩١ ، Spuler , Bartold Die Mongolen in Iran . Liepzig , 1939 , p. 718 .

٣٤- القزاز : المرجع السابق ص٢٩١ ، عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص١٨٩ .

35- Atiya , A.S. ' The Crusade in the Later Middle Ages , p. 2 38 fn . 2.

36- William Rubruck , in Dawson : The Mongol Mission , p. 215 .

37- Cf . Borghozio , " Un Episodio delle relezioni tra la sede e i Mongoli (1274) " in Rome , vol . 14 , pp . 370 , 71 .

38- Ibid , pp . 371 , 72 .

٣٩- القزاز : المرجع السابق ص٣١١ - ٣١٣ .

٤٠- القزاز : المرجع السابق ص٣١٤ .

41- Howorth , History of the Mongols , 111 , p. 210 .

٤٢- رحلات ماركو بولو ، ص١٥ .

٤٣- المصدر السابق ص١٦ ، ١٧؛ Rachewiltz, Papal Envoys to the Creat Khans, pp.155,156

٤٤- رحلات ماركوبولو ، ص١٣٤ .

٤٥- نفس المصدر والصفحة .

٤٦- المصدر السابق ، ص١٤٩ .

47- Howorth , op . cit ., 111 , p. 280 ; Borghezio , op . cit ., pp. 365 , 366 .

48- Howorth , op . cit ., 111 , p. 280 ; Borghezio , op . cit , pp. 365 , 366 .

49- Howorth , op . cit . 111 , p. 281 .

50- Loc . cit ., Connell , Westerm Views of the Tartars , p. 206 .

٥١- سبق أن أرسل البابا انوسنت الرابع بعثة على رأسها الراهب الفرنسسكاني لورانس البرتغالي عام ١٢٤٥م لكبار رجال الدين النساطرة واليعاقبة والأرمن والإغريق لحثهم على خضوع كنائسهم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية الأم في روما . لمزيد من التفاصيل عن مدى نجاح هذه البعثة انظر :

Phaire , Barbare , Papal Motivations for an Asian Apostolate , 1245 - 1254 : An Analysis , pp . 28-39 .

٥٢- ولد نسطور في شمال الشام في بداية القرن الخامس الميلادي ، ودرس اللاهوت في مدرسة انطاكية. وفي عام ٤٢٨م أختير لمنصب بطريرك القسطنطينية ، وليس معروفا أنه قام بزيارة

للشرق على الإطلاق، ولكنه نفى إلى صحراء مصر عندما حكم عليه بالهرطقة فى مجمع أفسوس عام ٤٣١م . وكانت أهم معتقداته تدور حول طبيعة المسيح عليه السلام . ومنها أن السيدة مريم ليست أما للرب ولكنها والدة للمسيح وقال « إننى لا أستطيع أن أتحدث عن إله عمره شهرين أو ثلاثة شهور » . ومن آرائه كذلك أن الشخص الثانى فى الثالوث لم يولد من العذراء ، وأن المسيح مات على الصليب باعتباره بشراً . وقال «كيف تستطيع (السيدة) مريم أن تلد إلها ويكون خالقها ؟» وأيضا «لو مات الرب فمن يستطيع أن يبعثه من موته ؟!» وهذا يعنى أن نسطور كان يؤمن بأن المسيح عليه السلام له طبيعتين : إلهية وبشرية . ولكنه فشل فى إقناع أعضاء مجمع أفسوس بآرائه التى أصر عليها فحكم عليه بالهرطقة ونفى إلى مصر عام ٤٣٦ م. ولكن أساقفة الشرق الذين لم يحضروا هذا المجمع رفضوا قرارا بهرطقة نسطور وعقدوا عدة مجامع محلية لتبرئته ، وانتشرت معتقداته فى أماكن كثيرة فى آسيا منذ ذلك الحين وأنشئت فيما بعد أسقفيات نسطورية فى سوريا وأرمينيا وفارس . وفى مدن هراه ومرو وطشقند وكشغر والمعبر وكذلك فى بلاد الصين وكان مقر بطريق النساطرة فى بغداد أنظر :

Hauston , G. W. , " An Overview of Nestorians in Inner Asia" Central Asiatic Journal . Vol . XX IV , 1980 , pp. 60-68 .

53- Rabban Sawma , The Monks of Kublai Khan , pp . 172 - 195 also CF. Mann, H. K. Lives of the Popes in the Middle Ages, vol . X V II, 1289 - 94 . London , 1931 , . pp. 45-47 , Ryan : The Tnterrelation of the Oriental Mission and Crusade Activities of the papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 , pp. . 26-36 .

54- Rabban Sawma , op . cit ., p. 190 .

55- Moule : Christians in China Before the Year 1550 , pp. 112-115 . also cf . Ryan , op. cit ., pp . 26-31 . وقد أورد مول (Moule) الترجمة الانجليزية لهذه الرسائل .

56- Mann , Lives of the Popes , X VII , p . 48 .

٥٧- دأبت بعض القوى اللاتينية على التحرش ببيزنطة فور استعادة ميخائيل الثامن باليولوجس للقسطنطينية عام ١٢٦١ م . وأرسل الأخير الوفود للبابوية يعدها بخضوع كنيسة الإغريقية لها بل والمشاركة فى حملة صليبية لو اعترفت البابوية بملكيته للقسطنطينية وتوقفت عن الدعوة لحملة صليبية ضد بيزنطة . ولكن شارل الانجوى والبنادقة هاجموا السواحل البيزنطة عدة مرات ، ولوعود البابوية لميخائيل بتحريم المعتدين على أملاكه من رحمة الكنيسة لو خضع لنفوذها ، فان الامبراطور البيزنطى أرسل مبعوثيه فى مجمع ليون عام ١٢٧٤ م لإعلان خضوع كنيسته للبابوية

، ولكن البيزنطيين قاوموا هذا الأمر بشدة . ولاعتداءات شارل الانجوى والبنادقة على بيزنطة واصدار البابا قرارات الحرمان ضد الامبراطور البيزنطى فان الوحدة بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية لم تعمر طويلا وكانت حبرا على ورق .

Cf . Setton , K . M : The Papacy and the Levant . Vol. I , pp . 128 , 134 -137, 140-3,483.

58- Moule : Christians in China , pp . 123 ,24 .

59- Loc . cit .

60- Chabbot , " Notes sur les relations du Roi Argun avec l' Occident" Revue de l'Orient Latien , II , 1844 , pp . 581 - 3 ; also cf . Ryan , op . cit , pp. 19 - 21 .

61- Chabbot , op . cit ., p . 584 ; Moule , op . cit ., p. 114 ; Ryan , op . cit p. 22 .

62- Chabbot , op . cit ., p. 589 ; Ryan , op . cit ., p. 24 .

63- Loc . cit .

64- Moule , op .cit ., pp . 116-117 ; Ryan , op . cit , p. 28 .

65- Sawma , op . cit ., p . 199 ; Moule , op . cit ., pp . 116-117 .

66- Spuler , Bartold , Die Mongolen in Iran , Leipzig , 1939 , p. 218 .

٦٧- ولد جون فى مونت كورفينو بسياليرنو عام ١٢٤٦م أو ١٢٤٧م . وكان جنديا ثم قاضيا ومعلما فى بلاط فردريك الثانى . ثم انضم لجماعة الفرنسسكان . وقد أرسله مقدم هذه الجماعة إلى الشرق عام ١٢٨٠م حيث قضى عدة أعوام فى فارس وفى أرمينيا للتبشير بالعقيدة المسيحية . وفى عام ١٢٨٩ أرسله ملك أرمينيا الصغرى على رأس سفارة للبابا ليصف له ما تعرضت له بلاده من خراب وتدمير على يد المماليك ويطلب منه نجده الأرمن . ولظروف سياسية فان البابا تجاهل هدف بعثة جون وأعاد إرساله إلى الشرق للتبشير بالعقيدة المسيحية .. CF.Moule , p . 167 ; Ryan , op. cit ., pp . 38-41 .

68- Ryan , op . cit ., pp . 42-57 .

69- Ibid , pp . 56 - 69 ; Moule : Christians in China , pp . 168-171 .

70- Hisang , Paul Stanislaus : The Catholic Missions in China During The Middle Ages (1294-1368) . Ph . D . Diss . Washington , D. C ., 1949 , pp . 2 , 3 ; Rachewiltz , Papal Envoys , pp . 160-164 .

٧١- ماركوبولو : المصدر السابق ص١٣٣ ، ١٣٤ ، Rachelwitz, op. cit., p . 164

72- Cf . The Letters of John of Monte Corvino , in Yule , H . (ed . trans .) Cathay and the Way Thither . Vol . III . London , n. d pp. 45-58 ; Dawson : The Mongol Mission , pp . 224-232 , Moule , Christians in China , pp . 171-183 .

73- Loc . cit ; Rachelwitz , Papal Envoys , p. 169 .

٧٤- نشر Moule الترجمة الكاملة لهذه المراسيم .

Cf . Christians in China Befor the Year 1550 , pp. 183-191 , also cf . Atiya : The Crasade in the Loter Middle Ages , pp . 250 , 251 .

٧٥- ظل منصب رئيس أسقفية بكين شاغرا فترة من الوقت بعد وفاة جون مونت كورفينو عام ١٣٢٨م وفى عام ١٣٣٣ م رسم البابا راهبا يدعى نيقولا Nicholas فى هذا المنصب ولكن الأخير توفى قبل وصوله إلى الصين . وفى عام ١٣٣٨م أرسل الخان المغولى فى بكين سفارة للبابا بندكت الثانى عشر (١٣٣٤-١٣٤٢) على رأسها أحد الرهبان الفرنسسكان وتضم خمسة عشر نسطوريا من قبيلة اللان لطلب المزيد من الرهبان الكاثوليك وسرعة تعيين رئيس أساقفة لبكين فضلا عن طلبات أخرى . ومن ثم أرسل هذا البابا أربعة رهبان فرنسسكان وصل منهم جون المارجونولى John of Marignoli عام ١٣٤٢م الذى استقر فى بكين عدة أعوام فى رعاية الحاكم المغولى وحمايته ، حتى رجع لافينون التى وصلها عام ١٣٥٢م وترك مذكراته عن تجربته فى جنوب آسيا وشرقها . أما عن أسقف الزيتون فان آخر مرة ورد له ذكر كان فى خطاب من الصين عام ١٣٢٦م وأن هذه الأسقفية قد حولت إلى مطرانية ولكن جيمى الفلورنسى James of Florens أول من عين لها لم يصل إلى الصين لأنه قتل فى آسيا الصغرى عام ١٣٦٢ . وقد رسم البابا أوربان الخامس عام ١٣٧٠ وليم أوف براتو William of Prato رئيسا لأساقفة بكين ولكن الأخير لم يصل إلى الصين أبدا . وقبل ذلك بعامين طردت أسرة يوان المغولية من الصين وقضى على كل الأجانب الباقين على قيد الحياة بما فيهم أصحاب الديانات السماوية .

لتفاصيل البعثات الكاثوليكية فى الصين فى القرن الرابع عشر الميلادى انظر :

Yule , Cathay , III , pp . 3-76 ; Moule , Christians in China , pp. 168-215 ; Beazley : The Down of Modern Geogrophy , III , pp . 161-187 ; Rachewiltz , op . cit ., pp . 160-213 ; Hisiang : The Catholic Missions in China During the Middle Ages (1294-1368); Baldwin , W . Marshall , Missions to the East in the Thirteenth and Fourteenth Centuries ", in Setton (ed) A History of the Crusades, V , pp. 498 ff .

٧٦- ولد ريكولد فى منطقة كروس بجوار فلورنسا عام ١٢٦٧م ودخل فى حياة الرهبنة فى دير الدومنيكان فى منطقة توسكانى وكان لاهوتيا بارعا ، وقد تجول فى آسيا الصغرى والعراق وفارس فضلا عن الأراضى المقدسة حيث قام بجهد كبير فى مجال التبشير بالعقيدة فى هذه البقاع ، وترك مؤلفات متميزة تصف أحوال هذه البلاد وسكانها وكيفية ممارستهم لشئون العقيدة، خاصة وأنه كان يتقن اللغة العربية. ويعتبر ريكولد كروسى رائدا للمستشرقين الأوربيين فى دراساته عن الشرق الإسلامى. وقضى الفترة من عام ١٢٨٨ حتى عام ١٣٠١ بايلخانية فارس كراهب دومنيكانى ورجع لايطاليا عام ١٣٠١ . وتوفى فى ٣١ أكتوبر عام ١٣٢٠ عن عمر يناهز الثمانين عاما.. Cf . Beazley : The Down of Modern Georaphy , III , pp . 190 , 1

77- Ibid, pp. 192, 6, 98 .

78- Ibid , p. 198 .

79- Ibid , p. 200 .

80- Beazley , op . cit ., p. 199 .

٨١- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص٣٥٤ ، ٣٥٥ .

82- Beazley , op . cit., pp. 201 , 202 .

83- Ibid , pp . 202,203 .

٨٤- للتفاصيل أنظر Moorman , John : A History of the Franciscan Order from its Origins to the Year 1517 . Oxfard , 1968 ; Daniel E : The Franciscan Concept of Mission in the High Middle Ages . Kentucky , 1975 .

85- Phaire : Papal Motivations for an Asian Apostolate , pp . 60-69 ; Rachelwits , op . cit , pp. 112 , 113 .

86- Baldwin , " Missions to the East," op . cit . V , p. 482 .

87- Moule : Christians in China, pp. 210-13 .

88- Ibid , p. 255 ; Saunders . J . J . Muslims and Mongols : Essays in Medieval Asia . Canterbury , 1977 , pp . 82 , 3 , 92 , 3 .

89- Cf . The Chronogrophy of Gregory Abu L . Faraj, pp. 487 , 488 .

٩٠- كان رامون لول Ramon Lull (١٢٣٢-١٣١٦) من رواد الفرنسسكان فى العصور الوسطى الذين تركوا بصمات واضحة ليس فقط على جماعة الرهبان الفرنسسكان ولكن أيضا على دراسة

الأوربيين للعلوم واللغات الشرقية فقد كان لول يجيد أربعة لغات أجنبية منها اللغة العربية التى تعلمها فى شمال أفريقية وترجم إليها بعضا من مؤلفاته بغرض شرح العقيدة المسيحية للسكان العرب بلغتهم . وقام بتأليف العديد من الكتب فى اللاهوت والفلسفة ومقارنة الأديان وغيرها .
وكان صاحب فكرة أن تحويل المسلمين والمغول للمسيحية الكاثوليكية أكثر إفادة للغرب الأوربى من قتالهم ، وقدم فى عامى ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ عدة مذكرات للبابوية يشرح فيهما كيفية وأهمية جذب المغول للمسيحية خشية اعتناقهم للإسلام أو اليهودية فيكونوا خطرا على المسيحيين .
وكان صاحب فكرة تدريس اللغات للرهبان وذلك للتبشير بلغة السكان المحليين ، وهذا الاقتراح أخذ به مجمع فيينا المسكونى عام ١٣١٢ . وفضلا عن ذلك كان له العديد من الخطط والمشروعات لإحياء الحملات الصليبية ودونها فى مذكرات قام بتسليمها بنفسه للبابوية والملوك وأمراء الغرب الأوربى فى باكورة القرن الرابع عشر .

وباعتباره راهبا فرنسسكانيا فانه أخذ على عاتقه محاولة تحويل المسلمين فى شمال أفريقية للمسيحية . ومن ثم سافر ثلاثة مرات لهذه المنطقة لهذا الغرض، فوصل إلى تونس فى المرة الأولى عام ١٢٩٢م لكن العامة قبضوا عليه وقذفوه بالحجارة وانتشله قارب جنوى فى الميناء من موت محقق . وقد وصل إلى مدينة باجه الجزائرية فى المرة الثانية عام ١٣٠٧م ودخل فى محاورات مع رجال الدين المسلمين ، ولكن قاضى المدينة أمر بحبسه ستة شهور لطعنه فى الإسلام تارة ولحمايته من بطش العامة تارة أخرى . ورجع رامون لول لتونس عام ١٣١٥م حاملا خطابات توصية من ملك اراجون للخليفة الحفصى ، وبناء على ذلك سمح له بالبقاء هناك شريطة عدم إثارة المسلمين ، ولكنه لم يلتزم بذلك ، وأمر مفتى البلاد باقصائه خارجها . فرحل رامون إلى مدينة باجة الجزائرية وما أن رآه العامة وتعرفوا عليه حتى رموه بالحجارة حتى لقى حتفه على الشاطئ فى بداية عام ١٣١٦ م ونقل جثمانه تاجر من البندقية إلى جزيرة بالما حيث دفن هناك .

Cf . Atiya , A.S. : The Crusade in the Later Middle Ages , pp . 74-94 .

91- Rachewiltz , Papal . Envoys , p. 174 .

92- Baldwin , “ Missions to the East “ , p. 507 , 8 .

٩٣- كان بركه خان (١٢٥٦-١٢٦٧م) هو أول من أسلم من أمراء المغول . وقيل فى سبب إسلامه أنه التقى يوما مع عير للتجارة أتية من بخارى ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن الإسلام فشرحاه له شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والاخلاص له . وقيل أن بركه اعتنق الإسلام من طفولته ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند . ومهما يكن من أمر ، فإن كل جيشه تقريبا قد اعتنق الإسلام وأنه جرت العادة بأن كل فارس يحمل

سجادة للصلاة ، وكانت الطبقة الاجتماعية الراقية فى بلاده تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقه وعلماء الكلام وكانت المناظرات الدينية تشغل أكثر مجالسه مع العلماء ، وكان سنيا شديد التمسك بدينه . توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص١٩٧ .

٩٤- «الجاو» عمله ورقية كانت مستخدمة فى الصين فى عهد المغول ، وقد تحدث ماركوبولو عنها تفصيلا (الرحلات ص١٦٨-١٧٠) فقال أن هذا الورق كان يصنع من لحاء ورق التوت ، وكان يوجد عدد من الموظفين المخصصين الذين يمهرونها بأختامهم ثم تختم بالخاتم الملكى . ولم يتجرأ إنسان على رفض قبولها كعملة للدفع وإلا كان مصيره الإعدام . وكانت الرعية والتجار الأجانب يستبدلون ما معهم من ذهب وفضة بما يعادله من هذه العملة الورقية. وعندما تبلى هذه النقود فان صاحبها كان يحملها إلى دار الضرب حيث يستطيع الحصول على أوراق جديدة بدلا منها مقابل دفع ثلاثة فى المائة فقط . ولهذا كان الذهب والفضة المقابلين لهذه العملة بحوزة الخاقان المغولى وحده . ومن ثم اعتبر ماركوبولو أن الأخير أغنى ملوك العالم ، وقد حاول كيخاتوخان أن يستبدل العملات المتداولة فى ايلخانية فارس من ذهب وفضة باصدار عملة الجاو الورقية . وفى يوم السبت ١٩ من شوال عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٤ ظهر الجاو فى مدينة تبريز . وكانت الأوامر تقضى بقتل كل من لايتعامل به فى الحال نظير أن يقوم السكان والتجار بتسليم ما معهم من ذهب وفضة لمندوبى الخان لقاء ما يعادلها من هذه العملة الورقية . وصار الناس يتعاملون بها أسبوعا واحدا خشية السيف ولكنهم فروا من المدينة وهجروها وترتب على ذلك أضرار اقتصادية بالغة تناولها رشيد الدين الهمذانى فى فصل كامل بعنوان «وضع الجاو المشئوم والاضطرابات التى ظهرت فى البلاد بسببه» . انظر : جامع التواريخ، المجلد الثانى، الجزء الثالث ص١٨١ - ١٨٤ لهذا فان وضع الشهادتين على هذه العملة الورقية كان لترغيب السكان - وأغلبيتهم الساحقة من المسلمين للتعامل بها .

٩٥- نوروز هو ابن عم أرغون آقا الذى كان يحكم إيران من قبل المغول قبل مجئ هولاكو وقد ظل (أرغون) يحكم هذه البلاد مده ٣٩ عاما . وقد وقع اختيار الايلخان ارغون على الأمير نوروز ليصحب ابنه غازان فيكون مساعدا له ونائبا عنه فى حكم خراسان . فؤاد عبد المعطى الصياد : السلطان محمود غازان خان المغولى واعتناقه الإسلام . القاهرة ١٩٧٩ ص٤ ، ٥ .

٩٦- مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص١٦ ، الصياد : المرجع السابق ص٧ .

٩٧-للتفاصيل انظر : مصطفى بدر : المرجع السابق ص١٧ - ٣٢ ، الصياد : المرجع السابق ، ص١١-١٦ .

٩٨- مصطفى بدر : المرجع السابق ، ص٤٦ ، ٤٧ ، الصياد : المرجع السابق ، ص١٧ .

٩٩- الصياد : المرجع السابق ص١٧ .

100- Bar Hebraeus : The Chronography , pp. 506 , 7 . Spuler , op . cit , pp. 219 , 20 ;

الصياد : المرجع السابق ، ص١٣ .

101- Spuler , Die Monglen in Iran , p. 219 .

١٠٢- الصياد : المرجع السابق ص١٤ ، ١٩ .

١٠٣- مصطفى بدر : مغول ايران بين الاسلام والمسيحية ص٣٥ - ٥٠ ، الصياد : السلطان غازان محمود خان المغولى واعتناقه الإسلام ص٢٦ - ٢٨ .

١٠٤- للتفاصيل انظر توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص٢٠١، ٢١٥ ؛ حسن ابراهيم حسن «انتشار الإسلام بين المغول والتتار» ص٤٩ - ٥٧ .

105- Vine , Aubrey R : The Nestorian Churches , London , 1937 , pp. 152 , 3 ; Spuler , op . cit , p. 220 ; Moule , Christians in China , pp. 120 - 22 .

106- Bar Hebraeus : The Chronography , pp. 506 , 7 ; Spuler , op . cit ., pp. 220 , 21 .

107- Spuler , op . cit ., p. 220 .

108- Loc . cit ., مصطفى طه بدر : المرجع السابق ص٥٢ - ٥٨

109- Saunders : Muslims and Mongols , pp . 82 , 85 .

توماس أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص٢٠١ .

١١٠- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٣٥١ ، ٣٥٢ .

111- Cf . The Monks of Kublai Khan , pp . 210 , 211 , 221 , 22 .

112- Ibid , pp . 234 , 35 , 247 , 251 , 252 .

113- Spuler , op . cit ., p. 220 ; Howorth , op . cit ., p. 442 .

114- Spuler , op . cit ., p. 220 .

١١٥- انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب .

116- Baldwin , " Missions to the East " , op . cit . V , p. 515 .

117- Howorth , History of the Mongols , III ; p. 603 ; Beazley : The Dawn of Modern

Geography, III, p. 206; Baldwin, " Missions to the East " op. cit., V, p. 505.

١١٨- عن هذه التفاصيل انظر :

Baldwin, " Missions to the East " op. cit., V., pp. 505 - 508.

119- Ibid, p. 508.

120- Baldwin, " Missions to the East, " pp. 507, 8.

121- Loc. cit.

122- Ibid, pp. 508. 9.

123- Beazley, op. cit., III. pp. 213, 214.

124- Baldwin, " Missions to the Eas"t, op. cit., V, p. 510.

125- Browne : The Eclipse of Christianity in Asia, pp. 170-172.

Vine : The Nestorian Churches, pp. 158 - 160.

126- Atiye : The Crusade in the Later Middle Ages, p. 255;

Browne : The Eclipse of Christianity, p. 173.

١٢٧- كان الراهب الدومنيكاني جون دى كورا John de Cora رئيسا لأساقفة السلطانية بفارس والذى رسمه البابا حنا الثانى والعشرين عام ١٣٣٠م . وفى تلك الفترة كتب دى كورا تقريرا للبابا عن أحوال امبراطورية الخان الأعظم فى بكين متضمنا معلومات اقتصادية واجتماعية وافرة عن إقليم الصين وسكانه ، وعن الرهبان الكاثوليك به ومستقبل البعثات التبشيرية هناك . وقد ترجم هذا التقرير للانجليزية .

Cf. Yule (ed. & trans) Cathay and the Way Thither, vol. III. pp. 89-103.

١٢٨- وليم آدم William Adam (١٢٧٥-١٣٤١) راهب انجليزى درس اللاهوت قبل أن ينتمى لجماعة الرهبان الدومنيكان . واختاره البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤) فى بعثة تبشيرية للشرق حيث ذهب للقسطنطينية وآسيا الصغرى وسوريا ثم رجع للغرب عام ١٣١٣ ثم رحل ثانية حيث تجول فى ايلخانية فارس والهند ثم رحل إلى عدن ومنها إلى شرق إفريقيا فى أثيوبيا للتبشير بالمذهب الكاثوليكى ، ورجع لأفينون فى عامى ١٣١٦ ، ١٣١٧ .ثم أوفده البابا حنا الثانى والعشرين للشرق ليتولى منصب وكيل مطرانية السلطانية والتى عاد منها إلى الغرب عام ١٣٢٢ ثم رسمه البابا ثانية مطرنا للسلطانية خلفا لفرنسس دى بيروجيا . ثم انتقل بعد ذلك

للعمل فى أرمينيا الصغرى ، وكان لتواجده فى منطقة المحيط الهندى وخليج عدن وأثيوبيا دافعا لأن يعرض على البابا فكرة ضرب تجارة مصر عن طريق وجود قوات للأوربيين فى هذه المناطق وعمل حصار اقتصادى على المماليك بالسيطرة على الخليج العربى من ناحية فارس والبحر الأحمر.

Atiya , op . cit ., pp. 65 - 67 .

١٢٩- أودريك البوردنونى Odoric of Pordenone (١٢٤٧-١٣٣١) راهب فرنسسكانى بدأ رحلاته للشرق فى عام ١٣١٦ إلى الصين عبر القسطنطينية وتبريز وبغداد وهرمز والمعبر وسيلان ومدراس وسو مطرة وجاوه حتى وصل إلى الزيتون وبكين فى الصين حيث استمر بها ثلاثة أعوام . وشاهد جون المونت كورفينى وبعد ذلك رجع مرة ثانية إلى أفينون عام ١٣٣٠م بالطريق البرى عبر التبت وافغانستان ثم إلى الشاطئ الجنوبى لبحر قزوين ، وقد ترك مذكراته عن هذه الرحلات التى يرى ريموند بيزالى - أستاذ الجغرافية التاريخية فى أكسفورد فى أوائل هذا القرن- أنها تبز مذكرات ماركوبولو نفسها فى كثير من أجزائها وشموليتها .

للمزيد من التفاصيل Cf . Beazley , op . cit . III , pp. 250 - 287

وعن الترجمة الإنجليزية الكاملة لهذه المذكرات :

Cf . Yule , Henry : Cathay and the Way Thither . vol . II . London, 1913 .

١٣٠- ماركوبولو، ص١٣٤ .

131- Suanders , J . J : Muslims and Mongols : Essays in Medieval Asia . Canterbury , 1977 , pp . 85 , 6 ; also cf . A. C . Moule , " The Failure of Farly Christian Missions to China " in East and the West , 1914 , p. 410 .

١٣٢- انظر بصفة خاصة الخطاب الثانى الذى أرسله الراهب جوردان الفرنسسكاتى من مدينة تانا الهندية فى يناير ١٣٢٣ لزملائه الرهبان الكاثوليك فى فارس

Cf . Yule (ed . Trans) Cathay and the Way Thither , III , pp . 78-80 ; also Baldwin , " Missions to the East " , op . cit . V p. 516 .

133- Braun , Matthias , " Missionary Problems in the Thirteenth Century " , in Catholic Historical Review , vol . 25 , 1939 - 40 , pp . 145-159 , Ballwin , " Missions to the East " pp . 488 , 89 , 516 .

134- Baldwin , op . cit ., p . 516 .

135- Cf . " The Letter of Brother Peregrine : Bishop of Zaytun . " in Dawson (ed.) : The

Mongol Mission , p . 233 .

136- Moule , A. C ., "The Primitive Failure of Christianity in China " , in the International Review of Missions . Vol . 20 , 1931 , p. 458 .

١٣٧- جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص٢٦٤ .

١٣٨- ماركو بولو : المصدر السابق ص١٣٤.

139- Cf ., " First Letter of John of Monte Corvino" , in Yule (ed) Cathay and the Way Thither, vol III , pp . 45 , 46 .

140- Saunders : Muslims and Mongels ; pp . 88 ,89 .

141- Baldwin , " Missions to the East" : pp. 492 , 507 - 510 .

142- Browne : The Eclipse of Christianity in Asia , pp . 172 , 39 . Atiya , op . cit ., p. 255 ; Saunders , Muslims and Mongols , pp 89 , 90 , Baldwin , " "Missions to the East", pp . 517 , 518 .

١٤٣- للمزيد من التفاصيل انظر : توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص٣٣٤ وما بعدها ، حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام بين المغول والتتار.

Muldoon , James :

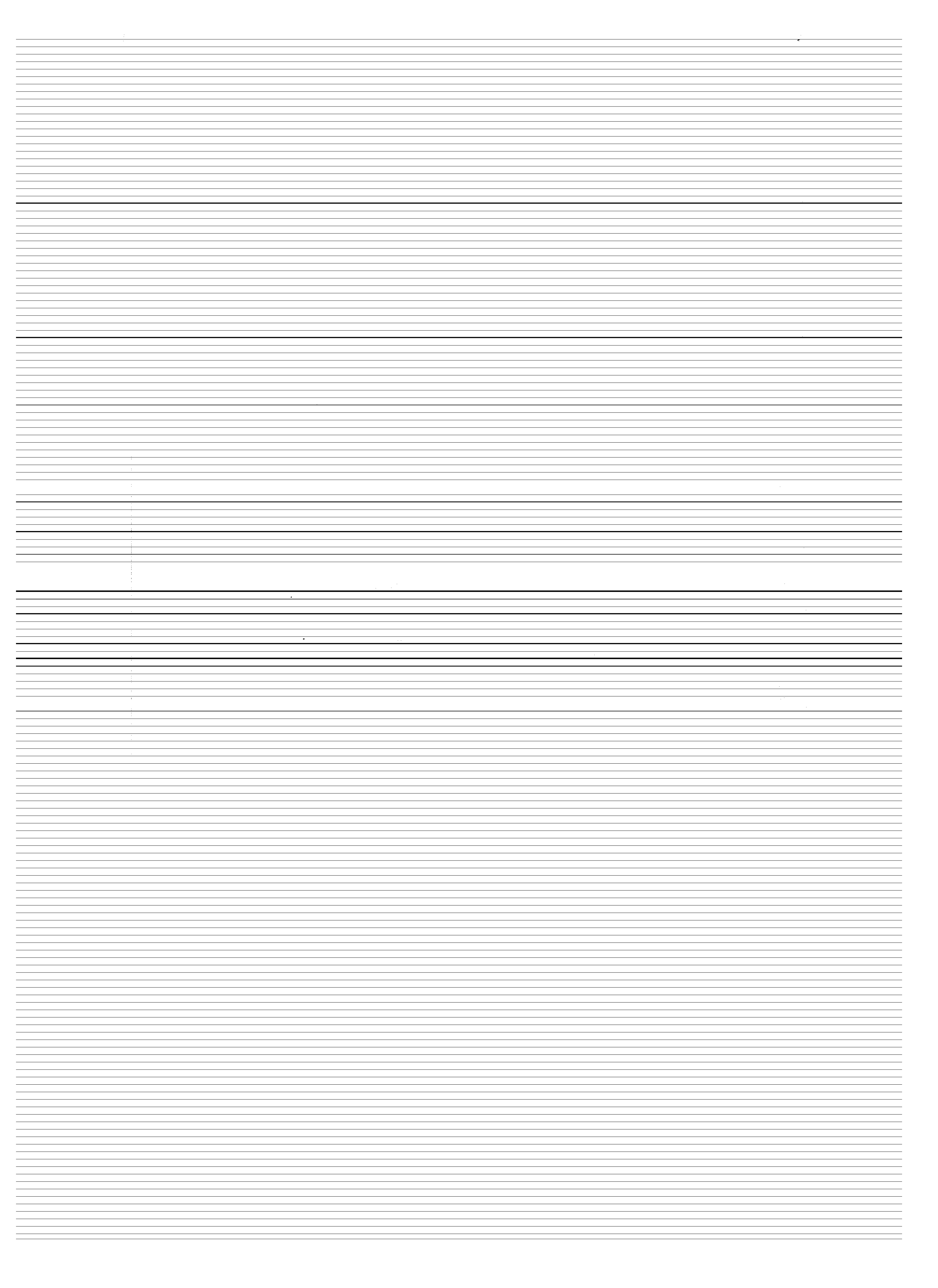
"Missionaries and the Marriages of Infidels : The case of the Mongd Mission": , in the Jurist , vol . 35 , 1975 , pp . 125 - 141 .

الفصل الرابع

تجار المدن الإيطالية فى آسيا المغولية

عناصر الفصل :

- عصر «السلام المغولى» وفتح الطرق التجارية وتأمينها .
- المزايا التى حصل عليها التجار الإيطاليون فى أسواق الإيلخانية
- السلع التى تاجر فيها الإيطاليون فى أسواق المغول .
- أوضاع التجار الإيطاليين فى الإيلخانية :
  أولا : تجار جنوة
  ثانيا : البنادقة
  ثالثا : الجاليات الإيطالية الأخرى .
- التجار الإيطاليون فى الهند والصين
- نتائج الحصار الاقتصادى على مصر علي تجار اللاتين فى إيلخانية فارس .
- بداية النهاية للوجود اللاتينى فى أسواق المغول .
- أسباب توقف التجار الإيطاليين عن ارتياد أسواق المغول منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادى تقريبًا .



عصر «السلام المغولى» وفتح الطرق التجارية وتأمينها :

لعبت سياسة المغول دورا هاما فى تاريخ العلاقات التجارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى . فهذه السياسة بنيت على أساس فتح أبواب التجارة والطرق التجارية للجميع ، وتأمين التجار وضمان سلامتهم وممتلكاتهم إبان وجودهم بين ظهرانيهم فترة سيطرتهم على معظم قارة آسيا فى الفترة التى سميت بالسلام المغولى Pax Mongolica منذ منتصف القرن الثالث عشر حتى منتصف الرابع عشر الميلادى[1] .

فمنذ أن قتل الحاكم الخوارزمى لمدينة أوترار تجار جنكيز خان عام ١٢١٨م والنتائج التى ترتبت عليها ، ومنها استئصال شأفة الخوارزميين ، وكل رعايا المغول يعملون ألف حساب لضمان سلامة التجار وممتلكاتهم فى أراضيهم . وضاعف من أهمية فتح الطرق التجارية وتأمينها هو سيطرة المغول على القسم الأكبر من قارة آسيا ووجود طريقين (من ثلاثة فى العالم الوسيط) لنقل منتجات الشرق الآسيوى للغرب الأوربى فى حوزه حكام المغول وهما :

الطريق الشمالى أو طريق الحرير العظيم الذى يربط البحر الأسود غربا بالصين شرقا عبر العديد من المدن والمحطات التجارية البرية فى وسط آسيا .

الطريق الثانى وهو الطريق الجنوبى (البحرى والبرى على حد سواء) حتى الخليج العربى ومنه إلى مدن العراق وإيران ومنها شمالا إلى موانى البحر الأسود أو غربا إلى ميناء إياس الأرمنى أو أسواق الشام .

وكان تأمين الطرق التجارية أمرا هاما بالنسبة للمغول الذين كانت عاصمتهم فى قراقورم وجيوشهم قد وصلت إلى بولندا فى وقت ما ، وذلك لحاجتهم فى الانتقال الدائم للجنود والمعدات العسكرية (سواء بين عاصمتهم قراقورم وبين مراكز توسعاتهم فى آسيا وأوربا ، أو فى مرحلة الصراع الداخلى بين ممالك المغول فى آسيا بعد منتصف القرن الثالث عشر) فضلا عن تبادل - غنائم الحرب والسفارات بين قواد المغول وبعضهم البعض .

ومن ثم فمنذ الأربعينات من القرن الثالث عشر استخدم المغول طريق تجارة الحرير العظيم الذى كان مستخدما فى الأزمنة القديمة للتجارة بين الصين والامبراطورية الرومانية ويمتد من البحر الأسود وبحر أزوف Azov إلى الشرق مارا بسراى Sarai عاصمة القبيلة الذهبية على مصب نهر الفولجا - ومن هناك يعبر التجار بحر قزوين إلى نهر أورال Ural ثم يتخذون

الطريق البرى مرة أخرى إلى بحر آرال Aral ثم إلى جنوب بحيرة بلخاش Balkhash على امتداد جبال تيان شان Tain - Shan داخل بلاد الصين . وأحيانا من بحيرة بلخاش إلى بخارى ثم سمرقند ثم غزنة إلى الهند أو حول هضبة بامير الى داخل الصين . وكان هذا الطريق الذى يمتد إلى شمال آسيا بمثابة البديل الوحيد الموصل إلى الطريق البحرى على المحيط الهندى الذى لم يكن آمنا فى بعض الأحيان (٢).

ولم يكن طريق الحرير العظيم ذا فائدة بالنسبة لغزوات جيوش المغول فحسب بل أفاد أيضا فى الاتجاه العكسى - رحلات المبعوثين الدينيين والتجار الأوربيين إلى قلب امبراطورية المغول ولقد ترك ماركو بولو وصفا رائعا لعناية المغول بالطرق العامة والبريد فقد أنشأوا محطات كل خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلا وبها دور لراحة المسافرين فى الطريق . وزودها بالحراس والسعاة ووضعوا علامات لهداية المسافرين وأمروا بغرس الأشجار على جانبيها (٣).

وقد اثنى ابن بطوطة على حفظ المغول للمسافرين فى الطريق أثناء زيارته للصين فى الثلث الأول للقرن الرابع عشر ، فقال « إن بلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين ، وأن الإنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها » (٤).

وقد سيطر ايلخانات مغول فارس على واحد من أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وهو طريق المحيط الهندى - الخليج العربى - هرمز - البصرة - بغداد ومنها إلى أسواق دمشق وحلب أو اياس حيث تباع سلع الشرق الآسيوى للتجار الايطاليين الذين كانت لهم أحياء خاصة بهم فى الموانى الصليبية أو فى الأسواق المحلية للمسلمين أو الصليبيين فى الشام على حد سواء .

ونتج عن المذابح التى أحدثها المغول بسكان أمهات المدن الإسلامية فى وسط آسيا فى النصف الأول للقرن الثالث عشر هجرة التجار من بغداد والبصرة فرارا من مذابح الغزاة . وقد هاجر هؤلاء التجار - ومعظمهم من المسلمين - إلى ميناء قاليقوت على ساحل المليار (أو المعبر طبقا لابن بطوطة) بالهند . حيث منحهم حكام هذه المدينة من الهنود امتيازات عديدة . وبفضل هؤلاء التجار أصبح هذا الميناء المتواضع خلال فترة قصيرة أهم ميناء لتجار الشرق فى مياه المحيط الهندى(٥) وهذا يعنى أيضا أن مدينة بغداد - بعد تدمير المغول لها - قد فقدت مكانتها التجارية التى كانت عليها قبل ذلك .

ولهذا قام مغول فارس فور استقرارهم فى البلاد بالاهتمام بمدينة تبريز وجعلها ابغا خان (١٢٦٥-١٢٨٤) عاصمة له لوقوعها على الطريق التجارى البرى بين الشمال والجنوب وربطوها بميناء اياس الأرمنى على البحر المتوسط بعدة محطات تجارية وشجعوا التجار الأرمن والسريان والمسلمين أيضا على مزاولة أنشطتهم التجارية .

ولما كان ملك أرمينيا الصغرى تابعا للخان المغولى فانه رحب بهذه الخطوة الهامة ومنح البنادقة امتيازات تجارية عديدة فى هذا الميناء ، ومنحهم إعفاءات ضريبية كثيرة ، بل وضايق التجار المسلمين فى بلاده نكاية فى المماليك الذين انتصروا على المغول وتوابعهم من الأرمن والجورجانيين فى موقعة عين جالوت . وكانت هذه التصرفات من قبل الأرمن سببا فى انتقام الظاهر بيبرس منهم بعد ذلك بقليل .

والمهم أن الإجراءات الأمنية لحماية الطرق وتأمينها ظلت سياسة ثابتة الأركان طوال عهد دولة الايلخانات فكانت حراسة الطرق فى عهد أرغون خان مسئولية أمير نشيط وحازم . ولكن تحول حراس الطرق فى عهد كيخاتووبايدو (١٢٩١-١٢٩٥) إلى شركاء للصوص وقطاع الطرق فى نهب المسافرين. ولكن غازان خان (١٢٩٥-١٣٠٤) واجه هذه الحالة السيئة بحزم وصرامة. إذ كانت عقوبة الإعدام توقع على اللصوص ومن يتآمر معهم . وكان هناك ما لايقل عن عشرة آلاف من الحراس المسلحين فى حركة دائمة ووظيفتهم فقط الحفاظ على أمن الطريق[٦].

وقد امتدح ماركو بولو هذه الإجراءات بقوله إنه «نشأ نظام خاص يقضى فى جميع الطرقات التى يخشى فيها الخطر بالزام السكان بناء على طلب التجار أن يزودوهم بادلاء نشطين أمناء يقومون على إرشادهم وأمنهم بين كل ناحية وأخرى ويتقاضون أجرا مقداره جروتان (عملة فضية إيطالية صغيرة) أو ثلاث عن كل دابة محملة تبعا للمسافة [٧].

وقد تزامن استقرار المغول فى إيران والعراق مع سقوط مدينة القسطنطينية فى يد آل باليولوجس البيزنطيين فى يولية عام ١٢٦١م [٨]. وبسقوط القسطنطينية فى يد البيزنطيين وجهت ضربة شديدة للبنادقة . وقام آل باليولوجس بالقبض على تجارهم فى هذه المدينة وفى موانى البيرة Pera وتانا Tana وكافا Kaffa على البحر الأسود وقتلهم باعتبارهم من القراصنة [٩].

وأدى انتشار الجنوية فى حوض البحر الأسود - الذى يسيطر عليه حينئذ مغول القفجاق أن تقربوا من بركة خان الذى منحهم امتيازات واسعة وأحياء كاملة فى هذه الموانى . وقد أدى ذلك الأمر إلى انفراد الجنوية تقريبا - ولفترة طويلة - بنقل الرقيق من جنوب روسيا ومنطقة القوقاز إلى أسواق البحر المتوسط عامة وإلى موانى المماليك خاصة مما أدى إلى تقوية العسكرية المملوكية التى قامت على استيراد الرقيق وتنشئتهم نشأة عسكرية ليكونوا عماد الجندية فى مصر [١٠].

وكذلك انتعشت التجارة مع موانى البحر الأسود - التى كانت قد تأثرت بغزو السلاجقة الأتراك لآسيا الصغرى - مرة أخرى بسبب إحياء طريق التجارة عبر إيران وأذربيجان خاصة وأن بلاد سلاجقة الروم وجورجيا الصغرى وأرمينيا الصغرى قد خضعوا لسلطة المغول أيضا .

ومنذ عام ١٢٦١م استخدم التجار الإيطاليون مدينة طرابيزون الواقعة على الحافة الجنوبية الشرقية للبحر الأسود وأصبح طريق تبريز - طرابيزون هو الأكثر استخداما لنقل تجارة العبور الواردة من المحيط الهندى إلى تبريز إلى البحر الأسود وذلك لأن الطريق البديل وهو تبريز - اياس لم يكن مأمونا لعدة أسباب منها :-

أولا : الغارات والحروب شبه المستمرة بين مغول فارس والمماليك . تلك الحروب التى اتخذت من منطقة شرق العراق وشمال الشام مسرحا لها حتى نهاية عهد غازان خان .

ثانيا : أن المماليك حاولوا مرارا ضرب ميناء اياس الأرمنى حتى لايكون منافسا للموانى المصرية ونظرا لعنف الضربات المملوكية لمملكة أرمينيا الصغرى وللخراب الذى واجهه هذا الميناء فى مناسبات متقاربة ، فان التجار عجزوا عن الانتقال من تبريز إلى سواحل البحر المتوسط فى سنوات كثيرة . ولهذا فضلوا الطريق الشمالى (تبريز - طرابيزون) .

ولكن هذا لاينفى أن ميناء اياس قد عاش فترات رواج اقتصادى خاصة فى الفترة من ١٣٢٠ حتى ١٣٤٥م وهى فترة الحصار الاقتصادى الأوربى على موانى المماليك ، إذ سمح الأخيرون لتجارهم بالذهاب إلى ميناء اياس بالحرير والقطن والتوابل لبيعها للتجار الإيطاليين هناك طيلة امتناع الأخيرون عن دخول الموانى المصرية ، فى حين أن سلاطين المماليك كانوا يستفيدون من الرسوم على هذه السلع بطريقة أو بأخرى[١١] خاصة وأن حكام أرمينيا الصغرى كانوا يدفعون الجزية للمماليك وهم صاغرين نظير سكوتهم عنهم .

المزايا التى حصل عليها التجار الإيطاليون فى أسواق الايلخانية :-

ولقد كانت فترة حكم المغول لإيران والعراق فريدة من نوعها فى العصور الوسطى بالنسبة للتجار الأوروبيين - وأغلبيتهم الساحقة إن لم يكن جميعهم من الإيطاليين - وذلك لأن ايلخانات المغول سمحوا لهم - ليس فقط بحرية الدخول والخروج لبلادهم ، بل أيضا فى الانسياح فى أنحائها وفى كل مكان من قارة آسيا دون تثريب عليهم . وهذا لم يكن معمولا به فى الموانى المصرية والشامية (١٢)، إذا كان مسموحا فقط للتجار الإيطاليين بالتعامل مع التجار المسلمين أو فى أسواقهم فى دمياط والأسكندرية فقط وسمح لهم بالذهاب للقاهرة فى بعض الأحوال ، ولكن مُنعوا من ارتياد البحر الأحمر ومن المتاجرة فى هذا الطريق الهام للتجارة بين الشرق والغرب أو أن يتصلوا بملك الحبشة وذلك للخوف من اتحاد الصليبين والأحباش فى أى مشروع لضرب الإسلام من ناحية . ومن ناحية أخرى من أجل إحكام سيطرة المماليك واحتكار أسرار الطرق التجارية حتى لاتخرج من أيديهم (١٣). أما فى الشام فقد سمح للتجار الأوربيين بالذهاب إلى أسواق دمشق وحلب وغيرهما من المدن الشامية فى حدود وظروف معينة ولكن حرم عليهم الانسياح أبعد من ذلك شرقا أى إلى بغداد أو الخليج العربى . ولهذا جاءت فترة السيطرة المغولية على طرق التجارة فى آسيا فرصة سانحة للتجار الإيطاليين لاختراق الحاجز الإسلامى الذى سد الطريق أمامهم للحصول على سلع ومنتجات الشرق الآسيوى مباشرة وبدون وساطة التاجر المسلم أو غيره .

وكان هذا يعنى المزيد من الأرباح للتجار الإيطاليين الذين أمكنهم من خلال ايلخانية فارس- السفر للهند وجزر الهند الشرقية والصين للحصول على منتجاتها من المنتج الأصلى وبأسعار رخيصة جدا إذا ما قورنت بالأسعار التى يدفعونها لتلك السلع فى الموانى المصرية للتاجر المسلم .

فقد كان طبيعيا أن يرتفع ثمن السلع الشرقية عند وصولها إلى مصر نتيجة لتكاليف إنتاجها ومصاريف الوصول إليها وحملها إلى مصر والرسوم المفروضة عليها فى اليمن وتعدد الوسطاء الذين تمر عليهم . كما تأثر ثمنها بالضرائب التى تفرض عليها أثناء مرورها بمصر باعتبارها من أهم مصادر الإيراد الحكومى . وليس غريبا إذا قيل كذلك أن الحكومة المصرية كانت تجنى ما يعادل شحنة سفينة عن كل أربع سفن(١٤) أى رسوما جمركية قدرها خمسة وعشرين فى المائة من ثمن السلعة . وفى المقابل فان حكام مغول فارس كانوا يحصلون على

مكوس منخفضة جدا على الواردات المارة ببلادهم وعلى نسبة من أربعة إلى خمسة فى المائة فقط على السلع التى يحضرها التجار الإيطاليون لأسواقهم ، فى حين أن زملاءهم الإيطاليين كانوا يدفعون رسوما قدرها عشرين فى المائة[١٥] (تم تخفيضها فقط بموجب معاهدة عام ١٣٥٥م بين المماليك والبنادقة إلى عشرة فى المائة بالإضافة إلى اثنين فى المائة مصاريف نقل)[١٦] فى الموانى المصرية . وهذا معناه باختصار أن التاجر الإيطالى كان يدفع بالأسكندرية أربعة أضعاف ما يدفعه زميله فى تبريز على نفس السلعة والحمولة .

وفضلا عن ذلك فان التجار الإيطاليين قد وجدوا فى أسواق تبريز الحرير الخام المنتج فى منطقة القوقاز بشهرته المدوية فى الأسواق الأوروبية لاستخدامه فى صناعة الحرير بالمدن الإيطالية[١٧] فضلا عن توافر سلع أخرى امتلأت بها أسواق إيران والعراق لم تكن متداولة فى أسواق الأسكندرية .

فضلا عن أن التجار الإيطاليين قد وجدوا فى قادة المغول (البوذيين بصفة خاصة) رعاية كريمة أفضل كثيرا مما كانوا يلقونه فى مصر ، لأن الايلخانات كانوا يعتبرون الأوربيين حلفاء المستقبل بالنسبة لهم ، ولذا عينوا بعضا من التجار الإيطاليين سفراء لهم لدى قادة أوروبا وجعلوا بعضا منهم مستشارين لهم وأعطوهم من الامتيازات والمنح والأعطيات ما فاق تصوراتهم . ولكن فى مصر كانوا يعاملون على أنهم «تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا (تجارا) على حد قول صلاح الدين الأيوبى للخليفة العباسى فى بغداد عام ١١٨٢م / ٥٨٨هـ [١٨]. وذلك للدور الخطير الذى لعبه التجار الإيطاليون فى الحروب الصليبية ولأنهم كانوا يأتون موانى المسلمين أو يهجرونها تبعا لمصالحهم الشخصية وجريا وراء امتيازاتهم التجارية . ولهذا فان بعض الجاليات التجارية الأوربية قد تعرضت فى بعض المناسبات للطرد أو الاعتقال من قبل الأيوبيين والمماليك حينما كانت تتعرض موانيهم لعدوان صليبى بايعاز أو تحريض أو مساعدة من هذه الجاليات أو انتقاما من اللاتين بصفة عامة . وهذا لم يحدث فى ايلخانية فارس حتى عام ١٣٣٥م لاختلاف الظروف السياسية ولأنهم هناك عوملوا على أنهم حلفاء بينما عوملوا فى مصر على أنهم أعداء وقت الحرب وأصحاب مصالح وقت السلم .

ومن الواضح أن تجار جنوة والبندقية قد سارعوا لاستغلال هذه الظروف الجاذبة لهم فى الانسياح داخل المدن الإيرانية والعراقية والتوغل شرقا إلى الهند والصين .

كما شجع ايلخانات فارس أولئك التجار على ارتياد بلادهم والاستقرار فيها لما يعود عليهم من منافع متمثلة فى الضرائب والمكوس وجلب سلع أوروبية لقصورهم . فضلا عن استخدام هؤلاء كسفراء لهم إلى العواصم الأوروبية أو فى قصورهم . وفى نفس الوقت وجد مغول فارس فى التجار الأجانب الفرصة لتعويض الخلل الذى أصاب أسواقهم لهجرة التجار المسلمين لموانى اليمن والهند والصين . وقد حاول أرغون الاستفادة من الكثرة العددية للتجار الإيطاليين فى بلاده وخبرتهم الحربية والبحرية فى إنشاء أسطول لتسييره فى الخليج العربى والمحيط الهندى عام ١٢٩٠م لضرب تجارة المماليك الواردة إليهم من جنوب آسيا وشرقها فى محاولة للنيل من اقتصادهم وذلك لتعويض الفشل العسكرى المتكرر ضدهم .

وليس معروفا مقدار ما تغله المكوس والضرائب من التجار الإيطاليين على خزينة حكام المغول فى فارس وذلك لأن هؤلاء التجار مهما كثر عددهم - حتى لو افترضنا صحة رواية مكمل حولية ابن العبرى بوجود تسعمائة منهم عام ١٢٩٠م - كانوا قلة ضيئلة بجوار الالآف من التجار المسلمين[١٩] والسريان والأرمن والجورجانيين وغيرهم الذين امتلأت بهم أسواق الايلخانية من هرمز جنوبا حتى تبريز شمالا .

ولكن الضرائب والمكوس التى كان يحصل عليها حكام المغول من التجارة عامة[٢٠] قد استرعت انتباه كثير من الرهبان والتجار اللاتين الذين مروا بايلخانية فارس .

حتى أن الراهب الفرنسسكانى أودريك البوردنونى Odereic of Pordenone الذى زار تبريز فى عهد أبو سعيد خان (١٣١٦-١٣٣٥م) قد دهش من كثرة التجار بأسواقها ومن كثرة المعروضات من سلع الشرق والغرب ، وقرر أن ملك البلاد يحصل على دخل من هذه المدينة فقط أكثر مما يحصله ملك فرنسا من كل بقاع مملكته[٢١].

وقد وصف ماركوبولو هذه المدينة فى زيارته لها بعد وفاة أرغون خان بقوله أنها «فى موقع بالغ المواءمة للتجارة بحيث يفد إليها التجار من الهند وبلداش (بغداد) والموصل وكريمور (هرمز!) فضلا عن أصقاع مختلفة من أوروبا ليشتروا ويبيعوا فيها طائفة من السلع ، وفى الامكان الحصول فى هذا المكان على الأحجار النفيسة واللآلى بكميات وفيرة ويحوز التجار المشتغلون بالتجارة الأجنبية ثروات ضخمة»[٢٢] ويبدو أن الانبهار بأسواق مدينة تبريز لم يتوقف على الأوربيين وحدهم . إذ يقرر الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى زار هذه المدينة فى نهاية عهد أبو سعيد أنه رأى «سوقا عظيمة تعرف بسوق قازان (أى غازان) من أحسن سوق

رأيتها فى بلاد الدنيا ، كل صناعة فيها على حدة لاتخالطها أخرى ، واجتزت بسوق الجواهريين فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر ... » [٢٣].

ولكن الامتيازات التى منحها ايلخانات فارس للتجار الإيطاليين فى بلادهم والخطابات العديدة التى أرسلها خلفاؤهم فى حكم تبريز (بعد عام ١٣٣٥م) للإلحاح على هؤلاء التجار فى العودة لبلادهم لممارسة أنشطتهم التجارية ، والوعود التى قطعوها على أنفسهم بتخفيض المكوس لهم وشملهم برعايتهم وحمايتهم[٢٤] دليل آخر على أهمية الدور الذى قام به هؤلاء التجار فى ايلخانية فارس .

السلع التى تاجر فيها الايطاليون فى أسواق المغول :

أما عن السلع التى أحضرها التجار الإيطاليون لأسواق المغول عامة وللمراكز التجارية فى ايلخانية فارس خاصة فكانت متعددة ، فمنها الجواهر والأحجار الكريمة وهى التى كانا يتاجر فيها مافيو ونيقولو بولو سواء بين مغول روسيا أو فى حضرة الخان الأعظم قوبيلاى خان [٢٥]. ومنها المنسوجات والأقمشة التى حملها بيترو فيجليونى Pietro Viglioni – أول تاجر بندقى يصل إلى تبريز ويموت فيها عام ١٢٦٤م . ولما كانت البندقية لاتنتج هذه الأقمشة فانها كانت مستوردة من أسواق المانيا ولومبارديا وستانفورد بانجلترا . وقد حمل تجار جنوه كميات كبيرة من الأقمشة لأسواق تبريز عبر طرابيزون[٢٦] . ويبدو أن حاجة أسواق المغول لهذه المنتجات كانت كبيرة الأمر الذى حدا بالتاجر الفلورنسى بيجلوتى Peglotti أن يوصى التجار الإيطاليين عام ١٣٣٠- فى كتابه عن طريق التجارة إلى الصين – الذاهبين لأسواق المغول بأخذ كميات كبيرة من الأقمشة لارتفاع الطلب عليها وارتفاع ثمنها[٢٧] ولقلة المعروض منها . وتوجد وثيقة جنوية عبارة عن عقد مشاركة بين الأخوة انسالدو ، جيوفانى ، وجيكومودى اوليفيرا Ansaldo , Giovanni & Giacomo de Olivera لتأسيس شركة بينهم عام ١٣٣٠ أو ١٣٣١ لتصدير الملابس الفرنسية إلى سوريا وتبريز [٢٨].

وفضلا عن ذلك فان التجار الإيطاليين حملوا معهم الفراء والملابس المصنوعة من الجلد والخزف والزجاج فضلا عن بعض المواد الغذائية [٢٩]. كما أنهم نقلوا لأسواق ايلخانية فارس آلاف الرقيق من أسواق البحر الأسود وبحر إيجه .

وينقل المؤرخ الفرنسى ج . ريشارد J. Richard عن مصدر أرمنى كتب فى الفترة من عام ١٣١٥ حتى ١٣٢٠ قوله : أن ألفين من الرقيق بيعوا دفعة واحدة فى أسواق تبريز وأن مائة

وعشرين ألفا من الرقيق أيضا تم بيعهم فى تبريز والمدن الإيرانية والعراقية الأخرى فى تلك الفترة [٣٠]. والشك فى ضخامة الرقم الأخير لايجعلنا نتردد فى قبول فكرة أن أسواق الايلخانية كانت عامرة بتجارة الرقيق الذين كان يجلبهم التجار الإيطاليون من الشمال وذلك لتعويض الخلل الخطير فى السكان الناتج عن إخلاء مدن بأكملها بسبب المذابح التى اقترفها المغول فى تلك المنطقة سواء فى مرحلة الصدام مع الخوارزميين (١٢١٨-١٢٣١) أو فى المذابح التى ارتكبتها قوات هولاكو فى بغداد وبعض المدن الإسلامية الأخرى . وكانت الحاجة ماسة لهؤلاء الرقيق فى الزراعة والحرف المختلفة فضلا عن استخدام الايلخانات لهم فى الجيش لسد النقص فى جيوشهم ولزيادة عددها لمواجهة الحروب التى كانت شبه مستمرة مع المماليك غربا أو مع مغول القفجاق شمالا أو مع مغول التركستان شرقا .

أما عن المنتجات التى نقلها التجار الإيطاليون من أسواق إيران والعراق أو عبرها إلى أسواق أوروبا - (عبر مراكزهم التجارية على البحر الأسود أو فى ميناء إياس الأرمنى) - فكثيرة ومتنوعة . ومنها ما هو منتج فى الصين أو الهند أو جزر الملايو وينقله التجار المسلمون لأسواق ايلخانية فارس ، ومنها ما هو من انتاج إيران والعراق .

وكان ميناء هرمز مقصدا للتجار من كل أرجاء الهند طبقا لرواية ماركو بولو الذى زار هذا الميناء أيضا إذ يقرر أن هؤلاء التجار « يجلبون التوابل والعقاقير والأحجار الكريمة واللؤلؤ ومنسوجات الذهب، كما يجلبون أنياب الفيلة (العاج) وأنواعا أخرى مختلفة من البضائع، وهنا يبيعون هذه البضائع لمجموعة مختلفة من التجار يتولون توزيعها بكل أرجاء العالم»[٣١] ومن نافلة القول أن نكرر أن هذه المنتجات حملها التجار الإيطاليون (سواء من هرمز نفسها أو اشتروها من تبريز) لأسواق أوروبا ، ويقرر كلافيجو Glavijo - سفير ملك قشتالة إلى تيمورلنك عام ١٤٠٣م - أن معظم اللآلئ ، الموجودة فى بحر الصين ترسل إلى هرمز حيث تقطع وتثبت ، ويقول أنه سمع من التجار المغاربة والمسيحيين (فى بلاده) أن هرمز هى المكان الوحيد فى العالم للعثور على اللآلئ [٣٢].

ونتعرف على المنتجات الأصلية لإيران والعراق التى كان التجار الإيطاليون يحملونها لبلادهم من خلال مذكرات ماركو بولو الذى زار المراكز التجارية الهامة لإيلخانية فارس ووصف لنا منتجاتها ومعروضاتها بعين التاجر البندقى . فيقول عن مدينة يزدى الفارسية - فى إمارة أصفهان - أنه كان «يدور بها تجارة عظيمة وبها نوع من قماش الحرير والقصب (الذهب) يصنع بها ويعرف باليزدى ويحمله التجار منها إلى جميع أرجاء العالم» [٣٣].

ويصف إمارة كرمان التى تقع على الحدود الشرقية لإيران بأنه يوجد بجبالها الأحجار النفيسة المسماة بالفيروز وكذلك عروق من الصلب . «وهم يصنعون هنا بدرجة عظيمة من الإتقان جميع الأدوات اللازمة لعتاد الحرب ... وكل أنواع الأسلحة المستخدمة عند تلك الشعوب » . ويمتدح الرحالة البندقى المصنوعات اليدوية للسكان من المنسوجات الحريرية والستائر وأغطية الفراش بقوله « أنهم ينفذون العمل بمهارة وذوق بالغين يثيران كل الإعجاب»[٣٤].

ويقرر ماركو بولو أن «جميع الأنسجة الذهبية والحريرية التى نسميها بالموسلين هى من صنع الموصل ، كما أن جميع التجار الذين ينعتون موسولينى والذين يحملون الأفاوية والعقاقير بمقادير ضخمة من إقليم إلى إقليم ينتمون إلى تلك الولاية ....» ويؤكد أيضا أن القطن ينتج بمدينتى ماردين وكوش بوفرة عظيمة ومنه يجهزون القماش المسمى البوكاسينى «وأن السكان قوم من الصناع والتجار »[٣٥].

ويصف ماركو بولو البصرة بأنها «تنتج أجود بلح (تمر) فى العالم» . ويقرر أنه تقوم فى بغداد صناعة الحرير المغزول بخيوط الذهب (القصب) وكذلك صناعة الدمقس فضلا عن القطيفة (المقصود بها البسط والسجاجيد) المحلاة بأشكال الطير والحيوانات ... » وليس هذا فقط بل يشير أيضا أنه «تكاد جميع اللآلئ» المنقولة إلى أوروبا من الهند أن تجرى فيها عملية الثقب فى هذا البلد (أى فى بغداد)[٣٦].

وعندما يصل إلى تبريز يصفها بأنها أرفع مدن الايلخانية شأنا وأكثرها سكانا ، وأن سكانها يعتمدون فى معاشهم بصفة رئيسية على التجارة والصناعات. ويقرر ماركوبولو أن « الأخيرة تشمل صنع أنواع مختلفة من الحرير بعضها مخلوط بخيوط من الذهب ، وله أثمان عالية فى الأسواق » . وأن مدينة تبريز نفسها فى موقع بالغ المواءمة للتجارة بحيث يفد إليها التجار من الهند وبغداد والموصل وهرمز «فضلا عن أصقاع مختلفة من أوربا ليشتروا ويبيعوا فيها طائفة من السلع » . وكانت الأحجار النفيسة واللآلئ من المنتجات التى يقبل عليها التجار فى أسواق تبريز وكانت رخيصة الثمن . ولهذايقرر ماركو بولو أن التجار المشتغلون بالتجارة الأجنبية يحرزون ثروات ضخمة[٣٧].

ويقرر كلافيخو أنه شاهد فى مدينة السلطانية الإيرانية العديد من القوافل التجارية الآتية من الهند ، محملة بالتوابل مثل القرنفل والقرفة وجوزة الطيب والمن وقشر جوز الهند . ويؤكد أن هذه السلع تنفرد بها أسواق السلطانية دون ميناء الأسكندرية ، ويروى السفير القشتالى

أيضا أن كل الحرير المصنوع فى جيلان (قرب بحر قزوين) يحمل لأسواق هذه المدينة حيث ينقله التجار إلى دمشق وبقية أسواق بلاد الشام وآسيا الصغرى [٣٨]. وكان ماركو بولو قد أكد أن تجار جنوة يذهبون إلى بحر قزوين للحصول على هذا الحرير الجيلانى الذى كانت له شهرة مدوية فى أسواق أوروبا [٣٩].

ومن الطبيعى أن أسواق إيلخانية فارس والبحر الأسود كانت المصادر البديلة عن الموانئ المصرية والشامية فى فترة الحصار الاقتصادى الأوربى عليها لمنتجات الشرق الآسيوى التى كانت ضرورية للأسواق الأوربية. ومن هذه السلع الفلفل ، والخلنجان[٤٠]، والزنجبيل[٤١]، والعصفة الجوزية [٤٢]، والزعفران[٤٣] ، والقرفة الصينية ، والسنامكى [٤٤]، وبهار الهند والراوند الصيفى والحبهان وصبغ الفوة والكافور والند . وكانت هذا السلع تنتج فى الهند والصين وجزر الهند الشرقية .

أما عن العطور والبخور التى حملها التجار البنادقة والجنوية من أسواق إيران والعراق إلى الغرب فمن أنواعها : عود الند والمسك وخشب الصندل ، والعنبر والبخور واللادن والمصطكى واللبان الجاوى ، أما عن مواد الصباغة الشرقية التى استخدمت فى الصناعة فى أوروبا فمنها الفوه والنيلة ودودة القز والشب والنطرون وغيرها [٤٥].

ومن المعروف أن هذه السلع سواء تلك المنتجة فى إيران والعراق أو المستوردة لأسواقهما من جنوب آسيا وشرقها كانت موجودة أيضا قبل عصر المغول ، وذلك لأن إقليمى إيران والعراق كانا من أكثر البلاد الإسلامية ازدهارا فى الصناعة والتجارة (فضلا عن العلوم والثقافة) ، وأن شبكة من الطرق الممهدة الآمنة للتجار المسلمين كانت تربط الأندلس وطنجة غربًا باوترار وسمرقند شرقًا وأن التاجر المسلم كان لايشعر أنه يعبر من إقليم لآخر طالما أنه فى دار الإسلام، ، ولكن الجديد فى عصر السيطرة المغولية أنه أتيح للتجار الأوروبيين أن يجوبوا أسواق آسيا بأنفسهم ويحملوا منتجاتها لبلادهم دون وسيط ، فضلا عن أن الطرق من إيران إلى البحر المتوسط (ميناء اياس الأرمنى) أو من إيران إلى البحر الأسود (تبريز - سيواس Siwas - أرزيجان Arzendjan- طرابيزون) أصبحت أكثر استعمالا وأمنا لسيطرة مغول فارس على كل دول هذه المنطقة (إيران - العراق - أرمينيا الصغرى - جورجيا الصغرى - سلاجقة الروم).

أوضاع التجار الإيطاليين فى ايلخانية فارس :

أولا : تجار جنوة

بعد سقوط القسطنطينية فى يد آل باليولوجس عام ١٢٦١م أتيح لحلفائهم الجنوية أن ينتشروا فى هذه المدينة وضواحيها وموانى البحر الأسود وأهمها تانا وكافا ومنهما انساح هؤلاء التجار داخل آسيا شرقا وجنوبا ووجدوا الترحيب الكامل من جانب هولاكو وابغاخان وخلفائهما للأسباب السابقة ولأن الجنوية هم حلفاء ميخائيل باليولوجس - الذى تزوج أبغا ابنته . ولم يترك الجنوية وثائق تشير لطبيعة أنشطتهم فى الايلخانية فى السنوات الأولى لاستقرار ايلخانات المغول فى حكم إيران والعراق . ولكن نعرف أنهم بدأوا يتاجرون فى تبريز ويتنقلون منها إلى إياس أو طربيزون . وفى بداية عهد ابغا خان (١٢٦٥-١٢٨٢م) نقل بعض تجار جنوة أموالهم من طرابيزون إلى تبريز عبر مدينة سيواس Siwas - (باقليم جورجيا الصغرى) الواقعة على الطريق بين هاتين المدينتين . ففى عام ١٢٧٤ م حرر كاتب العقود الجنوى فيدر يكودى بيزالونا Federico di Pizzaluna عدة عقود للمشاركة بين تجار جنويين فى هذه المنطقة . وأسس بعض الجنوية مراكز تجارية لهم بمدينة أرزنجان Erzindjan - على الطريق أيضا إلى تبريز وتقع باقليم جورجيا الصغرى ، وفى عام ١٢٨٠ م وما بعدها أسس الجنوية قنصلية لهم فى مدينة سيواس حيث صدروا الأقمشة والمنسوجات إلى تبريز . وهناك عقود لتجار جنوة تفيد قيامهم بتصدير منسوجات ريمس عام ١٢٩٢م إلى تبريز ، وعقود مؤرخه فى أعوام ١٣١٣ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣٦م تشهد بتصدير هذه السلع إلى تبريز بواسطة تجار جنوة (٤٦).

ولقد ازدادت أهمية الجنويين فى الايلخانية فى عهد أرغون الذى كان يتطلع لتنفيذ مشروع التحالف العسكرى مع الغرب الأوروبى ضرب المماليك ، ولهذا أختار العديد منهم للسفر على رأس سفاراته لأوروبا . وكان منهم بوسكاريللوجيزولفو - Buscarello Ghisolfi الذى شارك فى سفارات أرغون وغازان فى الفترة من عام ١٢٨٩ حتى ١٣٠٣م . وكان يمارس التجارة فى نفس الوقت سواء بصفته الشخصية أو عن طريق وكيل له فى تبريز وكان له عدة شركات تجارية فى طرابيزون أيضا (٤٧). وكذلك كان التاجر الجنوى توماس أنفوس - الذى لمع اسمه فى سفارات المغول - له عدة شركات مالية فى المراكز التجارية التابعة لسيطرة مغول فارس(٤٨).

وفى عام ١٢٩٠م قام تسعمائة من «الفرنجة» ببناء أسطول خاص بهم تحت رعاية وموافقة أرغون خان لتسييره فى الخليج العربى لضرب تجارة المماليك وذلك بالسيطرة على منابعها فى جنوب آسيا وشرقها ومحاصرة عدن ومدخل البحر الأحمر(٤٩). ويبدو أن هذا المشروع كان انتقاما من الضربة التى وجهها المنصور قلاوون للتجار الجنوية باستيلائه على ميناء طرابلس عام ١٢٨٩م والذى كان أكبر مركز تجارى للجنوية فى شرق البحر المتوسط ، بل واعتقال الجالية الجنوية بالموانى المصرية فى ذلك العام أيضا ردا على هجوم الأسطول الجنوى على قرية مصرية فى شمال الدلتا .

وليس غريبا أن التجار الجنويين هم الذين كانوا يشجعون أيلخانات فارس على التحالف مع الأوروبيين وقادوا سفاراتهم للأخيرين وذلك لأن هؤلاء التجار كان يهمهم فى المقام الأول مصالحهم التجارية ، ولأنهم أدركوا أن الغرب الأوربى عاجز عن الاحتفاظ بالمواقع الصليبيةعلى سواحل الشام وعلى استعادتها لحوزته ثانية، فان الجنوية كانوا يأملون أن يقوم المغول بهذه المهمة سواء بمفردهم أو بالتحالف مع اللاتين لأن ذلك لو حدث فمن شأنه إعطاء الجنوية امتيازات واسعة فى موانى الشام .

والمهم أنه فى عام ١٢٩١م أصطحب التاجر الجنوى بيترلوكالونجو Peter of Lucalonge الراهب الفرنسسكانى جون مونت كورفينو فى طريقه إلى الصين حيث قوبل بحفاوة من خليفة قوبيلاى خان - الذى جرب سلفه التعامل مع آل بولو الذين غادروا بكين عائدين لبلادهم عام ١٢٩٢م- ونعرف أن هذا التاجر أسس فندقا وحماما فى مدينة الزيتون -(٥٠) أشهر ميناء تجارى صينى فى شرق آسيا حينئذ وتقع فى مواجهة جزيرة فرموزا (تايوان) وكان رائدا للتجار الجنوية الذين كونوا ثروات طائلة من التجارة فى الشرق الأقصى (٥١).

وفى عامى ١٢٩٣-١٢٩٤ مرآل بولو فى طريق عودتهم لبلادهم ، بآسيا ، الصغرى حيث قرروا أن التجار الجنوية يبحرون فى بحر قزوين (أو بحر الخزر عند العرب أو بحر باكو عند الفرس) وأنهم يجلبون منه نوع الحرير المسمى بالغلى Ghellie(٥٢) (أو الجيلانى) . ويرى المؤرخ الاقتصادى هايد Heyd أنه نظرا لأن - بحر قزوين بحر مغلق فانه لم يكن ممكنا للجنوية الوصول إليه من البحر الأسود إلا إذا أبحروا من ميناء كافا إلى مصب نهر الدون ثم إلى مصب نهر الفولجا وأن يحملوا سفنهم برا حتى بحر قزوين . وأن هدفهم من ذلك كان الوصول لمنطقة الحرير والأحجار الكريمة على الساحل الجنوبى لهذا البحر والتى لم يكن الوصول لها ممكنا برا عبر تبريز وذلك للموانع الطبيعية التى تفصل هذا البحر عن بقية بلاد فارس(٥٣).

ومن المؤكد أن أنشطة تجار الجنوية فى ايلخانية فارس تضاعفت بعد عام ١٢٩١م بل وربما تضاعفت أعدادهم أيضا وذلك يرجع لأمرين هما :

أولا : أنه فى أغسطس من ذلك العام سيطر المماليك سيطرة كاملة على كل سواحل الشام بل ودمروا الموانى التى كانت بحوزة الصليبيين خشية أن تكون شوكة فى ظهر المسلمين إذا ما استولى عليها اللاتين ثانية . وكان للتجار الإيطاليين أحياء كاملة فى معظم - إن لم يكن فى جميع - هذه الموانى ، ومنها يحصلون على سلع الشرق الآسيوى التى كانت تأتي إلى هذه الموانى عن طريق التجار المسلمين فى أسواق دمشق أو حلب (من خلال بغداد والبصرة وسيراف) أو عن طريق البحر الأحمر (من خلال ميناء جده أو العقبة) . ولهذا كان على تجار جنوه (والبنادقة أيضا) البحث عن منافذ وميادين تجارية جديدة يحصلون منها على سلع الشرق الأسيوى ، ولم تكن هذه المراكز متاحة إلا بين ظهرانى المغول .

ثانيا : أن البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨- ١٢٩٢م) أصدر بعد سقوط عكا - قرارا حرم فيه على العالم المسيحى كل تجارة مع البلاد الخاضعة للسلطان المملوكى مع توقيع قرار الحرمان الكنسى على كل من يخالف هذا القرار فضلا عن مصادرة أملاكه ومنعه من ممارسة حقوقه المدنية ومن حق الشهادة والميراث وغيرها من العقوبات . كما أمر البابا بمنع إمداد المسلمين بالرقيق والأسلحة والأخشاب والحديد وهى بضائع ضرورية للعسكرية المملوكية(٥٤) .

حقيقة أن قرارات مماثلة قد صدرت من قبل(٥٥) . ولم ينفذها التجار الإيطاليون لأن مصالحهم التجارية كانت أقوى من الاعتبارات الدينية (٥٦). ويرمز لهذا الأمر المثل البندقى الشهير « نحن بنادقة أولا ومسيحيون ثانيا Siams Veneziani, Poi Christioni »(٥٧) ونتج عن الخسائر الفادحة للتجار الإيطاليين من جراء سقوط المستعمرات الصليبية على السواحل الشامية ، أن اضطروا لهجرة الموانى المصرية لفترة - وإن كانت قصيرة - من الزمن وهذا جعلهم يبحثون عن البديل الطبيعى لأسواق المماليك وهو أسواق المغول للحصول على المنتجات الأسيوية التى لاتستغنى عنها الأسواق الأوربية . وهذا يفسر شدة إقبال التجار الإيطاليين بصفة عامة على تبريز منذ عام ١٢٩١م فصاعدا .

ومن أسف أن التجار الجنوية الذين تواجدوا داخل آسيا لم يتركوا - مثل التاجر البندقى ماركو بولو أو نظيره الفلورنسى بيجلوتى - أية مذكرات أو مدونات عن أنشطتهم التجارية

فى أسواق المغول . ويعزى المؤرخ الاقتصادى (الجنوى الأصل) روبرت لويز Robert Lopez هذا الأمر إلى أنه كان من عادة الجنويين الاحتفاظ بأسرارهم التجارية خشية إطلاع منافسيهم عليها لدرجة أنهم عندما كانوا يسجلون عقود المتاجرة والشركات(٥٨) المساهمة لرحلاتهم التجارية فانهم كانوا يحجمون حتى عن ذكر جهة المقصد حرصا على هذه السرية(٥٩).

وعلى هذه الشاكلة كانت رحلة الأخوين أوجلينو وفادينو فيفالدى Ugolino & Vadino Vivaldi من جنوة عام ١٢٩١م . فرغم أنهما حررا عقود المتاجرة مع شركائهما القائمين على تمويل رحلتهما على أن وجهتهما مناطق مختلفة من العالم « إلا أن هدفهما الحقيقى كان البحث عن طريق بحرى إلى الهند »(٦٠). ولكنهما أبحرا فى المحيط الاطلنطى ويرجح أنهما ضلا الطريق هناك(٦١) أو أن ظروفا طبيعية أو بشرية فى شمال أفريقية أو غربها قد حالت بينهما وبين تحقيق هذا الحلم بامكانياتهما البشرية والمادية المتواضعة والذى تحقق بعد ذلك بقرنين من الزمان على يد فاسكو داجاما.

ورغبة من أبنائهما فى البحث عنهما فى الهند - وهى جهة المقصد الحقيقية فإن شركة مساهمة تكونت بين الأخوة فيليبو Filippo وسيمون Simone وجنفيرا فيفالدى Ginevra - Vivaldi عام ١٣١٥ م وسلموا أحد أقاربهم ويدعى بنديتو فيفالدى Benedetto Vivaldi مبلغ ثلاثمائة وثلاثة دينارات جنوية ورغم أن عقد المشاركة نص صراحة على أن جهة المقصد هى بيزنطة فان وجهة بنديتو فيفالدى كانت إلى الهند للبحث عن الأخوين فيفالدى هناك . وسافر الأخير إلى الهند فى رحلة تجارية (عبر كافا - طرابيزون - تبريز - هرمز) . وتقابل هناك (وربما فى تبريز) مع أحد التجار الجنوية وهو بيرسيفالى ستنكونى Percivalle Stancone وتوفى بنديتو فى الهند وأرسل رفيق الرحلة خطابا لأسرته وللقائمين على الشركة التى قامت بتمويل رحلته وذلك لإبلاغهم أنه مستعد لإرسال بضائع المتوفى إليهم على مسئوليتهم الخاصة . ولكن الورثة والشركاء فى جنوة أبلغوا ستنكونى بتحويل الأموال إليه لاستثمارها لهم بنفس الشروط المعروفة لحين عودته إلى جنوه (٦٢). وهكذا لولا وفاة بنديتو فيفالدى بالهند والرسالة التى وصلت جنوه تنعيه لدائنيه ما كان الباحثون علموا بوجود الجنوية فى الهند ، وهذا ينطبق على جميع أنشطة الأخيرين فى آسيا التى أحيطت بسرية تامة .

وليس معروفا على وجه الدقة سبب تأخر الجنويين فى إنشاء قنصلية لهم فى تبريز حتى بداية القرن الرابع عشر الميلادى رغم تواجدهم بها منذ بداية حكم المغول لإيران والعراق خاصة وأن الفندق والقنصلية كانا من ضرورات أى جالية تجارية وأجنبية . ويمكن تفسير ذلك بأنهم

فى عهد الايلخانات البوذيين كانوا يتمتعون بحماية ورعاية الخان شخصيا ، وأن قادتهم كانوا يتحدثون باسم حكام المغول فى العواصم الأوربية ، بل وعهد ارغون لأحدهم بحراسة قصره شخصيا ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، يبدو أنهم لم يكونوا فى موضع منافسه مع أحد من الجاليات الأوروبية حتى نهاية القرن الثالث عشر ، بل وكان يسمح لهم بالتجول والإقامة فى كل أنحاء ايلخانية فارس . وكانت أديرة الرهبان الكاثوليك بمثابة فنادق لهؤلاء التجار للمبيت فيها . وهذا لايتعارض مع كونهم يستخدمون الفنادق العديدة التى بناها الإيلخانات وقادتهم فى معظم المدن الهامة حتى أن رشيد الدين الهمذانى قام ببناء أربعة وعشرين فندقا للتجار فى ضاحية واحدة من تبريز عرفت باسم الربع الرشيدى (٦٣). وهذا الوضع كان يختلف عن نظام الفندق بالاسكندرية الذى كان بمثابة مكان لمبيت الجالية التجارية الواحدة ليلا ومكان لبيع بضاعتهم نهارا وكان مقرا للقنصل أيضا . وللفندق وضع قانونى نصت عليه المعاهدات مع حكام مصر لأنه لم يكون مسموحا للتجار الأجانب بالتجول خارج الميناء (٦٤). ولكن فى ايلخانية فارس كان الوضع مختلفا .

والمهم أنه مع بداية القرن الرابع عشر - وتغير وضع الأجانب باعتناق غازان الإسلام - أنشا الجنويون قنصلية لهم فى تبريز . وكان يتم تغيير العاملين بها كل نصف سنة . ويساعد القنصل مجلس يتكون من أربعة وعشرين شخصا والقرارات سارية المفعول بحضورستة عشر شخصا وموافقة اثنى عشر حاضرا ، وكان للقنصل والمجلس المعاون له السيادة على جميع الجنويين المتواجدين فى ولايات ايلخانية فارس سواء قصرت مدة إقامتهم بها أو طالت. وبعد انتقال الخان أولجايتو إلى مدينة السلطانية واتخاذها عاصمة له كان للجالية مقرا بها أيضا .

ونظرا لتضرر التجار الجنوية من استغلال رعاة حيوانات النقل اللازمة لقوافلهم من طرابيزون حتى تبريز. فان القنصلية أخذت على عاتقها استئجار وشراء الحيوانات بمعرفتها وتوزيعها على القوافل . وصدرت تعليمات من جنوه بمنع رعاياهم فى فارس من إشراك الأجانب فى قوافلهم (عدا البنادقة والإغريق) أو إسكانهم فى فنادقهم أو عمل عقود شراء أو سداد مستحقات مالية مع الآخرين تزيد مدتها عن أربعة شهور ولو زادت عن ذلك يؤخذ رأى القنصل فى تبريز وكذلك دائرة التجارة فى مجلس القنصلية (٦٥).

ونظرا لحاجة الجنوية لمعرفة لغات السكان المحليين الذين كانوا يتعاملون معهم فى الأسواق، فان أحد التجار الجنويين قد ألف قاموسًا عام ١٣٠٣ للألفاظ الشائعة والمتداولة فى الأسواق

لثلاثة لغات : اللاتينية ولغة الكومان (التى كانت منتشرة بين مغول القفجاق) واللغة الفارسية . ويستدل من ذلك إتقان مؤلفه للغتين الفارسية والكومانية فضلا عن لغته اللاتينية[٦٦].

ثانيا : البنادقة

كان من نتائج الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية عام ١٢٠٤م أن أصبح التجار البنادقة هم سادة منطقة البحر الأسود بلا منافس . وانتشروا فى بحر إيجه وعلى شواطئ البحر الأسود وبصفة خاصة فى ميناء سولديا Soldia . وفى عام ١٢٢٠م عقدوا معاهدة مع سلطان سلاجقة الروم تمتعوا بمقتضاها بحماية السلطان ورعايته ، وحق المرور عبر أرضية ودفع جمارك قدرها ٢٪ فقط من قيمة بضائعهم . وحصل رعايا البندقية على حقوق قانونية متميزة[٦٧] على غرار الامتيازات التى حصلوا عليها فى موانى مصر والشام . ومع ذلك لم ينجح البنادقة فى التوغل فى آسيا الصغرى أو فى منطقة القوقاز لسيطرة قبائل الكومان والقفجاق والأتراك على هذه المناطق ، وانتهز ميخائيل باليولوجس حاكم نيقيه الإغريقى فرصة انشغال البنادقة بحربهم مع جنوة فى عكا منذ عام ١٢٥٨ م ودبر مع الجنوية أمر طردهم من القسطنطينية وتم له ما أراد عام ١٢٦١م [٦٨].

وفى تلك الفترة كان مافيو ونيقولو بولو فى ميناء سولديا على البحر الأسود يتاجران فى المجوهرات والأحجار الكريمةوذهبا بتجارتهما لبركه خان حاكم مغول روسيا فى عاصمته سراى على مصب نهر الفولجا حيث باعا له ما معهما من بضائع . ولكنهما علما أن الجنوية قد أسروا البنادقة فى سولديا وذبحوهم وأنهما لايستطيعا العودة للبندقية عن طريق القسطنطينية اضطرا للرحيل شرقا إلى بخارى - حيث كان طريق الحرير إلى الصين آمنا بفضل سيطرة المغول عليه - بغية الالتفاف حول بحر قزوين والوصول إلى تبريز ومنها إلى إياس للعودة لبلدهما .

ولكن سفارة من الخاقان الأعظم فى بكين كانت فى تبريز قد نجحت فى إقناعهما بالذهاب لحضرة قوبيلاى خان للتجارة فى بلاده حيث أنه متوق لرؤية الأوربيين . ورحب مافيو ونيقولو بذلك واصطحبا سفارة قوبيلاى خان عبر هضبة بامير فى رحلة برية شاقة قوامها ثلاثة آلاف ميل حتى وصلا بكين واستقرا هناك تحت رعاية الخاقان وحمايته . وفى عام ١٢٦٩م أعادهما الأخير ممثلين له فى سفارة للبابوية . وفى عام ١٢٧٥م رجعا ثانية إلى بكين وبرفقتهما ماركو (١٢٥٤م - ١٣٢٤م) الذى ذاعت شهرته نتيجة المذكرات التى دونها بعد رجوعه لبلاده عام ١٢٩٥م بعد استقراره فى الصين مدة ١٧ عاما (١٢٧٥-١٢٩٢م) عمل فيها فى خدمة

الخاقان مستشارا له وحاكما لبعض الولايات الصينية وسفيراً القوبيلاى إلى أقاليم مجاوره للصين ومندوبا عنه فى مهمات خاصة . وأبرز فى ذلك براعة وتفوق مدهشين خاصة وأنه أتقن لغات المغول والصينيين على حد سواء [٦٩].

وفى عام ١٢٩٢م رجع آل بولو بالطريق البحرى – الزيتون – الهند – هرمز – تبريز وذلك لمصاحبة عروس أرغون خان الصينية . وبعد رجوعهم للبندقية انفجر صراع دام بين جنوه والبندقية (الحرب الثانية) اشترك فيها خمسة وثلاثون ألف جنوى ومائة وخمسة وستون مركبة حربية – دام ثلاثة أعوام ، وهزمت فيها البندقية ووقع ماركو بولو فى أسر الجنوية باعتباره كان محاربا فى صفوف قوات بلاده . وكانت فترة الأسر بالنسبة للأخير فرصة سانحة ليحكى لزميله فى الزنزانة ستجيبلو (وهو مواطن بيزى) رحلاته ومشاهداته ومغامراته فى الشرق . وقام الأخير بتدوينها بأسلوب جذاب حيث استنسخت مخطوطاتها من هذه النسخة [٧٠]. ولهذا فان للجنوية فضل غير مباشر على ماركوبولو من ناحيتين ، الأولى : إجبار والده وعمه على التوغل فى آسيا خوفا من القبض عليهما فى البحر الأسود وما ترتب على دخولهما الصين من نتائج على اصطحابهما لماركو هناك . والثانية : أن فترة وقوع ماركوبولو فى الأسر أتاحت له الصفاء الذهنى والوقت اللازمين لاملاء مذكراته عن رحلاته ومشاهداته فى آسيا .

ورغم أن معظم مدونات ماركوبولو تدور مشاهداته فى إقليم الصين ، إلا أنه سجل أيضا ما شاهده وعرفه عن إقليم الهند وجزر الملايو وايلخانية فارس ، وأرمينيا الصغرى التى مر بها أثناء رجوعه لبلاده فضلا عن تسجيله لما عرفه من معلومات عن عدن والبحر الأحمر وأثيوبيا والملاحة فى المحيط الهندى (باعتباره كان ربانا للسفينة التى أقلته مع رفاق الرحلة من الصين إلى الهند إلى هرمز فى طريق العودة) . وقد سجل بعقلية التاجر البندقى كل ما يهم التجار معرفته عن الطرق التجارية وصناعة السفن وحركة الموانى والأسواق ، وأنواع المتاجر . وتحدث طويلا عن التوابل والجواهر واللآلئ ، والحرير فى جنوب آسيا وشرقها . ولهذا فانه عندما رجع لبلاده وروى مشاهداته لزملائه البنادقة الذين كانوا يشترون هذه المنتجات من الاسكندرية بأضعاف أثمانها فى مناطق انتاجها فانه أثار فيهم شهوة التاجر للربح الوفير وارتياد الصعاب فضلاً عن أن الثروة التى رجع بها ماركوبولو لبلاده [٧١] قد أغرت العشرات من البنادقة لمحاولة محاكاة تجربته . ولهذا الأمر شهدت السنوات الأولى من القرن الرابع عشر وفود التجار البنادقة لأسواق ايلخانية فارس (مع عدم إغفال أن تضيق البابوية لفرص التجارة مع المماليك بعد عام ١٢٩١م كان دافعاً أيضا للبنادقة لارتياد أسواق المغول) . كما كان لانتشار

مذكرات ماركوبولو فى المدن التجارية بغرب أوروبا عامة والمدن الساحلية فى شبه الجزيرة الإيبيرية خاصة تأثيره المباشر على حركة الكشوف الجغرافية للمغامرين الذين أسالت لعابهم أوصاف ماركوبولو للهند والصين على أنها أرض التوابل والجواهر(٧٢).

ومن الواضح أن الظروف التى أجبرت الأخوين بولو على التوغل فى داخل آسيا عام ١٢٦١م بدلا من الرجوع للبندقية هى نفسها التى أجبرت التاجر البندقى بيتروفيجليونو Pie-tro Viglioni على الاتجاه إلى تبريز حيث مات بها عام ١٢٦٤م . وقبيل وفاته كتب بيترو وصيته لنائب البنادقة فى عكا وذلك لعدم وجود أحد من زملائه البنادقة فى ذات المدينة فى ذلك الوقت . وقد كان بيترو وكيلا عن شركة تجارية تضم والده وعدة أعضاء للتجارة فى الأقمشة الأوروبية فى آسيا(٧٣) .

وبعد وفاته حضر إلى تبريز مجموعة من التجار البنادقة واستقروا بها . وكان من بينهم جياكوموفا سيللو Giacomo Vassallo الذى كان عضوا فى إحدى سفارات أبغا خان للغرب الأوربى . والخطاب الذى وجهه البابا نيقولا الرابع برفقة رابان صاوما إلى تسعة من اللاتين فى تبريز – لتوصيتهم بنشر المسيحية وأن يكونوا قدوة للمتعاملين معهم – كان يتضمن ثلاثة أسماء لتجارة بنادقة . وفى بداية القرن الرابع عشر انتشر البنادقة فى مدينة السلطانية وفى ميناء هرمز أيضا ، وفى فترة الحصار الاقتصادى على مصر ركز البنادقة وجودهم التجارى فى ايلخانية فارس عامة وفى مدينة تبريز خاصة .

وكان لتطور حركة التجارة للبنادقة فى أسواق ايلخانية فارس دوره الفعال فى إرسال البندقية للعديد من السفارات لحكام الايلخانية فى أعوام ١٣٠٥ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ وأيضا فى عام ١٣٤٢ م . وكان إرسال هذه السفارات المتتالية يرجع لسوء النظام بين أفراد الجالية البندقية هناك ، ولبعض المثالب التى أرتكبها بعضهم سواء بالاستدانة من التجار المحليين أو بعدم سداد ما عليهم من ديون أو ارتكاب أخطاء يستحقون عليها العقوبة ، وأيضا للاحتجاج على حكام الايلخانية لتعرض التجار البنادقة أو ممتلكاتهم للعنف أو السرقة أو المصادرة من جانب رعايا الخان أو قواده أو من جانب بعض حكام المغول أنفسهم (٧٤). كما سنرى فيما بعد .

ومن الواضح أن ايلخانات فارس منذ باكورة القرن الرابع عشر قد بدأوا يمنحون البنادقة امتيازات واسعة فى بلادهم على غرار الامتيازات الممنوحة للجنويين . وكان البنادقة قد حصلوا على امتيازات تجارية أيضا من آل باليولوجس فى منطقة البحر الأسود وذلك فى

محاولة من الأخيرين لكبح جماح الجنوية حتي لايتكرر منهم ما فعله البنادقة مع القسطنطينية فى عام ١٢٠٤م وقد منحهم حكام مغول روسيا أيضا بعض المناطق التجارية فى ميناءى كافا وتانا ومنهما وصل البنادقة إلى طرابيزون التى كانت المدخل الطبيعى إلى تبريز [٧٥].

والمهم أن أولجايتو خان (١٣٠٤-١٣١٦) الذى أرسل سفارة للغرب الأوربى عام ١٣٠٦م برئاسة توماس اوجى السينى Tomazo Ugi of Sienna قد كلف نفس السفارة بالمرور على البندقية وتسليمها رسالة منه مكتوبة إلى الدوج بشأن منح امتيازات للتجار البنادقة فى بلاده وقد حمل السفير أيضا رسالة من تاجر مسلم يدعى خواجه عبدالله إلى أحد تجار البنادقة ويدعى بيترو رودولفو Pietro Rudolfo يبرئه فيها من الديون التى كانت عليه له ويعده ألا ينتقم منه إذا ما رجع لتبريز . وقد وثق خواجه عبدالله هذه البراءة بتوقيع اثنين من الشهود : أحد البنادقة فى تبريز وشخص السفير [٧٦].

وفى عام ١٣١٩م أسس البنادقة قنصلية لهم فى طرابيزون . ووصل سفير البندقية إلى تبريز عام ١٣٢٠م ويدعى ميشيل دولفين Michel Dolphin فى محاولة لاسترجاع ثروة أحد البنادقة ويدعى فرانشسكودى كانالى Franceso de Canale الذى مات فى منطقة أرزنجان بجورجيا الصغرى واستولى عليها تاجرا اسمه بدر الدين لولو من رعايا الخان المغولى : أبو سعيد .

وقد نتج عن مفاوضات سفير البندقية مع أبو سعيد منح البنادقة امتيازات واسعة بموجب معاهدة وقع عليها دولفين وأبو سعيد فى ٢٢ ديسمبر عام ١٣٢٠م [٧٧].

واتفق الطرفان بموجب هذه الامتيازات على «ألا يقع أى أذى أو عنف على أي بندقى أو أى من حاشيته أو خدمه ، ويجب ألا يفرض عليهم أية ضرائب أو يجبى منهم أية رسوم أو جمارك أو خلافه عدا تلك المعمول بها قديما ». «وكذلك تمتع التجار البنادقة بالحماية والرعاية الكاملة من قبل الخان وقواده ورعاياه فى جميع أنحاء الايلخانية . وأيضا حريتهم الكاملة فى البيع والشراء واختيار معاونيهم وعرض تجارتهم واختيار أسواقهم والمنتجات التى تروق لهم دون ضغط من أحد . وفضلا عن ذلك كفالة حق البنادقة فى أن ترعى دواب قوافلهم ثلاثة أيام فى المحطات التجارية لأى مكان فى الايلخانية . وأكدت الامتيازات الممنوحة من أبى سعيد على عدم التدخل فى شئون البنادقة أو فى الخلافات التى تحدث بينهم وبين بقية «الفرنجة» فى الايلخانية ، وعلى أن القنصل البندقى فى تبريز من مسئولياته إقرار العدل بين

البنادقة أو بينهم وبين اللاتين طبقا لقوانينهم الخاصة . وأكدت المادة العاشرة فى هذه الاتفاقية على أن محاكمة البنادقة قد تكون أمام القاضى الأعلى (أى قاضى القضاة) فى الايلخانية دون أحد سواه .

ونصت هذه الامتيازات كذلك على عدم مصادرة تركة الميت (من البنادقة) بل يفوض القنصل فى التصرف فيها طبقا لوصية المتوفى . وأيضا حرية البنادقة فى جلب الخمور لأماكن إقامتهم ، وكذلك على المسئولية الفردية لكل تاجر عن الديون أو الأخطاء الشخصية ، وعلى تعويض البنادقة عن أية خسائر أو أضرار تلحق بتجارتهم .

وإن النظرة الفاحصة لنصوص الامتيازات التى منحها الايلخان المغولى للبنادقة عام ١٣٢٠م - ومقارنتها بمثيلاتها التى منحها السلطان الناصر محمد بن قلاوون للبنادقة أيضا فى بلاده عام ١٣٠٢م (٧٨). تجعلنا نخرج بعدة ملاحظات جديرة بالتسجيل منها :-

أولا : أن نصوص معاهدة البندقية مع المصريين جاءت أكثر شمولا ووضوحا من مثيلاتها مع مغول فارس وهذا يرجع لأنها لم تكن الأولى من نوعها (ولم تكن الأخيرة أيضا) وكانت ناتجة عن احتكاك ومعاملات بين الطرفين ترجع لعدة قرون من الزمان وكان لهذا أثره فى تطور بنود وصيغة هذه المعاهدة . أما مطالب البنادقة من ايلخانات المغول - كما تشهد بذلك نصوص هذه الامتيازات - فكان محورها تأمينهم وممتلكاتهم من اعتداءات الخان وقواده ورعاياه .

ثانيا : أن معاهدة البنادقة مع المغول تحدثت عرضا عن أشخاص لازمين لخدمة التجار وهم المترجمون والخدم ورعاة دواب النقل والمرشدون والسماسرة دون أى تحديد لالتزاماتهم وحقوقهم. ولكن المعاهدات المصرية معهم توضح هذه المسائل بدقة وتبين كذلك أجورهم ومسئوليتهم قبل الحكومة المصرية بل واشترطت مصر على البنادقة تعيين كاتب مسيحى (حتى يكون محل ثقة اللاتين) ليسجل أعمالهم وحساباتهم .

ثالثا : إن معاهدة البنادقة مع مغول فارس نصت على حريتهم فى التواجد فى جميع أنحاء «امبراطوريتهم» ولكن نصوص معاهدات المصريين معهم قصرت هذا الحق على الموانى فقط بل وقيدت إقامتهم ومكان بيعهم وتواجدهم فى بعض المناطق من الموانى فى بعض المعاهدات «مثل الجمرك - الديوان - الفندق» وهذا يرجع لعدم سماح المصريين للتجار الأجانب فى ارتياد البحر الأحمر لأسباب اقتصادية وأمنية كما سبق الإشارة آنفا .

رابعـا : أن معاهدات المصريين مع البنادقة (أعوام ١٢٥٤، ١٣٠٢ ، ١٣٥٥م على سبيل المثال) منحت التجار البنادقة - فضلا عن نفس الحقوق التى منحها لهم الخان المغولى فى بلاده الحق فى ملكية فنادق ومخازن وحمامات وأفران خاصة بهم ، وأيضا إعفاءً شخصيا لقنصل البنادقة بالاسكندرية من رسوم وجمارك فى حدود الف بيزانت سنويا ، وذلك لتشجيعه على البقاء فى الأسكندرية . وكذلك إعفاء التجار البنادقة من الرسوم والضرائب على ما يحملونه من الذهب والفضة(٧٩) واللآلئ والأحجار الكريمة والفراء . وحددت هذه المعاهدة رسوم الجمارك ورسم النقل بصورة واضحة لا لبس فيها ولاغموض. ولكن نصوص معاهدة أبو سعيد معهم لم تشر من قريب أو بعيد لهذه الأمور ولم تتعرض كلية لرسم الجمارك ويبدو أن هذه المسائل تركت للعلاقات الشخصية بين البنادقة وحكام المغول وهى مسائل كانت تختلف من حاكم لآخر حسب الظروف السياسية والاقتصادية والأمنية المحيطة به وفى هذه الحالة تكون قابلة دوما للمد أو الإلغاء أو الانتقاص . وهذا يفسر حرص البنادقة الدائم على العلاقات الوطيدة مع المصريين ومحاولاتهم الدائبة فى كسر أوامر البابوية فى تحريم التجارة معهم بل والتعامل مع الموانى المصرية بطرق غير مباشرة فى فترة الحصار الاقتصادى عليها لأنهم كانوا يحصلون بموجب معاهداتهم مع المصريين على امتيازات تفوق تلك التى حصلوا عليها من ايلخانات فارس .

ثالثا : الجاليات الإيطالية الأخرى

لم يكن التجار الجنويين أو البنادقة وحدهم الذين تواجدوا فى أسواق ايلخانية فارس ، بل وجد أيضا عدد من تجار المدن الإيطالية الأخرى ولكن بأعداد قليلة . وبعضهم ذهب إلى تبريز بغرض التجارة والبعض الآخر اشتغل فى خدمة حكام المغول فى المجالات الحربية أو السياسية.

ففى نهاية القرن الثالث عشر كان ايسول البيزى Isol of Piza وزميله جيوفانى دى - بوناسترو Giovanni de Bonastro من الشخصيات التى قامت بأدوار هامة فى بلاط الخان المغولي ، كما أن ايسول بصفة خاصة كان سفيراً لغازان خان للقوى الصليبية فى البحر المتوسط وأرمينيا الصغرى . وقد ورد اسمه فى خطابات البابا نيقولا الرابع التى أرسلها للشخصيات اللاتينية التى كان لها دور قيادى فى العاصمة المغولية (٨٠).

وفضلا عن البيازنة كان هناك تجار من فلورنسا ومسينا قد حظوا بثقة حكام المغول ومنهم توماس أوجى السينى Tomas Ugi of Siena سفير اولجايتو لغرب أوربا عام ١٣٠٦م .

ويدل «الدليل» الذى كتبه التاجر الفلورنس بيجلوتى Pegolotti عن طريق التجارة إلى الصين[٨١] رغم أنه لم يسافر داخل آسيا - على أنه استقى معلوماته الدقيقة جدا من تجار من أبناء وطنه قد رجعوا لتوهم من وسط آسيا وشرقها فى عام ١٣٣٠م تقريبا وهو يسجل أسماء كل المحطات التجارية بين اياس وتبريز بدقة متناهية ويصف مقدار الرسوم التى يدفعها التاجر عن كل حمولة ، ورسوم النقل والحراسة والترجمة ويصل لتحديدها بـ ٢٠٣ أسبيرو Aspers (عملة بندقية صغيرة) عن كل حمولة من اياس إلى تبريز ، بل ويعدد السلع الشرقية التى يجدها التجار الإيطاليون فى موانى البحر الأسود ورسوم كل سلعة وأسعارها والمكاييل والموازين ، والأشياء الضرورية التى يجب على كل تاجر أن يأخذها معه وغير ذلك من معلومات دقيقة جدا[٨٢] تدل على أنه أخذها من العديد من تجار بنى وطنه لأنه من غير المتصور أن التجار الجنوية أو منافسيهم البنادقة يبيحون بأسرارهم لتاجر فلورنسى .

وقد عثر - حديثا - على وثيقتين عبارة عن تفويضين كتبا فى مدينة تبريز فى ١٣٢٨م ، ١٣٣٢م يحملان توقيعات تاجر جنوى وثان بيزى وأربعة من الشهود من تجار مدينة بياكنزا الإيطالية Piacenza . ومع ذلك فان عدد التجار الأجانب- عدا الجنوية والبنادقة لم يكن كبيرا ، وتحمل وثيقة للرهبان الفرنسسكان عام ١٣٣٣- حول الرهبان المنشقين (أو الهراطقة)- أسماء تاجر بياكنزى ، وثان بيزى ، وثالث من ميلان ، ورابع من مدينة استى Asti واثنين من البنادقة وخمسة من الجنوية ، ولكن بيجلوتى يقارن فقط فى كتابه - بين مكاييل الجنوية والبنادقة وأوزانهم فى تبريز [٨٣]، وهذا دليل آخر على أن تجار المدن الإيطالية الأخرى كانوا أقليات معدودة ومحدودة الأثر . أما مواطنى قطالونيا ومرسيليا وانجلترا فاقتصر وجودهم المؤقت فى الايلخانية على توصيل رسائل من حكام بلادهم إلى قادة المغول ولم يقوموا بأى دور تجارى يستحق الذكر [٨٤]. اللهم إلا شراء بعض البضائع الشرقية من تبريز أو السلطانية فى طريق عودتهم لبلادهم أو حصولهم عليها من قادة المغول كنوع من الهدايا الشخصية لهم .

التجار الإيطاليون فى الهند والصين :-

كانت مدينة تبريز نقطة انطلاق لكثير من التجار الإيطاليين- ومعظمهم من الجنوية - إلى الهند . وكان منهم بنديتو فيفالدى Benedetto Vivaldi وستانكونى Stancone المشار إليهما سابقا . وهناك وثائق بندقية تكشف اللثام عن أن شركة تجارية تأسست عام ١٣٣٨م للتجارة فى الهند ، وأن ستة من التجار البنادقة سافروا إلى دلهى وباعوا منتجاتهم للسلطان

محمد ابن طغلق [٨٥]. وفى عام ١٣٤٣م حضر تاجر جنوى ويدعى توماس جنتلى Tomaso Gentile إلى هرمز بغرض الإبحار إلى الصين ولكنه قرر الرجوع ثانية لبلاده . وكان يوجد أيضا بعض التجار البيازنة الذين ذهبوا للهند فى النصف الأول من القرن الرابع عشر . واستقر بعض التجار الإيطاليين فى الهند فترة طويلة [٨٦]. ولكن لأن هؤلاء التجار لم يتركوا مدوناتهم ولم توضح عقود التجارة معهم جهة مقصدهم - خشية المنافسة - فلا توجد معلومات تفصيلية عن طبيعة أنشطتهم فى الهند أو جنوب آسيا عموما .

ولابد أن التجار الجنوية الذين أرادوا بناء أسطولهم فى الخليج العربى عام ١٢٩٠م قد انتشر رهط منهم على السواحل الهندية بعد فشل هذه المحاولة . وينقل عن الأسقف الفرنسى الدومنيكانى فى وليم آدم قوله عام ١٣١٧م : «أن الجنوية لهم سفنهم فى المحيط الهندى» . ويحاول الياهو اشتور Eliyahu Ashtor تأييد هذا القول بالاستناد لعبارة للبحار العربى ابن ماجد الذى كتب عام ١٤٦٢ وردت عرضا فى كتاباته عن «الفرنجة» [٨٧].

ولكن لم يثبت بأى دليل وثائقى أو أثرى أن الجنوية أو غيرهم من الأوروبيين قد نجحوا فى إنزال أو صنع سفن لهم فى المحيط الهندى قبل حضور فاسكو داجاما للمنطقة . وهناك عدة أدلة تدعم هذا الرأى :

أولا : أن مكمل حولية ابن العبرى الذى أورد رواية بناء «الفرنجة» لسفينتين فى نهر دجلة عند بغداد وحاولوا الوصول بها إلى البصرة أوضح أنهم لم يصلوا لهدفهم لاختلافهم فيما بينهم [٨٨].

ثانيا : إن ابن بطوطة الذى زار منطقة المحيط الهندى جيئة وذهابا أكثر من مرة فى الثلث الأول للقرن الرابع عشر وصف سفنها وموانيها واستقر بها عدة سنوات (بعد رواية وليم آدم) ، لم يشر من قريب أو بعيد أن للجنوية أساطيل فى المحيط الهندى .

ثالثا : أن عبارة ابن ماجد التى اقتبسها اشتور للدلالة على النتائج التى وصل إليها لاتدل على ذلك.

رابعا : أن الراهب الفرنسسكانى جوردان السيفيرى Jordanus of Severac الذى تواجد فى منطقة تانا الهندية عدة سنوات قد أرسل خطابين من هناك لزملائه الرهبان فى ايلخانية فارس ، وفى خطابه الثانى المؤرخ فى يناير عام ١٣٢٣م قال لزملائه ما ترجمته « لو أن السيد البابا Lord Pope ينشئ مركبين فى هذا البحر (يقصد المحيط الهندى) ماذا يكون المكسب لنا وماذا ستكون الخسارة لسلطان الاسكندرية من جراء

ذلك ؟ ومن سيبلغ هذا الأمر لقداسة البابا ؟ » [٨٩]، وهذا يعنى باختصار أن هذا الراهب قد تنبه للأهمية الاستراتيجية لتجارة المحيط الهندى بالنسبة للمماليك ، وأرسل لزملائه الرهبان يأمل منهم إبلاغ البابا بالتفكير فى بناء مركبتين فى هذا المحيط لإلحاق « الخسارة والدمار بسلطان الاسكندرية » وهذا الخطاب كتب عام ١٣٢٣م أى بعد ستة أعوام فقط من رواية وليم آدم التى استند إليها آشتور . ونؤكد أنه كان يوجد العديد من التجار الإيطاليين الذين قابلهم الراهب جوردان بالهند، فإذا كانت هناك سفن جنوية بالمحيط الهندى بالفعل فلماذا لم يشر إليها الراهب ، ولماذا يبعث بهذه الأمانى للبابا فى روما ؟ [٩٠].

وقد سافرت مجموعة من التجار الإيطاليين إلى الصين أيضا من تبريز عبر الهند (مثل التاجر الجنوى بيتو لوكالونجو الذى اصطحب الراهب الفرنسسكانى جون مونت كورفينو فى رحلته للصين عام ١٢٩١). أو عن طريق تانا (سراى - استراخان - بخارى - كاشغر - هضبة بامير - غزنة ثم إلى الهند ومنها إلى الصين أو من هضبة بامير إلى الطريق الشرقى الذى استخدمه الأخوين بولو فى أول مرة يدخلان فيها الصين) .

وقد أوضح بيجلوتى فى كتابه «الطريق من تانا Tana (على البحر الأسود) إلى كا ثاى (أى الصين) آمن تماما سواء بالنهار أو بالليل طبقا لما قال به التجار الذين استخدموه » . وأشار إلى أن التاجر الذى يموت بالطريق تؤول تركته لحاكم المنطقة التى يموت فيها وهذا يحدث أيضا فى الصين طبقا لرواية ماركوبولو . ولكن بيجلوتى أكد أنه فى حالة وجود ابن أو شقيق للمتوفى فان الحاكم يسلمه ثروة والده أو شقيقه . ويشير إلى أن فترة من الفوضى على الطريق البرى من البحر الأسود للصين تعقب وفاة الحاكم ولكنها تنتهى بمجرد تعيين حاكم آخر بامكانه نشر الأمن والاستقرار على ربوع الطرق . ويوصى زملاءه «الفرنجة» بأن يكونوا جماعات فى حدود ستين تاجرا فى قافلة واحدة حتى يرهبوا قطاع الطرق وبالأخص فى المنطقة من ميناء تانا حتى مدينة سراى . وينصح بيجلوتى التجار بأن يصطحبوا معهم تراجمة أكفاء - مهما غلا ثمنهم - يجيدون اللغات المحلية للمنطقة ، وأن يأخذوا معهم الخدم والدواب اللازمة وكذلك الخبز الجاف والسمك المملح . ويبلغهم أنه بامكانهم قطع المسافة من تانا حتى بكين فى حوالى ستة شهور[٩١] .

ومهما يكن من أمر فان جالية إيطالية قد وجدت فى الصين وتركزت فى مدينة الزيتون حيث أكبر ميناء تجارى فى آسيا قاطبة بشهادة ماركوبولو وابن بطوطة . وكانوا من الجنوية

والفلورنسيين والبنادقة أيضا . وقد حملوا معهم الملابس الفرنسية والمنسوجات . واشتروا الحرير الصينى المشهور . وكان معظم الحرير الصينى الذى بيع فى أسواق فرنسا وإيطاليا فى النصف الثانى للقرن الثالث عشر من أسواق أرمينيا الصغرى وتبريز وموانى البحر الأسود. ولكن فى بداية القرن الرابع عشر فان جزءاً من الحرير الصينى قد تم شراؤه مباشرة من أسواق الصين بواسطة التجار الأوربيين حيث توجد أدلة أثرية على أن شركة فرسكوبالدى Fres-cobaldi الفلورنسية قد باعت الحرير الصينى فى أسواق لندن عام ١٣٠٤م(٩٢). وبطبيعة الحال لم يكن الحرير وحده هو ما نقله الإيطاليون من الصين بل نقلوا أيضا ما غلا ثمنه فى أوروبا وخف حمله من الصين من لآلئ وأحجار كريمة وغير ذلك من منتجات شرقية .

ومن الواضح أن الجالية التجارية الإيطالية التى كان لها فنادقها هناك قد استمرت بعد منتصف القرن الرابع عشر . ونعرف أن التاجر الجنوى أندالودو سافينون Andalodo Sa-vignone قد أصطحب سفارة الخان المغولى فى بكين عام ١٣٣٨ إلى أوروبا . وقد أشار الراهب الفرنسسكانى جون مارجنولى John Marignolli الذى كان متواجدافى الصين عام ١٣٤٧- لوجود فندق وحمام بمدينة الزيتون لخدمة كل التجار اللاتين هناك (٩٣).

ولكن من المؤكد أن مخاطر الطرق الطويلة بين مراكز التجار الإيطاليين على البحر الأسود أو فى ميناء اياس الأرمنى على البحر المتوسط وبين أسواق الهند أو الصين (سواء اتخذوا الطريق البرى فى وسط آسيا أو الطريق البحرى فى المحيط الهندى عبر ايلخانية فارس) قد جعلت أسعار المنتجات التى يحملونها منها عالية جدا ، فضلا عن وفاة الكثير من التجار الذين ارتادوا هذه المناطق لأن كثيرا من أخبارهم عرفت من خلال المراسلات التى كتبها زملاؤهم الباقون على قيد الحياة بعدهم لنعيهم لذويهم أو لدائنيهم ، فضلا عن أنه كان من الصعب نقل كميات كبيرة من التوابل والعقاقير الطبية على ظهور الدواب آلاف الأميال داخل آسيا والوصول بها صالحة للاستهلاك الآدمى ، بل أن الحرير الصينى كان أقل ثمنا وجودة من الحرير المنتج فى آسيا الصغرى والمتداول في تبريز وموانى البحر الأسود (٩٤). ولهذا كان عدد المغامرين الذين انساحوا فى الهند أو الصين محدودا ولم يؤثروا كثيرا فى نقل سلع الشرق الأسيوى للغرب الأوربى . ومن ثم تركز أغلب التجار الإيطاليين فى تبريز والسلطانية وبغداد واياس وطرابيزون للتعامل فى السلع الشرقية التى يحملها لهم التجار المسلمون الذين امتلكوا السفن والأموال اللازمة ، وخبرة عدة قرون مضت فى نقل منتجات الصين والهند وجزر الملايو لأسواق الخليج العربى ولمنطقة البحر الأحمر أيضا (٩٥).

سبقت الإشارة إلى أن البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢م) أصدر قرارا بتحريم التجارة مع المماليك عام ١٢٩١بهدف إضعاف الاقتصاد المصرى ولتيسير إعادة غزو الأراضى المقدسة. وكان من أثر ذلك ازدياد انتشار التجار الإيطاليين فى الأسواق الآسيوية لتعويض خسائرهم الناجمة عن وقف التعامل مع الموانى المصرية .

ولكن نجحت المدن التجارية الأوربية فى الحصول على موافقة البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٥-١٣٠٣م) باعادة المتاجرة مع المماليك فى غير البضائع التى من شأنها تقوية العسكرية المملوكية مثل الخشب والقار والحديد والرقيق . ومن ثم عقد البنادقة معاهدة مع الناصر محمد بن قلاوون عام ١٣٠٢م استعادوا بموجبها الامتيازات التى كانت ممنوحة لتجارهم من قبل . ولكن حدث أن سفينة جنوية جاءت للاسكندرية محملة بالرقيق ، وثار قنصل البنادقة بالاسكندرية على هذا الأمر وكان جزاؤه الطرد من الاسكندرية [٩٦]. وثار الاسبتارية- فى قبرص ورودس - الذين عهد لهم البابا بمراقبة الأساطيل التجارية التى تتعامل مع الموانى المصرية ، وطالبوا البابوية بتحريم التجارة كلية مع المصريين .

والحقيقة أن البابوية واجهت ضغوطا واسعة من قبل رجال الدين والعلمانيين على حد سواء لإصدار قرارات كنسية لمنع التعامل مع المصريين . خاصة وأن البابوية منذ عام ١٣٠٥ انتقلت لمدينة أفينون الفرنسية ووافقت - مرغمة - للملك الفرنسى فيليب الرابع على مصادرة أملاك الداوية واعتقالهم . ولهذا كانت الكنيسة الكاثوليكية مضطرة - لإنقاذ ماء الوجه والهيبة أمام اللاتين - لاتخاذ موقف أكثر تشددا مع الموانى المصرية ، كما أن العديد من مشروعات دعاة إحياء الحملات الصليبية التى بدأت تنتشر فى أوروبا قد طلبت البابوية بهذا الأمر . ويكفى هنا الإشارة بايجاز لأشهر هؤلاء الدعاة وهو مارينو سانودو Marino Sanudo (١٢٧٠-١٣٤٣م) [٩٧].

وكان مشروع سانودو لاستعادة الأراضى المقدسة لحوزة اللاتين يقوم على فرض حصار اقتصادى كامل على موانى المماليك . وقطع التجار الأوروبيين المتعاملين معها من رحمة الكنيسة ، وإنشاء أسطول بحرى تابع للبابوية لمراقبة الخارجين على أوامرها فى هذا الشأن ، واقترح ضرورة احتلال مصر أولا للانقضاض منها على فلسطين . وشرح سانودو فى مذكراته كيف أن الغرب الأوربى يستطيع أن يحصل على احتياجاته من القطن والسكر والمنتجات

الحريرية والتوابل والبضائع الهندية دون الاعتماد على سلطان القاهرة كوسيط بين الشرق والغرب وذلك بالاعتماد على الطريق المار بايلخانية فارس ، حيث أن المغول حلفاء طبيعيون للغرب المسيحى ضد المسلمين . وقرر سانودو أن مرور هذه البضائع عبر أراضى سلطان القاهرة من شأنه تقوية اقتصاده فضلا عن قيام بعض «الشعوب المسيحية الحمقاء» بامداده باحتياجاته من العبيد والخشب والحديد . بل وذهب فى تصوراته أبعد من ذلك باقتراحه زراعة المنتجات المصرية التى تحتاجها الأسواق الأوربية فى بيئات أوروبية (أو أسيوية صديقة) مماثلة فى الظروف الجغرافية مثل قبرص وردوس وكريت وصقلية ومالطة وأرمينيا الصغرى . وأكد سانودو فى نهاية مشروعه على أهمية تحويل طريق التجارة من يد المسلمين إلى طريق المغول المار بهرمز وبغداد وتبريز لتكون هذه البضائع فى يد البنادقة وحدهم (موطنه الأصلى) . وأكد أيضا على ضرورة إنشاء أسطول مسيحى فى المحيط الهندى للسيطرة على هذا البحر وإخضاع سواحله وجزره للسيطرة الأوربية [٩٨].

والمهم أن البابا فور تلقيه مشروع سانودو هذا فى سبتمبر عام ١٣٢١م قد شكل لجنه لدراسته وتقديم تقرير عنه [٩٩]. ويبدو أن المجتمعين قرروا الأخذ بالاقتراح العملى القابل للتنفيذ - والذى لايحتاج لامكانيات مادية أو بشرية فى غير متناول البابوية حينئذ وهو اصدار قرارات كنسية لتحريم التجارة كلية مع المماليك . وبالفعل أرسل البابا حنا الثانى والعشرين فى سنة ١٣٢٢م إلى دوج البندقية قرارا بذلك تم إعلانه ونشره فى جميع الموانى الأوروبية . واضطرت البندقية فى ١٨ يناير سنة ١٣٢٣م إلى اصدار مرسوم حرمت فيه على رعاياها المتاجرة فى جميع السلع مع مصر والبلاد التى تخضع لسلطانها [١٠٠] وحذت حذوها بقية المدن التجارية الأوربية .

ويتزعم ريموند لويز Raymand Lopez والياهو أشتور E. Ashtor وفردريك لان Frederic Lane الرأى القائل بأن التجارة بين الأوروبيين والموانى المصرية فى الفترة من عام ١٣٢٣م حتى عام ١٣٤٥م كانت مقطوعة تماما . ويستندون فى ذلك لعدة مبررات من أهمها رسالة من السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٤٥م إلى دوج البندقية يخبره فيها بأنه منذ سنة ١٣٢٢م لم ير سفينة بندقية واحدة تدخل بلاده [١٠١] ولكن صبحى لبيب يؤكد استمرارية تعامل التجار الأوروبيين مع ميناء الاسكندرية فى تلك الفترة أيضا وإن كان ذلك بدرجة أقل مما سبقها وبطرق غير مباشرة أحيانا وملتوية أحيانا أخرى [١٠٢].

ومن المؤكد أن امتناع التجار الأوروبيين عن ارتياد موانى المماليك كليا أو جزئيا فى الربع الثانى للقرن الرابع عشر جعلهم يركزون نشاطهم فى ميناء اياس الأرمنى وفى موانى البحر الأسود وفى المراكز التجارية لايلخانية فارس . ويدل «دليل التجار» الذى ألفه التاجر الفلورنسى بيجلوتى عام ١٣٣٠م على الحاجة الماسة للحصول على منتجات الشرق الآسيوى من طرق أخرى بعيدة عن متناول المماليك .

ولكن التجار المسلمين فى منطقة الخليج العربى والبحر الأحمر لم يتركوا التجار الأوروبيين يهنأوون بهذه الفرصة الفريدة فنجد أن تاجرا مسلما كبيرا وهو «أبو المجد السلامى» يتردد بين إيران ومصر لتحقيق السلام بين البلدين ومنحه السلطان الناصر محمد بن قلاوون - بعد أن توصل إلى عقد معاهدة السلام الدائمة بين البلدين عام ١٣٢٠م - بعض الممتلكات والامتيازات وأهمها إعفاء تجارته من الضرائب أو من أكثرها [١٠٣]. وأتاح هذا للتجار المسلمين نقل البضائع الواردة من الخليج العربى إلى أسواق دمشق واياس بحرية كاملة (بعيدة عن الخوف من غارات متبادلة بين المغول والمماليك فى الشام) وكذلك نقل جزء من تجارة التوابل من جدة إلى الشام وأرمينيا الصغرى حيث يتسلمها من هناك التجار الإيطاليون ، لدرجة أنه فى عام ١٣٣٥م وجد ألفان من التجار المسلمين فى ميناء اياس الأرمنى . وبهذه الطريقة كان المماليك يحصلون على الرسوم عن التجارة المارة فى الشام أو المباعة فى أسواقه أو فى ميناء اللاذقية . فضلا عن أن حاكم أرمينيا الصغرى نفسه كان يدفع الجزية السنوية للمماليك . وعندما وجد الأخيرون أن ميناء اياس منافس قوى لميناء الاسكندرية ، أرسلوا تجريدة عسكرية دمرته على من فيه من التجار الأوروبيين عام ١٣٣٥م ، واستولت عليه عام ١٣٤٧م .

بداية النهاية للوجود اللاتينى فى أسواق المغول :

وفضلا عن ذلك فان أحوال التجار الإيطاليين فى ايلخانية فارس لم تكن على ما يرام ففى ٦ يونية عام ١٣٢٤م أرسل ماركومولين Marco Molin قنصل البنادقة فى تبريز رسالة مطولة إلى دوج البندقية يشرح فيها كيف أن معارك نشبت بين أربعة من البنادقة فى تبريز ، وأن واحدا منهم شكا مظلمته لوالدة الخان أبو سعيد والتى أرسلت بدورها العسس للقبض على البنادقة المعتدين وأوسعوهم ضربا ولم يطلقوا سراحهم إلا بعد دفع فدية كبيرة (وهذا مخالف لنصوص معاهدتهم مع أبو سعيد التى لم يمر عليها سوى ثلاثة أعوام ونصف العام) . ويشكو

القنصل البندقى من أن بعضا من رعاياه عليهم ديونا للتجار المحليين وأن «مدينة تبريز خطرة جدا لنا نحن البنادقة وأننا نواجه قلاقل كثيرة جدا هنا» [١٠٤].

وفى عامى ١٣٣٢ ، ١٣٣٥ وصلت وفود من ايلخانية فارس إلى البندقية للمطالبة بديون لهم عند بعض تجارها فى تبريز [١٠٥]. ونعرف أن أحد التجار المسلمين ويدعى حاجى سليمان الطابى كان له أربعة آلاف بيزانت عند أحد التجار البنادقة الذى ترك تبريز دون سدادهم ، فسمحت له السلطات المغولية بأن يحصل عن كل حمولة برفقة أى تاجر بندقى يدخل تبريز أو يخرج منها على مبلغ معين حتى يستوفى دينه [١٠٦]. ولهذا امتنع كثير من البنادقة عن ارتياد تبريز بعض الوقت لهذا السبب .

وبوفاة الخان أبو سعيد عام ١٣٣٥م دون وريث شرعى وانقسام الايلخانية إلى عدة مقاطعات بين عدد من الأمراء المتنازعين ، كل منهم لايتوقف عن محاربة الآخر ، ولايملكون السيطرة على مناطقهم ، أثرت الفوضى الناجمة عن ذلك فى إحداث الاضطرابات والقلاقل للتجار الأجانب ، ونظرا للاعتداءات على التجار فى تبريز فان جنوه أصدرت قرارا بتحريم ذهاب رعاياها إليها على الأقل منذ عام ١٣٤٣م .

وتشير وثيقة محاكمة التاجر الجنوى توماس جنتلى T . Gentile بواسطة «مكتب الحكماء الثمانية لشئون البحرية والبحر الأسود» أن هذا المجلس الجنوى قد أصدر حكما بالبراءة على هذا التاجر لأنه أثبت بالأدلة القاطعة أنه كان فى مدينة هرمز حين مرض وقام بتسليم بضاعته لأحد زملائه الجنويين الذى كان فى طريقه إلى الصين ، وأنه (أى جنتلى) لم يجد بدا عام ١٣٤٣ من المرور على مدينة تبريز (التى منع الجنوية من دخولها) بدون إرادته وليس بقصد التجارة[١٠٧].

وفى عام ١٣٤٤م أرسل السلطان أشرف حاكم تبريز سفارة إلى كل من جنوة والبندقية برسائل تلح على رؤسائهما فى حضور التجار لبلاده والوعد بتعويض التجار الذين أضيروا وأخبرهم كذلك أن الطريق من طرابيزون إلى تبريز قد أصبح أكثر أمانا عن ذى قبل ، وأنهم سوف يلقون معاملة حسنة ويدفعون ضرائب أقل مما كانوا يدفعونها فى عهد أبى سعيد . ويدل الرد الذى تسلمه السلطان أشرف من نائب البنادقة فى طرابيزون على التحفظ وعدم الثقة . فقد طلب من حاكم تبريز إرسال قافلة تجارية من لدنه إلى طرابيزون لمصاحبة قافلة البنادقة . ولم يفعل الأخير ذلك . وعندما غامر بعض التجار البنادقة فى السير بمفردهم فانهم تعرضوا

لقطاع الطرق الذين سلبوهم ما معهم . وبالتأكيد عاقب الخان اللصوص ووعد بأن يعوض البنادقة عن الأضرار ، ولكن هذا الحدث يدل على أن الإدعاء الصادر منه أن الطريق آمن تماما غير صحيح ولايؤخذ فى الاعتبار (١٠٨).

أما عن التجار الجنوية فانهم صدقوا إدعاءات طاغية تبريز وساروا إلى هناك حيث نهبوا وذبحوا وقدرت التجارة التى كانت معهم بمائتى ألف ليرة . ولهذا توقف الجنوية عن التجارة مع تبريز مثلما فعل البنادقة فى ذلك الوقف أيضا (١٠٩).

وكان طرد التجار الإيطاليين من موانى البحر الأسود عام ١٣٤٣م بسبب المعارك التى نشبت بين التجار البنادقة ورعايا المغول (وقتل البنادقة لأحد رعايا المغول وما نتج عن ذلك) عاملا حاسما فى منع الإيطاليين من التوغل داخل آسيا من ناحية الشمال (١١٠). ويتبقى لهم منفذ وحيد وهو ميناء اياس الأرمنى الذى استولى عليه المصريون عام ١٣٤٧م وبذلك يفقدون آخر ميناء أو معبر أو مدخل لهم للوصول إلى داخل قارة آسيا . ولهذه الأسباب فانهم كانوا قد واصلوا ضغوطهم على البابوية للسماح لهم بالتجارة مع المماليك . وأذعنت البابوية لذلك ومنحتهم تراخيص بذلك بدءا من عام ١٣٤٥م (١١١). ولهذا لم يعد التجار الإيطاليون بحاجة ملحة للمغامرة داخل آسيا التى لم تعد آمنة منذ ذلك الحين .

ولكن السلطان أويس خان (١٣٥٦-١٣٧٤م) حاكم العراق وتبريز أرسل خطابات للجنوية والبنادقة لاستدعائهم للحضور لبلاده . وقد حفظت أرشيفات البندقية رسالته المؤرخة فى مارس عام ١٣٧٠م لنائب البنادقة فى طرابيزون ، التى يبلغه فيها أنه يسره السماح للتجار البنادقة بالعودة لبلاده حيث أن الطرق أصبحت آمنة تماما بعد انتهاء فترة القلاقل التى تعرضت لها البلاد من قبل . ويبلغه أيضا أن التجار سوف يسعدهم الاستقرار فى تبريز وسوف يلاقون كل ترحيب ومودة فضلا عن تخفيضات من الرسوم والمكوس (١١٢). ولكن ما حدث فى عهد السلطان أشرف عام ١٣٤٤م تكرر أيضا مع التجار البنادقة الذين صدقوا إدعاءات الأخير بأمن الطريق (١١٣).

ويخبرنا السفير القشتالى كلافيخو - الذى زار تبريز عام ١٤٠٣م أن التجار الجنوية وصلوا فعلا تبريز فى عهد اويس خان . وخشية تعرضهم للاضطرابات وأحداث السلب والنهب التى كانت سمة العصر فى ذلك الوقت فى إيران والعراق ، فانهم اشتروا تلا فى شمال تبريز من السلطان أويس ولكن الأخير - بعد أن قبض الثمن - رفض السماح للجنوية أن يقوموا ببناء قلعة على هذا التل قائلا لهم « إنه ليس من عادة التجار أن يبنوا قلاعا فى هذا البلد».

وأنه يمكنهم أن يأخذوا تجارتهم ويرحلوا عن بلاده ، وعندما طالبوه باسترجاع ما دفعوه أخبرهم أنه يسمح لهم بأن ينقلوا هذا التل الذى اشتروه خارج بلاده (!!) وعندما جادلوه فى ذلك أمر بقطع رقـابهم (١١٤). وهذا هو آخر ذكر للتجار الأوربيين فى إيران أو العراق لأنه فى عام ١٣٨١م طلب البنادقة من حاكم طرابيزون البيزنطى أن يستدعى لهم تجار تبريز لبلاده حتى يقابلوهم هناك (١١٥)، ليشتروا منهم ما يحملونه من سلع هندية وصينية فضلا عن منتجات بلادهم .

وقد دمرت قوات تيمور لنك عام ١٣٩٥م المستعمرة البندقية فى مدينة تانا على بحر ازوف وذلك ضمن خطته لتدمير المراكز التجارية لمغول القبيلة الذهبية فى منطقة البحر الأسود . ولهذا السبب (وغيره) فان كلا من الجنوية والبنادقة لم يصدقوا الامتيازات التجارية التى منحها تيمور لنك لشارل السادس الفرنسى - وحاكم جنوه فى ذلك الوقت فى منطقة البحر الأسود بل ووقعا معاهدة تحالف مع الأتراك والبيزنطيين - بعد هزيمة الأتراك الثقيلة فى موقعة أنقرة فى ٢٨ يولية عام ١٤٠٢م - ضد تيمور لنك . وكان هذا الأمر عملا عدائيا ضد تيمور لنك وقضاءا مبرما على أية فرص جديدة لتجارتهما للتوغل داخل آسيا مرة ثانية (١١٦). وعموما أدى انتشار الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى وتوسعاتهم الجغرافية على حساب جيرانهم لإغلاق قارة آسيا أمام التجار الأوروبيين لفترة طويلة من الزمن (١١٧).

أسباب توقف التجار الإيطاليين عن ارتياد أسواق المغول منذ النصف الثانى للقرن الرابع عشر :

مما سبق يتضح أن التجار الإيطاليين توغلوا فى آسيا منذ بداية النصف الثانى للقرن الثالث عشر حينما كانت طرق التجارة ومراكزها آمنة فى عهد السيطرة المغولية . وازدادوا توافدا على منابع ومراكز التجارة بها من طرابيزون وتبريز والسلطانية وهرمز وقاليقوط والزيتون وبكين لتعويض مراكزهم التى فقدوها فى الشام بسقوط الموانى الصليبية فى أيدى المماليك فى الفترة من عام ١٢٦١ حتى ١٢٩١م . وللضغوط التى تعرض لها هؤلاء التجار للامتناع عن التعامل مع موانى المماليك فانهم انساحوا شرقا فى أسواق ايلخانية فارس حيث منحهم ايلخانات المغول امتيازات تجارية واسعة وأعطوهم الحرية الكاملة فى ارتياد كل بلادهم والأقاليم التى تخضع لنفوذهم . ولكن هذه الفرصة لم تستمر طويلا وسرعان ما انتهى الوجود الفعلى لهؤلاء التجار داخل آسيا فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى . وذلك لعدة أسباب من أبرزها :-

أولا : مقتل أحد رعايا المغول فى مدينة تانا على بحر أزوف مما حدا بالخان المغولى الروسى بالقبض على التجار البنادقة والجنوية وقتل من لم يستطع الهروب منهم ومصادرة وحرق متاجرهم فى هذه المدينة . وانتشرت الاعتداءات على مراكزهم فى مدينة كافا أيضا . وينقل الياهو أشتور عن حولية فلورنسية معاصرة أن خسائر البنادقة قدرت بثلاثمائة ألف فلورين (جنيه ذهبى) وثلاثمائة وخمسين ألف للجنوية . وأن ترك التجار الإيطاليين لموانى البحر الأسود - ولو مؤقتا - فى ذلك العام ترتب عليه زيادة فى أسعار التوابل من ٥٠-١٠٠٪ عن ذى قبل (١١٨). وهذا الحادث أجبر التجار الإيطاليين على تقديم التماسات عاجلة للبابوية للسماح لهم بالتجارة مع المماليك وكان لهم ما أرادوا .

ثانيا : انتهاء دولة الايلخانات فى فارس بوفاة أبو سعيد عام ١٣٣٥ دون وريث ، وانقسام الايلخانية بين عدد من الأمراء المتصارعين الذين نهبوا التجار وصادروا ثرواتهم أو لم يستطيعوا السيطرة على الطرق العامة كما حدث عامى ١٣٤٣ مع طاغية تبريز السلطان الأشرف و ١٣٧٠م مع اويس خان . ثم جاء تيمور لنك للمنطقة فى نهاية القرن الرابع عشر ودمر المراكز التجارية للإيطاليين على البحر الأسود ، فضلا عن تدميره العديد من المدن التجارية الهامة داخل آسيا ، ومنذ منتصف القرن الرابع عشر فصاعدا انتشر الأتراك العثمانيون فى آسيا الصغرى وأغلقوا طرق التجارة على الأجانب خاصة مع بداية القرن الخامس عشر الميلادى .

ثالثا : انتشار الطاعون (الوباء الأسود) فى بغداد وتبريز فى عام ١٣٤٧ والذى وصل من منطقة القوقاز مع التجار . وعند عودة التجار الإيطاليين إلى ميناء كافا عام ١٣٤٨م فانهم حملوا معهم هذا الوباء لبلادهم ومناطق أخرى فى حوض البحر المتوسط . وكان لهذا الوباء آثار اقتصادية واجتماعية مدمرة على كل دول العالم تقريبا . وعلى سبيل المثال كان عدد سكان فلورنسا ١١٠ ألف نسمة عام ١٣٣٨ م انخفض إلى ٤٥ ألف نسمة عام ١٣٥١م (١١٩). ومن المؤكد أن انتشار هذا الوباء أدى إلى قلة عدد التجار وخوفهم - هم والمستهلكين الأوروبيين أيضا - من معاودة انتشار هذا المرض ، ومن ثم أحجموا عن ارتياد أسواق آسيا أو موانيها الشمالية ثلاثة عقود من الزمان على الأقل.

رابعا : أن ميناء الاسكندرية كان أكبر منافس لجميع المراكز التجارية الأسيوية الأخرى سواء على البحر الأسود أو فى داخل آسيا ، خاصة وأن المماليك كانوا من وقت لآخر

يدمرون ميناء إياس الأرمنى حتى وجهوا له ضربة قاصمة عام ١٣٤٧م حتى يجبروا التجار الأوروبيين على ارتياد موانيهم . وفضلا عن بعد أسواق آسيا الداخلية عن مراكز الاستهلاك الأوربية ومخاطر الطرق وصعوبة النقل ، فان الأمن والأمان الذى تمتع به التجار الأوربيون فى الاسكندرية القريبة من أوطانهم جعلهم يتحايلون على قرارات البابوية فى حظر التجارة مع المماليك - بطرق عديدة . فضلا عن أن المماليك فى بداية النصف الثانى للقرن الرابع عشر قاموا بمنح التجار الأجانب امتيازات جديدة أهمها تخفيض الجمارك من ٢٠٪ إلى ١٠٪ ولهذه الأسباب مجتمعة ، فان المدن التجارية الأوربية بدأت ضغوطها على المؤسسات الكنسية لرفع الحظر عن التجارة مع المماليك . وكان البابا حنا الثانى والعشرين (ت ١٣٣٤) قد أعطى البنادقة وغيرهم تراخيص مدفوعة الأجر - بالمتاجرة مع المماليك - « شفقة على البندقية التى تعتمد على التجارة وحدها للحصول على قوتها اليومى» لمدة معينة فى غير السلع الحربية وبعد مقتل الجالية البندقية فى تانا عام ١٣٤٣م بعثت البندقية بسفيرين للبابا كليمنت السادس ليوضحا له مدى الخراب الذى ينتظر جمهوريتهم إذا لم يسمح لهم بالعودة إلى المتاجرة مع الأسواق المصرية والشامية . ومنح البابا البنادقة وغيرهم من المدن التجارية الأوربية تراخيص بذلك لمدة خمسة أعوام ولعدد معين من السفن كل عام وفى غير السلع الحربية (١٢٠). ومنذ عام ١٣٤٥م بدأت السفن تجوب الموانى المصرية وبدأت التصاريح البابوية تتسع للمزيد من السفن والأعوام والبضائع حسب المبالغ المدفوعة فى البلاط البابوى.

وهكذا لم يرجع التجار الإيطاليون للأسواق الداخلية فى قارة آسيا لأنهم - منذ عام ١٣٤٥م - كانوا يحصلون على كل المنتجات الآسيوية من ميناء الاسكندرية (منطقة جذب) دون أن يقطعوا آلاف الأميال داخل مجاهل آسيا التى لم تعد آمنة للتجارة (بل منطقة طرد) والتى أصبحت مخاطرها أكثر كثيرا من أرباحها غير المنظورة .

وهكذا انسدل الستار عن فصل من العلاقات التجارية بين المدن الإيطالية وآسيا الداخلية تحت النفوذ المغولى ليبدأ فصل جديد بعد ذلك من الصراع على الطرق التجارية الآسيوية ، ولكن هذه المرة ليس بين المماليك وتجار المدن الإيطالية ولكنه بين الأتراك العثمانيين والبرتغاليين .

الهوامش

1- Labib , Sobhi, "Medieval Islamic Martime Policy in the Indian Ocean Area "Recueils de la Societe Jean Bodin pour L`Histoire Comprative des Instituions , XXXII Premiere Partie . Bruxelle 1974 , p. 231 .

٢- ياروسلاف سيزار ، جوزيف فوزار « نقاط التلاقى والصراع بين أوربا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠-١٥م» ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف انظر للمترجم : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى . الاسكندرية ١٩٨٣ ص١٤٧ .

٣- رحلات ماركوبولو ، ص١٧٢ ، ١٨٧ .

٤- ابن بطوطة . رحلة ابن بطوطة - بيروت ، د .ت ص٦٣٢ .

٥- صبحى لبيب «سياسة مصر التجارية فى عصر الأيوبيين والمماليك » المجلة التاريخية المصرية المجلدين ٢٨ ، ٢٩ ، القاهرة ١٩٨١ - ١٩٨٢ ، ص١٢٨ .

6- Heyd , Wilhelm : Geschichte des Levante handels im Mittelalter 2 . Band . Stuttgart, 1879 , p. 119 .

٧- رحلات ماركوبولو ص٤٦ ، ٤٧ .

٨- كانت هناك معاهدة بينهم وبين التجار الجنوية يحصل بمقتضاها الأخيرون على نفس امتيازات البنادقة فى تلك العاصمة - فى الفترة من ١٢٠٤ حتى ١٢٦١ . وضواحيها ، وموانى البحر الأسود فى حالة مساعدتهم عسكريا لميخائيل باليولوجس فى طرد اللاتين والتجار البنادقة منها ، وحدث ما تم الاتفاق عليه.

9- Lane , Frederice : Venice : A Maritime Republic . John Hopkins University Press , Baltimore & London , 1973 , pp . 75-77 .

10- Ehrenkreutz , Andrew , "Strategic Implications of the Slave Trade Between Genoa Second Half of the Thirteenth Century" in A . L . and Mamluk Egypt in Udo Udovitch (ed) The Islamic Middle East , 700-1900 ' Studies in Economic and Social History . Princeton , 1981 , pp. 335 - 46 .

11- Lane : Venice A Maritime Republic , p. 130 .

12- Heyd , op . cit , pp . 133 , 134 .

١٣- عفاف سيد صبره : العلاقات بين الشرق والغرب : علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م . القاهرة ١٩٨٣ ، ص٨٧ ، ويقول صبحى لبيب أن المسيحيين المحليين أنفسهم - وإن لم يمنعوا من السفر فى البحر الأحمر أو فى بحر الحجاز - إلا أنهم قد حرموا قانونا من حق الإقامة فيه أو فى مناطق منه على الأقل وينقل عن ابن بطوطة قوله أن تجار نصارى الشام لم

يكونوا يتعدون قرية الفلا جنوبى تبوك جنوبا . انظر للمؤلف «التجار الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى » المجلة التاريخية المصرية مايو ١٩٥٢ ، ص١٣ .

١٤- صبحى لبيب : المرجع السابق ص٣٥ ، ٣٦ .

15- Ashtor , Eliyahu : Levant Trade in the Later Middle Ages. Princeton , 1983 , p. 57 .

وينقل محمد صالح القزاز (الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية ص٢٦٠ ، ٢٦١) عن المقريزى والعينى أن الخان أبو سعيد أمر بابطال جميع المكوس التى تجبى من التجار الواردين إلى بلاده عام ٧٢٠هـ / ١٣٢١م .

١٦- انظر الترجمة الكاملة لنصوص هذه المعاهدة : عفاف صبره : المرجع السابق ص٢٩١ - ٢٩٩ .

17- Ashtor , op . cit . p. 57 .

١٨- عفاف صبره : المرجع السابق ، ص٨٦ ، ٨٧ نقلا عن ابن واصل وأبو شامة .

١٩- ينقل أشتور عن ابن الوردى قوله أنه عندما أغارت قوات المماليك على ميناء اياس الأرمنى عام ١٣٣٥ م كان يوجد به ألفين من تجار بغداد المسلمين . وهذا يلقى الضوء على أن أعداد التجار الإيطاليين كانت ضيئلة ودورهم كان ثانويا فى حركة التجارة الداخلية أو الخارجية للايلخانية .

Cf . Ashtor , " Observations on Venetian Trade in the Levant in the XIV th Century , The Journal of European Economic History , vol . 5 , 1976 , p. 536 .

٢٠- استقى بتروشفسكى الاحصائية التالية من حمد الله القزوينى (نزهة القلوب) وهى توضح مقدار الضريبة (التغمة) على التجارة مقارنة بضريبة الخراج .

المدينة	ضريبة التمغة (على التجارة)	ضريبة الخراج
تبريز	٨٧٥٠٠٠ دينار	٢٧٥٠٠٠
بغداد	٨٠٠٠٠ دينار	غير معروف
شيراز	٤٥٠٠٠٠ دينار	غير معروف
واسط	٤٤٨٠٠٠ دينار	غير معروف
أصفهان	٣٥٠٠٠٠ دينار	٥٠٠٠٠٠
حمدان	١٠٥٠٠٠ دينار	١٣٦٠٠٠
مراغة	٠٧٠٠٠٠ دينار	١٨٥٠٠٠
قزوين	٠٥٥٠٠٠ دينار	٠٥٥٠٠٠
السلطانية	٣٠٠٠٠ دينار	غير معروف

Cf . Petrushuvky . I . P " The Socio - Economic Condition of Iran Under the Il - Khans " Combridge History of Iran vol V p. 508

21- The Travels of Friar Odoric of Pordenone . Cf. Cathay and the Way Thither , II , p. 10H.

٢٢- رحلات ماركوبولو ، ص٤٢ .

٢٣- رحلة ابن بطوطة ، ص٢٣٣ .

Cf . Heyd , op . cit . pp. 130-132 ; Howorth , A History of the Mongols, III , pp . 631-3.

٢٥- رحلات ماركوبولو ص١٤ .

26- Ashtor : Levant Trade , pp . 57 ,58 .

27- "Pegolotti`s Notices of the Land Routes to Cathay Ca . 1330-1340 " , in Cathay and the Way Thither . III , p. 154 .

28- Ashtor , op . cit ., p. 49 .

٢٩- عفاف صبره : المرجع السابق ص١٦٦ ، ١٦٧ .

30- Richard , Jean , " The Eastern Mediterranean and its Relations with its Hinterland (II th - 15th) Centuries " , in his , les Relations entre L` Orient et L' Occident au Moen Age. London , 1977 , I , p. 15 .

٣١- رحلات ماركوبولو ص٥٥ .

32- Clavijo , Ruy Ganralez ; Narrative of his Embassy to the Court of Ttimour at Samarcand A . D . 1403 - 6 . Trans. by C.R . Markbam . London , n . d . p. 14 .

٣٣- رحلات ماركوبولو ص٤٨ .

٣٤- المصدر السابق ، ص٤٩ .

٣٥- نفس المصدر ، ص٣٧ .

٣٦- نفسه ، ص٣٨ .

٣٧- المصدر السابق ، ص٤٢ .

38- Cf Narrative of his Embassy to the Court of Timour , p. 93 .

٣٩- رحلات ماركوبولو ص٣٤ .

٤٠- الخلنجان : من المواد كثيرة الاستعمال فى الطب وشجرته تعرف باسم خسر ودار ، وهو يرد من الهند ويستعمل فى الطب والطهى .

٤١- الزنجبيل : من أهم توابل العصور الوسطى - يدخل فى صناعة العقاقير الطبية والطهى وتحضير الخمور وحفظها . يزرع فى الهند والصين وسمرقند .

٤٢- العصفة الجوزية : ثمرة شجر يكون أحمر اللون عند نضجه فيجفف ويسحق وكان يستخدم فى الأضمده والصباغة .

٤٣- الزعفران : ويسمى الكركم يستخدم فى العلاج الطبى وفى الطهى والعطور وألوان الرسم .

٤٤- السنامكى : شجر طيب الرائحة له سنابل صغيرة يجلب من الهند .

٤٥- عفاف صبره : المرجع السابق ، ص١٦٩ ، ١٧١ ، وقد أورد بيجلوتى أسعار هذه المنتجات فى أسواق تانا وكافا ، وهذا يدل على أنها كانت من واردات التجار البنادقة والجنوية من أسواق آسيا الصغرى وفارس أيضا .

Cf . Pegolotti , op . cit ., pp . 164 - 8 .

46- Ashtor : Levant Trade , pp . 57 , 58 .

47- Kedar , Benjamin .. Merchants in Crisis : Cenoese and Venetian Men of Affairs and the Fourteenth Century Depression . Yule University Press , 1976 , p. 21 .

48- Lopez , R . S " European Merchants in the Medieval Indies : The Evidence of Commercial Documents ", in the Journal of Economic History , Vol . III , Nov 1943 , p. 166 .

٤٩- طبقا لمكمل حولية ابن العبرى السريانية ويقول الراهب الدومنيكانى وليم آدم أنهم من الجنوية .

Cf . Richard , Jean , "European Voyages" in Iran Journal of Persian Studies , VI , p. 49 .

٥٠- يقول ابن بطوطة (الرحلات ص٦٣٣) أن هذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد الصين والهند ولكنه اسم أطلق عليها . وأن مرساها من أعظم مراسى الدنيا بل هو أعظمها ورأى به نحو مائة جنك كبار أما الصغار فلا يحصي عدده .

51- Lopez, "European Merchants" op . cit., . p. 16 ; Richard, "European Voyages"p. 47.

٥٢- رحلات ماركوبولو ص٣٤ .

53- Geschichte des Levantehandels in Mittelalter , 2 . Band , pp. 112 . 113 ; also cf . Richard , " European Voyages " , p. 50 .

٥٤- عفاف صبره : علاقة البندقية بمصر والشام ، ص٩٨-٩٩ .

Ashtor , Levant Trade , pp . 17-25 .

٥٥- بدأت تحذيرات حكام أوربا من التجارة مع المسلمين منذ القرن الثامن الميلادى وعندما حمل البنادقة إلى الشرق الأقمشة والأخشاب والأسلحة . أصدر الامبراطور البيزنطى ليو الخامس (٨١٣- ٨٢م) مرسوما حذر فيه البنادقة من المتاجرة مع المسلمين فى مصر وبلاد الشام وقد

تكررت هذه التحذيرات فى مناسبات تجدد الصراع الأوربى - الإسلامى فى منطقة البحر المتوسط خاصة بعد قدوم الصليبيين واستقرارهم فى سواحل الشام . ففي عام ١١٧٩م أصدر البابا اسكندر الثالث قرار الحرمان ضد الأوروبيين الذين يقومون بتزويد المسلمين بالأسلحة والحديد والأخشاب التى تصلح لبناء السفن . وفى عام ١١٩٨ - أى بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى - أصدر البابا أنوسنت الثالث مرسوما منع بمقتضاه التجار الإيطاليين من المتاجرة مع المسلمين وهدد هذا البابا أيضا فى مجمع اللاتيران عام ١٢١٥م باصدار قرار الحرمان على كل من يخالف أوامره . وتكررت هذه التهديدات وتلك التحذيرات من خلفائه ومن القادة العلمانيين لغرب أوروبا رغبة فى نجاح الجهود الصليبية لكسر شوكة المسلمين ، ولكنها لم تجد آذانا صاغية من التجار - إلا لعدة شهور قلائل بعد إصدارها - وبعد ذلك تستمر الأمور على ما كانت عليه من قبل . عفاف صبره : المرجع السابق ، ص٨٢-٨٧ .

٥٦- كان انحراف البنادقة بالحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية أقوى دليل على صحة هذا الرأي .

٥٧- صبحى لبيب «سياسة مصر التجارية» ، ص١٢٦ .

٥٨- كانت الصيغة الشائعة للمشاركة Commenda أو كما هى معروفة فى البندقية Colleganza أسلوبا شائعا لشركات المساهمة الذى عرفته المدن الإيطالية فى ذلك القرن . وكانت بهدف القيام برحلة واحدة فقط ويشترك فيها المستثمرون أو أصحاب رأس المال وهؤلاء لهم ثلاثة أرباع المكسب والتجار الذين يغامرون بالترحال لهم ربع الأرباح نظير السفر والعمل . وصيغة الشركات المساهمة كانت تتيح للتاجر المسافر الحق والحرية فى اتخاذ القرارات المناسبة حسب الظروف التى يواجهها أثناء الرحلة . ولما كانت الرحلات التجارية داخل آسيا تحتاج لإمكانيات مادية كبيرة ليست فى مقدرة التاجر الواحد أو الفرد العادى فان معظم التجار البنادقة والجنوية كانوا إما من النبلاء أو أطراف فى شركات مساهمة فى الوطن الأم أو حصلوا على قروض بفائدة من أقاربهم . ولهذا فعندما يموت التاجر أثناء الرحلة فان زملاءه كانوا يرسلون تجارته أو نصيبه منها للوطن الأم لعرض الأمر على الدائنين أو الشركاء وكانت عقود المشاركة توثق قبل الخروج بالرحلة ولها نصوص معينة وعثر على كثير منها بأرشيفات المدن التجارية . للمزيد من التفاصيل :

Cf . Kedar : Merchants in Crisis , pp . 25 , 44 - 49 .

59- Cf " European Merchants in Medieval Indies , " op . cit . III , p. 168 .

60- Ibid , pp . 169 , 170 .

61- Beazley , R. : The Dawn od Modern Georgaphy , III , p. 414 .

62- Lopez "European Merchants" , op . cit . III, pp. 171 , 2 .

63- Petrushevsky , "The Socio - Economic Condition of Iran Under the Il - Khans" Cambridge History of Iran . vol . 5 , p. 511 .

٦٤-لمزيد من التفاصيل انظر : صبحى لبيب «الفندق : ظاهرة سياسية اقتصادية قانونية» في : مصر وعالم البحر المتوسط . إعداد وتقديم رءوف عباس . القاهرة ، ١٩٨٦، ص٢٨٧، ٣٠٥ .

65- Heyd , Geschichte des Levantehandels ; p. 131 .

٦٦- نشر روبرت لويز وارفنج ريموند مقتطفات من هذا القاموس بلغاته الثلاثة .

Cf - R . Lopez & I . Roymond (eds.) Medieval Trad in the Mediterranean World . Columbia University Press , 1969 , pp . 346-8 .

67- Martin , M.E. "The Venetian - Seljuk Treaty of 1220 , Notes and Documents " , English Historical Review , vol . XCV , 1980 pp. 321-330 .

68- Lane : Venice : A Maritime Republic , pp . 75-80 .

٦٩- ماركوبولو : الرحلات (صفحات متفرقة) Lane : Venice , pp . 80-85 ,

٧٠- رحلات ماركوبولو ص٥-٢٨ ؛ Lane , op . cit , pp . 80-85 .

٧١- قام المؤرخون مول ويول وبليو Moule , Yule & Pelliot وهم أعظم من ترجم مذكرات ماركوبولو وعلق عليها) بتقدير ثروته التى تركها عند وفاته - ومعظمها من رحلته بين المغول بأربعة عشر مليونا و٧٦٥ ألف جنيه استرليني انجليزى طبقا لمقارنة قيمة العملة البندقية بنظيرتها الإنجليزية وحساب فروق الأسعار فى بداية القرن العشرين وللتفاصيل انظر .

Hart , Henry H : Marco Polo : Venetian Adventurer . Oklahoma , 1967 , pp . 252 , 3

٧٢- قام ريموند بيزالى Raymond Beazley أستاذ الجغرافية التاريخية الأسبق بجامعة اكسفورد بدراسة تأثير مذكرات ماركوبولو على حركة الكشوف الجغرافية الحديثة وتوصل إلى أن التجار القطلانيين قد استفادوا أيما استفادة من الخرائط التى رسمها ماركوبولو للصين والهند وجزر الهند الشرقية وكذلك من وصفه الدقيق لمواقع هذه البلاد ، وأن الأمير بيدرو Pedro الشقيق الأكبر لهنرى الملاح قد حصل على نسخة من مذكرات ماركوبولو مرفقا بها خريطة الأخير للبلاد التى زارها كهدية من دوج البندقية وقد أفادت هذه المدونات هنرى الملاح فى تنمية طموحه ومغامراته البحرية لمحاولة الوصول للهند . وفضلا عن ذلك فانه تم العثور على نسخة لمذكرات ماركوبولو باللغة اللاتينية فى متحف كولمبس فى سيفيلا Seville بها مدونات وملاحظات بخط كولمبس (كريستوفر) نفسه على وصف ماركوبولو للصين واليابان وبلاد «البهارات» وأن الثروات التى وصفها الأخير قد أسالت لعاب كريستوفر ورفاقه (مثل سابقيهم) حتى ذهبوا لاكتشاف أمريكا معتقدين أن هذه هى جزر الهند التى وصفها ماركوبولو أو هذه هى مملكة الخان الأعظم. للمزيد من التفاصيل أنظر :

Cf Beazley : The Dawn of Modern Geography , III , pp . 14-21 , 14 0- 160 ; Henry Hart; Morco Polo : Venetian Adventurer . University of Oklahoma Press , 1967 , pp . 254-58 .

73- Heyd , op . cit ., II , pp . 124-126 ; Ashtor : Levant Trade , p. 58 .

74- Heyd , op . cit , II ., pp . 123-125 ; Howorth , History of the Mongols , III , pp . 629-33 ; Ashtor , Levant Trade , pp . 58-59 .

75- Lane : Venice : A Maritime Republic , pp . 128-129 .

76- Heyd , op . cit ., II , pp . 127 , 8 ; Howorth , op . cit ., pp . 631 , 2 .

77- "Pactum Cum Monsait , impratoreTurisn , per Michaellem Delphino, amboxatarem Ducis Venetiarum A..d . 1320 , die 22m . Decembris , " in G,M. Thomas(ed.) Diplomatarium Veneto- Levantinum , I , pp . 173 -176 .

وقد تفضلت على الدكتورة فيفيانا آمارى بجامعة باليرمو ترجمة نصوص هذه المعاهدة من اللغة الإيطالية (الدارجة) إلى اللغة الألمانية ، وقد قمت بترجمتها عن الألمانية إلى اللغة العربية .

Also cf. Mas Latrie ," Privilege Commercial accorde en 1320 a la Republique de Venise par un Roi de Perse " in Bibiliotheque de L`Ecole des Chartes . Paris , XXX , 1870 , pp . 72 -102 .

٧٨- نشرت الدكتور عفاف صبره (علاقة البندقية بمصر والشام فى فترة من ١١٠٠ - ١٤٠٠م) عن ماس لاتيرى الترجمة العربية الكاملة لنصوص مراسيم ومعاهدات الأيوبيين والمماليك مع البنادقة أعوام ١٢٣٨ ،١٢٤٤ ، ١٢٥٤ ، ١٣٠٢ ، ١٣٥٥ ، ص٢٦٩ - ٢٩٩ وقد اعتمدت عليها فى تحليلاتى عن امتيازات البنادقة فى الموانى المصرية .

٧٩- حددت معاهدة ١٣٥٥ م رسوم الذهب ٢٪ والفضة ٢٪ وأعفت اللآلئ ، والمرجان والفراء والأحجار الكريمة من الرسوم ولكن المعاهدات السابقة أعفت الذهب والفضة من كل الرسوم .

80- Beazley : Thy Dawn of Modern Geography , III , pp . 486 , 7 ; Ashtor Levant Trade, pp . 59 , 60 .

٨١- فرنشسكو بالدوشى بيجولوتى Francesco Balducci Pegolotti كان يعمل فى شركة باردى Bardii الفلورنسية التجارية وعمل فى انجلترا كوكيل لشركته منذ عام ١٣١٥م وانتقل بعد ذلك لتمثيل بلاده فى قبرص قنصلا فى الفترة من ١٣٢٤-١٣٢٧م . وفى عام ١٣٣٥ قام ملك أرمينيا الصغرى بمنح شركة بيجولوتى امتيازات تجارية واسعة فى بلاده . وقد ترجمت أجزاء هامة من كتابه فى :

Yule (ed . & trans.) Cathay and the Way Thither , III , " Pegolotti`s Notices of the

Land Routes to Cathay , " pp. 137-177 .

82- Loc . cit . ; Beazley , op . cit ., III , pp . 488 , 9 .

83- Ashtor , op . cit , pp . 59 , 60 .

84- For detailes , cf . Beazley , op . cit ., III , pp . 489 - 93

٨٥- هؤلاء التجار هم Baldovino , Paolo Loredano , Marco Solanzo . Morino, Contarini , Giovanni Vacca and Giovanni Loredano .

وقد وصلوا إلى الهند عن طريق مدينة غزنة أي الطريق الشمالي لآسيا ، وعند وصولهما إلى الهند منحهم سلطانها مائتي ألف بيزانت (تعادل ٧,٥٠٠ ليرة بندقية) ودفعوا منهم ١٠٪ للجمارك و١٪ للمسئول عن الجمرك ودفعوا أيضا ألف بيزانت لرجال البلاط وقاموا بشراء لآلئ بمبلغ ١٠٢ ألف بيزانت .ونعرف من الوثيقة التى تركوها لنا أنهم اقتسموا اللآلئ فى إحدى مدن البحر الأسود وأرسلوا تركة زميلهم المتوفى وهو Baldovino إلى ورثته بالبندقية عبر ميناء فاماجوستا القبرصي ، وأن أحدهم وهو ماركو سورانزو قد أرسل نصيبه من اللآلئ ليباع فى أسواق فرنسا .

Cf . Lopez , " European Merchants in the Medival Indies , " op . cit . III , pp . 174-178 .

86- Ibid , pp . 182-4 ; Ashtor , Levant Trade , pp. 61 ,62 .

87- Ashtor , op . cit ., p. 62 .

88- Bar Hebrallus : The Chronography , p. 486 .

89- Cf , " A Second Letter from F . Jordanus(1324) . " in Cathay and the Way Thither . vol III (ed. & trans.) by Henery Yule , pp . 79 , 80 .

٩٠- وقد تشكك المؤرخ الفرنسي ريشارد - (فى المحاضرة التى ألقاها فى مؤتمر «الملاحة فى المحيط الهندى» الذى عقد فى بيروت عام ١٩٧٠) - من رواية وليم آدم عن اساطيل للجنوية فى المحيط الهندى . ويبدو أن أشتور لم يقرأ هذا المقال بعد .

Cf . Richard , Jean , "European Voyages in the Indian Ocean and Caspian Sea (12 th - 15 th Centuries" , op . cit ., pp . 45-52 .

91- Cf . " Pegolotti`s Notices of the Land Route to Cathay" op . cit ., III , pp . 151-155 .

92- Lopez , Robert Sabadino , "China Silk in Europe in the Yuan Period " in Journal of the American Oriental Society , vol .72 , no . 2 , April - June , 1952 , pp . 72 - 76 ; Ashtor , Levant Trade , pp . 60-61 .

93- Cf . " Marignolli`s Recollections of Eastern Travel , in Cathay and the Way Thither,

III , p . 229 .

94-Ashtor : Levant Trade , p. 63..

٩٥- للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر

Pouzyna I, V. : La China , L`Italie et les debuits de la Renaissanc X II et XIV Siecles . Paris , 1935 ;

Mollat , M : (ed.) Societes et Compagnies de Commerce en Orient et dans L`Ocean Indien . Paris , 1970 ;

Richards D.S . (ed) Islam and the Trade of Asia : A Colloquim . Oxford , 1970 ;

Smith ,Howord : "Zaitun`s Five Centuries of Sino Foreign Trade : , Journal of the Royal Asiatic society , 1958 , Parts 3 , 4 , pp . 165-178 ;

Franke , Herbert , " Sino - Western Contacts Under the Mongol Empire , " Journal of the Hong Kong Branch of the Roya! A siatic Society , vol . 6 , 1966 pp. 49-72 ; Petech, Luciano, "Le Marchands Italiens dans. L`Empire Mongel " dans Journal Asiatique 250 , 1962, pp;249-44 ;

Lopez , R.S . " Novueaux Documents sur les Marchands Italiens en China a L Epoque Mongol "; Academie des Inscriptions & Belles - Lettres , Avril ,1977 , pp . 445-457 .

٩٦- عفاف صبره : علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م ص٩٨-١٠٥ .

٩٧- ولد مارينوسانود والتورسيلى فى مدينة البندقية من أسرة نبيلة كان لها دورا متميزا فى الانحراف بالحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية . وقد سافر إلى بيزنطة وأرمينيا الصغرى وسوريا ومصر فضلا عن عواصم الغرب الأوربى وفى عام ١٢٨٦ م كان يعيش فى حى البنادقة بمدينة عكا ورحل عام ١٢٨٩م إلى موانى بحر إيجه عام ١٢٩١م . وكان دارسا لعلوم عصره وسابقيه وساعدته خبرته البحرية والتجارية أن يكون فقيه عصره فى الجغرافيا والاقتصاد وله عدة مؤلفات يهمنا منها Liber Secretorum Fidelium Crucis الذى يدور حول كيفية استعادة الأراضى المقدسة لحوزة الصليبيين ، والذى قدمه للبابا كليمنت الخامس فى يناير عام ١٣٠٧م. وعكف على تطوير أفكاره ومشروعه حتى أعاد تقديمه فى ٢٤ سبتمبر عام ١٣٢١ م للبابا يوحنا الثانى والعشرين . وقد أرسل نسخا منه للعديد من الكرادلة وملوك ونبلاء أوروبا لاقناعهم بمشروعه .

Cf . Beazley : The Dawn of Modern Geography , III , p . 319 ; Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages , pp . 114 - 127 .

98- Beazley , op . cit , III. pp . 310-19 .

99- Atiya , op . cit ., p. 118 . Ashtor : Levant Trade in the Later Middle Ages , pp.44,45.

١٠٠- عفاف صبره : المرجع السابق ص١٠٦ .

101- Cf . Lopez " Europeam Merchants " op . cit , p . 172 ; Ashtor , op . cit ., pp . 45 , 46 ; Frederic Lane " The Venetian Galleys to Alexandria , 1344 " , in Wirtsschaftakrafte und Wirtschaftswege I . Band , Klitt - Cotts, 1978 , pp . 431 - 440 .

١٠٢- يستند الدكتور صبحى لبيب على الآتى :

أولا : عند دراسة الحوليات المصرية المعاصرة لفترة الحصار الاقتصادى أو التالية لها نجد أنه ليس هناك أي دليل على إغلاق فندق القنصل البندقى من الجانب المصرى .

ثانيا : لم تذكر هذه الحوليات أيضا أنه ترتب على التحريم غلق الفندق من جانب البنادقة أنفسهم ، وأن البنادقة فى أحاديثهم مع البابا - لم يعترفوا بانسحابهم من فنادقهم بالاسكندرية .

ثالثا : أشارت الحوليات المصرية فى الفترة من ١٣٣٠م حتى ١٣٤٠م عن وجود البنادقة والفرنج فى ميناء الاسكندرية كما أورد المقريزى حدوث زلزال فى الاسكندرية فقال " فارتفعت سفن البنادقة إلى الساحل".

رابعا : سفارات البابوية نفسها فى تلك الفترة للبلاط المملوكى ، إذ كيف تحرم التجارة معهم ثم ترسل وفودا لهم ؟

خامسا : فى حديث الحوليات المصرية عن الفتنة التى وقعت فى الاسكندرية سنة ١٣٢٤م أشارت أن نشاط الفرنج ضخم وأنه تم عزل قاضى الاسكندرية لأنه حكم ضد الفرنج .

سادسا : أن التجار الأوروبيين دفعوا رشاوى فى البلاط البابوى للحصول على تصاريح مؤقتة لعدد محدود من السفن للتعامل مع موانى المماليك فى مصر .

سابعا : أن الحكومة المصرية لم تشكو عاما واحدا من بوار التوابل و (الفلفل بالذات) فى الاسكندرية فى تلك الفترة ، بل كان البنادقة يحملونها على سفنهم أو على سفن مستأجرة ويرسلونها إلى قبرص أو كريت خاصة وأن البابوية لم تكن تملك أسطولا للمراقبة .

ثامنا : أن الرحالة الايرلندى سيمون سيميونى Simeon Semeonis الذى زار الاسكندرية فى نهاية عام ١٣٢٣ وصف فى مذكراته فنادق وقناصل البنادقة والجنويين والقطلانيين وتجار مرسيليا . وهذا كله يؤكد أن التجارة مع المماليك لم تنقطع أبدا ولكنها تقلصت عن ذى قبل حتى عام ١٣٤٥ . (صبحى لبيب فى حديث خاص للباحث - قسم التاريخ جامعة كيل فى الفصل الدراسى الأول عام ٨٦-١٩٨٧) .

١٠٣- صبحى لبيب «سياسة مصر التجارية فى عصر الأيوبيين والمماليك» المرجع السابق ص١٣٢ .

104- "Exemplum Litterae transmissae demino Duci per Marcum de Molino , Consuleim Venetorum in Turisio A.D . 1324 6m . Juny " , Diplomatarium Veneto - Levantinum , I , pp . 192 - 194 .

105- Ashtor : Levant Trade , p. 59 .

106- Howorth : History of the Mongols , III , p . 633 .

107- "Genoa Applies Sanctions Against Persia , " in R . Lopez & Irving w . Raymond (ed . & trans.) Medieval Trade in the Mediterranesn World . Columbia University Press . 1968 , pp . 323 , 4 ; Lopez . " European Merchants in the Medieval Indies , " op . cit . III , 181 - 3 .

108- Heyd , op . cit ., pp . 130 , 131 .

109- Lopez , " Europan Merchants , " op cit . III, pp . 182 , 3 .

110- Lane : Venice A Marctcme Republic , p. 131 ; Ashtor : Levant tiade , p. 63 .

١١١- للتفاصيل انظر : عفاف صبره : المرجع السابق ص١٠٩ - ١١١ .

Ashtor , op . cit ., pp . 64-9 .

112- " Privilegium Securitatis datum ab imperatore Tourisii , Oweis Khan A.d . 1370 , " in Diplamatarium Veneto - Levantinum , II , p. 158 .

113- Kedar : Merchants in Crisis, p. 128 .

114- Clovijo : Narrative of his Embassy to the Court of Timour at Samarcand , pp . 88 , 89 .

115- Kedar : Merchants in Crisis , p. 128 .

116- Ibid , pp . 129-130 .

117- For details, cf . Lybyer ,A. H ., The Ottoman Turks and the Routes of Oriental Trade " , in the English Historical Review , Vol , 30 , 1915 , pp . 577 - 588 .

118- Ashtor ; Levant Trade , p. 63 ; also ," Observations on Venetian Trade in the Levant in the XIV Century , "op . cit ., pp. 538 - 540 .

119- Lopez , Robert ., " The Trade of Medieval Europe : TheSouth" in Cambridge Economic History of Europe, vol . II Cambridge , 1952 , pp . 338 , 339 ; Dols , Michael W. : The Black Death in the Middle East . Princeton Unversity Press , 1975 Daniel Williaman (ed.) The Black Death : The Impact of the Fourteenth Century Plague. New York , 1982 .

١٢٠- عفاف صبره : علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م ص١٠٦-١١٠، ٢٩٣،

Ashtor , " Observations on Venetion Trade " , op . cit ., pp. 539 - 42 ; Norman Housley : The Avignon Papacy and the Crusades , 1305 - 1375 . Oxford , 1986, pp . 207 - 211 .

خاتمـــة

اعـتـقـد الأوربـيون - فى العـصـور الوسطى المبكرة - بوجـود مملكة مـسيـحـيـة خلف ظهـر المسلمون . وتطور هذا الاعـتقـاد - فى عـصرالحروب الصليـبية - بأن ملكها «الكاهن يوحنا» على استعداد لغزو المدينة المقدسة أو التحالف مع الصليبيين ضد المسلمين وازدادت اسطورة «الكاهن يوحنا» رواجا فى أوقات حاجة الصليبين للنجدة من الغرب . ولكن الملك الذى خرج من الشرق فى باكورة القرن الثالث عشر لم يكن مسيحيًا بل هو جنكيز خان الذى سيطرت قواته على شرق آسيا ووسطها فى الربع الأول للقرن الثالث عشر .

ولاعتقاد المغول أن جنكيز خان مفوض من السماء لاخضاع كل العالم لسلطانهم ، ولسهولة سيطرتهم على ممالك شاسعة فى شرق قارة آسيا ووسطها فى غضون سنوات قليلة ، وحصولهم على غنائم وافرة أسالت لعاب قادتهم للمزيد من السيطرة والتوسع ، فان خليفته أوجوداى ١٢٢٧-١٢٤١- أرسل القوات المغولية لغزو أوروبا . واستطاعت قوات المغول فى الفترة من عام ١٢٣٧ حتى ١٢٤٢م إخضاع روسيا وبولندا والمجر ومورافيا لسيطرة المغول بعد أن حطمت المدن والكنائس والأديرة ،وذبح الغزاة سكانها دون تفرقة بين عمر الضحايا أو نوعهم . أى أن المغول كرروا مع الأوروبيين ما فعلوه تقريبًا مع المسلمين فى الدولة الخوارزمية من قبل ، ولكن جاءت وفاة الخاقان المغولى - وما تبع ذلك من انسحاب القوات المغولية من أوروبا - إنقاذًا لبقية أوروبا من الدمار والخضوع للسيطرة المغولية . ولم يفعل الأوربيون شيئًا أمام المغول إبان وجود الأخيرين فى أوروبا ، وذلك لاحتدام الصراع بين البابوية والامبراطور فردريك الثانى .

وأرسل البـابـا انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) سـفـراء من الرهبـان الفـرنسـسـيكان والدومنيكان إلى قـادة المغـول للتـفـاهم مـعـهم ومـحـاولة تنصيـرهم لإبعـاد خطرهم عن أوروبا وضمهم تحت لواء البابوية .

ولكن المغول- الذين كانوا فى أوج قوتهم - لم يستمعوا إلى نداءات البابوية ، ولم يتركوا الرهبان يبشرون بالمسيحية بين رعاياهم ، بل وأرسلوا معهم خطابات للبابوية ولملك فرنسا - لويس التاسع - يدعونهم للحضور لتقديم فروض الولاء والطاعة للخاقان المغولى فى قراقورم وأن يدفعوا الجزية عن رعاياهم وهم صاغرون .

وعلى أثر سفارة - مشكوك فيها - من قادة المغول في آسيا الصغرى للملك الفرنسي لإبلاغ الأخير برغبة المغول بالتحالف معه ضد المسلمين واعتناق المسيحية ، فان لويس التاسع أرسل سفارة لقادة المغول ، ولكن ما سمعه سفراء لويس وردود قادة المغول عليه حولت هذه الأماني إلى سراب . فقد سمع لويس التاسع نفس الادعاءات المغولية بالسمو والسيادة العالمية في خطاب للخاقان المغولي (مانجو خان) أرسله مع وليم روبروك الذي كان في بعثة بين المغول (١٢٥٣-١٢٥٥) .

غير أنه في عامي ١٢٥٩ - ١٢٦٠م تغيرت موازين القوى السياسية في آسيا ، إذ أن وفاة الخاقان المغولي عام ١٢٥٩ أكدت وعمقت التقسيمات الجغرافية للامبراطورية المغولية إلى أربعة أجزاء في الصين ، والتركستان ، وفارس ، وروسيا . وكان لهزيمة المغول في موقعة عين جالوت عام ١٢٦٠ ، واندلاع الحرب بين مغول روسيا ومغول فارس أثره على اتصال هولاكو خان بالقوى الأوربية للبحث عن حلفاء له ضد المماليك .

وقد لعبت مملكة أرمينيا الصغرى دورا بارزا في التقريب بين وجهات نظر مغول فارس وبين القوى الصليبية في الشرق والغرب فيما يتعلق بهذا التحالف ، وحسن معاملة المسيحيين بين المغول ، باعتبار أن الملك الأرمني لم يجد بدا من أن يكون أحد أتباع (أفصال) مغول فارس ليضمن استمرار مملكته - التي قدر لها أن تقع بين القوى الكبرى الطامعة فيها من جميع الجهات - على الخريطة السياسية .

ولكن في الميدان السياسي باءت جهود المغول بالفشل في التحالف مع الغربيين ضد المماليك رغم العديد من السفارات المتبادلة بين الطرفين . فالمماليك استطاعوا تقويض الكيانات الصليبية نهائيًا من بلاد الشام في عام ١٢٩١م ، ووجهوا ضربات متلاحقة لمملكة أرمينيا الصغرى وجعلوا حكامها يدينون بالولاء للقاهرة . واستطاع المماليك أيضا هزيمة جيوش المغول في أعوام ١٢٧٦ م (في ابلستين بالأناضول)، ١٢٨١ (موقعة حمص الأولى) ، ١٣٠٣م (في موقعة مرج الصفر) ، مما أوقف المد المغولي شرقي نهر الفرات . ولاشك أن الانتصارات الإسلامية على الصليبيين ومملكة أرمينيا الصغرى ومغول فارس كان لها أكبر الأثر في فشل مشروع التحالف اللاتيني - المغولي ضد المسلمين .

كما أن الغرب الأوربي انشغل بمشاكله الداخلية واهتماماته الاقليمية وحروبه المحلية عن تطلعاته الخارجية في شرق البحر المتوسط ، خاصة بعد أن تقلص نفوذ البابوية التي فقدت

السيطرة على زمام الأمور بأوروبا وتلاشت الروح الصليبية ليحل محلها اهتمامات جديدة فرضتها المتغيرات الاقتصادية والثقافية فى الغرب الأوربى فى نهاية القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، وكان لبعد المسافة بين الغرب الأوروبى والشرق المغولى والاختلافات فى الدين واللغة والأهداف أثرها على أن ظل مشروع التحالف المشترك بينهما ضد المماليك حلمًا ، ولم يخرج إلى حيز التنفيذ يوما ما .

أما عن نتائج جهود البابوية فى إرسال الرهبان الفرنسسكان والدومنيكان لتنصير مغول فارس على المذهب الكاثوليكى ، فانها هى الأخرى باءت تقريبًا بالفشل ، اللهم إلا فى تحسين معاملة إيلخانات المغول البوذيين لرعاياهم المسيحيين (وهذا عاد بأبلغ الضرر على الأخيرين بعد اعتناق الايلخانيين للإسلام) ، فقد حاولت البابوية وملوك الغرب الأوربى الضغط على إياخانات فارس بتأجيل النظر فى التحالف معهم ضد المماليك إلى حين استجابتهم لاعتناق المسيحية الكاثوليكية أملاً فى اقتفاء رعاياهم البوذيين والمسيحيين الشرقيين لخطى ملوكهم . وأسس الرهبان الكاثوليك أديرة وكنائس فى المدن الهامة بايلخانية فارس وفى الهند والصين أيضا ، وانشأوا كاتدرائيتين فى عاصمة مغول فارس وعاصمة مغول الصين على حد سواء .

ولكن الإسلام – لأسباب كثيرة – بدأ ينتشر رويداً رويدا بين عامة المغول منذ بداية مجيئهم إلى وسط آسيا الإسلامية، حتى اعتنقه بعض قادتهم . وتوج انتصار الإسلام باعتناق غازان ١٢٩٥-١٣٠٥م لهذا الذين الدى أصبح الديانة الرسمية للدولة المغولية فى فارس . بل وقد ساهم المغول – بطرق عديدة – فى نشر الإسلام فى مناطق لم تعهد الإسلام من قبل .

وتمثل ميدان النجاح الوحيد فى العلاقات بين المغول والغرب الأوربى فى الميدان الاقتصادى إذ سمح المغول للتجار الإيطاليين فى ارتياد الأسواق التى كانت تحت سيطرتهم ومنحوهم الامتيازات المغرية فى بلادهم . وساهم الأخيرون فى انعاش اقتصاد دولة الايلخانية ، وتزويدهم بسلع الغرب الأوربى . كما أن ايلخانات فارس اتخذوا من هؤلاء التجار سفراء لهم للغرب الأوربى ، واستخدموهم فى قصورهم كمستشارين وإداريين ومترجمين .

وكان لانهيار دولة الايلخانيين بوفاة أبو سعيد خان عام ١٣٣٥ دون وريث شرعى – أثره السئ على استمرارية التجار الإيطاليين فى الأسواق الداخلية لقارة اسيا . وشجعهم على التوقف عن ارتياد أسواق آسيا الداخلية عودة التجارة مع الموانى المصرية الآمنة تمامًا ، وحصولهم على امتيازات تجارية جديدة من السلاطين المماليك .

وكان لتوافد العديد من السفراء الأوربيين والرهبان الكاثوليك والتجار والرحالة الإيطاليين فى ايلخانية فارس والهند والصين منذ عام ١٢٤٥ حتى عام ١٣٤٥م تقريبًا أثره الكبير فى ازدياد معلومات الأوربيين - من خلال الكتابات والتقارير التى دونها هؤلاء السفراء والرهبان والرحالة - عن مدن آسيا وموانيها وأسواقها وتجارتها وكنوزها ورخص أسعار منتجاتها مقارنة بأسعار هذه المنتجات فى الموانى المصرية . وكان لتلك الكتابات أهميتها البالغة فى إلهاب مشاعر الأوروبيين وتشجيعهم على ارتياد هذه المناطق واكتشافها وهذا ما حدث فعلا على يد فاسكوداجاما وخلفائه بدءا من نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

الملاحـق

الملحق الأول :

ثبت بأسماء حكام وقادة القوى السياسية التى تناولتها هذه الدراسة فى الفترة التاريخية المعنية بالبحث : أباطرة المغول ، ايلخانات فارس ، خانات القبيلة الذهبية فى روسيا ، سلاطين دولة المماليك الأولى ، ملوك أرمينيا الصغرى ، البابوات ، ملوك كل من انجلترا وفرنسا ، وقشتالة وأرجون .

الملحق الثانى :

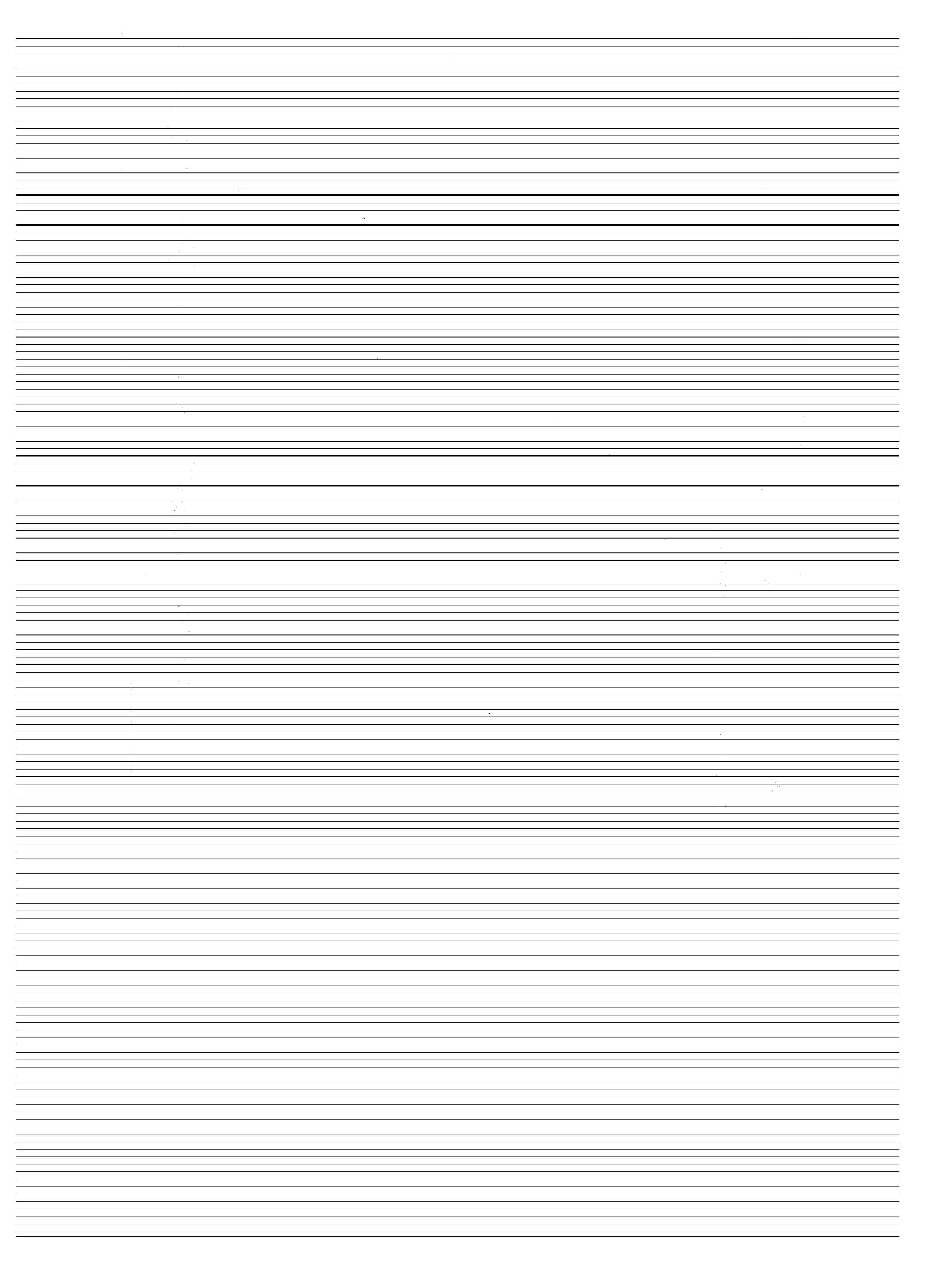
التقرير الذى قرأه سفير أبغاخان أمام مجمع ليون الثانى (المجمع المسكونى الرابع عشر ، ١٢٧٤م) .

الملحق الثالث :

خطاب أرغون خان إلى فيليب الرابع ملك فرنسا ، عام ١٢٨٩م .

الملحق الرابع :

خطاب اولجايتوخان إلى فيليب الرابع عام ١٣٠٥م .



الملحق الأول

ثبت بأسماء حكام وقادة القوى السياسية التى تناولتها الدراسة
فى الفترة التاريخية المعنية بالبحث

أولا : المغول العظام :(١)

١- جنكيز خان (١٢٠٦-١٢٢٧م)
٢- اجـودای (١٢٢٩-١٢٤١م)
٣- كيوك (١٢٤٦-١٢٤٨م)
٤- مانجو (١٢٥١-١٢٥٨م)
٥- قوبيلاى (١٢٦٠-١٢٩٤م)

ثانيا : ايلخانات فارس :(١)

١- هولاكو (١٢٥٨-١٢٦٥)
٢- أبغا (١٢٦٥-١٢٨٢)
٣- تكودار أحمد (١٢٨٢-١٢٨٤)
٤- أرغون (١٢٨٤-١٢٩١)
٥- كيخاتو (١٢٩١-١٢٩٥)
٦- بايدو (١٢٩٥)
٧- غازان محمود(١٢٩٥-١٣٠٤)
٨- أولجايتو (١٣٠٤-١٣١٦)
٩- أبو سعيد (١٣١٦-١٣٣٥)

ثالثا : خانات القبيلة الذهبية فى روسيا :(١)

1- Boyle , John Andrew : The Successors of Genghis Khan , Trans lated from the Persian of Rashid al - Din . Columba University Press , 342 -45 .

١- باتو (١٢٣٧-١٢٥٦)
٢- بركة (١٢٥٧-١٢٦٦)
٣- مانجو تيمور (١٢٦٧-١٢٨٠)
٤- تودي مانجو (١٢٨٠-١٢٨٧)
٥- تولى بوقا (١٢٨٧-١٢٩١)
٦- طقطا (١٢٩١-١٣١٢)
٧- اوزبك (١٣١٣-١٣٤١)

رابعا : سلاطين دولة المماليك الأولى :(٢)

١- شجر الدر (١٢٥٠)
٢- المعز أيبك (١٢٥٠-١٢٥٦)
٣- المنصور ابن المعز(١٢٥٧-١٢٥٨)
٤- المظفر قطز (١٢٥٨-١٢٥٩)
٥- الظاهر بيبرس(١٢٥٩-١٢٧٧)
٦- السعيد بن بيبرس (١٢٧٧-١٢٧٩)
٧- العادل بن بيبرس (١٢٧٩)
٨- المنصور قلاوون(١٢٧٩-١٢٩٠)
٩- الأشرف خليل (١٢٩٠-١٢٩٣)
١٠- بيدرا يوم واحد
١١- الناصر محمد (السلطنة الأولى) (١٢٩٣-١٢٩٤)
١٢- العادل كتبغا (١٢٩٤-١٢٩٦)
١٣- حسام لاجين (١٢٩٦-١٢٩٨)
١٤- الناصر محمد (السلطنة الثانية) (١٢٩٨-١٣٠٨)
١٥- بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨-١٣٠٩)
١٦- الناصر محمد (السلطنة الثالثة) (١٣٠٩-١٣٤٠)

خامسا أسرة بيرونيان الأرمينية (ملوك أرمينيا الصغرى) :[٢]

١- هيثوم الأول (١٢٢٦-١٢٧٠م)

٢- ليون الثالث (١٢٧١-١٢٨٩).

٣- هيثوم الثانى (مرة أولى)(١٢٨٩-١٢٩٣)

٤- طوروس الثالث (١٢٩٣-١٢٩٤)

٥- هيثوم الثانى (مرة ثانية) (٩٤-١٢٩٦)

٦- سمباد (٩٧-١٢٩٩)

٧- قسطنطين الأول (١٢٩٩)

٨- هيثوم الثانى (مرة ثالثة) (١٢٩٩-١٣٠٥)

٩- ليون الرابع (١٣٠٥-١٣٥٧)

١٠- أوشين الأول (١٣٠٨-١٣٢٠)

١١- ليون الخامس (١٣٢٠-١٣٤١م)

سادسا : البابوية :[٣]

١- جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١)

٢- انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤)

٣- الكسندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦٠)

٤- أوربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤)

٥- كليمنت الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨)

٦- جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦)

٧- نيقولا الثالث (١٢٧٧-١٢٨١)

٢- فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبين ودولة المماليك الأولى ص٢٩٢-٢٩٤ .

٨- مــــارتـين الـرابـع (١٢٨١-١٢٨٤)

٩- هـنـريـوس الـرابـع (١٢٨٥-١٢٨٧)

١٠- نيـــقـــولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢)

١١- سلســـتين الخـــامس (١٢٩٤)

١٢- بونيـفـاس الثـامن (١٢٩٥-١٣٠٣)

١٣- بندكت الحادى عشر (١٣٠٣-١٣٠٥)

١٤- كليمنت الخامس (افينون) (١٣٠٥-١٣١٤)

١٥- حنا الثانى والعشرين(١٣١٦-١٣٣٤م)

سابعا : ملوك انجلترا :[٣]

١- هنرى الثـالث (١٢١٦-١٢٧١)

٢- إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٨)

٣- إدوارد الثـانى (١٣٠٧-١٣٢٧)

٤- إدوارد الثـالث (١٣٢٧-)

ثامنا : ملوك فرنسا :[٣]

١- لويس التـاسع (١٢٢٦-١٢٧٠)

٢- فيليب الثالث : (١٢٧٠-١٢٨٤)

٣- فـيليب الرابع (١٢٨٥-١٣١٤)

٤- لويس العـاشر (١٣١٤-١٣١٦)

٥- فيليب الخامس (١٣١٦-١٣٢١)

٦- شـــارل الرابع (١٣٢٢-)

تاسعا : قشتالة :[٣]

١- الفونسو العاشر (الحكيم) (١٢٥٢-١٢٨٣م)

٢- سـانشـو الرابع (١٢٨٥-١٢٩٥م)

٣- فـرديناند الرابع (١٢٩٥-١٣١٢م)

٤- ألفـونسـو الحادى عـشر(١٣١٢-)

عاشرا : ارجون :[٣]

١- جـيـمى الأول (١٢١٢-١٢٧٤)

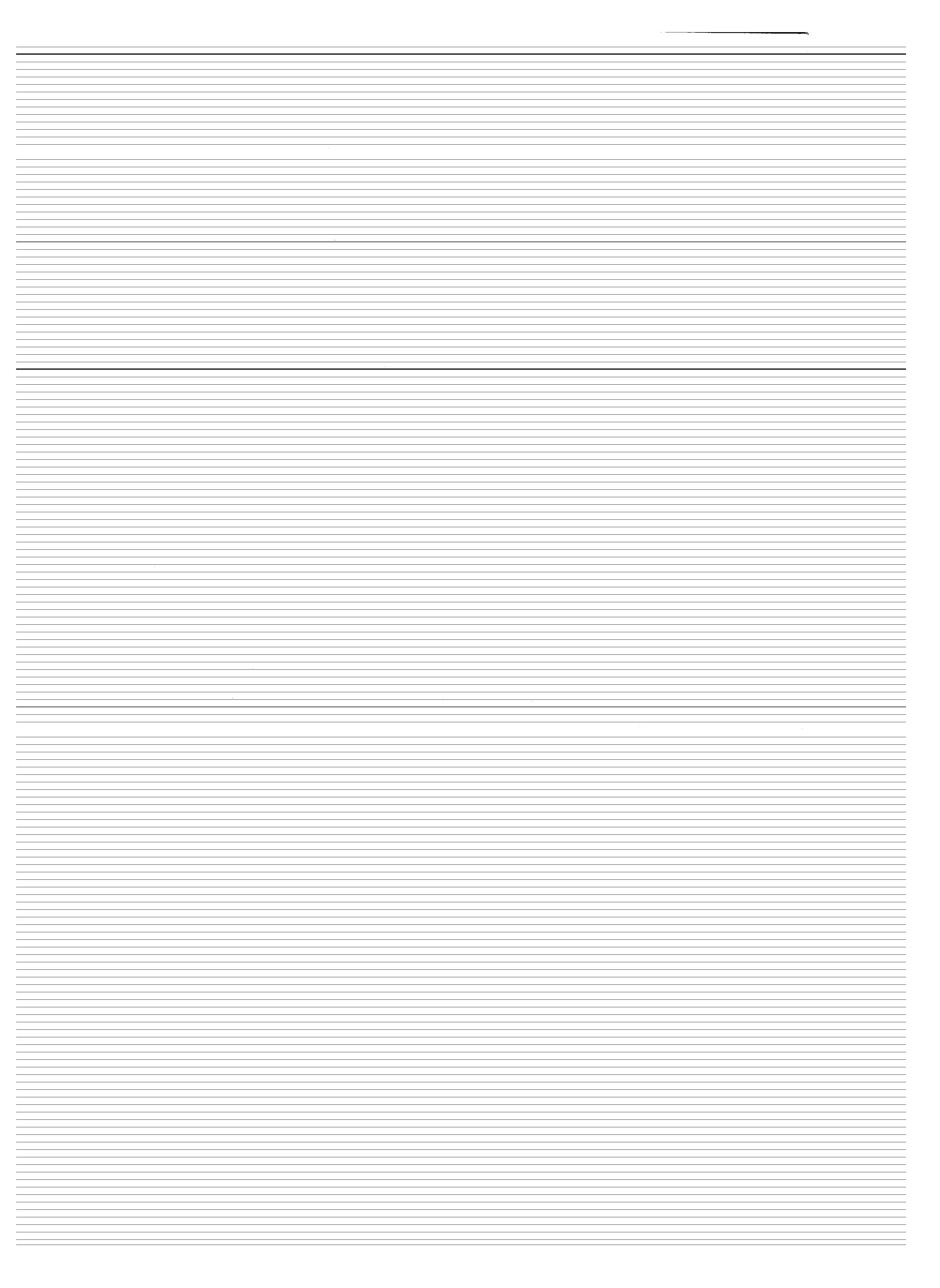
٢- بيـتـر الثـالث (١٢٧٦-١٢٨٤)

٣- ألفونسو الثالث (١٢٨٥-١٢٩٠)

٤- جيـمى الثـانى (١٢٩١-١٣٢٦)

٥- ألفـونسـو الرابع (١٣٢٧-)

3- Rothwell , Harry (ed) : English Historical Documents : 1189-1327 . London , 1975 , pp . 1004 - 9 .



الملحق الثانى

التقرير الذى قرأه سفير ابغاخان أمام مجمع ليون الثانى

(المجمع المسكونى الرابع عشر ، ١٢٧٤م)

مقدمة :

سبق الإشارة أن أبغا خان قد أرسل سفارات إلى الغرب الأوربى بدءا من عام ١٢٦٦م يطلب التحالف العسكرى المشترك ضد المماليك . وفى عام ١٢٧٤م أرسل الإيلخان المغولى سفارة مكونة من ستة عشر عضوا على رأسهم الراهب الإنجليزى الدومنيكانى ديفيد الأشبى David of Ashby لحضور جلسات مجمع ليون فى محاولة لجذب أنظار كافة القوى السياسية والدينية فى أوربا - التى لها ممثلين فى هذا المجمع - لأهمية التعاون معه ضد المماليك فى تدعيم الصليبيين فى الشرق .

وقدم البابا جريجورى العاشر سفراء ابغاخان لأعضاء المجمع فى نهاية الجلسة الرابعة فى يوم ٧ يولية (١٢٧٤) حيث قام (ريخالدوس) أحد المترجمين اللاتين من أعضاء سفارة ابغا بقراءة التقرير الذى حملوه من ابغاخان .

وقد عثر الباحث الإيطالى جينو بورغيزو Gino Borghezio على هذا التقرير فى الأرشيفات البابوية ، ونشره عام ١٩٣٦ بنفس اللغة اللاتينية للمخطوط وقدم له بدراسة موجزة عن العلاقة بين البابوية والمغول [١].

ونشر الباحث الألمانى بورخارد روبرج Burkhrd Roberg فى عام ١٩٧٣ مقالا عن «التتار فى مجمع ليون الثانى عام ١٢٧٤» [٢] وفى نهايته أعاد نشر نفس التقرير بلغته اللاتينية معتمدا على جينو بورغيزو . والإضافات التى جاء بها روبرج تتمثل فى مقدمة مستفيضة عن العلاقة بين التتار وأوربا وكذلك دراسة لغوية للأصل اللاتينى لهذا التقرير. ومبلغ علمى أن هذا التقرير لم يترجم بعد لأية لغة شرقية أو غربية معاصرة. وقد تفضل

1- Cf . Borghezio , Gino , "Un Episodio Delle Relazioni tra la Santa Sede e i Mangoli , 1274", in Rome Rivista di Studi e ai Vita Romana , XIV , Nov , 1936, no. II , pp . 361-372.

2- Cf . Reberg , Burkhrd . "Die Tartaren ouf dem 2 . Konzil von Iyon 1274 , " Annuarium Historiae Conciliarum , 1973 , Heft 2 , pp . 247-302 .

عليّ البروفيسور فرانز كواد لباور Prof . Dr . Franz Quadlbauer أستاذ اللغة اللاتينية في العصور الوسطى بقسم الدراسات الكلاسيكية بجامعة كبيل - بترجمة هذا التقرير إلى اللغة الألمانية . وهانذا أنقله إلى اللغة العربية لأهميته البالغة لموضوع الدراسة .

وقد تضمن هذا التقرير عدة نقاط هامة استعان بها الباحث فى دراسته للسفارات المتبادلة بين هولاكو وأبغا من ناحية وبين الغرب الأوروبى من ناحية أخرى وهى :-

أولا : أنه أثناء وجود قوات هولاكو ببلاد الشام (عام ١٢٦٠م) فان بطريرك بيت المقدس (فى عكا) أرسل الراهب ديفيد الأشبى على رأسه بعثة من الدومنيكان لاستطلاع نوايا المغول تجاه الصليبيين فى الشرق ، وقد نجحت هذه البعثة فيما فشل فيه وليم روبروك ورفاقه فى البقاء بين ظهرانى المغول للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية حتى حضر ديفيد الأشبى على رأس سفارة أبغا لمجمع ليون الثانى .

ثانيا : تحدث التقرير عن اعتناق هولاكو المسيحية وتعميده على يد ديفيد الأشبى (وهذا غير صحيح تاريخيا) ، وعن إيثار هولاكو وخليفته للمسيحيين ، ومنحهم الإعفاءات الضرائبية للأخيرين ، وتقديم الحماية لهم والعطف عليهم.

ثالثًا : أشار التقرير إلى أن هولاكو قد سبق وأن أرسل سفارة إلى الغرب الأوروبى ، ولكن الملك مانفريد بن فردريك الثانى قبض على أعضاء السفارة وصادر الرسائل وأعاد السفراء للمغول ثانية .

رابعا : أوضح هذا التقرير أن هدف أبغا من هذه السفارة هو طلب التحالف مع اللاتين لدحر «البابليين الكافرين» ، وأشار إلى أن الايلخان المغولى قد أضحى متفرغا تماما لمواجهة المصريين .

نص التقرير :[١]

ليعلم أقدس الآباء رئيس القساوسة الأعلى ،

و (ليعلم) الأباء الأفاضل السادة الكرادلة وجميع السادة الأحبار الكثيرون القائمون على خدمة كنيسة روما المقدسة ، وليعلم جميع ملوك المسيحية وأمراؤها : أن أسلاف الملك المعظم أبغا من شعب المغول الذين تسمونهم بالتتر - هؤلاء هم الذين أخضعوا - بعون الإله الحى -

1- Borghezio , op . cit ., pp. 369 - 372 .

وبقوتهم كثيرا من بلدان الشرق وسيطروا ببطشهم على جميع ممالك الشمال وممالك الجنوب من البداية حتى نهر جيحون .

(ونود أن نبلغكم) بأن والد الملك المعظم أبغا المذكور آنفا هو واحد منكم ، ووالده هو الأمير الهمام الشريف هولاكو ، أما نحن : فمبعوثو الملك أبغا .

(والملك هولاكو) هو الذى عبر النهر المذكور بعاليه ، وأخذ بشجاعته جميع ممالك فارس من أيدى المسلمين . وتمكن أخيراً من التقدم حتى وصل إلى مدينة بغداد العظيمة واحتلها بعد حصار وقتال ، وقتل الخليفة : الذى هو أكبر أمراء المسلمين ، وكان قصره يحميه السيف ويدافع عنه قوة حرس كبيرة من المسلمين المذكورين وشعبهم الملعون . ثم استمر الملك بالتقدم وقتل المسلمين (ص٣٧٠) حتى وصل إلى نهر (بيرز؟) وبعد أن عبر هذا النهر استسلمت له خالدة؟ وخضعت له منطقة المدر ؟ التى تمتد حتى نهر الفرات العظيم . ثم أخضع بقوته جميع المناطق التى تقع فى تركيا (أى سلاحقة الروم) وذلك من جبال الخزر (قزوين) حتى البحر . وهكذا استطاعت جيوشه فى التقدم حتى البحر المتوسط حيث تقع المناطق التالية : فريجيا ، بامفيلين/كابادوكيا ، وكاليتانيا . وبعد أن سيطر على هذه المناطق عبر نهر الفرات وطارد وأجلى سلطان حلب ودمشق (الناصر يوسف) : ذلك السلطان الذى كان يعد من أعظم السلاطين . ثم احتل مدينة حلب وحطم حصونها القوية تحطيما كليا . وبعد ذلك استسلمت له مدينة دمشق ، وسارت جيوشه مخترقة مملكة القدس حتى وصلت إلى جبال الصحراء التى وطئتها أقدام بنى إسرائيل .

وبعد أن جاء مبعوثوا البطريق الذى كان سابقا فى عكا ، والذى كان على رأس جميع المسيحيين اللاتين والمسيحيين الآخرين فى الشرق ، وأعنى بذلك الأب المقدس وهو (كما تعلم) كان أحد الرهبان الوعاظ الدومنيكان[1] ، (بعد أن جاء هؤلاء المبعوثون) إلى الملك العظيم (هولاكو) حدثوه كثيرا عن عقيدة الدين المسيحى الكاثوليكى ، وعن قداسة الكرسى الرسولى ، وعن عظمة الملوك اللاتين الذين يدعون بالفرنج .

١- أشارة إلى البابا أوربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤) الذى كان بطريقا لبيت المقدس (فى عكا) إبان وجود قوات المغول فى الشام (١٢٥٩-١٢٦٠) وهو الذى أوفد ديفيد الأشبى إلى هولاكو للتفاهم معه .

وكان أحد هؤلاء المبعوثون هو الراهب ديفيد (الأشبى) مبعوث بطريق مدينة القدس ، وممثل ملك مملكة القدس وقبرص والذى رافقنا حتى مقر المجمع إلى هنا وحافظ بصورة تستحق المدح والثناء على سلامتنا .

وكان هولاكو (فى الحقيقة) واحدا منهم (من المسيحيين) وهو الذى ضمن - وبوحى من الإله - للمسيحيين جميعا العيش فى سلام ، وأمر بإعفاء كل رجال الكنائس - وفى جميع المناطق المذكورة آنفا- من الضريبة والإتاوة ، كما ضمن لجميع الكنائس حريتها فى كل مكان.

وبقصد الوفاق مع اللاتين وبهدف الوصول إلى عقد تحالف معهم أمر هولاكو أن تتمتع جميع مدن المسيحيين وحصونهم وأراضيهم وممتلكاتهم بالطمأنينة وبالسلام ، ومنع رجاله منعا باتا من أن يتعرضوا بالأذى للمسيحيين وأصدر أوامره السلطانية بذلك .(ص٣٧١) كما أنه استطاع توحيد مدينة بيت المقدس المقدسة مع مملكتها وجعلها تحت إمرته كما يعرف ذلك جميع المسيحيين فى أقطار ما وراء البحار[1]. وكما يشهد على ذلك الراهب التقى ديفيد (الأشبى).

وقد ساعد الراهب ديفيد فى جميع القضايا - التى ذكرناها - بالاشتراك مع إخوانه الرهبان التابعين لنفس الكنيسة والذين كانوا معه . وكان (الملك المغولى) هولاكو يبيح بأسراره إلى هذا الراهب (ديفيد) وكأنه صديقه الحميم ، ولم يكن يبيح بمثل ذلك لأى - إنسان آخر مثل اعتناقه للدين المسيحى ، وحصوله على التعميد !! كل ذلك حقيقة ولكن مشيئة الإله طالبتنا أن ندفع ثمن خطايانا فاختطفت يد المنون (هذا الملك) من بيننا .

وبعد أن توفى هذا الملك الجليل (أى هولاكو)الذى كان عادلا مع المسيحيين ومنصفا لهم ، وكذلك كانت عقيلته الأميرة (دوقوز خاتون) الملكة المسيحية - لأنها كانت بنت ملك الهند العظيم (الكاهن) يوحنا - (أقول بعد وفاة الملك) خلفه فى جميع مملكته وفى جميع شؤون دولته سيدنا الملك المعظم الشريف (أبغا) الذى سار على خطى والده المذكور آنفا ولايحيد عن طريقه ولا عن فكره . وهو الآن يعرف عند المغول بـ «سنجنيين؟» بمعنى صاحب الذات ، وهو بدوره يؤيد جميع الامتيازات التى منحها والده لصالح المسيحيين . كما أنه أصدر أوامره

١- لم يحدث أن استولت قوات هولاكو على المدينة المقدسة أو قامت بتوحيدها مع مملكتها الصليبية .

بزيادة بعض هذه الامتيازات . لقد كانت مساعدة هذا الملك لأولئك المسيحيين كبيرة جدا ، ويشهد على ذلك مبعوثوا البابا ومبعوثوا ملوك المسيحيين (أى الأوروبيين) الذين حظوا بلقائه وتمتعوا بلطفه ومودته .

وما أشبه هذا الملك بوالده ، فكلاهما رحيم . فقد وجد أسرى مكبلين بالحديد والأطواق فأمر باطلاق سراحهم قبل المدة المعينة ، ومنح إياهم الحرية وأمر بايصالهم بسلام إلى البحر المتوسط . ويشهد على ما مر ذكره الراهب التقى ديفيد التابع للكنيسة الدومنيكية والذى يعيش الآن معنا . وقد شهد (هذا الراهب) بنفسه كثيرا من المعارك ، كما شهد حصار كثير من المدن .

والملك هيلى (أى هولاكو) هو الذى بعث بأفضل ما عنده من مبعوثين إلى السيد البابا – قدس الله سره – كما بعث بهم إلى جميع الملوك والأمراء بهدف الوصول إلى تحالف دائم معهم وأقل واحد من بين هؤلاء السفراء هو أنا .. ريخالدوس : كاتب العدل عند الملك المعظم ، والمترجم الخاص للغة اللاتينية (له) . وقد اعترض طريقنا نحن المبعوثين السيد مانفريد (ملك صقلية) وهو ابن الامبراطور السابق فردريك (الثانى) ومنع مواصلتنا للسفر وأجبرنا بالقوة على الرجوع .

ولهذا نريد أن نعلن إلى جميع من يعيش تحت الشمس أن ملكنا صاحب العظمة أبغا خان يريد التحالف ، ويريد السلام مع كل المسيحيين التابعين لكنيسة روما المقدسة .

وقد قرر إرسالنا – نحن المبعوثين الدائمين – إلى قداسة البابا وإلى المجمع المقدس الحالى لإبلاغهم (قرار الملك هذا) كما يؤيد ذلك ختم الملك على الرسائل (المكتوبة باللغة) المغولية واللاتينية . وقد عرضنا (هذه الرسائل) على الأب المقدس وعلى الأمراء (العلمانيين) بحضور السادة المحترمين الكرادلة والسادة الأحبار الآخرين .

ولربما يتعجب الآباء والسادة الحاضرون من شأن ملكنا وذلك أنه مع عظمته هذه يظهر الآن رغبته وحبه للمسيحيين (ولربما يتساءلون) لماذا لم يتحرك ضد البابليين (المصريين) أعداء العقيدة المسيحية حتى الآن ؟ وللإجابة على مثل هذه الأسئلة نقول أنه بعد وفاة والد (ملكنا) المحمود السيرة – كما تقضى الطبيعة البشرية بذلك – أحاط بوجه ملكنا أشجع أعدائه الثائرين ، فكان كل واحد من هؤلاء الأعداء معززا بثلاثة أمثال القوة المعزز بها سلطان بابل (أى ملك مصر) ، فتقدم ملكنا معززا بروح الإله الحى تجاه هؤلاء الأعداء المذكورين واحدا

فواحدا وفى أوقات مختلفة، وانتصر عليهم فى القتال انتصارا حاسما [١]. وقد أيد قسم منهم حكمة وخضعوا لطاعته ، وعقدوا صلحا وسلاما دائمين معه . وبعد أن قضى (أبغا) على هذه المشاكل فى السنة الماضية ، قرر أن يتقدم تجاه البابليين الكافرين المذكورين آنفا . فجمع جيوشه ، فاذا برسل أولاد الملوك يتقاطرون عليه ليقدموا له العون فى ظروفه الآتية .

وبينما كان (الملك أبغا) يتدبر هذه الأمور نما إلى علمه فى هذه الأثناء معلومات مباشرة فحواها أن المؤمنين اللاتين بصدد عقد المجمع المقدس الحالى ، مما دعاه إلى إرسال تهانيه إلى حبرنا الأعظم (البابا جريجورى العاشر) . وقد عيننا الملك (أبغا) لهذا السبب ممثلين عنه لحضور الاجتماع المقدس الحالى وكما يؤيد ذلك بوضوح مضمون الرسالة المفتوحة .

١– ربما كانت الإشارة عن انشغال قوات أبغا فى مواجهة أعدائه (مغول روسيا ومغول التركستان) فى محاولة من سفير الخان المغولى تفسير عدم اشتراك قوات سيده مع قوات حملة إدوارد ضد المماليك .

الملحق الثالث

خطاب أرغون إلى فيليب الرابع عام ١٢٨٩م

مقدمة :

وصلت العلاقات السياسية بين مغول فارس والغرب الأوربى للذروة فى عهد ارغون خان حيث أرسل الأخير أربعة سفارات للقوى الكبرى فى غرب أوروبا لطلب التعاون العسكرى المشترك ضد المماليك . وفى عام ١٢٨٩م أرسل أرغون سفارة يرأسها بوسكاريللو جيزولفو الجنوى باقتراحات محددة لتنفيذ هذا التعاون ووضع تواريخ وأماكن محددة لالتقاء الجيشين : المغولى والأوربى فى بلاد الشام . وكان هذا الخطاب موضوع هذا الملحق » ،أحد رسالتين سلمهما بوسكار يللو إلى فيليب الرابع (الجميل) ملك فرنسا .

وكان الباحث الفرنسى راموزا M. Abel - Remusat هو أول من قدم دراسة شاملة عن العلاقات بين المغول والقوى الأوربية عامة ، وبين مغول فارس وملوك فرنسا خاصة ونشرها فى عامى ١٨٢٢ ، ١٨٢٤، وفى دراسته ، نشر راموزا عشر وثائق (لخطابات متبادلة بين المغول والأوربيين) باللغة اللاتينية والمغولية وقام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية ، وهذا الخطاب جاء ضمن هذه الوثائق التى نشرها راموزا وترجمها [١].

وقد نشر ميادوس Meadows عام ١٨٥٠ - نقلا عن راموزا وغيره - ترجمة انجليزية لهذا الخطاب مقرونة بالأصل المغولى له [٢]. ومنذ ذلك الحين حتى اليوم ترجم هذا الخطاب إلى العديد من اللغات الأوربية. ولكنه لم يترجم بعد إلى اللغة العربية لسبب جوهرى وهو أن هذا الموضوع لم يبحث من قبل بحثا أكاديميا قائما على الوثائق الشرقية والغربية على حد سواء .

نص الخطاب :

بقدرة السماء الأبدية ، وفى ظل (وحماية) الملك

1- Cf . R`emusat , Abel , " M`emoires sur les Relations Poletique des Princes Chre`tiens et particulierement les Rois des France avec les Empereus Mongols " , Memoires de L`Academie Royale des Inscriptions et Belles - Lettres , IV - V , 1821 - 2 .

2- Meadows " Translations and Notice of Two Mongolian Letters to Philip the Fair , King of France " , Chinese Repository , 19 , 1850 , pp. 526-535 .

(فيما يلي) خطاب ملكنا أرغون :

إلى ملك فرنسا

(فيما يتعلق) باقتراحك الذى أرسلته الينا فى السنة الماضية بواسطة الوفد (السفارة) الذى كان على رأسه بار صاوما ساهورا (مضمونه) : «أنه إذا غزت جيوش الايلخانات (المغولى) مصر فاننا كذلك سنقوم من هنا بغزوها ونشترك فى العمليات (الحربية) مباغتين العدو من الخلف»، فاننا وافقنا (على اقتراحكم) ولذلك قررنا- بمشيئة السماء - أننا سنركب خيولنا فى آخر شهر من شتاء عام النمر [١]. (يناير ١٢٩٠م) وسننزل أمام دمشق فى منتصف أول شهر من الربيع (١٥ فبراير ١٢٩١) .

ونعلمك الآن بأننا بمقتضى صدق كلامنا سنبعث جيوشنا فى الموعد والمكان المتفق عليه . فاذا أخضعنا - بقدرة السماء - تلك الشعوب ، فإننا سنعطيكم القدس . أما إذا أهملتم الموعد وجعلتم جيوشنا تخوض عملية (حربية) فاشلة . وقد يكون هذا ممكنا (وسوف تندمون) ، وحتى إذا ندمتم عليه فسوف لاينفعكم الندم . وإذا أرسلتم رسولا من قبلكم إلينا بمهمة ما وكلفتموه بحمل أشياء نفيسة من أرض فرنسا مثل الصقور والجواهر المختلفة الألوان ، فلتشهد قدرة السماء وجلالة الملك على أننا سنكافئكم على ذلك بطريقة ما .

هذا ما أردنا أن نقوله . ومرسل هذا الخطاب (بيد) حامل الكنانة موسكريل (أى بوسكاريللو) .

كتب هذا الخطاب فى اليوم السادس من الثلث الأخير للشهر الأول من صيف عام الثور (١٢٨٩) خلال إقامتنا فى كوندلن .

١- اخترع المغول تقويما يناسب حياتهم الرعوية ويكون أقرب لعقولهم باعتبار أنهم كانوا - أصلا - قبائل بدوية تعيش على الرعى وصيد الحيوانات ، وكانوا لايعرفون القراءة والكتابة . فرتبوا السنوات فى دورة قوامها أثنى عشر عاما ، وكل عام يسمى باسم حيوان مألوف لديهم وهى بالترتيب : القط ، الثور ، النمر ، الأرنب ، التنين ، الحية ، الحصان ، الخروف ، القرد ، الديك ، الكلب ، الخنزير . وعلى سبيل المثال كان عام النمر موافقا للأعوام الآتية :

١٢٥٤ ، ١٢٦٦ ، ١٢٧٨ ، ١٢٩٠ ، ١٣٠٢ ، ١٣١٤ وهكذا كل اثنى عشر عاما. وترتب على اعتناق غازان خان للإسلام أن بدأ مغول فارس يستخدمون التقويم الهجرى الإسلامى فى مراسلاتهم :

Cf . Boyle , J. A : The Successors of Genghis Khan . Columbia University Press , 1971 , p. 346 .

الملحق الرابع

خطاب أولجايتوخان إلى فيليب الرابع ملك فرنسا عام ١٣٠٥م

مقدمة :

أرسل أولجايتوخان (١٣٠٤-١٣١٦م) سفارة إلى الغرب الأوروبى فى عام ١٣٠٥ لمحاولة إحياء الاتصالات بين مغول فارس والغرب الكاثوليكى . واهتم المؤرخون المحدثون بخطاب اولجايتو إلى فيليب الرابع نفس اهتمامهم بخطاب ارغون خان - الذى سبق ترجمته فى الملحق الثالث - لنفس الملك الفرنسى . ومرجع ذلك أنه آخر خطاب يُعثر عليه فى الاتصالات بين مغول فارس والغرب الأوروبى ، ولأن هذا الخطاب وإن لم يشر لطلب التحالف مع الأوروبيين صراحة - ربما لأن اولجايتو كان فى حالة صلح مع المماليك - إلا أن السفير المغولى وهو توماس اوجى السينى Tomas Ugi of Siena قد سلم الملك الفرنسى - وغيره من الحكام مذكرة أو خطاب عن عروض خيالية من اولجايتو لملوك الغرب بتموين وإمداد جيوشهم فى حالة الحضور إلى الشرق ضد المماليك[١].

وقد ترجم هذا الخطاب منذ راموزا إلى عدة لغات أوروبية[٢] ، وقمت بترجمته إلى اللغة العربية لأهميته فى دراسة تطور العلاقات السياسية بين المغول والأوروبيين .

نص الخطاب :

هذا خطاب سلطاننا أولجايتو :

إلى ملك فرنسا

منذ القديم كان لكم يا سلاطين شعب فرنسا جميعا علاقات ودية مع آباء أجدادنا الكرام ، ومع أجدادنا الكرام ، ومع أبينا الكريم ، ومع أخينا الأكبر الكريم . وبالرغم من البعد بيننا كنا نجد (من خلال رسلكم إلينا) تقاربًا فى الرأى ، وذلك فى إبلاغكم إيانا جميع أخباركم وفى تبادل البعثات وإرسال هدايا السلم .

فلماذا أهملتم الآن كل ذلك ؟

١- انظر ما سبق دراسته ص١٣٧-١٤١ .

٢- عن المراجع المعاصرة التى أوردت ترجمة هذا الخطاب انظر ص١٦٢ حاشية رقم١٥٧ .

وخصوصا الآن ، وقد اعتلينا العرش العالى - بفضل قدرة السماء - وأبدينا الرغبة فى الحفاظ بدقة على ما رسمه وما نظمه جدنا الكريم وأبونا الكريم وأخونا الأكبر الكريم ، وعلى ألانتخلى عن الاتفاق (الذى وقعوه) مع رؤساء الأراضى القدامى الموزعة حسب النظام الجديد بل إننا نعتبره واجبًا مقدسًا . ونريد الاتصالات أكثف مما كانت عليه فى الماضى وذلك من خلال تبادل الرسل (المفوضين) .

لقد أثرت افتراءات جلساء السوء على حبنا نحن الإخوان ولكن السماء وهبتنا الرأى(×) بأننا نحن وتيمور خان(١) وطقطاخان(٢) وجابار وتوغا(٣) ، والأخيرين أحفاد جنكيز خان يجب علينا أن نضع حداً للإهانات المتبادلة التى شاعت بيننا منذ خمسة وأربعين عاما وحتى الآن وبفضل السماء(×) فقد تصالحنا نحن الإخوان وجعلنا مراكز الحدود بين ولاياتنا ترتبط بعضها ببعض .

ونحن الآن نميل إلى الاعتقاد بأنكم كذلك تريدون استمرار العلاقات الودية (معنا) كما كانت مع أجدادنا الكرام وآبائنا الكرام وأخينا الأكبر الكريم . (ولهذا) نبعث لكم بالرسولين مالغ وتومان .

لقد وصل إلى علمنا أنكم يا سلاطين الفرنسين جميعًا متفاهمون مع بعضكم . وليس هناك فى الحقيقة أفضل من التفاهم . وإذا وجد بينكم أو بيننا أناس لايريدون التفاهم فسنقف بقدرة السماء - صفا واحداً فى وجوههم والسماء شاهدة على ما نقول (×).

كتب خطابنا هذا فى عام ٧٠٤ هجرية (١٣٠٥م) فى عام الحية فى اليوم الثامن من الثلث الأخير لأول شهور الصيف خلال إقامتنا فى أليمان .

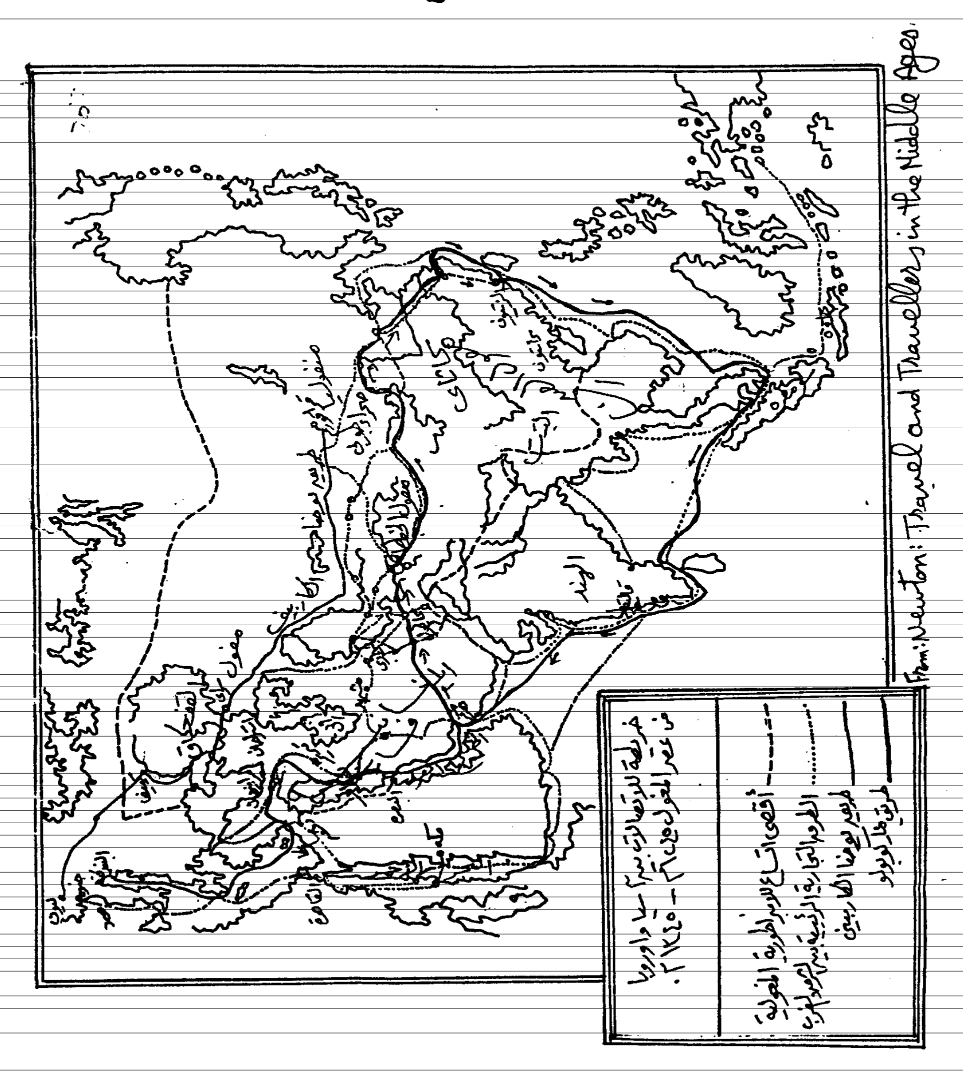
١- خاقان الصين (١٢٩٤-١٣٠٧م)

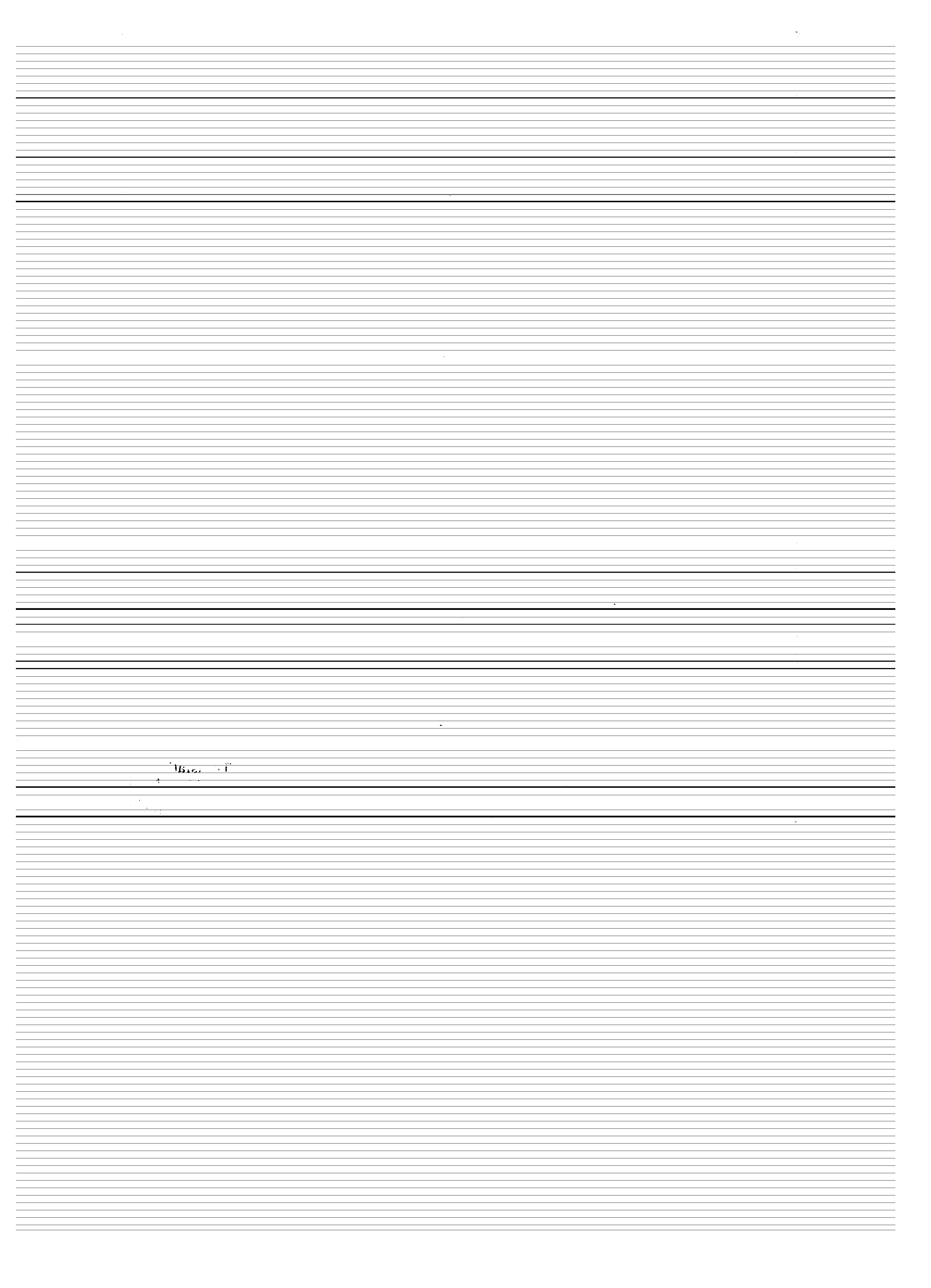
٢- Toqta Khan حاكم القبيلة الذهبية (١٢٩١-١٣١٢)

٣- توغا خان التركستان (١٢٨٢-١٣٠٧م)

×- ربما قصد اولجايتو من كتابة هذه التعبيرات البوذية فى خطابه إخفاء حقيقة إعتناقه الإسلام عن ملوك الغرب الأوربى حتى لايبأسوا من التعاون معه ضد المماليك المسلمين .

الخريطة





قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر الأولية :

أ- المصادر العربية والمعربة

ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) على بن أحمد بن أبى الكرم .

الكامل فى التاريخ . تسعة أجزاء ، القاهرة ، ١٣٥٨هـ .

ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧) أبو عبد الله محمد بن عبدالله :

تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جزءان . القاهرة ، ١٩٣٤-١٩٣٧م.

ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ١٢٩٢/م) القاضى محيى الدين أبو الفضل .

———— الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر . حققه عبد العزيز الخويطر الرياض ، ١٩٧٦م .

———— شريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور. حققه مراد كامل القاهرة، ١٩٦١

ابن العبرى (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملطى

تاريخ مختصر الدول . بيروت ، ١٨٩٠م .

ابن الفوطى (ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٢م) كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق . البغدادى

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة . طبعة بغداد ، ١٣٥١هـ.

جوانفيل / جان دى:

القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام . ترجمة حسن حبشى . القاهرة ، ١٩٦٨ م .

ماركو بولو :

رحلات ماركو بولو : ترجمها للإنجليزية وليم مارسدن ونقلها إلى اللغة العربية عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

المقريزى (٨٤٥هـ / ١٢٤٢م) تقى الدين أحمد بن على .

السلوك لمعرفة دول الملوك . الجزءان الأول والثانى (٦ أقسام) تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، ٣٤ - ١٩٥٨ . الجزء الثالث والرابع ٦٠أقسام) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرج ، ٧٠ - ١٩٧٢ .

الهمذانى (ت٧١٩هـ١٣١٨/م) رشيد الدين فضل الله:

جامع التواريخ (تاريخ المغول) . المجلدان الأول والثانى نقلهما إلى اللغة العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى الهنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد، وراجعه يحيى الخشاب. القاهرة، ١٩٦٠

ب- المصادر المكتوبة باللغات الأوربية والمترجمة إليها

Bretschneider , E. (ed. & trans.)

Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources . Vol . 1 . London , 1910.

Chabot , J . B .(ed.)

" Notes sur les relations du roi Argun avec L'Occident , " Revue de L'Orient Latin , II , 1894 , pp. 566-644 .

The Chronicle of Bury St Edmunds , 1212- 1301 . Trans . from Latin by Antonia Gransden. London , 1964 .

The Chronicle of Novgorod 1016 - 1471 .

Trans . from Russian by Robert Michell and N . Farbes . Camden Third Series , vol . 25 . London , 1914 .

Clavijo , Ruy G .

Narrative of his Embassy to the Court of Timour at Samercand A.D. 1403 - 6. Trans , by C.R. Markham . London . n.d.

Dawson , Christopher (ed.)

The Mongol Mission : Narratives and Letters of the Franciscan Missionaries in Mongolia and China in the Thirteenth and Fourteenth Centuries . Translated from Latin by a Nun of Stanbrook Abbey . New York , 1955 .

Grigor of Akanc

History of the Nation of the Archers (The Mongols) .

The Armenian text , ed . with Eng . trans . and notes by Robert Blak , and Richard Frye . Cambridge , 1954 .

Haenisch , Erich ,

"Zu den Briefen der Mongolis chen Il - Khane Argun und Oljeitu an den Philipp den Schonen von Frankreich (1289 u . 1305 " , Oriens , II , 1949 , pp . 216 - 235 .

Hebraus , G.A.

The Chronography of Gregory Abu'L - Faraj .

The Syriac text , ed . with English trans . by Wallis Budge .

Amsterdam , 1932 , Repr . London , 1979 .

Iwamura , Shinabu (ed. & trans.) ,

" Mongol invasion of Poland in the Thirteenth Century" ,

Memoirs of the Research Department of Toyo Bunko ,Tokyo, No . 10 , 1938 , pp.103-157 .

John of Marignolli ,

"Account of his Mission" . Ed. & trans . by Henry Yule :

Cathey and the Way Thither. vol , III . London , 1913 .

John of Monte Corvino ,

"The Letters of John of Monte Corvino" . Ed . and translated to English in C . Dawson : The Mongol Mission , pp . 224-232 ; A.C. Moule : Christians in China Before the Year 1550 . London , 1930 , pp. 171-183,

H. Yule : Cathay and the Way Thither. Vol . III , pp. 45-58.

John of Plano Carpini ,

History of the Mongols . In C. Dawson (ed.) :

The Mongol Mission , pp . 3-72 .

Joseph de Cancy ,

"A Crusader Letter from the Holy Land , May 1282 " .

Palestine Pilgrims ` Text Society . vol . V, part 3 , pp . 1-16 .

Medows ,

Translations and Notice of Two Mongolian Letters to Philip the Fair , King of France " , Chinese Repository , 19 , 1850 , pp . 523-535 .

Meyvaert , Paul ,

"An Unknown Letter of Hulagu , Il - Khan of Persia to King Louis IX of France " Viator , XI , 1980 , pp . 242-249 .

Mostaert , A . & F.W. Clcaves ,

" Les Lettres de 1289 et 1305 " dans Harvard Yenching Institute Scripta Mongolica . Series I , Cambride , Mass ., 1962 .

__________"Trois documents Mongols des Archives Secretes Vaticanes " Harvard Journal of Asiatic Studies . XV , 1953 , pp. 419-506 .

Odoric of Pordenone ,

"Itinerarium" . Ed , and trans , by H. Yule :

Cf . Cathay and the Way Thither . vol . II . Rev . ed . by . H . Cordier . London , 1913 , pp. XV - 367 .

Otto , Bishop of Freising ,

The Two Cities : A Chronicle of Universal History to the Year 1146 A. D . Trans . from Latin by Charles Chreistopher Mierow . Columbia Univ . Press, 1928 .

Paris , Matthew ,

English History from the Year 1235 to 1273 .

Trans . from Latin by J.A. Giles , 3 vols . London , 1852 .

Pegolotti , Francesco Balducci

"Pegolotti's Notices of the Land Routes to Cathay c. 1330-1340 " in H. Yule : Cathay and the Way Thither . vol . III . London , 1913 .

Sawma , Rabbban

The Monks of Kublai Khan ... or the History of the Life and Traveles of Rabban Sawma . Eng . trans . from Syriac . by . Wallis Budge . London , 1928 .

Schroeder , J . (ed. & trans.)

Disciplinary Decrees of the General Councils :

Tex, Translation and , Commentary . London , 1937 .

Szczesniak , Boleslaw ,

"Hagiographical Documentation of the Mongol Invasions of Poland in the Thirteenth Century" , Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko , Tokyo . Vol . 17 , 1958, pp . 167 - 195 .

Diplomotasium Veneto - Levantinum . 2 vols . Venice , 1880 , I , Venice , 1880 , 1889 .

Tisserant , E .

"Une Lettre de L`Ilkhan de Perse Abgha adressée en 1268 au Pape Clement IV" , Le Museon , 59 , 1946 , pp. 547 - 556 .

Voegelin , Eric ,

"The Mongol Orders of Submission to European Powers , 1245-1255" , Byzantion , XV , 1940-41 , pp ., pp . 378-413 .

William of Rubruck

The Journey of William of Rubruck . In C. Dowson (ed.) The Mongol Mission , pp . 89-224 .

Yule , Henry (ed.)

Cathay and the Way Thither . 3 vols . London , 1913 .

ثانيا : المراجع الثانوية

أ- المراجع العربية والمعربة

أحمد مختار العبادى (الدكتور)

قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام . بيروت ، ١٩٦٩م

أرنولد ، توماس :

الدعوة إلى الإسلام : بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية . ترجمة إلى العربية حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوى ، القاهرة ، د.ت .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

لويس التاسع فى الشرق الأوسط ١٢٥٠-١٢٥٤م . القاهرة ، ١٩٥٦ .

حافظ أحمد حمدى (الدكتور) :

الدولة الخوارزمية والمغول : غزو جنكيز خان للعالم الإسلامى وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية . القاهرة ، ١٩٤٩ .

حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :

«انتشار الإسلام بين المغول والتتار» . صحيفة الجامعة المصرية ، ١٩٣٣ .

سيزار ، ياروسلاف ، جوزيف فوزار :

«نقاط التلاقى والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق(القرن ١٠-١٥م)».

«ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف : انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى. الاسكندرية ١٩٨٣ .

صبحى لبيب (الدكتور) :

«سياسة مصر التجارية فى عصرى الأيوبيين والمماليك» . المجلة التاريخية المصرية ، مجلدى ٢٨ ، ٢٩ ، ١٩٨١ - ١٩٨٢ .

عبد السلام فهمى (الدكتور) :

تاريخ الدولة المغولية فى إيران . القاهرة ، ١٩٨٠ .

عفاف سيد صبره (الدكتورة) :

العلاقات بين الشرق والغرب : علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م . القاهرة ، ١٩٨٣ م.

فايد حماد عاشور (الدكتور) :

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى . القاهرة،د.ت .

فايز نجيب اسكندر (الدكتور) :

مملكة أرمينيا الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ١٢٥٠-١٣٧٥م / ٦٤٨-٧٧٦هـ . رسالة دكتوراة غير مطبوعة مقدمة لكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٠م .

فؤاد عبد المعطى الصياد (الدكتور) :

السلطان محمود غازان حاكم المغول واعتناقه الاسلام ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

لويس شيخو اليسوعى :

«النصرانية بين قدماء الأتراك والمغول . مجلة الشرق ، السنة السادسة عشرة ١٩١٣ ، ص٧٥٤- ٧٧٢ .

محمد صالح داوود القزاز (الدكتور) :

الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية . بغداد ، ١٩٧٠ .

مصطفى طه بدر (الدكتور) :

مغول إيران بين المسيحية والإسلام . القاهرة . ١٩٤٢ .

ب- المراجع الأجنبية

Andersen , Andrew R . :

Alexander`s Gate , Gog and Magog and the Inclosed Nations . Cambridge , 1932.

Ashtor , Eliyahu :

Levant Trade in the Later Middle Ages . Princeton , 1983 .

_____ " Observations on Venetion Trade in the Levant in the X IV th Century " , The Journal of European Economic History , vol . 5 . 1976 , pp . 533 - 586 .

Atiya , Aziz Suryal :

Egypt and Aragon : Embassies and Dipomatic Correspondence Between 1300 and 1330 , A.D . Leipzig , 1938 .

_____ "The Crusade in the Fourteanth Century " , in Setton (ed) A History of the Crusades , III , pp . 3-26 .

_____ The Crusade in the Later Middle Ages . London , 1938 .

Baldwin , W . Marshall :

" Missions to the East in the Thirteenth and Fourteenth Centuries " in K . Setton (ed.) A History of the Crusades. Vol. 5 : The Impact of the Crusades on the Near East . Wiscinson , 1985 .

Barthold , W .

Turkestan down to the Mongol Invasion . 3 rd Eng . ed . with trans . by Mrs . T . Minorsky . London , 1968 .

Bausani , A .

"Religion Under the Mongols . " Cambridge History of Iran , vol . 5 . Cambridge , 1968.

Beazley , Raymond :

The Dawn of Modern Geography . 3 vols . New York , 1949 .

Beckingham , C.F.

"The Achievements of " Prester John " An Inaugural Lecture at the School of Oriental and African Studies , 1966 . London , pp. 3-24 .

______ " The Quest for Prester Jhon " , Boyle Memorial Lecture , John Rylands University Library of Manchesters , 1979 . In Bulletin of the John Rylands University Library 62 , Manchester , 1980 , pp. 291-310 .

Borghezio , G .

" Un episodio delle relazioni Tra la Santa ei Mongoli (1274) " Rome , XIV , 1936 , pp. 361 - 372 .

Boswell A . Bruce :

"Territorial Division and the Mongol Invasions , 1202-1300 " Cambridge History of Poland , Vol . I , Cambridge , 1950 .

Boyle , John Andrew :

"The Il - Khans of Persia and the Christian West" History Today , XXXIII , 8 , 1973 , pp . 551-562 .

_____ The Successors of Genghis Khan . Columbia University Press , 1971 .

_____ " The Journey of Het`um , King of Little Armenia , to the Court of the Great Khan Mongke " , Central Asiatic Journal , IX , 1964 , pp . 175-189 .

Brown , Matthias :

"Missionery Problems in the Thirteenth Century : A Study in Missionary Preparation" , Catholic Historical Review , vol . 25 , 1939-40 , pp. 145-159 .

Browne , Edward :

A Literary History of Persia . 3 Vols . Cambridge , 1933 .

Browne, Laurence E. :

The Eclipse of Christianity in Asia Cambridge, 1933 .

Chambers , James :

The Devil's Horsemen : The Mongol Invasion of Europe . Londone , 1979 .

Cheshire, Harolde T :

" The Great Tartar Invasion of Europe , " in the Slavonic Review , vol . 5 , 1926 , pp . 89-105 .

Connell , Charles William :

Western Views of the Tartars , 1240 - 1340 . Unpublished Ph . D . Rutgers State Unviersity , 1964 . Xeroxed by University Microfilms International Ann Arbor , Michigan , U.S.A.

Dienes , M . :

"Eastern Missions of the Hungarian Dominicans in the First half of the-Thirteenth Century ,"Isis , vol . 27 , 1937 , pp . 225-241 .

Dmytryshyn , Basil (ed. &Trans.) :

Medieval Russia : A Source Book , 100-1700 . New York , 1967 .

Ehrenkreutz , Andrew :

" Strategic Implications of the Slave Trade Between Genoa and Mamluk Egypt in the Second Half of the Thirteenth Century " , in A.L. Udovitch(ed.):

The Islamic Middle East , 700-1900 ; Studies in Economic and Social History . Princeton , 1981 , pp . 335-346 .

Grousset , Rene :

Histore des Croisodes et du Royame Franc de Jerusalem . 3 vols . Paris , 1936 .

Guzman , Gregory C .

Simon of Saint Ouentin and the Dominican Missions to the Mongols , 1245-

1248 . Unpublished Ph . D . diss . Cincinati Univ . , 1968 .

_________ " Simon of Saint Ouentin and the Dominican Missions to the Mongol Baiju " . Speculum , XLVI , 1971 , pp . 232-251 .

Hart , Henry H . :

Marco Polo : A Venetian Adventurer . Univ . of Oklahoma Press , 1967.

Heyd , Wilhelm :

Gerchichte des Levantehandels in Mittelattar . 2 . B and . Stuttgart , 1879 .

Housley , Norman :

The Avignon Papacy and the Crusades 1305 - 1375 . OXford , 1986 .

Houston , G . W . :

" An Overview of Nestorians in Inner Asia " Central A Siatic Journal , vol . XXIV , 1980 , pp 60-68 .

Howorth , Henry :

History of the Mongols . vol . III , London , 1888 .

Hsiang , Paul Stanislaus :

The Catholic Missions in China During the Middle Ages (1294-1368) Ph . D. Diss . Washangton D . C . , 1949 .

Jackson . Peter :

" The Crisis in the Holy Land in 1260 " , in English Historical Review , 1980 , pp . 481-512 .

_________ " The Dissolution of the Mongol Empire " Central Asiatic Journal , XXII , vols . 3-4, 1978 , pp . 187-243 .

Kedar , Benjamin Z . :

Merchants in Crisis : Genoese and Venetian Men ofAFFairs and the Four-teenth Century Depression . Yale Univarsity Press , 1976 .

Labib , Sobhi :

" Medieval Islamic Maritime Policy in the Indian Ocean Area " , Recueils de

la Sociéte Jean Bodin Pour L`Histoire Comparative des Institions , XXXII , Premiere Partie . Bruxelles , 1974 , pp . 225-241 .

Lach , Donald :

Asia in the Making of Europe . Vol . I , The Century of Discovery . Chicago , 1965 .

Lane , Frederic C .:

Venice : A Maritime Republic . John Hopkins University Press , Baltimore & London , 1973 .

__________ " The Venetian Galleys to Alexandria , 1344", Wirtschaftskrafte Und Wirtschaftswege . I . Band , Klett - Catta , 1978 , pp . 431 - 440 .

Latrie , M.:

" Privilige Commercial accordé en 1320 a la Republique de Venice Par un Roi de Perse " , in Bibliotheque de L`Ecole des Chartes . Paris , XXX , 1870, pp . 72-102 .

Letts , Malcolm :

"Prester John : Sources and Illustrations " in Notes and Queries , vols 188 , 189 , 1945 .

Lockhart , L .:

"Persia as Seen by the West " , in A . J. Arberry (ed.) The Legacy of Persia . Oxford , 1953 . pp . 318-350 .

__________ "The Relations Between Edward I and Edward II of England and the Mongol Il - Khans of Persia " , Iran Journal of Persian Studies , VII , 1968 , pp. 21-32 .

Lopez . R. S . :

" China Silk in Europe in the Yuan Period " , Journal of the Amercan Oriental Society , vol . 72 , n . 2 April - June , 1952 , pp . 72-76 .

__________ " European Merchants in the Medieval Indies : The Evidenc of Commercial Documents " The Journal of Economic History , vol III , Nov . 1943, pp .

164-184.

__________ " The Trade of Medieval Europe : The South " , Cambridge Economic History of Europe , vol . II , Cambridge , 1952 , pp . 257 - 355 .

Martin , M.E.:

"The Venetian - Seljuk Treaty of 1220" , English Historcal Review , vol . XCV , 1980 , pp . 321-330 .

Muldoon , James :

"Missionaries and the Marriages of Infidels : The Case of the Mongol Mission " , Jurist , vol . 35 , 1975 , pp . 125-141 .

Moule , A.C.

Christians in China Before the Year 1550 . London , 1930 .

__________ , " The Failure of Early Christian Missian to China " East and the West , 1914 , pp . 398 - 410 .

__________ , " The Primitive Failure of Christianity in China " , in the International Review of Missions , vol . 20 , 1931 , pp . 455-60 .

Nersessian , Sirarpie der

"The Kingdom of Cilician Armenia " , in K . Setton (ed.) A History of the Crusades . Vol . II : The Later Crusades , 1189-1311 . Univ . of Wisconsin Press , 1965 , pp . 630 - 661 .

Nowell , C.E .

"The Old Man of the Mountain " . Speculum , vol . XXII , 1947 , pp. 497 - 519 .

Pelliot , Paul ,

"Les Mongols et la Papaute " , Revue de L'Orient Latin , 3rd Series " 23 (1922 :3) , 3-30 ; 24 (1924) , 225-335; (1931) , 3-84 .

Petrushvsky , I.P. :

"The Socio - Economic Condition of Iran Under the IL - Khans " Cambridge

History of Iran .5 . Cambridge .

Phaire , Barbara Rose :

Papal Motivations for an Asian Apostolate , 1245-1254 : An Analysis. Unpublished Ph . D . New York Univ . 1972 .

Powicke , F.M . :

King Henry III and the Lord Edward . 2 Vols . Oxford , 1947 .

Rachewiltz , Igorde :

Papal Envoys to the Creat Khans . London , 1970 .

Richard , Jean :

"European Voyages in the Indian Ocean and Caspian Sea (12th- 15 th Centuries) , Iran Journal of Persian Studies) vol . VI ، pp . 47-54 .

__________ , " The Mongols and the Franks " , Journal of Asian History , III , 1969 , pp . 49 - 57 .

__________ , Les Relations entre L`Orient et L`Occident au Moyen Age . London , 1977 .

Ross . E . Denison :

"Prester John and the Empire of Ethiopia " , in A.P. Newton (ed.) Travel and Travellers of the Middle Ages London , 1930 .

Runciman Steven :

" The Crusader States , 1243-1291" , in K. Setton (ed.) A History of the Crusades , vol . II , pp . 557-599 .

Ryan , J . D . :

The International of the Oriental Mission and Crusade A ctivities of the Papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 . ph D. Diss . New York University , 1972 .

Saunders , J . J . :

The History of the Mongol Conquests . London , 1971 .

_________ " John of Plan Carpini " , History Today , vol . XXII , 1972 , pp 547 - 55 .

__________ Muslims and Mongols : Essays in Medieval Asia . Ed . C. W . Rice . Canterbury , 1977 .

Schein , Sylvia :

" Gesta Dei Per Mongols 1300 , the genesis of a non - event " , The English Historical Journal , vol ., 14 . Oct . 1979 , pp . 805-819 .

__________ , " Philip IV and the Crusade : A Reconsideration " , in Edbury , Peter W . (ed.) Crusade and Settlement . Univ . College Cardiff Press , 1985 .

Setton K . :

The Papacy and Levant . Vol I . London , 1976 .

Sinor , Denis :

History of Hungary . London , n . d .

__________ " The Mongols and Western Europe " in K . Setton (ed.) A History of the Crusads . vol . III . Wisconsin University Press , 1985 .

Slersarev , Vsenolod :

Prester John : The Letter and the Legend . Minnesota , 1959 .

Smith , Riley J . :

The Knights of St . John in Jerusalem and Cyprus (1050-11310) London , 1967 .

__________ What were the Crusade ? London , 1977 .

Southern , R.W . :

Western Views of Islam in the Middle Ages . Harvard University Press , 1962 .

Spuler , Barlold :

History of the Mongols Based on Eastern and Western Accounts of the Therteemth and Fourteenth Centuries . London , 1972 .

__________ Die Mongolen in Iran . Leipzig , 1939 .

Stevenson , W . B . :

The Crusaders in the East . Beirut , 1968 .

Strayer , Joseph R :

"The Crusades of Louis IX " , K . Setton (ed.) A History of the Crusades . Vol II . The Later Crusades 1189-1311 , pp . 487-522 .

Szczesniak , Boleslaw :

"The Mission of Gioveinni de Piano Carpini and Benedict the Pole of Vratislavia to Halicz" , in Journal of Ecclesiastical History . Vol . VII , no . 1 , April 1956 , pp . 12-20 .

Throop , Palmer A . :

A Criticism of the Crusade : A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda 2 nd ed. Philadelphia , 1975 .

Turner, H . Hudson :

" Unpublished Notices of the Times of Edward I , Especially of his Relations with the Monghul Sovereigns of Persia , " in the Archaeological Journal . London , 1851 . vol . VIII , pp . 45-5 .

Ullendorff , Edward , C.F. Beckingham :

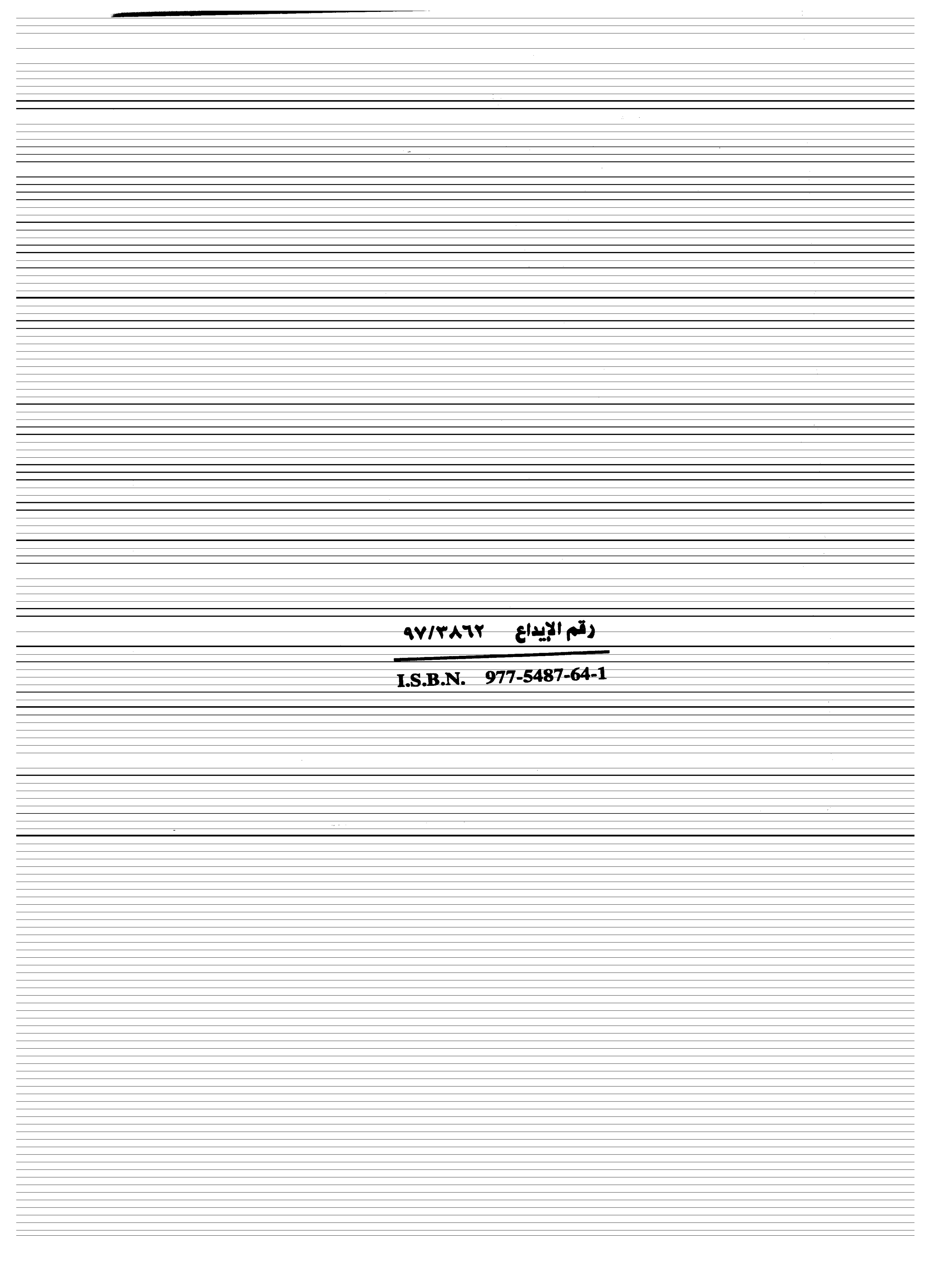
The Hebrew Letters of Prester John . Oxford Univiersity Press , 1982 .

Vernadsky , G . :

The Mongols and Russia . New Haven , 1953 .

Vine , Aubrey :

The Nestorian Churches . London , 1937 .



رقم الإيداع ٩٧/٣٨٦٢

I.S.B.N. 977-5487-64-1